الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الرابع والعشرون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن التاسع (١)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥م — ١٤١٦هـ

الجزء الرابع و العشرون

المصادر العربية

مؤرخو القرن التاسع

من كتاب

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان

تصنيف

بدر الدين محمود العيني

[ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١ م]

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

في زيارتي العلمية الأولى لمكتبات استانبول تعرفت الى عدد كبير جداً من مخطوطات تاريخ العرب والاسلام، كان من بينها مخطوطة « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» لبدر الدين العيني ، ورأيت مخطوطة هذا الكتاب، وهي فيما اعتقد بخط المؤلف ، في مكتبة بيازيد رقم ٢٣١٧.

ونقلت من هذا المصدر كثيرا لاسيما مما جاء فيه عن القرنين الخامس والسادس للهجرة / الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، لأن المؤلف أكثر النقل عن عبد الملك الهمذاني صاحب عنوان السير.

ولم أصور وقتها شيئا من هذا الكتاب ، وحاولت فيما بعد فأخفقت وشرع منذ عدة سنوات في نشر اجزاء من هذا الكتاب، في مصر وهنا كتبت الى السفير السوري بالقاهرة ساعيا بوساطته للحصول على مصورة الجزء المتعلق بالحروب الصليبية ، ومن جديد حظيت بالاخفاق لطول الزمن وارتفاع النفقات الهائل.

وجاء الفرج عند ما توجهت السيدة مريم الدرع، وهي طالبة في قسم التاريخ تحضر للدكتوراه تحت اشرافي ، وتعمل مديرة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق. توجهت الى أستانبول لحضور دورة تدريبية فيها، وقد قامت مشكورة - بعد جهود مضنية - بتصوير ما يتعلق

بالحروب الصليبية من كتاب العيني اعتمادا على مخطوطة في مكتبة السليمانية .

وقمت على الفور بنسخ هذه المخطوطة وتحقيقها ، لكن بعد ما أسقطت منها كل الأخبار والتراجم التي لاعلاقة لها بموضوع الحروب الصليبية ، والبدر العيني هو: محمود بن أحمد بن موسى، ولد سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م، ونشأ في عينتاب ـدا خل تركيا الآن ـ وكان أبوه قاضيها ، ورحل البدر الى حلب وتفقه فيها ، ثم زار بعد ذلك القدس وتحول الى القاهرة سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م حيث نزل في المدرسة الظاهرية ، وعمل خادما بها، وبعدها تقلبت به الاحوال حتى ولي حسبة القاهرة سنة ٨٠١ هـ/ ١٣٩٩م.وبعد ما عزل من حسبة القاهرة تولى عدة وظائف تعليمية ودينية ، واشتهر اسمه وبات من أعيان فقهاء الأحناف، وأكب على التصنيف ذلك أنه برع في علوم عدة مثل الفقه واللغة والنحو والصرف والحديث والتاريخ، لقد صنف بالتاريخ عدة كتب تراجم صغيرة ومتوسطة مثل:

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر
- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي
- سيرة الأشرف برسباي
- شرح سيرة مغلطاي

وكتب كتبا كبيرة في التاريخ تصدرها كتابه « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» وهو كتاب عملاق ، وقد اختصره بكتاب اسمه « تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر» ثم اختصر هذا المختصر.ولاشك أن عقد الجمان هو أهم مصنفات العيني التاريخية ، أودع فيه النصوص

الكاملة لعدد كبير من المصادر التاريخية المحجوبة عنا، فضلا عن أنه عاش احداث العصر المملوكي .

وكتاب عقد الجمان تاريخ حولي عام للاسلام،وكتاب تراجم بالوقت نفسه،وكان خليفة بن خياط [ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م] أول من اعتاد على اثبات أسماء الوفيات في نهاية كل حولية، وطور ابن الجوزي هذا المنهج وأرسى قواعده في كتابه المنتظم ، ومن بعد ابن الجوزي قلده سبطه في مرآة الزمان، وإثر هذا عدد كبير من المؤرخين.

لقد نشر حتى الان خمسة أجزاء من كتاب عقد الجمان، ترتبط موادها جميعا بالعصر المملوكي ، وهي المرة الاولى التي يتم فيها نشر جزء الحروب الصليبية من هذا الكتاب،وسأعمل في المستقبل ــ بعونه تعالى ـ على نشر مقدمات عصر الحروب الصليبية من هذا الكتاب مع أخبار الأحداث التي وقعت منذ وفاة صلاح الدين حتى تحرير عكا من قبل الاشرف خليل بن قلاوون ، على أنني أرى ان كتاب عقد الجمان على ضخامته جدير بالنشر دفعة واحدة ، وحبذا لو يتم هذا بتعاون سوري مصري ،لأن البدر العيني سوري المولد والمنشأ قاهري الدار والوفاة سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م عن عمر يناهر الثالثة والتسعين .

من الله استمد التوفيق والعون وله جل وعلا الحمد والشكر، والصلاة والسلام على نبي الانسانية محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ١٤ جمادى الأولى ١٤١٦هـ

٨/ ١٠/ ١٩٩٥م

سهيل زكار

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والتسعين بعد الأربعمائة

استهلت هـذه السنة: المستظهـر بأمـر الله، وملـوك البلاد والأطـراف على حالهم.

ذكر ابتداء ظهور الفرنج إلى بلاد الاسلام:

والكلام فيه أنواع:

الأول: في ابتداء خروجهم:

كان خروجهم أولا بـالمغرب، فخرجوا إلى بلاد الاسلام واستـولوا عليها وفتحوا مـن المدن طليطلة وغيرها في سنـة ثمان وسبعين وأربعمائة، وملكوا جزيرة صقليـة في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتطرقوا إلى أطـراف افريقية فملكوها.

الثاني في مسيرهم إلى بلاد الشام:

لما كان هذه السنـة ـ اعني سنة احدى وتسعين وأربعمائة ـ خرجوا إلى بلاد الشام، وكـان سبب خروجهم أن ملكهم بردويـل جمع جمعاً كثيراً من الافـرنج لقصـد الشام، سـاروا إلى القسطنطينيـة ليعبروا الخليج فيكـون أسهل عليهـم من البحـر، فلم يمكنهـم صاحبهـا من العبـور حتى شرط عليهـم أنهم ان ملكـوا انطـاكيـة يعيـدونها عليهـم، وظـن صـاحـب القسطنطينيـة أن الأتراك سيظهـرون عليهم لشـدة بـأسهم، لأنهم ملكـوا البلاد، فـأجابـوه إلى ذلك، فمكنهـم من العبـور، فوصلـوا إلى بلاد قليـج

أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق، وهي قونية وغيرها، فقاتلوهم وهزموهم وعبروا إلى بلاد ابن ليفون الأرمني فسلكوها وخرجوا إلى انطاكية.

فلما سمع صاحبها ياغي سيان التركماني حصن البلد، وأخرج النصارى منها، فجاء الفرنج بالعدة والعديد حتى نزلوا عليها وحصروها أشد الحصار، وقاتلوها تسعة أشهر، وقتل من الفريقين جمع كثير، فلما طال مقام الأفرنج عليها، وكان بها شخص مستحفظ بعض الأبراج زراد يعرف بروزبة، فبذلوا له مالاً واقطاعاً، وكان البرج يلي الوادي، وهو مبني على شباك حديد يخرج منه في الشتاء ماء المطر، وأنه مكنهم من قلع ذلك الشباك ودخولهم، فصعد جماعة كثيرة في الليل، فلما أصبحوا أشهروا السلاح وهجموا على المسلمين فقتلوا وقتلوا، واما ياغي سيان فإنه قاتل ثم فتح الباب وهرب ومعه جماعة وتركها لهم، وسار منها كالولهان فنزل على أربعة فراسخ منها، وندم حيث لم يقتل عند أهله وعياله، فوقع مغشياً، فمات في تلك الساعة، وتركه أصحابه بمكانه وتوجهوا.

وفي تاريخ بيبرس: فمن شده مالحق ياغي سيان سقط مغشيا عليه فأراد من معه أن يركبه فلم يكن فيه من المسكة مايثبت على الفرس، فتركوه مرميا، واجتاز انسان أرمني كان يقطع الخشب بياغي سيان محمد ابن ألب أرسلان التركماني فعرفه وهو على آخر رمق، فقطع رأسه وحمله إلى الافرنج بانطاكية.

وكان دخول الافرنج أنطاكية في جمادى الأولى من هذه السنة، ووضعوا السيوف في المسلمين الذين بها ونهبوا أموالهم.

الثالث في مكاتبة الأفرنج إلى المسلمين وتوجه المسلمين إليهم على أنطاكية:

ثم ان الافرنج كاتبوا صاحب حلب ودمشق يقولون: اننا لانقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، مكراً منهم وخديعة، فلما بلغ ذلك كربوغاً صاحب الموصل جمع العساكر وسار إلى مرج دابق، وهو مرج واسع بالقرب من حلب من ناحية الشمال، واجتمعت إليه عساكر الشام وهم: رضوان بن تتش صاحب حلب، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وهو زوج أم الملك رضوان، فإنه كان قد فارق رضوان من حلب، وسار إلى حمص فملكها، وأرسلان صاحب سنجار، وسليمان ابن أرتق صاحب سروج وغيرها، وغيرهم من الأمراء والتركمان، وساروا إلى أنطاكية فحاصروها بالجميع حتى انحصر الأفرنج بها، وعظم خوفهم حتى طلبوا من كربوغاً ان يطلقهم فامتنع، ثم ان كربوغا اساء السيرة مع الامراء وتكبر عليهم، فخبثت نياتهم عليه، وكان في أنطاكية بردويل وصنجيل، وكندهري، والقمص صاحب الرها، وبيمند صاحب أنطاكية.

ولما ضاق عليهم الامر وقلت الاقوات اجتمعوا وخرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين، وكان الامراء الذين مع كربوغاً قالوا له: الصواب ان نحمل عليهم ونقاتلهم اولاً بأول، فقال لهم: بل نتركهم إلى ان يخرجوا جميعا ونحمل عليهم، فلما تكا مل خروج الافرنج ضربوا مصافاً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوغاً اولا من الاهانة والاعراض عنهم، وثانيا بانه لم يسمع من رأيهم، وتمت الهزيمة عليهم لاضربا بالسيف ولاطعنا بالرمح، وقتل الفرنج من المسلمين الوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأموال والاقوات والدواب والمسلحة، فصلحت بها حالهم، وعادت إليهم قوتهم.

وفي تاريخ المؤيد [صاحب حماة] فقتلوا من المسلمين مايزيد على مائة الف انسان، وسبوا السبي الكثير.

وفي تاريخ العظيمي: لما اجتمع كربوغا مع الامراء المذكورين وجمعوا عساكر عظيمة مقدار اربعمائة ألف انسان، ساروا فوجدوا ان انطاكية قد فتحت سلمها اليهم فيروز الارمني، وكان من جملة المتحفظين على الأبراج، وسمع بانكسار المسلمين يوم الثلاثاء السادس عشر من رجب من هذه السنة، وكان قد ملك انطاكية من الافرنج بيمند، وكان قد صنع مناماً، ودفن سنانا في بعض الكنائس، وقال للافرنج: رأيت المسيح في هذه الليلة يقول لي: اخرج فانك تكسر المسلمين، فقلت: مايصدقني الافرنج، فقال: خذ السنان في الموضع الفلاني وركبه في قنطاريتك ولاقهم بها تكسرهم، فبادر الافرنج إلى ذلك الموضع واستخرجوا السنان منه وخرجوا إلى المسلمين وكسروهم.

الرابع في توجه الفرنج الى معرة النعمان وحمص:

ثم لما فرغوا من امر المسلمين في ارض انطاكية توجهوا إلى المعرة فنازلوها وحاصروها، واخذوا عليهم النقوب ووضعوا السلاليم والأبراج الخشب، فصعدوا عليها فملكوها ووضعوا في المسلمين السيف ثلاثة أيام، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا وفتكوا، وأقاموا أربعين يوماً، ثم رحلوا إلى حمص فصالحهم جناح الدولة حسين على مال، ثم ساروا إلى عرقة فحصروها أربعة أشهر، فصالحهم صاحب شيزر ابن منقذ على مال ثم على طريق النواقير إلى عكا، فلم يقدروا عليها.

وفي تاريخ ابن كثير: قتل الافرنج في معرة النعمان وبلادها مايزيد على مائة الف انسان وسبوا سبيا كثيراً، ولما بلغ هذه الحال السلطان بركياروق، شق ذلك عليه وكتب إلى الامراء ببغداد ان يتجهزوا صحبة الامير ابن جهير لقتال الافرنج، فبرز بعض الجيش إلى ظاهر البلد

بالجانب الغربي، ثم انفسخت هذه العزيمة لانه بلغهم ان الافرنج في الف الف مقاتل، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

الخامس في توجه الفرنج إلى القدس:

ذكر بيبرس في تاريخه ان في هذه السنة حاصر الافرنج البيت المقدس وكانوا قد ملكوا الرملة قبل.

وذكر المؤيد وابن كثير في تاريخيهما حصر الافرنج القدس في السنة الثانية والتسعين بعد الأربعمائة، وأنهم ملكوه يوم الجمعة ضحى، لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين، وهم كانوا في ألف ألف.

وقال بيبرس في تاريخه: وفي سنة احدى وأربعمائة حاصر الافرنج البيت المقدس، وكانوا أخذوا الرملة، فلما علم الوزير الأفضل خرج بعساكره من مصر، فلما علم الفرنج بخروجه جدوا في الحصار، فملكوها قبل وصوله، وهدموا المساجد وقبر ابراهيم الخليل عليه السلام، وأحرقوا المصاحف وأخذوا من الصخرة من الآلات والقناديل الذهب والفضة وغيرها مالايحصى، فوصل الأفضل إلى عسقلان وسير رسله إليهم يؤنبهم بما فعلوه، فساروا إلى عسقلان وهجموا على عسكر الأفضل فهزموهم، فدخل الأفضل وبعض العساكر عسقلان، ووقع القتل في المسلمين والنهب في أثقالهم، وانهزم الأفضل إلى مصر في البحر وذلك في شعبان من سنة احدى وتسعين وأربعمائة.

وقال العظيمي في تاريخه: فتح الافرنج معرة النعمان في المحرم من سنة اثنتين وتسعين واربعمائة، ثم تحولوا إلى كفر طاب، ثم إلى حماة فلم يقدروا عليها، ثم تحولوا إلى القدس ففتحوها من أيدي المصريين، وملك القدس الملك الذي اسمه الكندفري ـــ عليه اللعنة ـــ وأحرقوا كنيسة

اليهود، ونـزلت عسـاكر مصر مـع الأفضل وزيـر مصر فكسرهم الافـرنج على عسقلان.

وفي تاريخ المؤيـد: وكان تاج الدولـة تُتُش قد اقطع بيـت المقدس للأميرأرتق،فلماتـوفي صارت القـدس لولديـه ايلغازي وسقمان ابنـي ارتق حتى خـرج عسكر خليفة مصر فاستـولى على القدس بالامـان في شعبان سنـة تسع وثمانين واربعمائة، وسـار سقمان واخوه ايلغـازي من القـدس، فأقـام سقمان ببلد الـرها، وسار إيلغـازي إلى الفرات، وبقيـت القدس في ايدي المصريين إلى الآن فقصـدها الأفـرنج وحصروهـا نيفاً واربعين يـوما وملكـوهـا يـوم الجمعـة لسبع بقين مـن شعبـان مـن سنـة ثنتين وتسعين وأربعمائة، ولبث الفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس اسبوعاً.

السادس فيما فعله الافرنج في القدس الشريف:

قال ابن الجوزي: وقـد اخذوا من حول الصخـرة اثنين واربعين قنديلاً من فضـة، كل قنـديل منها ثـلاثة آلاف وستمائة درهـم، وتنورا مـن فضة زنته أربعـون رطل بالشامـي، وثلاثة وعشريـن قنديلا من ذهـب، وذهب الناس على وجوههـم هاربين من الشام إلى العراق مستغيثين مـن الافرنج الى الخليفـة والسلطان، ومنهـم القاضي بـدمشـق أبو سعيـد الهروي، فلما سمع النـاس ببغداد بذلـك الأمر الفظيع هالهم ذلـك وتباكوا، وقـد نظم أبو سعيد الهروي كلامـاً قرىء على المنابر فجهر الناس بـالبكاء، وقد ترك الخليفة الفقهاء إلى الخروج ليحرضوا الملـوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس، فلـم يفد ذلك شيئاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي تـاريـخ بيبرس: وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ورد المنهـزمـون من الشام في شهر رمضان إلى بغداد وصحبتهم القاضي أبو سعيد الهروي لائذيـن بحرم الخلافـة من الأفـرنج شـاكين مـافعلوه بـالقدس الشريـف

وماحوله، فأورد في ديوان الخلافة كلاما أبكى العيون واوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا مادهم المسلمين بذلك البلد الشريف العظيم من قتل الرجال وسبي الحريم والاولاد، ونهب الاموال، ولشدة ما أصابهم افطروا، فأمر الخليفة ان يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وابو بكر الشاشي، وابو القاسم الزنجاني، وابو الوفاء ابن عقيل، فاعتذر القاضي بكبر سنه، والزنجاني بمرضه، وتمنع الشاشي، وسار أبو الوفاء ابن عقيل، وأبو سعيد الحلواني، وأبو الحسين ابن السماك، فساروا إلى حلوان، فبلغهم قتل مجد الملك البلانياسي، فعادوا من عير بلوغ أرب، وأخلف السلاطين، فتمكن الفرنج من البلاد، فقال المظفر الابيوردي في هذا المعنى أبياتاً:

مزجنا دما بالدموع السواجم
فلم نبق الاعرضة للمراحم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه
اذا الحرب شبت نارها بالصوارم

فايها بني الاسلام ان وراءكم
وقائع يلحقن الذرى بالمناسم

وكم نومة في ظل امن وغبطة
وعيش كنوار الجميلة ناعم

وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات ايقظت كل نائم

واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم
ظهور المذاكي او بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وانتم
تجرون ذيل الخفض فعل القوادم

وبين اختلاف الطعن والضرب وقفة
يظل لها الولدان شيب القوادم

وتلك حروب من يغب عن غمارها
ويسلم يقرع بعدها سن نادم

سللـــن بـــأيـــدي المشركين قـــواضبـــا
ستغمـــــدمنهـــم في الكلى والجماجـــم
يكـــــادلهن المستجـــــن بطيبـــــة
ينـــادي بـــأعلى الصـــوت يـــال هـــاشـم
ارى امتـــــي لا يشرعـــــون الى العـــــدا
رمـــاحهـــم والـــدين واهـــي الـــدعـــائم
ويجتنبـــون النـــار خـــوفـــا مـــن الـــردى
ولا يحسبـــــون العـــــار ضربـــــة لازم
أيـــرضـــى صنـــاديـــد الاعـــارب بـــالاذى
وتغضي على ذل كماة الاعــــــاجـــــم
فليتهـــــم اذلم يـــــذودوا حميـــــة
عـــن الـــديـــن ضنـــوا غيرة بـــالمحـــارم
وان زهـــدوا في الاجـــر اذ حمي الـــوغـــى
فهـــــلا اتـــــوه رغبـــــة في المكـــــارم
لئـــن اذعنـــت تلـــك الخيـــاشيـــم للبُرى
فـــــلا عطســـوا الا بـــــأجـــدع راغـــم
دعـــونـــاكـــم والحرب تـــرنـــو ملحـــة
الينـــا بـــالحاظ النســـور القشـــاعـــم
تـــراقـــب فينـــا غـــارة عـــربيـــة
تطيـــل عليهـــا الـــروم عـــض الابـــاهـــم
فـــان انتـــم لم تغضبـــوا بعـــدهـــذه
رمينـــا الى اعـــــدائنـــا بـــالجرائم (١)

وجرى ذلك كله باشتغال السلطان، بركياروق والاتراك بعضهم ببعض مع السلطان محمد على ماسنذكره في السنة الآتية ان شاء الله تعالى....

٤٩٣هـ/١١٠١م

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ماجرى على بيمند الفرنجي من ابن الدانشمند:

وابن الدانشمند هذا اسمه كمشتكين، وانما سمي ابوه بالدانشمند لانه كان معلما للتركمان، والمعلم عندهم اسمه الدانشمند، وكان اسمه فتقلبت الأحوال بابن الدانشمند حتى ملك ملطية وسيواس وغيرهما، وقصده الفرنج مع مقدمهم بيمند في خمسة آلاف فلقيهم ابن الدانشمند بالقرب من ملطية، وقاتل معه قتالاً شديداً، فهزمه وظفر المسلمون بالفرنج، وأسر بيمند، فاجتمع الفرنج وارادوا الخليصة ولم يقدروا.

وفي تاريخ ابن كثير: وفي هذه السنة اقبل ملك الافرنج في ثلاثمائة الف مقاتل، فالتقى كمشتكين المعروف بالدانشمند.

قال ابن كثير: واظنه اتابك الجيوش بدمشق الذي يقال له امين الدولة، واقف الامينية التي بدمشق وبصرى، لا التي ببعلبك، فهزم الافرنج وقتل منهم خلقاً بحيث لم ينج منهم إلا ثلاثة آلاف واكثرهم جرحى، وذلك في ذي القعدة، ولحقهم إلى ملطية فملكها واسر ملكها.

قلت: الظاهر بل الصحيح ان هذه القضية مع الفرنج غير القضية التي ذكرناها، وان كمشتكين الذي ذكره ابن كثير ان هو ذاك الذي ذكرناه آنفا، فليس يقال له ابن الدانشمند، فافهم.

وفي تاريخ بيبرس: ثم ان الأفرنج بعد انكسارهم من ابن الدانشمند ساروا الى قلعة تسمى انكوريا[٢] فاخذوها، وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا الى قلعة اخرى فيها اسماعيل بن الدانشمند وحصروها، فجمع جمعا كثيرا وقاتلهم وجعلهم كميناً فخرج عليهم الكمين فقتلهم وهزمهم

وكانوا ثلاثة آلاف فلم يفلت منهم سوى ثلاثمائة مجرحين.

ذكر بقية الحوادث

منها: ان جماعة من اهل الشام اتوا مصر هربا من الافرنج والغلاء والوباء، ومات بمصر في هذه السنة خلق كثير.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ماجرى من الفرنج:

وفي صفر منها أغار الفرنج من الرها على سرح الرقة وقلعة جعبر، فاستاقوا المواشي، وأسروا من وقع في أيديهم من المسلمين، وكانت جعبر والرقة لسالم بن مالك سلمها إليه السلطان ملكشاه.

وفي المرآة خرجت الأفرنج من الرها وانقسموا قسمين: قسم قصدوا حران، والآخر الرقة، ونزل سقمان بن أرتق من ماردين، وكان سالم بن بدران العقيلي في بني عقيل نازلا على عين العروس فالتقوه واقتتلوا قتالا شديدا، واسر سالم بن بدران، وكانت الدائرة على الأفرنج، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها غزا سقمان وجكرمش الأفرنج، فلما استطال الأفرنج بما ملكوا من البلاد التي هي للمسلمين باشتغال عساكر الاسلام وملوكهم بقتال بعضهم بعضاً، وكانت حران لقراجا، أحد مماليك ملكشاه، فاستخلف عليها محمد الأصفهاني، فعصى عليه، وقعد في بعض الأيام في مجالس الشراب فلما سكر قتله مملوك يسمى جاولي من مماليك قراجا، فعند ذلك سار الأفرنج إلى حران وحصروها، فلما

سمـع سقمان صـاحب مـاردين وغيرهـا وجكـرمش اجتمعـا وسـارا إلى الخابور، وكـان مع سقمان سبعة آلاف فارس، ومـع جكرمش ثـلاثة آلاف فارس مـن الترك والعرب والأكـراد، فالتقوا على نهر البليـخ فاقتتلـوا قتالا شديدا، فأظهر أهل الاسلام الانهزام، فتبعهـم الفرنج نحو فرسخين، فعاد عليهـم المسلمون فقتلـوهم كيـف شـاءوا، وامتلأت أيـدي العسكر مـن الغنـائم، لان سواد الافـرنـج كـان قريبـا، وكـان معهـم بيمند صـاحـب أنطاكية، وطنكري صاحب الساحـل قد انفردوا وراء جبل ليأتوا المسلمين مـن وراء ظهورهـم، فلما خـرجا رأيـا الافـرنج منهـزمين فـانهزموا معهـم، فتبعهـم المسلمـون وقتلـوا مـن أصحـابهم كثيراً، وأفلتـا في ستـة مـن الفرسان، وكان القمص بردويل صاحـب الرها معهم فأسر وجاءوا به إلى الموصـل، ففدى نفسـه بخمسة وثـلاثين ألـف دينار ومـائة وستين اسيراً، وكانت عـدة القتلى من الافرنج والاسرى اثني عشر ألف رجـل، ثم رحل جكرمش إلى حران فتسلمها وعدة حصون.

وفي تـاريخ ابـن كثير: وفيهـا قصد الأفـرنـج ـ لعنهـم اللـه ـ الشـام، فقاتلهم المسلمون فقتلوا خلقاً كثيراً.

وفي تاريخ النويـري: وفيها سار صنجيل ـ وقد وصله مـدد الفرنج من البحـر ـ إلى طـرابلـس فحاصرهـا وتسلمهـا بالأمـان، ثـم سار إلى عكـا ووصل إليه جمع من القدس فحصروها، وكـان الوالي فيها من جهة خليفة مصر زهر الـدنيا نبا، وجـرى بينهـم قتال عظيـم، وآخر الامر ان الافـرنج ملكوها بالسيف وفعلوا بأهلهـا الأفعال الشنيعة، وهرب نبا إلى الشام ثم إلى مصر، ثم إن الافرنـج قصدوا حران، فاتفق جكرمـش وسقمان بن أرتق والتقيا مع الافرنج على نهر البليخ، فذكره إلى آخر ماذكره الآن.

وفي المرآة: وفيها نزل بغـدوين وقيل بردويل صاحـب القدس على عكا في البر والبحـر في نيـف وتسعين مـركباً فحصروهـا مـن جميـع الجهـات،

وقاتل أهلها حتى ضعفوا عن القتال، وكان واليها زهر الدولة الجيوشي، فعجز عنهم وطلب الأمان له وللمسلمين الذين بها، فلم يعطوه وأخذوها بالسيف في رمضان وقيل في شعبان، وجاء زهر الدولة منهزماً الى دمشق، فأحسن إليه اتابك طغتكين، ثم مضى إلى مصر.

وفي المرآة أيضاً: وفيها في رجب وردت مراكب الافرنج اللاذقية مشحونة بالمقاتلة في البحار، فنزلوا على طرابلس مع صنجيل، وأقاموا أياما ورحلوا إلى جبيل، فأمنوا أهلها ودخلوها، ثم غدروا بأهلها فقتلوهم، وكان صنجيل صاحب أنطاكية(٣) قد بنى على طرابلس حصناً ليأخذ به طرابلس وشحنه بالرجال والأموال والسلاح، فخرج القاضي ابن عمار في عسكره في ذي الحجة وهجم الحصن على غره فقتل من فيه ونهبه وأخذ منه المال والسلاح، والمتاع وكل شيء فيه، وهدمه وعاد إلى طرابلس سالما غانما.

ذكر بقية الحوادث:

منها ان بلك بن بهرام بن أرتق، وهو ابن أخي ايلغازي شحنة بغداد استولى على مدينة عانة الحديثة، وكان له مدينة سروج، فأخذها الفرنج منه، فسار عنها إلى عانة وأخذها من بني يعيش بن عيسى، فقصد بنو يعيش صدقة بن مزيد فاسترجعها منه في المحرم، وسلمها إلى أصحابها...

ذكر من توفي فيها من الأعيان

شمس الملوك أبو نصر دقاق بن تاج الدولة تُتُش بن السلطان ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي صاحب دمشق، توفي في ثامن عشر شهر رمضان من هذه السنة ودفن بمسجد

قبة الطواسين بظاهر دمشق الذي على ظهر بردى، وكان قد حصل له مرض تطاول به وقيل إن أمه سمته في عنقود عنب فلما توفي قام بالملك ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وكان أتابكه وتزوج بأمه في حياة أبيه، زوجه أياها، وهو عتيق تتش المذكور.

وقال النويري: لما توفي الملك دقاق صاحب دمشق خطب طغتكين الأتابك بدمشق لابن دُقاق وكان طفلا عمره سنة واحدة، ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل في ذي الحجة، ثم قطع خطبة بكتاش وأعاد خطبة الطفل، واستقر طغتكين في ملك دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ــ والله أعلم ـ وأحسن مع الناس السيرة، وبث فيهم العدل.

وفي المرآة: وفي هذه السنة عرض لدقاق صاحب دمشق مرض تطاول به، ووقع معه تخليط في الغذاء فأوجب انتقاله إلى علة الدق، فمازال به حتى أشفى، فلما وقع اليأس عن برؤه وانقطع الرجاء من عافيته تقدمت إليه والدته الخاتون صفوة الملوك بأن يوصي بما في نفسه ولايترك أمر الدولة وولديه سدى، فنص على أتابك طغتكين والحضانة لولده الصغير تتش بن دقاق حتى يكبر، ويتولى طغتكين أمور دمشق، وأعمال دقاق، وتوفي في اليوم الثالث والعشرين من رمضان ودفن على الشرف الشمالي بدمشق بالخانكاه التي يقال لها قبة الطواييس، وبعد قليل توفي تتش بن دقاق الذي اوصى بالملك إليه، ودُقاق بضم الدال المهملة وبالقافين بينهما ألف.

ـ ١١٠١٩ ـ

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والتسعين بعد الأربعمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، ومات فيها السلطان بركياروق، والأمير ايـاز، والأمير سقمان، وصنجيل ملك الأفرنج، فلنذكرهم واحدا واحدا.

الأمير سقمان بن أرتق مات في هذه السنة، وسبب ذلك ان فخر الدولة ابن عمار صاحب طرابلس كان قد كاتب سقمان يستدعيه الى نصرته على الافرنج، وبذل له المعونة بالمال والرجال، فبينما هو يتجهز للمسير إذا أتاه كتاب الاتابك طغتكين صاحب دمشق يخبر انه مريض قد أشفى على الموت، وأنه يخاف وليس بدمشق من يحميها من الأفرنج، ويستدعيه ليوصي اليه بما يعتمده في حفظ البلاد، فلما سمع ذلك اسرع في السير عازما على أخذ دمشق، فلما وصل القريتين مات بالخوانيق، وحمله أصحابه وعادوا به إلى حصن كيفا.

وفي تاريخ المؤيد: وفي هذه السنة توفي سقمان بن [ارتق بن] أكسب ـ بالباء الموحدة ـ وقيل اكسك ـ بالكافين ـ وهو الأصح، وكانت وفاته في القريتين في صفر من هذه السنة، وقام ابنه ابراهيم موضعه، وحمل سقمان في تابوت إلى حصن كيفا فدفن به، ولما مات سقمان كان مالكا لحصن كيفا وماردين.

أما ملكه لحصن كيفا فقد ذكرناه من تسليم موسى التركماني صاحب الموصل لما استنجد به على جكرمش، وأما ملكه لماردين فهو أنه كان السلطان بركياروق وهبها هي وأعمالها لانسان مغن، ووقع حرب بين كربوغا صاحب الموصل وبين سقمان، وكان مع سقمان ابن أخيه ياقوتي وعماد الدين زنكي بن آق سنقر، وهو إذ ذاك صبي، فانهزم سقمان وأخذ

ابـن أخيه يـاقـوتي أسيراً، فحبسه كبروغـا في قلعة مـاردين، وبقي مـدة، فمضـت زوجه أرتـق الى كربـوغـا وسألتـه في اطـلاق ابن ابنهـا يـاقـوتي، فأجابها كربوغا إلى ذلك، وأطلقه، فـأعجبت ياقوتي ماردين، وأرسل يقول لصـاحبها المغنـي: إن أذنت لي سكنـت في ربض قلعتـك وجبيت إليهـا الكسوبـات وحميتها مـن المفسديـن، ويحصل لـك بذلـك النفع فـأذن له المغني بـالمقام في الـربض، فـأقام يـاقوتي بها رديـن وجعل يغير مـن باب أخلاط إلى بغـداد، ويستصحب مغه حفاظ قلعـة ماردين ويحسـن إليهم ويؤثـرهم على نفسـه، فاطمـأنوا إليـه وسار مـرة ومعه أكثـرهم فقبضهـم وقيدهم وأتـى الى باب قلعة ماردين ونادى من بها من أهليهـم وقال: إن فتحتم الباب وسلمتـم الي القلعة وإلا ضربت أعناقهم جميعهـم، فامتنعوا فـأحضر واحدا منهـم وضرب عنقـه ففتحوا البـاب لـه، وتسلـم ياقـوتي القلعة وأقـام بها، ثم جمع يـاقوتي جمعا وقصـد نصيبين ولحقه مـرض حتى عجز عن لبس السـلاح وركوب الخيل، وحمل الى فرسه وركبه، فـأصابه سهم فسقط ياقوتي منه ومات، ثـم ملك ماردين بعده اخوه علي وصار في طـاعـة جكـرمـش صـاحب الموصـل، واستخلـف على مـارديـن بعـض أصحـابه، وكـان اسمـه عليا ايضـا، فـأرسـل علي يقول لسقمان: إن ابـن أخيك يـريد ان يسلـم مارديـن الى جكرمـش فسار سقمان بنفسـه وتسلم مـاردين، فطـالبه ابـن اخوه علي بـاعـادتها اليه فلـم يفعل سقمان ذلـك، واعطاه جبل جـور عوضها، واستقرت ماردين وحصـن كيفا لسقمان حتى سـار إلى دمشق ومـات بالقـريتين، فصارت مـاردين لأخيـه ايلغازي بـن ارتـق، واستقرت لـولده ــ قال المؤيـد ـ إلى يـومنا هـذا، وهو سنـة خمس عشرة وسبعمائة.

صنجيل ملك الأفرنـج: هلك في هذه السنة، وكان صاحـب أنطاكية، وكـان قد صـالـح ابن عمار صـاحـب طرابلـس وهـادنه على ان يكـن لصنجيل ظاهر طرابلس، ولايقطع الميرة والمسافرين عليها.

وفي تاريـخ ابن كثير: هلـك صنجيل في سنـة تسع وتسعين وأربعمائة، وقال: وفي هذه السنـة - أعني سنة تسع وتسعين - هلـك صنجيل عليه اللعنة في مدينة جبلة، وذلك انه ملكها في هذه السنة —أعني سنة تسع وتسعين— ثم سار وأقام على طرابلس يحصرها،وبنى بالقرب منها حصنا وبنى تحته ربضاً، وهـو المعروف بحصـن صنجيل، فخـرج الملك ابـن عمار، صاحـب طرابلـس، فاحرق الـربض، ووقـف صنجيل على سقـوفه المحترقـة فانخسفـت به، فمـرض مْن ذلـك عشرة ايام، وهلـك وحمل الى القـدس ودفـن فيهـا، وقـام بالحصـار بعـده ابنـه، ودام الحرب بين أهـل طرابلس والأفـرنج خمس سنين، وظهر من صاحبهـا ابن عمار صبر جميل، وقلت الأقوات بها، وافتقرت الأغنياء.

وذكر بيبرس في تاريخه هلاكه في السنـة الآتية وقال: لما احرق ابن عمار ربض الحصن الذي بناه صنجيل عامـه ذلك، فمرض ومات. وامر ملك الـروم أصحابـه الـذيـن بالـلاذقيـة أن يحملـوا الميرة إلى الذيـن يحاصرون طـرابلس، فخـرج إليهـم اسطول طـرابلـس فجرى بينهـم قتـال شديـد، فأخذوا الميرة والمراكب فتقووا بها إلى ان ملك السلطان محمد البلاد.

ذكر بقية الحوادث:

منها انـه كانت حروب كثيرة بين عسـاكر مصر والأفرنج فقتلـوا منهم خلقا كثيرا.

وفي تاريـخ بيبرس: وسبب ذلك ان الافضـل وزير مصر، كـان قد سير ولـده شرف المعالي في السنـة الماضية إلى الســاحـل، فقهر الافـرنج وأخـذ الرملـة، ثم اختلـف المصريون والعرب وادعـى كل واحـد منهما ان الفتح له، فـأتاهم سريـة من الافرنج فتقـاعد كل فـريق منهما عن الآخـر، وكاد الافرنـج ان يظهروا عليهم، فـرحل شرف المعالي إلى والـده بمصر، ثم سير

ولده سناء الملك حسين في جماعة من الأمراء، منهم: جمال الملك نائب عسقلان، وأرسلوا إلى طغتكين أتابك دمشق يستنجدونه، فأرسل إليهم اصبهبذ صبارو ومعه ألف وثلاثمائة فارس، وكان المصريون خمسة آلاف فارس، فقصدهم بردويل صاحب القدس وعكا ويافا في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل، فوقع المصاف بينهم بعسقلان ويافا، فلم تظهر احدى الطائفتين على الأخرى، فقتل من المسلمين ألف ومائتان، ومن الفرنج مثلهم، وقتل جمال الملك صاحب عسقلان، فعند ذلك وضعوا الحرب وعادوا إلى عسقلان وعاد اصبهبذ صبارو إلى دمشق، وكان مع الأفرنج من المسلمين بكتاش بن تتش، وكان طغتكين قد عدل عنه بالملك إلى ولد أخيه دقاق وهو طفل، فدعاه ذلك إلى قصد الفرنج والركوب معهم.

ومنها: أنه كانت وقعة بين تنكري صاحب أنطاكية وبين الملك رضوان صاحب حلب، وسببها ان تنكري حاصر حصن أرتاح وبه نائبه، فأرسل إلى الملك رضوان يعلمه ويطلب النجدة، فسار رضوان في عسكر كثير من الرجالة والخيالة تقدير عشرة آلاف، فلما قرب من الافرنج ورأى تنكري كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح، فأراد ان يجيب فمنعه أصبهبذ صبارو وكان قد قصده وسار معه بعد قتل اياز، فامتنع من الصلح، واصطفوا للحرب، فانهزمت الافرنج من غير قتال، واشتغل المسلمون بالنهب فعاد الافرنج فحملوا على المسلمين، فلم يثبوا وانهزموا، وقتل من المسلمين خلق كثير مقدار عشرة آلاف نفس، وفتح المسلمون الحصن وأخلوه وتوجهوا إلى حلب فملكه الأفرنج، وهرب أصبهبذ إلى طغتكين أتابك دمشق فصار في خدمته.

ومنها أنه كان استيلاء الأفرنج على عكا، وذلك ان بردويل ملك الافرنج سار بجموعه إلى ثغر عكا ومعه الجنويون من الفرنج في المراكب، فأحدقوا بها برا وبحرا وحاصروها وملكوها بالسيف، وكان

متوليها حينئذ زهـرة الدولة الجيوشي من جهة صـاحب مصر، فخرج منها هاربا إلى دمشق.

ومنهـا أنـه جـرت وقعة بين طغتكين الأتـابـك وبين الفـرنـج، فكسر طغتكين الأفرنج على بعلبك وفتح رفنيه وهدم أبرجتها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ما جرى بين المسلمين والافرنج من الحروب والوقائع:

منها انه كـانت الحرب بين طغتكين متولي دمشق وبين الفـرنج ، فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، ففي آخـــر الأمر بنى بردويل حصنـا بينه وبين دمشق فخاف طغتكين من عـاقبة ذلك، فجمع عسكره وخرج ليقـاتلهم ويقدم إليهم، فاقتلـوا قتالا شديدا وفيهـم ملكهم القمص، فكانـت الهزيمة على الأفرنج، فتبعهم طغتكين بالقتـل والأسر إلى أن دخلوا الحصن الذي لهم، فحاصره طغتكين وأخذه بـالسيف، وقتل كل من كان فيـه، واستبقى من الفرسان مـائتي فارس في الأسر، وعاد طغتكين إلى دمشق مـؤيداً منصوراً، فزين البلد سبعة أيام.

ومنها ان الفـرنج ملكوا في هـذه السنة حصن أفـامية من بـلاد الشام، وسبب ذلـك أن خلف بن ملاعـب الكلابي، كان قـد تغلب على حمص، وكان الضرر به عظيما، ورجاله كانوا يقطعـون الطريق فكثر الحرامية عنده فأخذها منـه تتش بن ألب أرسلان وأبعده عنهـا، وتقلبت به الأحوال إلى أن دخل مصر فلم يلتفت إليه من بها، فإن المتولي بأفامية من جهة الملك

رضوان أرسل إلى صاحب مصر، وكان يميل إلى مذهبهم، فاستدعى من يسلم اليه الحصن منهم، وهو من أمنع الحصون، فطلب ابن ملاعب ان يكون هو المقيم به، وقال: إني راغب في قتال الأفرنج ومؤثر للجهاد، فسلموه إليه واخذوا رهائنه، فلما ملك خلع طاعتهم، وأرسلوا إليه يتهددونه بما فعل بولده الذي عندهم، فأجاب الجواب.. إني لا أنزل من مكاني وابعثوا إلي بعض أعضاء ولدي حتى آكله حتى أيسوا من رجوعه إلى الطاعة، وأقام بأفامية يقطع الطريق، ويخيف السبيل، واجتمع عنده كثير من المفسدين، فكثرت أمواله، ثم إن الفرنج ملكوا سرمين وهي من أعمال حلب، وأهلها يتغالون في التشيع، فلما ملكها الأفرنج تفرق أهلها وتوجه القاضي الى ابن ملاعب وأقام عنده، فأكرمه واحبه ووثق به، فأعمل الحيلة إليه، وكتب إلى أبي طاهر المعروف بالصائغ، وهو من أعيان الملك رضوان، ووجوه الباطنية ودعاتهم بالفتك بابن ملاعب وأن يسلم أفامية إلى الملك رضوان، فأتى أولاد ابن ملاعب إليه، وكانوا قد تسللوا من مصر وقالوا له: قد بلغنا عن القاضي كذا وكذا، والرأي أن تعاجله وتحتاط لنفسك فإن الأمر قد اشتهر، وأحضره ابن ملاعب فأتاه وفي يده المصحف لأنه رأى امارات الشر فقال: أيها الأمير قد علم كل أحد أني جئتك خائفا فأمنتني وأعنتني فصرت ذا مال وجاه، فإن كان أحد ممن يحسدني منزلتي عندك وماغمرتني به من نعمتك سعى بي إليك، فأسألك ان تأخذ جميع ما معي وأخرج كما جئت، فحلفه على الوفاء له والنصح وخلى سبيله، وأعاد القاضي مكاتبته الى ابي طاهر الصائغ واشار عليه ان يوقف ثلاثمائة رجل من أهل سرمين وينفذ معهم خيلا من خيول الأفرنج من رؤسائهم، ويأتون إلى ابن ملاعب ويظهرون أنهم غزاة، ويشكون من معاملة رضوان وأصحابه وأنهم فارقوه، فلقيتهم طائفة من الأفرنج فظفروا بهم، وكانوا قد اتفقوا على أنهم يحملون جميع ما معهم إليه، فإذا أذن لهم في المقام اتفقت آراءهم على أعمال الحيلة ففعل الصائغ ذلك، ووصل القوم إلى أفامية وقدموا إلى ابن

مـلاعب مـامعهم مـن الخيل فقبـل ذلـك منهم، وأمـرهـم بـالمقام عنـده وأنزلهم في ربـض أفاميـة، فلما كان في بعـض الليالي نـام الحرس بالقلعـة فقام القاضي ومـن بالقلعة من أهل سرمين ودلوا الحبـال وأصعدوا أولئك القـادمين جميعهـم وقصدوا ابـن مـلاعـب وبنـي عمـه ليقتلوهـم، وأتـى القاضي ومعه جماعة إلى ابـن ملاعب فأحس به، فقـال: من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت جئـت لأقبض روحك وقتل أصحابه، وهـرب ابناه فلحقا بأبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر.

ولما سمع الصائغ خبر أفـامية سار إليها وهو لايشك أنهالـه، فقال له القـاضي: إن وافقتني وأقمـت معي فعلى الـرحـب ونحن نحكمـك وإلا فارجع من حيث جئت، فأيس منه، وكان أحد أولاد ابن ملاعب بدمشق عند طغتكين غضبـان فهرب إلى الافـرنج واستـدعاهـم إلى أفاميـة، وقال لهم: ليس فيهـا قوت غير شهـر واحد، فـأقامـوا عليها يحاصرونها، فجـاع أهلها فملكها الأفرنج وقتلوا القـاضي المتغلب عليها والصائغ، وكان هذا هو الذي أظهر مذهب الباطنية بالشام...

فصل فيما وقع من حوادث في السنة الثانية بعد الخمسمائة

ذكر ما فعله الأفرنج لعنهم الله:

منها ان طنكريد فتح حصن بانياس وسلمه إلى المازوير.

ومنها ان الأفرنج اخذوا طرابلـس في هذه السنة، وقيل في السنة الآتية، اجتمـع عليهـا ملكهـم بيمنـد بـن صنجبيـل في ستين مـركبـا في البحـر مشحونة بالمقاتلة، وطنكريد صاحب أنطاكية، وبغدوين صاحب القدس وشرعوا في قتـالها وضايقوهـا من أول شعبان إلى حـادي عشر ذي الحجة، وايقنـوا بـالهلاك مع تـأخـر الاسطـول عنهـم من مصر، وكـان كلما سـار

الاسطـول نحوهـم دفعته الـريح إلى جهـة مصر، فلما كان في يـوم الاثنين هجمها الا فـرنج ونهبوها، واسروا رجـالها وسبوا نسائها، وسـاروا الى جبلة وبها فخر الملك ابـن عمار، فتسلموها بالامان في الثـاني والعشرين من ذي الحجـة، وخرج منهـا ابن عمار سـالما، ووصـل حينئذ الاسطـول المصري، وجاء ابن عمار الى شيـزر، فأكرمه صـاحبها علي بن منقذ واحترمـه وعرض عليه المقام عنده فـأبى وتوجه الى دمشق فأكرمـه طغتكين صاحب دمشق وانزلـه في داره، وأقطعه الـزبداني وأعمالـه، ووقعت مهـادنة بين بغـدوين صـاحب القـدس وبين طغتكين صاحـب دمشـق على ان يكون السـواد وجبل عوف مثالثة: الثلث للفرنج، والثلثين للمسلمين.

ومنها أنه كانت الحرب بين طغتكين صاحب دمشق والأفرنج.

ومنها أن طغتكين سـار إلى طبرية وقد وصل إليهـا ابن أخت بـردويل صاحـب القدس فتحـاربا واقتتـلا، وكان طغتكين في ألفـي فارس وكثير من الـرجالة، وكـان الفرنجـي في أربعمائة فارس وألفي راجـل، فلما اشتد القتـال انهزم المسلمـون ونادى طغتكين: يـاللمسلمين فشجعهـم فعـادوا للحرب وكسروا الأفرنـج، وأسر ابن أخت الملك وحمل إلى دمشـق فعرض عليه طغتكين الا سـلام فامتنـع وبذل في نفسه مـالا ثلاثين ألـف دينار، واطلاق خمسمائة أسير، فلـم يقنع طغتكين منه بغير الاسـلام، فلما لم يسلم قتله بيده، وأرسل إلى الخليفة والسلطـان الأسرى إلى بغداد ثم وقع الصلح بين بغدويـن ملك القدس وبين طغتكين على أن تضـع الحرب (أوزارها) أربع سنين، وكان ذلك لطف الله با لمسلمين.

ومنهـا أنه في شعبـان انهزم المسلمـون من الأفـرنـج، وسبب ذلـك أن حصن عرقة من أعمال طرابلس الشام كان بيد غلا م القاضي فخر الملك ابن عمار، فعصى على مولاه، فضاق بـه القوت وانقطعت عنه الميرة لطول مكث الأفـرنج في نـواحيها، فـأرسل إلى طغتكين ليرسـل إليه مـن يتسلم

الحصن: فقد عجزت عـن حفظه لئلا يأخذه الأفرنـج والمسلمون أحق به، فسار إليها فاجتمع الفرنج الـذين كانوا يحاصرون طرابلس وغيرها وكسروا طغتكين، وانهزم المسلمون إلى حمص، فغنـم الأفرنـج أثقالهم ودوابهم، ثـم حصروا عرقة، فطلب من بها الأمان فأمنهم الأفرنج، وكان في الأسر مقدم يسمى اسرائيل، فقالوا له: لانخليـك تروح حتى يسير إلينا طغتكين فلانا الأفرنجي بذلك، ففدى به طغتكين واطلقا جميعا.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها في عيد الفصـح للنصارى نزل الأمراء بنو منقـذ أصحاب شيزر للتفـرج على عيد النصـارى، فثـار جماعة مـن البـاطنيـة في حصن شيـزر فملكوا قلعتها، وبادر أهل المدينة إلى الباشـورة وأصعدهم النساء بالحبال من الطـاقات وأدركهم الأمـراء بنو منقذ، ووقع بينهـم القتال فانخـذلت الباطنية وأخذهم السيف من كل جانب، فلم يسلم منهم أحد.

ومنهـا في شوال ملـك الأمير سقمان القطبـي صاحـب خـلاط مدينـة ميـافـارقين بـالأمـان بعـد أن حصرها وضيـق على أهلهـا حتـى عـدمـت الأقوات فسلموها بالأمان...

ومنهـا أن الأمير مـودود استـولى على الموصـل هـو والعسكـر الـذيـن أرسهلم السلطـان محمد، وأخـذوها مـن أصحاب جـاولي سـقاوة، وقـد ذكرنا استيـلاء جاولي عليها في سنة خمسمائة وماجرى بينـه وبين جكرمش والملك قليج أرسـلان، وكان سبب غضب السلطان على جـاولي أنه كان استولى على البلاد ولم يحمل إليه منهـا شيئاً، ولما وصل السلطان إلى بغداد لقصد سيـف الدولـة صدقـة أرسل إلى جاولي يستـدعيه إليـه بالعسـاكر، وتكـررت الـرسـل إليـه فلم يحضر وغـالـط في الانحـدار إليـه، فلما فـرغ السلطـان من أمـر صدقـة وقتله كما تقـدم أمـر بتجهيز العسـاكر لقصـد

الموصل فتقدم الى الامراء وهم: بنـو بـرسـق، وسقهان القطبـي، ومـودود، وأقسنقر البرسقي، ونصر بن مهلهل بـن أبي الشوك الكردي، وأبي الهيجاء صاحب إربـل، بالمسير إلى الموصل وأخذهـا منه فتوجهوا فـوجدوا جاولي عـاصيا قـد شيد سـور الموصل وحصنهـا، وأعد الميرة والأقـوات، فنزلـوا عليها في شهـر رمضان من هـذه السنة وحاصروهـا وضايقوهـا، فلما طال الأمر على الناس اتفق نفـر من الجصاصين ومقدمهم يعرف بسعـد، فأتوا وقت صـلاة الجمعة وصغدوا بـرجاً وقتلوا الجنـد الذيـن به، وأغلقوا بـابه ونادوا بشعـار السلطان محمـد، وطلع مـائتا فـارس من العسكـر فرمـوهم بـالنشاب ونـادوا بشعار السلطـان، فعند ذلـك زحف العسكـر من كـل مكـان على البلـد فملكوه ودخلـه الأمير مـودود فنـادى بالسكـون ورفـع النهب وأن يعـود الناس إلى دورهم، وأقامـت زوجة جاولي بالقلعـة ثمانية أيام فـراسلت الأمير مـودود في أن يفرج لها عن طـريقها ويتسلـم القلعة فأجاب إلى ذلـك، فحلف لها وخرجت إلى أخيهـا برسق بن بـرسق ومعها أموالها وما استولت عليه، وولي مودود الموصل وما انضاف إليها.

وأمـا جاولي فـإنه لما وصـل عسكـر السلطان إلى الموصـل خرج عنهـا وأخذ القمص صـاحب الرها الذي كـان أسره سقمان وسار به إلى نصيبين وهـي لـلأمير إيلغـازي بـن أ رتق، وسـألـه الاجتماع بـه واستـدعـاه إلى معـاضدتـه فلـم يجبـه ايلغازي الى ذلـك، فـرحـل عن نصيبين وسـار إلى ماردين وقصـد دار إيلغازي، ولم يشعر الا وجاولي معـه في القلعة وحده، وقصد ان يتألفه ويستميله، فلما رآه إيلغـازي قام وخدمه، ولما رأى جاولي محسنـا بـه الظـن نزل معـه وعسكـر بظـاهـر البلـد، فسار نحـو الـرحبـة وإيلغـازي يظهـر لجاولي المسـاعـدة ويبطـن الخلاف وينتظـر الفر صـة لينصرف عنـه، فلما وصلا إلى عـربان مـن الخابور هـرب إيلغازي، فسـار جاولي إلى الـرحبة، فلما وصـل ماكسين أطلق القمـص الفرنجـي واسمه بردويـل، وكان صـاحب الرهـا وسروج وكان مقـامه في الأسر خمس سنين وقـرر عليه أن يفـدي نفسه بمال وأن يطلـق المسلمين الـذين أسرهـم وأن

ينصره متى طلبه بنفسه وعسكره، فلما اتفق الحال سير القمص إلى قلعة جعبر فسلمه إلى صاحبها سالم بن مالك، وأقام جوسلين في قلعة جعبر رهينة عن القمص، فلما أطلقه سار إلى أنطاكية فأعطاه طنكريد صاحب أنطاكية ثلاثين ألف دينار وسلاحا وخيلا وغير ذلك، وأطلق القمص من أسارى المسلمين مائة وستين نفرا كلهم من سواد حلب فكساهم وسيرهم، وكان صاحب أنطاكية قد تسلم الرها من أصحاب القمص حين أسر، فلما وصل طلب ردها من صاحب أنطاكية، فلم يفعل، فخرج من عنده غضبانا الى تل باشر، ثم إن جاولي منّ على جوسلين باطلاقه من الأسر لأنه فدى نفسه بمال، فاجتمعا على تل باشر واتفقا على محاربة صاحب أنطاكية، فسار إليهما بعساكره فاقتتلوا وعاد طنكريد إلى بلاده من غير فصل حال، فتوسط البترك بينهما وقال له جماعة من البطاركة والقسيسين: إن بيمند لما أراد ركوب البحر قال ان تعاد على القمص الرها إذا خلص من الأسر، فأعادها عليه في تاسع صفر، وعبر الفرات ليسلم إلى أصحاب جاولي المال، وكان بسروج ثلاثمائة مسلم ضعفاء، ولما أطلق جاولي القمص سار إلى الرحبة، فأتاه أبو النجم بدران، وأبو كامل منصور ابنا سيف الدولة صدقة، وكانا بعد قتل أبيهما عند سالم بن مالك بقلعة جعبر فتعاهدوا على المساعدة والمعاضدة، ووعدهما أن يسير معهما الى الحلة، وعزموا أن يقدموا عليهم بكتاش بن تكش بن ألب أرسلان، فعندما عزموا على هذا الامر وصل إليهم اصبهبذ صبارو الذي كان قصد السلطان محمدا، واقطعه الرحبة فاجتمع بجاولي واشار عليه ان يقصد الشام فإن بلاده خالية من الجند، والافرنج قد استولوا على أكثرها، ومتى قصد العراق والسلطان بها لم يأمن من شر يصل اليه، فقبل قوله، وأصعد عن الرحبة، فوصل اليه رسل سالم بن مالك صاحب جعبر يستغيث به من بني نمير، وكانت الرقة بيد ولده علي بن سالم فوثبوا عليه فقتلوه، فبلغ ذلك الملك رضوان صاحب حلب، فسار الى صفين، فصادف في صفين الذين معهم مال القمص صاحب الرها قد

سيره الى جاولي فاخذه واسر الافرنج، واتى الرقة فصالحه بنو نمير على مال فرحل عنهم الى حلب، فاستنجد عند ذلك سالم بن مالك جاولي، فقصد الرقة وحصرها سبعين يوما، فضمن له بنو نمير مالا وخيلا، ورحل عنهم، ثم وصل إليه الامير اتابك، حسين بن قتلغ تكين يأمره بتسليم البلاد، وطيب قلبه عن السلطان، وضمن له كل جميل إذا سلم البلاد، فقال جاولي: سر إلى الموصل ورحل العسكر عنها، وأنا أرسل معك من يسلم ولدي رهينة وينفذ السلطان من يتولى امرها، ففعل حسين ذلك، وسار ومعه صاحب جاولي، فلما وصل الى العسكر قبض الامير مودود على صاحب جاولي، وأقام على الموصل حتى فتحها كما ذكرنا، وعاد حسين إلى السلطان فأحسن القول عن جاولي، فسار جاولي إلى مدينة بالس فملكها، وهي من أعمال حلب، فعند ذلك كتب الملك رضوان إلى طنكريد صاحب أنطاكية يعلمه انه قاصد حلب وأنه إن ملكها لايبقى للافرنج معه مقام بالشام، وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه، فأجابه ولحق به وهو بمنبج، فوصل الخبر وهو في هذه الحالة أن الموصل أخذت، واستولى عليها عسكر السلطان، وملكوا خزائنه وأمواله فاشتد ذلك عليه، ففارقه أكثر عسكره، ومنهم أتابك زنكي وبكتاش، وبقي مع جاولي نفر يسير، فلما تقاربوا وتصافوا وكان صاحب أنطاكية في عسكر كثيف من المسلمين والأفرنج، فلما وقعت العين على العين لم يثبت لهم جاولي، فانهزم عسكره منهم، وتوجه نحو بلاده، وقتل من المسلمين خلق كثير، ونهبت الأفرنج دوابهم وأموالهم، وأما جاولي فقصد الرحبة، فلما رأى الحال كذلك علم انه لايقدر يقيم في الجزيرة ولابالشام، ولايقدر على شيء يحفظ به نفسه ويرجع إليه غير قصد باب السلطان محمد شاه، وكان واثقاً من الأمير حسين بن قتلغ تكين، فرحل وسار إلى عسكر السلطان، وكان بالقرب من أصفهان، فوصل إليه في سبعة عشر يوما، لانه جد السير، فلما وصل العسكر قصد الأمير حسيناً، فحمله إلى السلطان وكفنه في يده، فآمنه فأتاه الأمراء

يهنونه، وطلب منه السلطان الملك بكتاش بن تكش فسلمه إليه واعتقله بأصفهان...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة بعد الخمسمائة

ذكر ماجرى من الافرنج لعنهم الله في هذه السنة:

من ذلك ان الافرنج اخذوا مدينة طرابلس وقتلوا من فيها من الرجال، وسبوا الحريم والأطفال وغنموا الأمتعة والأموال، ثم أخذوا مدينة جبيل.

وفي تاريخ بيبرس: وفي سنة ثلاث وخمسمائة ملكت الا فرنج طرابلس وبيروت من الشام، وسبب ذلك انهم حاصروها خمس سنين، فلما طال المقام عليها وصاحبها فخر الملك ابن عمار سار إلى السلطان محمد شاه يستنجده، فلما خرج منها سلمها إلى ابن عمه أبي المناقب، فكاتب الأفضل وزير مصر وسلمها إليه كما ذكرنا، وكانت النجدة والميرة تتواصل من مصر والحكم لصاحب مصر وهو نائبه، فلما كان في أول شهر رمضان وصل اسطول كبير، واجتمع عليها ملوك الفرنج، وجاء بيمند بن صنجيل في ستين مركبا وطنكريد صاحب انطاكية وبغدوين صاحب القدس وضايقوها وزحفوا عليها لمساعدة السرداني ابن أخت صنجيل، فلما شاهد ذلك الجند وأهل البلد سقط في أيديهم وذلت نفوسهم لتأخر الاسطول المصري، لتغير الريح اليهم وتعذر الوسول اليهم ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولا﴾ [الانفال ٤٢] فشد الافرنج عليهم القتال والزحف فهجموا البلد وملكوها قهرا في يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، ونهبوا مافيها واسروا وقتلوا وسبوا النساء والاطفال، ونهبوا

الامتعة والأموال، وسلم الوالي الذي كان فيها وسلم الأموال، وسلم قوم من أهلها وجماعة من جندها كانوا قد التمسوا الأمان، ثم رحلوا الى دمشق، واخذت الافرنج دفائن اهل طرابلس وذخائرهم، وعاقبوا أهلها فلا حول ولاقوة الا بالله العلي العظيم.

ولما فرغ الافرنج من طرابلس سار طنكريد صاحب انطاكية الى بلنياس وحصرها فافتتحها، ثم نزلوا على جبيل وبها فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس، وكان القوت بها قليلا، فحاصروها وطلب أهلها الأمان فخرجوا منها وملكها الأفرنج في الثاني والعشرين من ذي الحجة، ثم سار فخر الملك الى دمشق وانزله طغتكين عنده فأكرمه واقطعه الزبداني من عمل دمشق، وكان ذلك في المحرم من سنة اربع وخمسائة.

وفي هذه السنة ــ أعني سنة ثلاث وخمسمائة ـ ملكت الافرنج بيروت، ومقدمهم بغدوين صاحب القدس، ثم ساروا الى صيدا فصالحوهم على ستة آلاف دينار فرحلوا عنها، وسار بغدوين الى القدس.

وفي هذه السنة ايضا سار طنكريد صاحب أنطاكية الى طرطوس واخذها، ثم بعد ذلك قرر على شيزر عشرة آلاف دينار، ثم تسلم حصن الاكراد وعاد الى انطاكية.

وفي تاريخ ابن العميد: وكانت مدة حصار الافرنج سبع سنين، واستولت عليها الافرنج بعد ان فني من فيها من المسلمين من شدة المضايقة والجوع، وكانت مدينة عظيمة مملوءة من المسلمين والعلماء، وملكت ايضا في هذه السنة حصن عكار، وحصن المنيطرة، وقرروا على حصن مصيات، وحصن الأكراد قطيعة معينة في كل سنة، وفيها ايضا ملكت الافرنج بيروت بعد حصار شديد.

وفي المرآه: وفي هـذه السنة نهضـت الأفرنـج على رفنية، وعـرف أتابـك طغتكين فسار بـالعسكر وخيم بازائهـم بحمص، فلم يقدروا على منـازلة رفنية، وترددت بينهـم مراسلات أفضت إلى تقريـر الموادعة على أن يكون لـلافرنـج ثلث مغـل البقاع، ويسلـم إليهم المنيطـرة وحصن عكـار، وأن لايتعرضـوا لحصن مصيات وحصـن الأكراد وأن يحمل إليهـم عنهما مالا، وكذا عن حصن الطوبان، فأقامـوا مدة يسيرة، ثم عاد الافرنج الى الفساد في البـلاد، ونزل بغـدويـن صاحـب القـدس وابن صنجيـل على بيروت، وسـار إليهم جـوسلين صـاحـب تل بـاشر لمعـاونتهـم، وجاء الاسطـول المصري وفيه الرجـال والميرة فدخلوا بيروت فقويت نفـوس أهلها، وبعث بغدوين إلى الجنـوية فجاءوا في أربعين مركباً فـزحفوا برا وبحرا فـدخلوها قهراً بـالسيف فقتلوا ونهبـوا وسبوا وفعلـوا كما فعلوا بطرابلـس واستصفوا الأموال والذخائر، ثم رحل بغدوين فنزل على صيدا وراسل أهلها بتسليم البلد فاستمهلوا مـدة عينوها فأجابهم واخذ منهـم مالا، وعاد الى القدس بسبب الحج.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير قراجـا صاحب حمص توفي في هـذه السنة فملكها بعـده رجل يقـال له خيرخـان... وفي تاريـخ ابن العميـد: لما مـات قراجـا صاحـب حمص ملكها بعده صمصام الدين خيرخان ولد قراجا، وا لله أعلم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة بعد الخمسمائة

ذكر ما جرى من الافرنج لعنهم الله:

وقال بيبرس: وفي هذه السنة ملك الافرنج مدينة صيدا من ساحل الشام في ربيع الآخر، وكان ذلك بالأمان، وقال بيبرس: وسبب ذلك انه وصل في البحر الى الشام ستون مركبا للافرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم ليحج الى بيت المقدس، ويغزو بزعمه المسلمين، فاجتمع بهم بغدوين صاحب القدس، وتقررت القاعدة بينهم ان يقصدوا بلاد الاسلام، فرحلا من القدس، ونزلا على مدينة صيدا ثالث ربيع الآخر، فحاصروها وضايقوها برا وبحرا، وكان الاسطول المصري مقيما على صور، فلم يقدروا على انجادهم، فعمل الفرنج برجا من خشب واحكموه وجعلوا عليه مامنع من الحجارة والنار، وزحفوا فلما عاين أهل البلد ذلك ضعفت قلوبهم واشفقوا ان يصيبهم ماأصاب أهل بيروت وغيرها، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الافرنج وطلبوا الامان، فامنهم ملكهم على نفوسهم وأموالهم والعسكر الذين عندهم، ومن أراد المقام يقيم، ومن أراد المسير عنهم لايمنعونه، وحلف لهم على ذلك، وخرج الوالي وجماعة كبيرة من أعيان البلد في العشرين من جمادى الاولى، فوصلوا دمشق، وأقام بالمدينة خلق كبير تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما، ورحل عنها الى القدس، ثم عاد الى صيدا فقرر عليهم عشرين ألف دينار، وأقرهم في بلدهم.

وفي هذه السنة أيضا سار صاحب أنطاكية مع من اجتمع إليه من الافرنج إلى الأثارب، وهو بالقرب من حلب وحصره ودام القتال بينهم، ثم ملكوها بالسيف، وقتلوا من أهلها ألفي رجل، وأسروا الباقين، ثم

ساروا إلى زردنا فملكوها بالسيف، وجرى على أهلها ماجرى على أهل الأثارب، ثم ساروا إلى منبج وبالس فوجدوهما وقد أخلاهما أهلهما، فعادوا عنهما، وصالح الملك رضوان صاحب حلب الأفرنج على ثلاثين ألف دينار يحملها إليهم مع خيول وثياب، ووقع الخوف في قلوب أهل الشام من الأفرنج، فبذل لهم أصحاب البلاد أموالاً وصالحوهم، فصالحهم أهل مدينة صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على ألفي دينار.

وفيها غدر بغدوين صاحب القدس ونزل طبرية، وخرج طغتكين صاحب دمشق فنزل على رأس الماء، ثم استقر الأمر على أن يكون ماكان من البلاد مناصفة.

وفي تاريخ بيبرس: لما جرى ماذكرنا من الأفرنج عظم خوف المسلمين منهم وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا بأن الفرنج يستولون على سائر الشام لعدم المحامي عنهم، فشرع أهل البلاد الاسلامية من الشام في الهدنة معهم، فاستنع الافرنج الا على قطيعة يأخذونها إلى مدة معلومة يسيرة أو الى الحصاد، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين الف دينار وخيول وثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، فخرجت مركب تجار من مصر، فلما أقلعت خرج عليها مراكب الأفرنج، وأخذوا البضائع وأسروا التجار، فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد يستنفرون الناس على الأفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، وقصدوا جامع السلطان، واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بتجهيز العساكر للجهاد، وأرسل من دار الخليفة منبراً إلى جامع السلطان، فلما كانت الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة ومعهم أهل بغداد، فمنعهم صاحب الباب من الدخول فغلبوا عليه، ودخلوا الجامع

وكسروا الشباك، وهجموا إلى المنبر فكسروه وبطلت الجمعة، وأرسل الخليفة الى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورقعه، فتقدم حينئذ إلى من معه من الامراء بالمسير الى بلادهم والتجهز للجهاد، وسير ولده الملك مسعود مع الامير مودود صاحب الموصل، وتقدموا الى الموصل ليلحق بهم الامراء ويسيروا الى قتال الافرنج.

وفي المرآة: وفي سنة اربع وخمسمائة جهز السلطان محمد شاه العساكر الى الشام لقتال الافرنج. منهم: شرف الدين مودود صاحب الموصل، وتقدموا الى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا الى قتال الافرنج.

وفي المرآة: وفي سنة اربع وخمسمائة جهز السلطان محمد شاه العساكر لقتال الافرنج، منهم: شرف الدين مودود صاحب الموصل، والأمير أحمديل صاحب مراغة، والأمير سقمان القطبي صاحب ديار بكر، والأمير ألبي والأمير زنكي ابنا برسق، والأمير ايلغازي صاحب ماردين، فاجتمعوا في حران، وكتب اليهم ابن منقذ صاحب شيزر وعرفهم ان طنكريد صاحب انطاكية قد نزل بأرض شيزر وشرع في بناء تل في مقابل شيزر، ويريد ان يبنيه حصناً، فقطعوا الفرات ونزلوا على تل باشر ينتظرون البرسقي صاحب همذان، فوصل وهو مريض ,إختلفت آراؤهم، ومرض سقمان وطمع أحمديل في بلاده، فعادوا عن تل باشر إلى حلب، وعاثوا في البلاد من أعمال حلب، وفعلوا أقبح من فعل الأفرنج، وتوقعوا خروج الملك رضوان صاحب حلب إليهم، أو خدمة يبعثها إليهم، فلم يلتفت وأغلق أبواب حلب، وأخذ رهائن أهلها إلى القلعة، واستعد للقتال، وقد كانوا لما قطعوا الفرات كاتبوا طغتكين صاحب دمشق بالوصول إليهم ليدبروا الأمور، وكتب إليه السلطان بمثل ذلك، فجمع وحشد رجاله ورجال حمص وحماة ورفنية، وسار في جمع كثيف طلبا للجهاد، فوصل إليهم على حلب، فسروا بوصوله، وقويت

نفوسهم، فلم يرمنهم عزيمـة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد، وأما سقمان فعاد الى بلاده ومـات في طريقه قبل وصـوله في الطريق الى الفـرات، وأما البرسقي فكان بـه نقرس فحمل في محفة ولاقول له ولافعـل، وأما أحمديل فإن عزمه قد قوي على العود لأجل بلاد سقمان وطمعه في اقطاعه يأخذه من السلطان.

فقـال طغتكين لأتابـك: ارحلـوا الى المعرة، فـرحلـوا على كره، فقـال: انزلوا على طـرابلس، فتوقفوا ثم تسللـوا وتفرقوا تفرق أيـدي سبأ، ولم يبق منهم سوى شرف الـدين مودود، وكان مصـافيا لأتابك طغتكين مصـافاة صدق، فنـزلا على العاصي، وكان الأفـرنج قـد تفرقوا الى مـواضعهم، فلما تفرق المسلمون رجعوا وصاروا يدا واحدة على الاسلام، ونزل ابن منقذ من شيـزر الى طغتكين ومودود وخـدمهما، وحمل إليهما، وجاء الافـرنـج فنزلـوا على تل معشر مقابـل شيزر ليبنوا عليه حصنـا، ونازلهم طغتكين ومودود، وطمع الترك وتخطفـوهم، ومنعوا احـدا منهم ان يخرج من خيمتـه، وقتلوا وأسروا، فلما رأوا أحوالهم نـاقصة انكفـأوا راجعين الى انطاكيـة وطرابلـس والترك في آثـارهـم قتـلا وأسرا، واستحكمـت المودة بين طغتكين ومـودود صاحب الموصل.

وذكر بيبرس في تاريخه اجتماع من ذكرناهـم من الأمراء أصحاب البلاد وعبورهـم من الفـرات في سنة خمس وخمسمائة، وقـال: لما اجتمعوا سـاروا الى بلـد شبختان ففتحـوا عدة حصـون من بـلاد الافرنـج وقتلوا مـن بها منهم، وحصروا مـدينة الرهـا مدة، ثم رحلـوا عنها من غير أن يملكـوها، وسبب ذلك ان الافرنج اجتمع فـارسهم وراجلهم وساروا ليعبروا الفرات، ويمنعوا الرهـا من المسلمين، فلما بلغوا الفرات بلغهـم كثرة المسلمين فلم يتقدمـوا، وبلغ المسلمين ذلك، فرحلـوا الى حران ليعبر الافرنـج الفرات، فلما عبروا ووصلـوا إلى الرهـا ومعهـم الميرة والذخـائر، فجعلـوا فيها كـل مايحتاجون إليه بعد أن أشرفت على ان تـؤخذ، وأخذوا منها كل من عجز

ورجعوا فعبروا الفرات الى الجانب الشامي، وطرقوا بلاد حلب فنهبوا وأفسدوا فيها وأسروا وقتلوا خلقا كثيرا.

وأما العسكر السلطاني فإنهم لما سمعوا بعود الافرنج عن الرها الى الفرات، رجعوا الى الرها وحاصروها، فرأوا سورها محكما، وقد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم، فلم يجدوا فيها مطمعا، ونزلوا على تل باشر، فلم ينالوا منها غرضا، ورحلوا الى حلب، فأغلق الملك رضوان أبواب البلد، ولم يجتمع بهم، ومرض الامير سقمان وتوفي في بالس فحملوه في تابوت إلى بلادهم، فقصدهم ايلغازي ليأخذهم ويغنم ما معهم، فحملوا تابوته في القلب وقاتلوا فانهزم إيلغازي وغنموا ما معه، وأراد الأمير أحمديل أن يطلب من السلطان ماكان لسقمان، ولما سمع الافرنج تفرق عساكر السلطان وابن منقذ صاحب شيزر، فسار الى مودود وطغتكين، وهون عليهما أمر الافرنج وحرضهما على الجهاد، فرحلا الى شيزر، ونزلا عليها بالقرب منهم، وضيقوا على الافرنج الميرة ولزوهم بالقتال، والأفرنج يحفظون نفوسهم، فلما رأوا قوة المسلمين عادوا الى أفامية وتحصنوا فيها، وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوهم في ساقتهم، وعادوا الى شيزر.

وفي هذه السنة ايضا نزل الافرنج مدينة صور، واجتمعت عساكرهم عليها عندما تفرقت العساكر الاسلامية، وساروا اليها مع بغدوين صاحب القدس، ونازلوها وعملوا عليها ثلاثة أبراج خشب، علو البرج سبعون ذراعاً، وفي كل برج ألف رجل، وألصقوا أحدها بسور البلد، وكانت صور للآمر بأحكام الله صاحب مصر، ونائبه بها عز الملك الاعز، فأحضر أهل البلد وسألهم في حيلة يدفع بها شر الابراج، فقام شيخ من طرابلس وضمن احراقها، فعمد الى ألف رجل فألبسهم السلاح، ودفع الى كل واحد منهم حزمة حطب، فقاتلوا الافرنج حتى وصلوا الى البرج الملتصق بالمدينة، فالقى الحطب من جهاته، والقى فيه

النار، ثم خاف ان يشتغل الفرنج الـذين في البرج باطفاء النار ليتخلصوا، فرمـاهم بجرار مملـوءة من العذرة كـان أعدها لهم، فلما سقطـت عليهم اشتغلوا بها نـالهم من بين الروائح، فتمكنت النـار منه، فهلك كل مـن به الا القليل، وأخذ المسلمون منـه ماقدروا عليه بالكلاليـب، ثم أخذ قففا كبـارا مـلأهـا بـالحطـب المسقـي بـالنفـط والـزفـت، والـزيـت والكتـان والكبريت، فـرماهم بسبعين سلة منهـا، فأحرق البرجين الآخريـن، ثم ان أهل صـور حفروا سراديـب تحت الارض ليسقط فيهـا الفرنـج اذا زحفوا اليهم، فاستـامن الى الافرنج مـن أهل البلد نفر مـن المسلمين واعلموهم بما عملوا فحذروا.

وأرسـل اهل البلـد الى اتابـك طغتكين صـاحب دمشـق يستنجدونـه ويطلبـون ان يسلموا اليـه البلد، فسـار في عسكـره الى نواحـي بانيـاس، وسير إليهـم نجدة مـائتي فـارس ، فدخلـوا البلـد، فامتنـع من فيـه بهم واشتد القتال من الافرنج خوفـا من النجدات، وفني النفط، وظفروا بشيء منه في شرف من الارض لايعلم من خزنه.

ثم إن عـز الملك صـاحب صـور أرسل الى طغتكين ليكثـر من تجنيـد الرجال ويقصـدهم ليملك البلد، فـأرسل طغتكين طائرا فيه رقعـة يعلمه بوصـول المال، ويأمره ان يقيـم بمكان ذكره ليجـيء الرجال إليـه، فسقط الطـائر على مركـب للفـرنـج، فأخـذه رجـلان: مسلـم وأفرنجـي، فقـال المسلم: نـرسله لعـل ان يكون فيـه فرج لهم، فلـم يمكنه الافـرنجي مـن ارسالـه وحمله الى الملـك بغدويـن، فلما وقف عليـه سير مركبـا الى المكان الذي ذكـره طغتكين، وفيه جماعة مـن المسلمين الذيـن استأمنوا إليـه من صور، فوصل إليهم العسكر وكلموهم بـالعربي، فلم ينكروهم، فأخذوهم أسرى، وحملوهم الى الافرنج فقتلوهم وطمعوا في أهلها.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن شمس الخلافة نائب عسقلان مات في هذه السنة، وسبب ذلك أن شمس الخلافة كان نائبا بعسقلان من جهة الآمر بأحكام الله، خليفة مصر، وكان الوزير الافضل ابن أمير الجيوش رتبه فيها، فلما كان في هذه السنة استولت الافرنج على البلاد اولا فاولا، فخاف منهم النائب شمس الخلافة، فراسل بغدوين صاحب القدس، وأهدى إليه هدايا وهادنه وامتنع من تحكم المصريين عليه الا فيما يريد من غير مجاهرة بذلك، فوصلت الاخبار الى مصر بذلك فجهز جيشاً وأمره سرا ان يقبض عليه إذا نزل إليه، وأمره ان يقول: إنه تجهز للغزاة ويعلمه الحال، فلما وصل الجيش إليه امتنع من الخروج وجاهر بالعصيان، فلما علم الأفضل امتناعه أرسل إليه يطيب قلبه، وأقره على عمله، فلم يزل على هذه الحال، وأنكر أمره أهل البلد، فوثبوا عليه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى مصر، ونهبوا داره، وأرسلوا إلى الافضل بصورة الحال فشكرهم على ذلك، وأرسل واليا عليهم عوضه، ووصاه بالرفق بهم والاحسان إليهم، فزال ماكانوا يخافونه.

ومنها أنه ورد رسول ملك الروم إلى السلطان محمد يستنفره على الافرنج ويحبيشه على قتالهم ودفعهم عن البلاد، وكان وصولهم قبل وصول أهل حلب، وكان أهل حلب يقولون للسلطان: أما تستحي ان يكون ملك الروم اكثر حمية للاسلام منك حتى أرسل إليك في جهاد الافرنج؟ وكانوا يحرضونه بهذا القول ومثله.........

ذكر من توفي فيها من الاعيان

الأمير سقمان.. ويقال له سكمان أيضاً بالكاف موضع القاف ــ بن أرتق ، صاحب ديار بكر وخلاط، قد ذكرنا أنه مات في بالس عند

رجوعـه من بـلاد حلب الى بـلاده، وكان قـد مرض ومـات فيها، فحمـل تابـوته الى خـلاط ودفن بها، وقيل دفـن في ميافـارقين، وكان ملكـا عادلا مجاهدا خيرا، وقيـل مات في ميـافارقين ودفن بها، واللـه أعلم، وكـان أبوه أرتق مات بالقدس.

-١١٠٤٢-

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، وبقية أصحاب البلاد على حالهم والعساكر السلطانية في بلاد الشام لأجل قتال الافرنج صحبة الامير مودود، صاحب الموصل، وجرى لهم ماذكرناه في السنة الماضية، وكانوا قد تفرقوا كما ذكرنا.

وكان طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها، وقصد حصن الحبيس في السواد من أعمال دمشق، وهو للفرنج، فحصره وملكه بالسيف وقتل من كان فيه، وعاد إلى الأفرنج الذين على صور، وكانت الميرة تقطع عنهم في البر، فاحضروها في البحر، وخندقوا عليهم، ولم يخرجوا إليه فسار إلى صيدا، وأغار على ظاهرها، وقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركبا على الساحل وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر، والفرنج يلازمون قتالهم، وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة، فدام القتال إلى أوان إدراك الغلات، فخاف الافرنج ان يستولي طغتكين على غلات بلادهم، فساروا عن البلد إلى عكا، وعاد عسكر طغتكين اليه، وأعطاهم أهل صور الأموال وغيرها، ثم أصلحوا ماتشعث من سورهم وخندقهم، وكان الأفرنج قد طموه.

وفي المرآة: وفي سنة خمس وخمسمائة جمع بغدوين وحشد لقصد صور، فكتب واليها وأهلها إلى أتابك طغتكين يستنجدونه ويسألونه ان يسلموها إليه قبل مجيء الافرنج لانهم أيسوا من نصرة أهل مصر، فبعث إليهم أتابك الفرسان والرجالة وسار إليها بغدوين في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، فقطع أشجارها وقاتلها أياما وعاد خاسرا وخرج طغتكين من دمشق وخيم ببانياس، وجهز الخيالة والرجال الى صور نجدة، فلم يقدروا على الدخول، فسار إلى السواد ونزل على الحبيس

وهو حصن عظيم وحاصره وفتحه عنوة، وقتل من فيه، وشرع بغدوين في عمل الابراج والزحف على صور، وزحف إليهم أتابك ليشغلهم عن صور، فخندقوا عليهم وهجم الشتاء، ولم يبال الافرنج لانهم كانوا في ارض رملة والمسلمون في ارض وعرة، وكانت المادة تصل إلى الافرنج من صيدا، فسار إليها أتابك طغتكين وقتل جماعة من البحرية، وغرق المراكب، ومع هذا فإنه يواصل أهل صور المكاتبة ويقوي قلوبهم، وعمل الافرنج برجين عظيمين، وزحفوا بهما الى السور، وكان طول البرج الكبير زيادة على خمسين ذراعاً، وطول الصغير نيفا وأربعين ذراعا، وزحفوا اول يوم من رمضان، وخرج أهل صور بالنفط والقطران لحريق البرجين، ورموا بها، فنزلت النار، فهبت الريح فأحرقت البرج الصغير بعد المحاربة العظيمة، ونهب منه زرديات وطوارق وغير ذلك، ولعبت النار في البرج الكبير، فأطفأها الافرنج، وأشرف أهل البلد على الهلاك، فتصدر شخص من المسلمين وتحيل في حريق البرج فاحترق وخرج المسلمون، فأخذوا منه من الآلات والأسلحة ما لاتوصف (كثرته) فحينئذ وقع يأس للفرنج فرحلوا وأحرقوا جميع ماكان لهم من المراكب على الساحل والأخشاب والعلوفات وغيرها، وجاءهم طغتكين فما سلموا إليه البلد ولاوفوا له، فقال: أنا مافعلت مافعلت إلا لله تعالى، لالرغبة في حصن ولامال، ومتى دهمكم أجبتكم بنفسي ورجالي، وكان من سعادته أنهم لم يسلموا إليه، لانه كان عاجزا عن حفظ صور ودمشق، وصور ماكان لهم بد من أخذها، ورحل عنها.

وذكر في المرآة أيضاً ان أهل صور لما كتبوا إلى طغتكين بتسليم البلد إليه من شدة ماقاسوا من الحصار والقتال وعدم نصرة أهل مصر، وكان والي صور عز الملك أنوشتكين الأفضلي، فجاء رسولهم إلى بانياس، وواليها سيف الدين مسعود فأخبره، فسار مسعود معه إلى دمشق، فوجد أتابك قد مضى الى ناحية حماة ليتفق مع الملك رضوان صاحب حلب، فخاف مسعود ان يتأخر الامر الى حين عودة أتابك من حماة فيسبق

بغدوين فينزل على صور، فيفوت الغـرض، فتحدث مع تاج الملك بوري بالمسير معه الى بانيـاس، وانتهاز الفرصة في تسليم صور، فـأجاب، فسار معه الى بانياس، وتم مسعود الى صور ومعـه من يعتمد عليه من العسكر، وبلـغ أتابـك فبعـث قطعة مـن الأتـراك إلى تقويـة صـور، فساروا إليهـا ودخلوهـا، وطابت نفـوس أهل صـور، ثم كتب إلى الأفضـل وزير مصر بـأن الأفرنـج نزلـوا على صور، وشـارفـوا على أخذهـا، وبعث أهلهـا الي يستنجدونـي، واني أنجدتهم بنفسي، ومـالي ورجالي، ومتـى وصل إليهـم من مصر من يذب عنها سلمتها إليه، فلا تهمل حال الاصطول.

وجاء بغـدوين، فبلغـه الخبر فتوقـف وفات غـرضه، ولما فـات غرضـه شرع في الغارات على حـوران والسواد، وكثر فسـاده، ثم كتب أتـابك إلى مودود صـاحب الموصـل يخبره بالخبر، ويطلـب نجدتـه، وكانـا قد اتفقـا وتصادقا وتحابا محبة عظيمة كما ذكرنا.

فسـار مودود بعسـاكره فقطـع الفـرات، وخرج إليـه أتابـك طغتكين، فتلاقيـا عند سلميـة واتفق رأيهما على قصـد بغدويـن، وسارا مـن حمص ومعهما عساكـر الشرق وعساكـر حمص وحماة ودمشق، وجـاءوا على البقاع فنـزلوا الغـور عنـد الاقحوانـه، وجمع بغـدوين ونـزل على جسر الصنبرة، فتقدم بعض المتعلقة فـالتقوا الأفرنج، ونشب القتال، وجـاء أتابك وقطع الجسر واقتتلوا، فانهزم الأفرنج وقتل منهم نحـو ألفي فرنجي من الفرسان والشجعان والأبطال، وغنموا أثقالهم، وأفلت بغـدوين بعدما قبض وأخذ سلاحـه، وغرق أكثـرهم في البحيرة، وبعـث أتابـك ومودود إلى السلطـان محمد شاه يخبرانه بهذا الفتح العظيم وبعـث سلاحهـم، ثم أغار المسلمون على الضياع التـي بين القدس وعكـا، وأخربـوا ونهبوا وعـادوا إلى دمشق، ونـزل مودود في قصر الميـدان الأخضر، وبذل أتـابك طغتكين جهـده في التقدمـة، ودخل يـوم الجمعة الجامـع، وزار المصحف العثماني، ثـم ودعه وعاد إلى بلاده.

وذكر بيبرس هذا الذي ذكرناه.

وفي المرآة: وفي سنة خمس وخمسمائة جمع بغدوين إلى ههنا في سنة ست وخمسمائة... ومنها أن العظيمي ذكر في تاريخه ان الأفرنج فتحوا المرقب في سنة خمس وخمسمائة وهو الحصن المنيع الذي لايرام ولايقدر عليه، وذلك بسبب أن الغارات توالت عليه أربع سنين حتى ضعف أهله وهربوا وأخذ البلد من باقيهم بعد أن حوصر مدة، ثم فتحه الملك المنصور قلاوون من أيدي الأفرنج سنة أربع وسبعين وستمائة على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة بعد الخمسمائة:

وفيها سار الأمير مودود صاحب الموصل إلى الرصافة ورعى عسكره زرعها إلى سروج، وأهمل أمر الافرنج ولم يحترز منهم، فلم يشعر الا وقد كبسهم جوسلين صاحب تل باشر، وكانت دواب العسكر منتشرة، فأخذ الافرنج كثيرا منها، وقتلوا كثيرا من العسكر، فلما تأهب المسلمون للقائه عاد عنهم إلى سروج.

قلت: هذا جرى على الأمير مودود بعد أن عاد من بلاد الشام.

وفيها عاد جواب الأفضل وزير مصر إلى أتابك طغتكين في حديث مدينة صور برسول من عنده، وبعث بالاسطول فيه الميرة، ومال للنفقة للعساكر وغلات، وكان مقدم الاسطول شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي الوالي كان بطرابلس عند تملك الأفرنج لها، فرخصت الأسعار واستقامت الأمور، وزال طمع الأفرنج عن صور، وكان معه خلع فاخرة من صاحب مصر لأتابك طغتكين وولده تاج الملوك بوري ولخواصه، ولمسعود الوالي بصور، وأرسل بغدوين إلى مسعود يسأله الموادعة والمسالمة

لتنحسم أسباب الأذى من الجانبين، فأجـابه الى ذلك، وانعقد الامر بينهما على السداد واستقـامت الأمـور وأمنت السبل، ومشـت التجار مـن جميع الأقطار.

وفيها عـامل جماعة مـن الباطنية من أهـل أفامية ومعـرة النعمان ومعرة مصرين على حصن شيـزر في عيد فصح النصارى، فوثب فيـه مائة رجل على حين غفلة من أهله ، فملكوا الحصن وأخـرجوا من كان فيه وأغلقوا أبوابـه، وكان بنومنقذ قـد خرجوا لمشـاهدة عيد النصارى، وبلغهـم الامر فجاءوا، وكـانوا قـد أحسنوا الى هـؤلاء الذيـن وثبوا، وإنما رتبـوا ذلك في المدة الطـويلة، ودلـت الحرم الحبـال من القلعـة وتسلقـت رجـال ونزلـوا وفتحوا الأبواب، ودخـل بنو منقذ فقاتلوهـم وقتلوهم عن آخـرهم، وقتلوا كل مـن كان على رأيهم في البلد من البـاطنية، ووقع الاحتراز بعـد ذلك، فما كان يغيب منهم واحد إلا ويحضر الآخر.

وقيـل كان بنـو منقذ خـرجـوا إلى الصيد، وفعلـت البـاطنية مـاذكرنـا لانتهازهم الفرصة.. ...

الأمير سقمان بـن أرتـق، قد ذكـرنـا وفـاتـه في هـذه السنة، ثـم أربـع وخمسمائة، وذكر المؤيـد وفاته في تاريخه في هـذه السنة، ثم قـال: ولما توفي سقمان ملك خـلاط بعده ابنـه ظهير الديـن ابراهيـم بن سقمان، وسلـك سيرة أبيـه، وبقـي في ملـك خلاط إلى أن تـوفي سنـة احـدى وعشريـن وخمسمائة، فتولى مكـانه أخـوه أحمد بن سقمان الى ان تـوفي في الولايـة بعد أحد عشر شهراً، ثـم تحكمت والدتهما اينانج خاتـون ابنة أركماز، وبقيت مستبدة بمملكة خـلاط ومعها ولد ولدها سقمان بن ابـراهيم بن سقمان، وكـان عمره سـت سنين، فقصـدت اعدامـه لتنفـرد بالمملكـة، فلما رأى كبراء الدولـة سوء نيتها لولـد ولدها المذكـور اتفق جماعة منهم وخنقـوها في سنة ثمان وعشريـن وخمسمائة، واشتغل ابن ابنهـا شاه أرمـن سقمان بن

ابـراهيـم بـن سقمان في الملـك إلى سنـة تسـع وتسعين وخمسمائة على ماسنذكره ان شاء الله تعالى.

بسيل الأرمنـي صاحب بـلاد الأرمن، هلـك في هذه السنة، فقصـدها صاحب أنطاكيـة الأفرنجي ليملك بلاد الأرمن المعـروفة الآن ببلاد سيس فمات في الطريق وملكها سيرجال.

طنكريد الأفرنجـي صاحب أنطاكية، هلك في هذه السنـة وهو قاصد بـلاد الأرمن كما ذكـرنـا الآن، وتـولى أنطاكيـة بعـده ابـن أخيه سيرجـال الافرنجي.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة بعد الخمسمائة:

استهلـت هذه السنـة والخليفة هـو المستظهـر باللـه، وبقية أصحـاب البـلاد على حالهم، غير أن صـاحب حلـب رضوان، وصـاحب الموصـل مودود ماتا في هذه السنة.

ذكر وفاة رضوان صاحب حلب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في تـرجمته، هـو فخر الـدولة، ويقـال فخر الملـك رضوان بـن الملك تاج الدولة تتش ابن السلطـان أبي شجاع ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق. صـاحب حلب، ملك حلب في السنة التـي قتل أبوه فيها وهي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

الثاني: في سيرتـه، وكانت سيرته قبيحـة، وأموره غير مرضية، وكـان قد قتل أخويـه قبل موته، وهما: أبـو طالب، وبهرام، وكان يستعين بـالباطنية في كثير من أموره لقلة دينه.

وفي المرآة: وكان ظالما بخيلاً شحيحاً، قبيح السيرة، ليس في قلبه رحمة ولاشفقة على المسلمين، وكانت الأفرنج تغير وتسبي وتأخذ من باب حلب، ولايخرج إليهم، وهو أول من بنى بحلب دار الدعوة، وكان المستولي على أمره جناح الدولة حسين ففارقه، وقتل خواص أصحابه واحدا بعد الواحد.

الثالث: في وفاته، مرض أمراضا مزمنة ورأى العبر في نفسه، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

وقال ابن خلكان: مات رضوان في سلخ جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، ومن نوابه أخذ الأفرنج أنطاكية في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، ولما مات كان في خزائنه من العين والعروض ستمائة ألف دينار.

ذكر ولاية ألب أرسلان بن رضوان:

ولما توفي رضوان المذكور، ولي بعده ابنه ألب أرسلان الأخرس، واستولى على الأمور لؤلؤ الخادم، وكان الأمر والحكم إليه، ولم يكن لألب أرسلان غير الاسم، ولم يكن أخرسا، وإنما كان في لسانه حبسه أو تمتمة، وكانت أمه بنت ياغي سيان صاحب أنطاكية، وعمره حين ولي ست عشرة سنة، وكان يلقب بتاج الدولة، وكان فعله كفعل أبيه، فإنه قتل أخوين كانا له، اسم أحدهما ملك شاه، واسم الآخر مبارك قتلهما مكافأة لأبيه مثلما فعل بأخويه، وكانت الباطنية قد كثروا في حلب في أيام أبيه حتى خافه رئيسها ابن بديع وأعيان أهلها، فلما توفي رضوان قال ابن بديع لألب أرسلان في قتلهم والايقاع بهم فأمره بذلك فقبض على مقدمهم ابي طاهر الصائغ وعلى أصحابه، وقتل أبا طاهر وأخذ أموال الباقين وأطلقهم فتفرقوا، فمنعهم من قصد الأفرنج، ومنهم من توجه حيث شاء.

وفي تـاريخ العظيمـي: ووثـب صـاعد بـن بـديـع رئيس حلـب على الباطنية ومقدمهـم أبو طاهر وخواصه اسماعيل، وقتـل منهم جماعة، وملأ منهـم السجـون، وقتل مـن مقـدميهـم جماعـة ظفروا بهم، مقـدار مـائة وخمسين رجلاً، وكـان الحكيم المنجـم وأبو طاهـر الصائغ أول مـن أظهر هذا المذهب بالشام في أيام رضـوان، فمال إليهم خلق كثير من حلب إلى جبل السماق وسرمين والمعـرة وتلك النـواحي، فلما مـات رضوان قـرر ابن بديـع رئيس الأحـداث بحلب مـع ألب أرسـلان بن رضـوان على قتلهم وجرى ماذكرنا.

ذكر مقتل مودود صاحب الموصل:

والكـلام فيـه على أنـواع، الأول في تـرجمتـه: هـو الأمير مـودود بـن ألطنطاش التركـي، وكان ألطنطاش من ممـاليك السلاجقـة، وملك الأمير مودود الموصل وغيرها في سنة اثنتين وخمسمائة، أخـذها من الأمير جاولي، كما ذكرنا.

الثاني في سيرته: كان رجلا خيرا عادلا، صاحب سيرة حسنة.

الثالـث في مقتله: وقصته أنه اجتمـع في هذه ا لسنة المسلمـون، وفيهم الأمير مـودودهـذا وغيـزك صـاحب سنجـار والأمير ايـاز بـن ايلغـازي، وأتابك طغتكين صاحـب دمشق، ودخلوا بلاد الأفرنج وجمع الأفـرنج مع بردويل ملك القدس، وجوسلين صـاحب جيشهم وغيرهما من المقدمين، وكان سبـب اجتماع المسلمين أن بردويل تـابع الغارات على بلـد دمشق، فأرسل طغتكين صـاحبها إلى الأمير مودود يعرفـه الحال ويستنجده ويحثه على سرعـة الوصـول إليه، فجمـع العسـاكر وسـار فعبر الفرات، فخـاف الأفرنج، وسمع طغتكين فسار إليـه ولقيه بسلمية، واتفق رأيهم على قصد صاحب القدس، فسـاروا فنزلوا عند الأقحوانة على الأردن، ونـزل الأفرنج

على الصنبرة بينهم نهر الأردن، وهم مع ملكهم بردويل صاحب القدس، فاقتتلوا بالقرب من طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان، ثم إن الافرنج انهزموا وكثر فيهم القتل، وأسر ملكهم بردويل ولم يعرف فأخذ سلاحه وأطلق فنجا، وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ووصل الأفرنج إلى مضيق دون طبرية فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية، فقويت قلوبهم وعادوا إلى الحرب، فأحاط المسلمون بهم من كل جانب، فأقاموا ستة وعشرين يوما والمسلمون يرمونهم بالنشاب فيصيبون من قرب منهم، ومنعوا المير عنهم، فلم يخرج [أحد] منهم، فسار المسلمون إلى بيسان فنهبوا بلاد الأفرنج مابين عكا والقدس وحرقوها، وقتلوا من ظفروا به من النصارى، وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم فعادوا ونزلوا مرج الصفر، وأذن الأمير مودود للعساكر بالعود والاستراحة والاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة، وبقي في خواصه ودخل دمشق في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وأقام بها عند طغتكين إلى الربيع، فدخل هو وطغتكين الجامع فوثب عليه باطني فقتله وجرح الباطني أربع جراحات وقتل وقطع رأسه وأخذ فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان مودود صائما فقيل له أفطر، فقال: والله لا لقيت الله الا صائما، فمات من يومه رحمه الله.

وقيل إن الباطنية خافوه فقتلوه، وقيل إن طغتكين وضع عليه من قتله، وهذا بعيد، والله أعلم، وكتب ملك الافرنج الى طغتكين: « إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله ان يبيدها»، وتسلم غيزك صاحب سنجار ما معه من الخزائن، وحملها الى السلطان، ودفن مودود بدمشق في تربة الملك دقاق بن تتش صاحب دمشق كان، وحمل بعد ذلك إلى بغداد فدفن في جوار أبي حنيفة رضي الله عنه، ثم نقل إلى أصفهان.

وفي تـاريخ المؤيـد: ودخـل مـودود الجامع ومعـه طغتكين وأصحـابهما فصلوا الجمعة، وخرج طغتكين ومودود يمشيـان في صحن الجامع، فوثب بـاطني على مـودود وضربـه بسكين، وقتـل الباطنـي وحمل مـودود إلى دار طغتكين ومات من يومه ذلك.

وفي المرآة: لما عاد مـودود من قتـال الأفرنـج نزل في دمشـق في الميدان الأخضر، وكان يـدخل في كـل جمعة إلى دمشـق فيصلي في الجامع، ويتبرك بمصحـف عثمان رضي الله عنـه، فـدخل إلى الجامـع على عـادته، ومعـه طغتكين والغلمان حوله بالسيوف المسللـة وأنواع السلاح وأتابك طغتكين بين يـديه خـدمة لـه، فلما حصلا في صحـن الجامع وثـب رجل مـن بين الناس لايـؤبه له، ولايحفل بـه، فقرب من مودود كـأنه يدعو لـه ويطلب الصـدقـة، وضربـــه بخنجـر أسفـل سرتـه ضربتين احـــداهما نفـذت إلى خاصرتـه، والأخرى إلى فخـذه، والسيوف تأخـذه من كـل ناحيـة، وقطع رأسه ليعـرف شخصه ومـا عرف، فـأحرق، وعـدا أتابـك خطوات وقـت الكائنـة وأحاط به أصحـابه، ورجـع إلى مودود وهو يمشي متماسكـا حتى وقع عنـد الباب الشمالي من الجامع، وحمل إلى دار أتـابك وخيط جـرحه، فعـاش ساعـات يسيرة ومات في يـومـه، فقلق أتـابـك لوفـاته على هـذا الوجـه، وحزن حـزنا شديـدا، وكذا سائر النـاس، ودفن في مشهـد داخل باب الفـراديس، وشرع أصحابه في العـود إلى الموصل وغيرها مـن البلاد، وأمر لهم باطلاق يستـدعونه لسفرهم واستصحبوا معهم أمـواله وجواريه وأسبابـه، ولم يزل مدفونـا حتى وصل مـن زوجته وولده من الموصـل ـ في شهر رمضان ـ مـن حمله في تابوت إلى الموصل، وشيعه أتـابك إلى الثنية، وبلغني أن أتابك سـأله أن يفطر في ذلك اليوم، وكان صـائما فلم يفعل، وقـال: والله مـالقيت الله إلا صـائما، وكتب بغـدوين ملـك الافرنـج الى طغتكين: «ان امـة قتلت عميـدهـا، في يوم عيـدهـا، في بيـت معبودهـا، لحقيق على اللـه ان يبيدهـا» وقول بغـدوين: «يـوم عيدهـا» يعني «يـوم الجمعة» وقيل انها كانت في سنة خمس وخمسمائة، وذكر بعضهم ان أتابك

-١١٠٥٢-

خاف منه، فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح، فإن طغتكين كان أحب الناس إليه، وحزن عليه حزنا لم يحزنه أحد على أحد، وشق ثوبه عليه، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصدق عنه بمال جزيل.........

-١١٠٥٣-

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة ببغداد المستنجد العباسي، وبمصر العاضد العلوي، ووزيره بمصر شاور، ولكنه قتل في هذه السنة على يد أسد الدين شيركوه حين فتح مصر على مانذكره الآن، إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح مصر على يد شيركوه وماجريات ماحدث له، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في سبب توجه شيركوه إلى مصر وسفره إليها، وهي المرة الثالثة، وقد ذكرنا سفرتين له قبل ذلك، وكان السبب في ذلك أن الفرنج لما جعلوا لهم شحنة بالديار المصرية تحكموا في أبوابها وسكنها أكثر شجعانهم على ماذكرنا، وطغوا وبغوا، واستحوذوا عليها، وأخرجوا منها غالب أهلها من دورها، ولم يبق إلا أن يملكوها بالكلية، ومع ذلك ركبت امدادهم من كل ناحية، وصاروا صحبة مري ملك عسقلان في جحافل هائلة، فأول ماأخذوا مدينة بلبيس فقتلوا منها خلقا كثيرا وأسروا آخرين، ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم وجعلوها موئلا ومعقلا، وكان ذلك في مستهل صفر من هذه السنة، ثم صاروا من بلبيس، ونزلوا على القاهرة عاشر صفر من ناحية باب البرقية، فأمر الوزير شاور الناس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقل الناس إلى القاهرة، فنهب البلد، وذهب للناس أموال كثيرة جدا، وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً، فأرسل العاضد الى الملك العادل نور الدين محمود رحمه الله يستغيث به،

وأرسل في الكتب شعور نسائه يقول: أدركني واستنقذ نساء المسلمين من أيدي الأفرنج، والتزم له بثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين

شيركوه مقيما عندهم وله اقطاعات زائدة على الثلث، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش إلى الديار المصرية.

وفي تاريخ بيبرس: قدم الفرنج من الساحل إلى مصر طامعين في ملكها لما بلغهم أن نور الدين بن زنكي فرق عساكره وانشغل بالشام فيما هو بصدده، ورأوا خلو مصر من الجند وأن ليس بها مانع، وراسلوا ملكهم مري في ذلك فلم يجبهم إليه، فقالوا: إن لنا بها قوة، وان شاور كان لما فارقه الفرنج ترك عنده بمصر جماعة منهم يحرسونه ممن يأتي إليه من عسكر الشام، فقال لهم مري: فهذا لايتم لنا وإن ملكناهم لم تطغنا العامة والفلاحين، ويجيء عسكر نور الدين فيأخذونها فيكون ذلك دماراً على الفرنج ووهنا، فساروا وأظهروا أنهم قاصدوا حمص، فلما سمع نور الدين بذلك جمع عساكره وسار الفرنج من الساحل، فقدموا بلبيس ونازلوها، فأرجف الناس بذلك، وشرع شاور في بناء حصن على مصر استعمل فيه جميع أهل مصر، وحفر خندقا، وكان في عسكر الفرنج جماعة من الأمراء المصريين ممن هرب من شاور: يحيى بن الخياط، وابن قزلجا، وعلم الملك ابن النحاس، فملكوا بلبيس عنوة وسبوا أهلها وقتلوا فيها خلقاً كثيراً ، وأسروا ابن شاور، وساروا طالبين القاهرة، ولما قربوا منها أمر شاور باحراق مصر فأحرقت، وانتقل بعض أهلها إلى القاهرة، وتفرق بعضهم في البلاد، ونهبوا أقبح نهب، وذهبت أموال أهلها، وبقيت النار مستمرة الحريق فيها أربعة وخمسين يوماً، ولما علم أهل القاهرة عجزهم عن مقاومة الفرنج سير العاضد وشاور إلى نور الدين بن زنكي يستغيثون به من الفرنج، وأرسلوا إليه شعور النساء في طي الكتب، وأرسل شاور إلى مري ملك الافرنج يبذل له مالا على أن يرحل ويزيح الافرنج عن القاهرة ، وتقرر الحال على ألف ألف دينار، فقال مري لأصحابه: نأخذ هذا المال نتقوى به ولانبالي بعد ذلك بنور الدين، واستوثق شاور منه بالايمان، وعجل له من المقرر مائة ألف دينار وأخذ

يماطله بـالباقـي ويمنيه، وشرع شـاور يجمع مـن أهل القـاهرة مـالا، فلم يحصل لـه شيء لضعف أهلهـا، ولم يجتمع له بـالجهد والمصـادرات سوى خمسين ألف دينار، وفي خـلال ذلك كانت الـرسل متواترة إلى نـور الدين للاستعانة به والاستغاثة إليه، فجهز أسد الدين شيركوه.

وفي المرآة: وفي صفـر خرج الأفـرنـج من عسقـلان والسـاحل طـالبين الـديار المصريـة، فنزلـوا على بلبيـس وأغاروا على الـريف فقتلـوا وأسروا، فـأخرج شـاور مـن كـان بالقـاهـرة من الفـرنـج، وقتـل البعض وهـرب الباقـون، ثم سار الفـرنج من بلبيـس، فنزلوا على القـاهرة في تاسـع صفر وضايقـوها وضربـوها بالمجـانيق فلـم يجد شاور بدا مـن أن كاتـب نور الدين بـأمر العاضد، وكان الفـرنج لما وصلوا الى مصر في المرتين الأوليتين اطلعوا على عـوراتها، وطمعوا فيها، ولما علـم نور الـدين بذلـك استرجع وخاف عليهـا، فقال لشيركوه؛ خـذ العساكر وتـوجه إليها، وقـال لصلاح الديـن: اخرج معه، فـامتنع وقال: يـامولانا يكفـي مالقينا مـن الشدائد، فقال: لابد من خروجك، فما أمكنه مخالفة نور الدين، فساروا الى مصر.

وفي تاريخ الدولتين: لما أتى رسول العاضـد إلى نور الدين بذلك أرسل الى أسد الدين يستـدعيه من حمص وهي اقطاعه، فلما خـرج القاصد من حلب لقـي أسد الـدين قـد وصلها، فـأتى مـن حمص إلى حلب في ليلـة واحدة، واجتمع بنور الدين ساعة وصـوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسر، وأمـره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطـاه مائتي ألـف دينـار سـوى الثيـاب والـدواب والآلات والأسلحـة، وحكمـه في الخزائن وأمر العساكر، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال وجمع مـن التركمان ستة آلاف فـارس، وكان في مـدة حشـده للتركمان سار نـور الديـن لتسلم قلعة جعبر، ثـم سار هو ونـور الدين إلى دمشـق ورحلا في جميع العساكـر إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين لكل فـارس من العسكر

الذي مع أسـد الدين عشرين دينـار معونة لهم على الطريـق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف الى أسد الدين جماعة من الامراء والمماليـك منهم: مملـوكه عـز الديـن جرديك، وغـرس الديـن قليج، وشرف الـدين بزغـش، وناصـح الديـن خمارتكين، وعين الدولـة ابن اليـاروقي، وقطـب الـديـن ينـال بـن حسـانالمنبجـيوغيرهـم، ورحلـوا على قصـد مصر مستنصرين من اللـه عز وجل وذلك في منتصف ربيـع الأول، وخيم نور الـديـن فيمـن أقـام معه على رأس الماء، فـأقـام ينتظـر بـورود المبشرات، فوصل المبشر برحيـل الفرنج عن القاهرة عائديـن إلى بلادهم، لما سمعوا بورود عسكر نور الدين ووصولهم.

وسب الملـك كل من أشار عليـه بقصد مصر، وأمر نور الـدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القـاضي أبو المحـاسن: لقد قـال لي السلطان ــ يعني ــ صلاح الدين: كنـت أكره الناس للخروج في هذه الـدفعة، وماخرجـت مع عمي باختياري، قـال: وهذا معنى قولـه تعالى: ﴿وعسى ان تكرهـوا شيئا وهو خير لكم﴾ [البقرة ٢١٦].

وقـال ابن الأثير: أحـب نور الـدين مسير صـلاح الديـن وفيه ذهـاب بيته، وكره صلاح الـدين المسير وفيه سعادته وملكه، وقـال صلاح الدين: لما قال لي عمي: تجهز يايوسف فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيـت ملك مصر مـاسرت إليها، فلقـد قاسيـت بالاسكنـدرية مـن المشاق مـالاأنساه أبـداً، فقال عمي لنـور الديـن: لابد مـن مسيره معي فترسم لـه، فأمـرني نور الديـن وأنا أستقيله، فـانقضى المجلس، ثم جمع أسد الـدين العسـاكر مـن التركمان وغيرهم، ولم يبـق غير المسير، فقال لي نـور الديـن: لابـد من مسيرك مـع عمـك فشكوت إليـه الضـائقة وقلـة الدواب ومـاحتاج إليه، فـأعطاني مـاتجهزت به، وكـأنما أساق إلى الموت،

وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ماالاكنت أتوقعه، وحرضه أيضا حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة يمدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلا
إذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحا
وللأعداء لم يبرح فسادا
لئن أعطاه نور الدين حصنا
فإن الله يعطيه البلادا
إلى كم ذا التواني في دمشق
وقد جاءتكم مصر تهادى
عروس بعلها زبر هصور
يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يا معشر الاجناد سيروا
وراء لوائه تلقوا رشادا
فما كل امرىء صلى مع الناس
مأموما كمن صلى فرادا(٣)

فلما سافر صلاح الدين الى مصر عبر العرقلة الى داره، فوجدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصلاح وقد خلت
من القمر الوضاح والمنهل العذب
فوالله لولا سرعة مثل عزمه
لغرقها طرفي وأحرقها قلبي (٤)

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصوفيه بحارة قطامش جوا قيسارية القصاع وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله.

الثاني: في وصول شيركوه إلى البلاد المصرية، كان وصوله مع العساكر إلى بلاد مصر في السابع من ربيع الآخر من هذه السنة، ولما وصلوا وجدوا الفرنج قد انشمروا عن القاهرة خائبين، فدخل شيركوه على العاضد في ذلك اليوم وخلع عليه خلعة سنية فلبسها وعاد إلى مخيمه بالخلع العاضدية بظاهر البلد، وفرح المسلمون بقدومه إليهم، وأجريت عليهم الجرايات، وحملت إليهم التحف والكرامات، وخرج وجوه الناس إلى مخيم أسد الدين خدمة له، وكان ممن جاء إلى المخيم الخليفة العاضد متنكراً فأسر إليه أمورا مهمة منها قتل الوزير شاور، فقرر ذلك معه، وعظم أمر شيركوه بمصر، ولم يقدر الوزير على منع شيء من ذلك لكثرة الجيش الذي مع أسد الدين، ولكن شرع يماطل فيما كان قرر لهم وللملك نور الدين بما كانوا التزموا له ولهم، وهو مع ذلك يتردد الى أسد الدين، ويركب معه ويعده ويمنيه.

وفي تاريخ بيبرس: ولما قرب شيركوه من القاهرة عاد الفرنج عنها إلى بلادهم، ومعهم من الأسرى اثني عشر ألف نفس من الجند والعامة وغيرهم، ودخل أسد الدين القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر من هذه السنة، فلتقاه العاضد وأجلسه إلى جانبه، وخلع عليه، وضربت البشائر، وشرع في اطفاء النار بمصر، وتقدم العاضد بأن ينزل على شاطىء النيل بالمقس، وقام شاور بعسكر شيركوه، وأقام لهم الضيافات، وأظهر له ودا كثيرا، واعتمد أن يتردد إليه كل يوم، فطلب شيركوه منه مالاينفقه في عسكره، فدافع في ذلك، فسير إليه الفقيه عيسى الهكاري يذكر له أن العسكر جياع، وقد طال مقامهم وأنا أخشى عليك منهم، فلم يكترث شاور بكلامه، فلما طالت مطالبتهم له عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين وجماعة الأمراء الذين معه، ويقبض

عليهم ويستخدم من معه من الجند، فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وقال: لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه، فقال له شاور: لئن عرفته ليقتلننا عن آخرنا، فقال له: صدقت، ولئن يقتلننا ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكنا الأفرنج فإنه ليس بينك وبين عودهم إلا أن يسمعوا أن أسد الدين قد قبض عليه، وحينئذ لومشى العاضد لنور الدين ماأغاثه، ولاأرسل أحدا ويملكون البلاد. فترك ماكان قد عزم عليه، فسير العاضد أعلم شيركوه بذلك، ولما رأى الأمراء النورية مماطلة شاور خافوا شره، فاتفقوا مع صلاح الدين يوسف على قتله، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم عنه.

وفي المرآة: وكان أرباب الدولة كل يوم يترددون إلى خدمة شيركوه، ولم يقدر شاور على منعهم لكثرة عساكره وميل العاضد إليه، فكاتب الفرنج واستدعاهم وقال: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر، وبلغ أعيان دولة المصريين فاجتمعوا عند شيركوه، وقالوا: شاور هو فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الاسلام، ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج، فشرع في عمل دعوة لاسد الدين على ماذكرناه.

الثالث: في مقتل شاور.

ولما صدر من شاور ماذكرناه من سوء العزم في حق شيركوه، ورأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم عنه، فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار في بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رحمه الله، وقصد شاور على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين ومعهما جمع من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه،

فسار وهما معه قليلا، فـألقوه عن فرسه، فهرب أصحـابه وأخذ أسيرا، ولم يمكنهم قتلـه بغير أمر أسد الـدين، فسجنـوه في خيمة وتوكلـوا بحفظه، فعلـم أسـد الديـن الحال، فعـاد مسرعـاً، ولم يمكنه الا اتمام مـاعملـوه، وأرسل الـ ـاضد صـاحب مصر في الوقـت إلى أسد الـدين، يطلـب منه رأس شاور، ويحثـه على قتله، وتتابـع الرسل بذلـك فقتل شاور في يـومه وهو سـابع عشر ربيـع الآخر، وحمل رأسه الى القصر، ودخـل أسد الـدين القاهرة، فـرأى من كثرة الخلق واجتماعهـم ماخاف منه على نفسـه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمـركم بنهب دار شـ ـاور، فقصدها النـاس ينهبونها، فتفرقوا عنه، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابـن شداد: وأقـام أسد الـدين بها يتردد إليـه شاور في الأحيـان، وكان وعدهم بمال في قبـالة ماخسروه من النفقة، فلم يـوصل إليهم شيئا، وأنه يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وعلموا أنه لاسبيل للاستيلاء على البلاد مع بقاء شـاور، فاجتمع أمرهـم على قبضه إذا خـرج إليهم، وكانوا هـم يترددون إلى خـدمتـه دون أسـد الـدين، وكـان يـركـب على قـاعـدة وزرائهـم بـالطبـل والبـوق والعلـم، فلـم يتجـاسر منهـم على قبضـه إلا السلطان نفسه، يعني صـلاح الدين يوسف بن أيـوب، وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخـذ بتلابيبه، وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وقبـض شاور وأنزل في خيمة مفردة، وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لابد من رأسه جريا على عـادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة مـن قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبته، وأنفذ رأسه إليهم.

وفي المرآة: واختلفـوا في كيفيـة مقتـل شـــاور على أقـوال: أحـدهـا أن الأمـراء اتفقوا على قتلـه لما علمـوا بمكـاتبته الفـرنـج، وأن أسـد الديـن تمارض، وكان شـاور يخرج إليه كـل يوم والطبـل والبوق يضرب بين يـديه على عادة وزراء مصر، فجاء ليعود أسد الدين فقتلوه.

والقول الثاني أن صلاح الدين وجرديك اتفقا على قتله، وأخبرا أسد الدين فنهاهما عن ذلك وسكتا، واتفق أن أسد الدين ركب إلى زيارة الشافعي فأقام عنده، وجاء شاور على عادته إلى أسد الدين، فالتقاه صلاح الدين وجرديك وقالا: انزل هو في الزيارة فامتنع فجذباه فوقع إلى الأرض فقتلاه.

والقول الثالث: أنهما لما جذباه لم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين، وسجنه الغلمان في الخيمة وانهزم أصحابه إلى القاهرة ليجيشوا عليهم، وعلم أسد الدين فعاد مسرعا، وجاء رسول من العاضد برقعة يطلب من أسد الدين رأس شاور، وكان أسد الدين قد بعث إلى شاور مع الفقيه عيسى يقول له: في رقبتي أيمان وأنا خائف عليك من الذين عندي فلا تجيء، فلم يلتفت وجاء على عادته فجذبوه وألقوه عن فرسه، وأدخله جرديك إلى الخيمة وحز رأسه، فلما عاد أسد الدين استرجع، وبعثوا برأسه إلى العاضد فسر به، ودعا العاضد ولد شاور الكامل، فقتله في الدهليز، وقتل أخاه، واستوزر شيركوه على مانذكره الآن، ان شاء الله تعالى.

وفي تاريخ بيبرس: ودخل أولاده إلى القصر مستجيرين بالخليفة، فأخذوا وعوقبوا أشد العقاب، ثم قتلوا وهم: الكامل، والمعظم، وركن الاسلام.

الرابع: في ترجمة شاور.

هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث ابن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن يحنس بن أبي ذؤيب عبد الله، وهو والد حليمة مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وفي هذا نظر لقصر هـذا النسب بالنسبة إلى بعد المدة، والله أعلم، قلت: أبو ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصره بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن، السعدي، وكان شاور يلقب بأمير الجيوش، وهو الـذي انتزع الوزارة من أيدي بني رزيك ـ كما قلنـا ـ وهو أول من استكتـب القاضي الفاضل، استـدعى به من اسكنـدرية مـن باب السـدرة، فحظي عنـده، وانحصر منه الكتـاب بالقصر لما رأوا مـن فضيلته، وكـان شاور على تـوليه الصعيـد، ولاه الملك الصالح طـلائع بن رزيك ـ كما ذكـرنا ـ ولما جرح الصـالح، وأشرف على الوفـاة كان يعد لنفسه ثـلاث غلطات: أحدها تـولية شاور، والثانيـة بناء الجامـع المعـروف به على بـاب زويلـة، وكـان قـد بقي عـونـا لمن يحاصر القاهـرة، والثالثـة خروجـه إلى بلبيس بـالعساكـر ورجوعـه بعد أن أنفـق عليهم أكثر من مائتي ألف دينار حيث لم يتم سيره إلى بلاد الشام ويفتح البيت المقدس، ويستـأصل شأفة الفرنـج، وقد ذكرنا أن شـاور قد تمكن في الصعيـد، وكـان ذا شهامـة وفـروسيـة، وكـان قد قـدم الصعيـد على الواحـات ، واخترق تلك البراري إلى أن خـرج عند تـروجه بـالقرب مـن الاسكندرية، وتـوجه إلى القاهرة ودخلهـا يوم الأحد الثاني والعشريـن من المحـرم سنـة ثمان وخمسين وخمسمائة وهـرب العـادل رزيـك وأهلـه مـن القاهـرة ليلة العشرين مـن المحرم وقتل العادل بـن صالح وأخـذ شاور موضعـه من الوزارة واستـولى، ثم لما خرج أبو الأشبـال ضرغام بن عـامر توجه إلى الشـام مستنجدا بنور الدين محمـود، وذلك في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ـ كما ذكرنـاه ـ وتولى ضرغام الوزارة مكـانه، فأنجده نـور الدين بالأمير أسد الدين، والقصة مشهـورة، ثم آل الأمر إلى أن قتل شاور يوم الأربعاء السـابع عشر، وقيل الثـامن عشر من ربيـع الآخر من سنـة أربع وستين وخمسمائة، ودفـن في تربـة ولـده طي، وهـي في القـرافة الصغـرى بالقـرب من تربـة الفاضل القاضي، وللفقيـه عمارة فيه مدائح مـن جملتها قوله من قصيدة:

ضجر الحديد من الحديد وشاور
من نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله
حنثت يمينك يازمان فكفر

وقال عماره اليمني:قضى قدوم الغُزّ برحيل الأفرنج عن الديار المصرية ولم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغُزّ بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ماهو عليه أكثر مما هو له.

قال: ولم يُربّ أحد رجال الدولة مثلما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته مدة تسعة أشهر، مدة حمل الجنين، ولاأتلف أموالهم مثل آل شاور، وهو الذي أطمع الغز والفرنج في الدولة حتى انتقلت من أهلها، ولما عاد من اسكندرية أكثر سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم يسحب القتلى إلى خارج الدار.

الخامس: في وزارة أسد الدين شيركوه.

ولما جرى على شاور ماذكرناه دخل شيركوه على العاضد، وخلع عليه خلعة سنية وولاه الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلعة إلى دار الوزارة، وهي الدار التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر، وأمر بنهب مافي دار شاور، وعظم شأنه، وقوى أمره، وأرسل أسد الدين يطلب إلى القصر كاتبا له، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل، رجاء أن يقتل معه إذا قتل، فيما كانوا يؤملون، وشرع في بعث العمال إلى الأعمال، وأقطع الاقطاعات، وولى الولايات، وفرح بنفسه أياما معدودات، فأدركه حمامه وانقطع أمله.

وفي تاريخ بيبرس: لما قتل شاور أرسل العاضد فاستدعى أسد الدين من المخيم، فدخل القاهرة من وقته، ودخل القصر، فرأى اجتماع الناس، وكثرة العوام فخافهم على نفسه، فقال لهم: إن مولانا العاضد أمركم بنهب دور شاور فتفرقوا عنه، ومضوا إليها فنهبوها، ومثل شيركوه بين يدي العاضد فخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وكتب له تقليداً.

وفي تاريخ الدولتين: وزارة أسد الدين عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر.

أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر وترتب وزيراً، وقصد دار الوزارة فنزلها وهي التي كان بها شاور ومن قبله من الوزراء، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للامور مقرر لها، وزمام الأمر مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأتيه وسياسته.

وقال ابن خلكان: وكانت ولايته الوزارة يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة.

السادس: في نسخة التقليد المنشأ عن العاضد بتفويض الوزارة إلى أسد الدين شيركوه: «الحمد لله القاهر فوق عباده، الظاهر على من جاهر بعناده، القادر الذي يعجز الخلق عن فهم ماأودع ضمائر القلوب من مراده، القوي على تقريب ماقضت الهمم باستبعاده، المليء بحسن الجزاء لمن جاهد في الله حق جهاده، يؤت الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر ارشاده، ونازعه ممن يشاء بما اقترفه من كبائر فساده، ينجد أمير المؤمنين بمن أمضى في نصرته العزائم، واستقبلته الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم، وفعلت له المهابة مالا تفعله الهمم، وخلعت آثاره على

الـدنيا تخلعـة الأنوار على الظلـم، وعدمـت أنظاره بها وجـد من محاسنـه التي فـاق بها ملوك العرب والعجـم، وانتقم اللـه به من ظلـم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلـم، وزاد عن موارد الدين من هـو بها أولى، ويأبى الله الا امضاء ماحتم، مؤيد أمير المؤمنين بإمـام أقر الله به عينه، وقضى على يده مـن نصرة الدين دينـه، ﴿لو أنفقـت مافي الأرض جميعا مـاألفت بين قلوبهم ولكـن الله ألف بينهم﴾ [الأنفـال ٦٣] والحمد لله الـذي خص جـدنا محمـد بشرف الاصطفـاء والاجتباء، وانهضـه مـن الرسـالـة بأثقـل الاعبـاء، ووفـر لـه مـن شرف المقام المحمـود أوفـر الانصبـاء، وأقـام بـه القسطـاس، وطهر بـه الادناس، وأمـده بالصـابريـن في البأسـاء والضراء «وحين البـأس» وألبـس شريعتـه مـن مكـارم الافعـال والاقـوال أحسـن لباس، وجعل منه النور ساريا في عقبه لاتنقصه كثرة الاقتباس، ذلك من فضل الله علينـا وعلى الناس، والحمد لله الـذي اختار لأمير المؤمنين من يقوم في أمته مقـامه ويهدي بمراشد نـوره الى دار المقامه، وأوضح بـه منار الحق وأعـلامه، وجعلـه شهيد عصره، وحجـة أمره، وبـاب رزقه، وسبيـل حقه، وشفيـع أوليائه، والمستجـار في الخطوب بلوائه، والمضمـونه لـه وبه العقبـى، والمسؤول لـه الأجر في القـربـى، والمفترض له الطـاعة على كـل مكلف، والغـاية التـي لايقصر عنها بـولائه من تـأخر في مضمار النجـاة وتخلف، والمشفوع الذكـر بالصلاة والتسليم، والهادي الى الحق والى صراط مستقيم، لايقبل عمل الا بخفـارة ولائه، ولاينجح أمل الا بسفارة آلائه، ولايضل من استضـاء بأنجم هدايتـه اللامعة، ولادين ولا دنيـا الا معه، ليتضح النهج للقاصد، ولتقوم الحجة على الجاحد، وليتبين الذين اختلفوا فيـه، وليعلموا انما هـو إلـه واحد، يحمـده أمير المؤمنين على مـاحباه مـن التـأييـد الـذي ظهـر فبهر، وانتشر فعـم نفعـه البشر، والاستظهـار الـذي استنـزل فيه جنـود السماء والأرض، الذي عقـد اللـه منه عقـدا لاتدخـل عليه أحكـام النقض، والانتصار الـذي أبان به معنـى قوله: ﴿ولـولا دفع الله ـاس بعضهم ببعض﴾ (البقـرة ٢٥١) ونسألـه أن يصلي على جده

محمد الأمين المبعوث رسولاً في الأميين، الهادي إلى دار الخلود، والمستقل باستقلال عواثر الجدود، وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ناصر شريعته وامام شيعته، وباب علمه، وسيف نصره، ولسان حكمه، وقسيمه في النسب والسبب، ويد الحق التي حكم لها بالقلب، وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم، ومصابيح الظلم، ومفاتيح النعم، وإن أمير المؤمنين لما فوضه الله إليه من ايالة الخليقة، ومنحه من كرم السجية وشرف الخليقة، وظاهر له من الكرامات التي زادت على أمنية كل من تمن، وائتمنه من أسرار النبوة التي رآه لها أشرف مودع وأكرم مؤتمن، وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب، وتسهيل الطلاب، وتبديد أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده صلى الله عليه وسلم أهل الأحزاب، يواصل شكر هذه النعم التوائم، ويعرف بعوارفها الفرادى والتوائم، ويثق بوعد الله إذا استهلكته المصابر، ويضرع الى الله اذا فرغ الصابر، فما اعترض ليل كربة الا انصدع له عن فجر وضاح، ولاانتقض عهد غادر الا عاجله الله بأمر فضاح، ولاانقطعت سبيل نصره الا وصلها عزه، يرسل ارسال الرياح، ولاانصدعت عصا ألفة الا تدارك الله بمن يجرده تجريد الصفاح، وإذا أعدد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة، والمنح الكريمة، واللطائف العظيمة، والعوارف العميمة، والآيات المعلومة، والكفايات المحتومة، والسعادات المقسومة، والعادات المنظومة، كنت أيها السيد الأجل أعظم نعم الله أثراً، وأعلاها حضرا، وأقضاها للامة وطرا، فليهنيك أنك حزب الله الغالب وشهاب الله الثاقب، وسيف الله القاضب، وظل أمير المؤمنين الممدود، ومورد نعمته المورود والمقدم في بيته، ومातأخرت الا لأجل معدود، نصرت حين تناصر الضلال، وهاجرت اليه هاجرا برود الزلال وبرد الظلال، كشفت الغماء وهي مطبقة، ورفعت نواظر أهل الإيمان وهي مطرقة، وغضضت أعنة الطغيان وهي مطلقة، وأعدت بحركتك على الدولة بهجة شبابها المونقة، وأنقذت الاسلام وهو على جرف هار، ونفذت حين لاتنفذ السهام عن

الأوتار ، وسمعت دعوته على بعد الدار، ونصرت حق الله بنصرتك له، وكم من أناس لابرؤيته بأنصار، وأجليت طاغية الكفر وسواك اجتذبه، وصدقت الله سبحانه حين داهنه من لايتقيه وكذبه، ومايومك في نصر الاسلام بواحد، ولاأمسك بمجحود وإن رغم أنف الجاحد، أوجبت الحق بهجرة بعد هجرة، وأجبت دعوة الدين قائما بها في غمرة بعد غمرة، وافترعت صهوة هذا المحل الذي رقاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك، وأمات الله العاجزين بما في صدورهم من حسرات في لحاقك، وكنت البعيد القريب نصحه، المحجوب النافذ نجحه، المذعورة أعداء أمير المؤمنين إن فوق سهمه وأشرع رمحه، ولقد اسستشرفتك الصدور، وتطلعت اليك عيون الجمهور، واستوجبت عقيلة النعم بما قدمت من المهور، نصرت الاسلام بأهله، وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كله، وناهضت الكفرة بالباع الأشد، ونادتهم سيوفكك «ولاقرار على زئير سن الأسد» فأدال الله بك ممن قدم على قدم، وندم فما أغنى عنه الندم، حين لج في جهالته، وتمادى في ضلالته، واستمر في استطالته، وتوالت عنه عثرات ماأتبعها باستقالته، فكم اجتاح للدولة رجالاً، وضيق من أرزاقهم مجالا، وسلب من ذخائرهاذخائر وأسلحة وأموالا، ونقلها من أيدي أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى، واتسعت هفواته عن التعديد، وماالعهد منها ببعيد، وقد نسخ الله بك حوادثها فواجب أن تنسخ أحاديثها، وأتى الامامة منك بمن هو وليها، والأمة بمن هو مغيثها، ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه على بعد الدار، وتحقق أنك ممن يتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار، واختارك على بينة من أن الله يحمد فيك عواقب الاختيار، وكنت حيث رجا وأفضل، ووجدت بحيث دعا وأعجل، وقدمت فكتب الله لك العلو وكبت بك العدو، وبمع على التوفيق لك طر في الرواح والغدو، ولو لم يلبس الكافر لسهامك جنة الا الفرار، وكان ﴿كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾ [ابراهيم ٢٦] فلله درك حين قاتلت بخبرك قبل

عسكرك، ونصرت بـأثرك قبل طلوع عثيرك، وأكـرم بك من قادم خطـواته مبروزة وسطواتـه للاعـداء مبيرة، وكل يـوم من أيـامه بعـد يسيرة، فإنـك المبعوث الى بـلاد أمير المؤمنين بعث السحـاب المسخر، والمقـدم في تقدم النية وإن كنت في الـزمان المؤخر، ولما جرى من جرى ذكـره على عادته في ايحاشك والايحاش منك بكواذب الظنون، وقرب رجعتك عن الحضرة وقد قربـت الدار وقرت العيـون، وكان كما قال اللـه في كتابه المكنـون: ﴿لقد ابتغوا الفتنة مـن قبل وقلبوا لك الأمـور حتى جاء الحق وظهر اسـم الله وهم كارهون﴾ [التـوبة ٤٨]، وأخذه من أخذه ألم شديـد، وعدل فيه من قال: ﴿وما ربك بظلام للعبيـد﴾ [فصلت ٤٦] ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق ٣٧].

قـال العماد الكاتـب: وكتب لأسـد الـدين منشـور من القصر، بسيـط الشرح، طويـل الطي والنشر، كتب العاضـد في طرته بخطه، ولاشـك انه بـاملاء كتـابه: «هـذا عهد لم يعهـد لوزيـر بمثله، وتقلـد أمانـة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجـة عليك عند الله بما أوضحه لك مـن مراشد سبله، فخذ كتـاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخـار بأن اعتزت خدمتـك إلى بنوة النبـوة، واتخذه للفوز سبيـلا ، ﴿ولاتنقضوا الايمان بعـد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ [النحل ٩١] ونسخة المنشور.

«من عبد الله ووليـه محمد العاضد لدين اللـه أميرالمؤمنين،إلى السيد الاجـل الملك المنصـور، سلطـان الجيـوش، ولي الأئمة، مجير الأمـة، أسـد الدين، كـافل قضاة المسلمين، وداعي دعـاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الـدين، وأمتع ببقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سـلام عليك، فإنـه يحمد إليـك الله الذي لا إلــه الا هو، ويسـأله أن يصلي على محمـد خـاتـم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آلـه الطاهريـن، والأئمة المهديين، وسلم تسليما». ثـم ذكر باقي المنشـور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليـل، على عادة الكتاب المتأخرين

الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بعثت بجوامع الكلم».

ولما استقل أسد الدين بالوزارة طلب من القصر كاتب انشاء، فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وكان أبوه من أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية، فولي كاتبا بالاسكندرية على باب السدرة، ثم اتصل بالكامل بن شاور، فاستكتبه وزاحم به كتاب القصر، فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتبا، أرسل به إليه، وظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لايتم، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه، وقالوا: لعله يقتل معه، فنخلص من مزاحمته لنا، فكان من أمره ماكان، واستمر في الدولة، ولم يزدد كل يوم الا تقد ما، بصدقه ودينه، وحسن رأيه، وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين، أولها:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب

يا شيركوه بن شادي الملك دعوة من
نادى فعرف خير ابن بخير أب

جرى الملوك وما حازوا بركضهم
من المراقي العلى ما حزت بالخبب

تمل من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب

فتحت مصرا وأرجو أن تصير بها
ميسرا فتح بيت القدس عن كثب

أنت الذي هو فرد من بسالته
والدين من عزمه في جحفل لجب

في حلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجى
والقلب في شجن والنفس في شجب

إلى أن قال:

مـن شر شـاور أنقـذت العبـاد فكـم
وكـم قضيـت لحزب اللـه مـن أرب

هـو الـذي أطمـع الافـرنـج في بلـد الـ
اسـلام حتـى سعـوا للقصـد والطلـب

ومـا غضبـت لـديـن اللـه منتقما
الا لنيـل رضـى الـرحمن بـالغضـب

وحين سرت الى الكفـار فـانهزمـوا
نصرت نصر رسـول اللـه بـالـرعـب

يـا محيـي الامـة الهادي بـدعـوتـه
للـرشـد كـل غـوي منهـم وغبـي

الى ان قال:

فـالجد والجد مقـرونـان في قـرن
والحزم في العـزم والادراك بـالطلـب

فطهـر المسجـد الاقصـى وحـوزتـه
مـن النجـاسـات والاشراك والصلـب

عسـاك تظفـر في الـدنيـا بحسـن ثنـا
وفي القيـامـة تلقـى خير منقلـب(٥)

السابع: في وفاة أسد الدين شيركوه.

لما استقـر شيركوه في الـوزارة ولم يبق لـه منازع واستعمـل على الأعمال من يثق به من أصحـابه وأزلامه عـرض له مـرض شديد بعلـة الخوانيق، وكـانت وفـاتـه في الثاني والعشريـن من جمادى الآخـرة مـن هذه السنـة، فكانت وزارته شهـرين وخمسة أيام، وحملت جثته إلى المدينـة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام، ودفن بها.

وفي تاريخ الدولتين: توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة.

وقال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله.

وفي المرآة: ودفن بظاهر القاهرة، إلى أن مات أخوه نجم الدين أيوب، فحملا جميعا الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فدفنا في رباطيهما.

وفي تاريخ ابن كثير: ويقال إنه مات يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بالقاهرة، ودفن بها، ثم نقل إلى مدينة الرسول عليه السلام بعد مدة بوصية منه، ولم يخلف ولدا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب بالملك القاهر.

الثامن: في ترجمة شيركوه.

هو أبو الحارث، أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان، الملقب بالملك المنصور، عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان هو ونجم الدين أخوين ابنا شادي المذكور، وكان أيوب أكبرهما، وأصلهما من الأكراد الروادية، وهم أشرف شعوب الأكراد، وهم من بلد دوين، بلدة من أعمال أخلاط.

وقال ابن خلكان: وكان شادي بن مروان من أهل دوين، ومن أبناء أعيانها والمعتبرين بها، وكان له صاحب يقال له جمال الدولة مجاهد الدين بهروز، وكان من أظرف الناس وألطفهم وأخبرهم بتدبير الأمور،

وكان بينهما من الاتحاد كما بين الاخوين، فجرت قضية لبهروز في دوين، فخرج منها حياء وحشمة، وذلك أنه اتهم بزوجة بعض الأمراء بدوين، فأخذه صاحبها وخصاه، فلما مثل به لم يقدر على الاقامة بالبلد، وقصد خدمة بعض الملوك السلجوقية، وهو السلطان غياث الدين مسعود بن السلطان محمد بن ملكشاه، واتصل باللالا الذي لأولاده، فوجده لطيفا كافيا في جميع الأمور،فتقدم عنده، وتميز، وفوض أحواله إليه، وجعله يركب مع أولاده، فأنكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه، وشكر دينه وعفته ومعرفته، ثم صار يسير إلى السلطان في الأشغال، فخف على قلبه، ولعب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه وأرصده لمهماته، وسلم إليه اولاده، وسار ذكره في تلك النواحي، فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ماصار إليه من النعمة، وليقاسمه فيما خوله الله سبحانه وتعالى، ويعلم أنه مانسيه، فلما وصل بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق ان السلطان رأى توجيه مجاهد الدين المذكور الى بغداد، واليا عليها ونائبا عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي المذكور، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، وتولى ولده نجم الدين أيوب المذكور، فنهض في أمرها، وسكن بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سنا من أخيه شيركوه - كما ذكرنا - ثم اتفق ان بعض الحرم خرجت من قلعة تكريت لقضاء حاجة، وعادت فعبرت على نجم الدين وأخيه شيركوه، وهي تبكي، فسألاها عن ذلك، فقالت: أنا داخلة في الباب الذي للقلعة فتعرض لي الاسفسهلار، فقام شيركوه وتناول الحربة التي تكون للاسفسهلار وضربه بها فقتله.

فأمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وكتب إلى بهروز وعرفه بصورة الحال ليفعل فيه مايريد ومايراه، فوصل إليه جوابه: لأبيكما علي حق،

وبيني وبينـه مودة متأكـدة، وما يمكنني ان اكـافيكما بحالة سيئـة تصدر مني في حقكما، ولكن اشتهـي منكما ان تتركا خدمتي وتخرجـا من بلدي، وتطلبا الـرزق حيث شئتما، فلما وصلهما الجواب ماأمكنهما المقام بتكـريت وقصدا والد الملك العـادل نور الدين محمود بن زنكـي. وذلك لما كان قد تقدم لهما عنـده، وذلك ان زنكـي دخل تكريـت عندهما حين هـرب من قـراجا السـاقي، وأحسنـا إليـه وخدمـاه خـدمة بليغـة، ولما دخل أيـوب وشيركوه عنـد أتابـك زنكي في الموصـل أحسن هـو أيضا إليهما، وزاد في اكرامهما والانعام عليهما، واقطعهما اقطاعا حسنـا، ثم لما ملك زنكي قلعة بعلبك استخلـف بها نجم الـدين ايـوب، واقره بعـده نور الـدين محمـود ولده، فحظيـا عند نور الـدين كما كانا عنـد والده زنكي، وصـار شيركوه أكبر امراء نور الديـن وأخصهم عنده، وكان قد أقطعه الـرحبة وحمص مع مالـه عنده من الاقطـاعات، وذلك لشهـامته وصرامته وجهـاده في أعداء الله الفـرنج وغيرهـم في أيام معـدودات، ووقعات معتبرات، ولاسيما يـوم فتح دمشق، وأعجب من ذلك مافعله بديار مصر.

ثم أرسله نور الـدين إلى مصر مرة بعد أخرى كما ذكرنـا حتى ملكها وتولى الوزارة فيها عـوضا عن شاور يوم الأربعاء سـابع عشر ربيع الآخر من سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهريـن وخمسة أيام، ثم توفي في التاريخ الذي ذكرناه.

وفي تاريخ الـدولتين: وكان شيركوه شجاعـا بارعا قويـا جلدا في ذات الله، شـديدا على الكفـار، وطاعتـه عظيمة، في ذات اللـه صولتـه، عفيفا دينا، كثير الخير، وكـان يحب أهل الديـن والعلم، كثير الايثار، حـدبا على أقاربـه وأهله، وكـان فيه امسـاك، وخلف مـالا كثيرا، وخلف مـن الخيل والدواب والجمال شيئا كثيرا، وخلف خمسمائة مملوك، وهـم الاسدية، وكان مشيدا قواعد الدولة الشاديه والمملكة الناصرية رحمه الله.

وقال ابن عساكر: ولي أسد الدين دمشق مدة، وأقام يحارب الفرنج، وفتح حصونا كثيرة، وكان شجاعا مقداما، صارما مهيبا، وحج سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وقال الشيخ شهاب الدين: وإلى أسد الدين شيركوه تنسب الخانقاه الاسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين، والمدرسة الاسدية بالشرف القبلي رحمه الله، وشيركوه بكسر الشين المعجمة وسكون الياء آخر الحروف، وكسر الراء المهملة، وضم الكاف، وسكون الواو، وهو في آخره هاء، وهو لفظ أعجمي مركب من: شير يعني الاسد، وكوه، يعني الجبل، وشادي بالشين المعجمة وبعد الألف الساكنة دال مكسورة، وفي آخره ياء، آخر الحروف، وهو اسم أعجمي، ومعناه بالعربي فرحان.

التاسع: في وزارة صلاح الدين.

لما توفي أسد الدين شيركوه طمحت نفوس الامراء النورية الذين كانوا صحبته الى الوزارة، وخطبها كل منهم إلى نفسه، وهم: عين الدولة الياروقي، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين يوسف، فأشار على العاضد خاصته ونصحاؤه بتولية صلاح الدين لطواعيته، وماجرت به الاقدار من سعادته، فاستدعاه وجلّده وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك الناصر، فأنف الأمراء المذكورون من طاعته والإقامة في خدمته، وفارقوه إلى الشام الا البعض منهم، فإن الفقيه عيسى الهكاري سعى في الصلح بينه وبينهم واستمالهم بالعطاء وبذل الأموال لهم ولسائر الأجناد، فاجتمعوا عليه، ومالت قلوبهم إليه، وتخلوا عن العاضد، فضعف أمره.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما توفي شيركوه في التاريخ المذكور أشار الامراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف الوزارة بعد عمه،

فولاه الخليفة العاضد الوزارة، وخلع عليه ولقبه الملك الناصر، وأطاعه جميع الامراء النورية غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: لاأخدم صلاح الدين، وعاد الى الشام، وثبتت قدم صلاح الدين في الوزارة، على أنه نائب لنور الدين محمود صاحب الشام، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما له.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، منهم: عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي ابن أحمد الهكاري، وجده كان صاحب قلاع الهكارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة، ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه لايجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين، فامتنع صلاح الدين، وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزم به، وأخذ كارها: «إن الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل» فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين، وأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم، ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الامر لايصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال

إلى صلاح الـدين، ثـم قصد شهاب الـدين الحارمـي وقال لـه: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لـك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في اخـراجه عنه، فلا يصل إليك، ولم يـزل به حتى أحضره ايضا عنـده وحلفه لـه، ثم عـدل الى قطب الـدين وقـال له: إن صـلاح الديـن قد أطـاعه النـاس، ولم يبق غيرك وغير اليـاروقي، فعلى كـل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصلـه من الأكراد، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعـده وزاد اقطاعه، فأطـاع صلاح الدين ايضـا، وعدل الى عين الدولة اليـاروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثـرهم جمعا، فلم ينفعـه رقاه، ولا نفذ فيه سحره، وقـال: أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعـاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكـر عليهم فراقه، وقـد فات الامر، ﴿ليقضي الله أمـرا كان مفعـولا﴾ [الانفال ٤٢] وثبتـت قدم صـلاح الـدين ورسـخ ملكه، وهـو نائب عن الملك العـادل نور الدين، والخطبة لنور الـدين في البلاد كلها، ولايتصرفـون الا عـن امـره، وكـان نـور الـديـن يكتـب إليـه: «الامير الاسفهسلار صـلاح الدين وكـافة الامراء بالـديار المصرية يفعلـون كذا»، واستمال صـلاح الديـن قلوب النـاس وبـذل لهم الأموال مما كان أسـد الدين قـد جمعه، وطلب من العـاضد شيئا يخرجه فلـم يمكنه منعه، فمال الناس إليـه وأحبوه، وقـويت نفسـه على القيام بهذا الأمـر، والثبات فيـه، وضعف أمر العاضد، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

وأرسل صلاح الديـن يطلب من نور الدين أن يرسل إليـه أخوته فلم يجبه إلى ذلـك وقال أخـاف أن يخالف أحد منهـم فيفسد البـلاد، ثم إن الفرنج اجتمعـوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكـر وفيهم أخوة صلاح الـدين منهم شمـس الدولة تـورانشـاه بن أيوب، وهـو أكبر من صلاح الـدين، فلما أراد أن يسير قـال له: إن كنـت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يـوسف الذي كان يقـوم في خدمتك وأنت قـاعد فلا تسر فإنـك تفسد البـلاد، وأحضرك حينئذ وأعـاقبك بما تستحقـه، وإن كنت تنظـر إليه أنـه صـاحـب مصر وقائم فيهـا مقـامـي وتخدمه بنفسـك كما

تخدمني فسر إليه وساعده على ماهو بصدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطاعة مايصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد الكاتب: لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم، واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لاينتظم، والخلل لايلتئم، فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا مقام عمه، ونحن بحكمه، وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السيادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك، وتربيته، وفض ختوم الخزائن وأمضى رسوم المزائن، وسلط الجود على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفرق ماجمعه أسد الدين في حياته، وأنارت على منار العلى انارة آياته [ورأى أولياءه تحت ألويته وراياته، وأحبوه ولم تزل محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم](٦) كأنهم ذوو قرابته، وضم من أمر المملكة ماكان منشوراً، وكتب له العاضد صاحب القصر منشوراً، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال والعذب الزلال، ثم ذكر العماد عبارات حسنة وقال: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت وتبدلت عقودها وماانتظمت، ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام بما تسنى له من المرام، وترددت كتب صلاح الدين بذكر الأشواق، وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش و برح القلوب العطاش، فإن أصحابنا و إن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أمة لايعرفونها، بل ينكرونها ولايألفونها، ورأوا وجوها هنالك لهم عابسة، وأعينا للمكائد متيقظة، وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتابا أوله:

يا أيها الغائبون عني وأن كنـ — ـتم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لاأراكم — بعيون الضمير عندي عيانا

فسألني المكتوب إليه ان اكتب جوابه فقلت:

أيها الظاعنون عني وقلبي
معهم لا يفارق الأظعانا
ملكوا مصر مثل قلبي وفي هـذا وتلك أصبحوا اسكانا
فاعدلوا فيهما فانكم اليوم
ملكتم عليهما سلطانا
لا تروعوا بالهجر قلب محب
أورثته روعاته الخفقانا

الأبيات:

وبعد فإن وفود الهناء وامداد الدعاء متواصلة على الولاء، صادرة عن محض الولاء الى عالي جنابه المأنوس ومنيع كنفه المحروس، فليهنيه الظفران بالملك وبالعدو، وفرع هضاب المجد والعلو، وكيف لا يكون النصر مساوقا لدين هو صلاحه، والتأييد مرافقاً لعزم به نجاحه وفلاحه:
فالشام يغبط مصر مذ حللت بها
كما الفرات عليكم يحسد النيلا
نلتم من الملك عفوا ما الملوك به
عنوا قديما وراموه فما نيلا

وقال العماد: ورثيت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين، وعزيت بها أخاه نجم الدين، منها:

تضعضع في هذا المصاب المباغت
من الدين لولا نوره كل ثابت
فأيام نور الدين دامت منيرة
لنا خلفا من كل مود وفائت
فما بالنا نبدي التصام غفلة
وداعي المنايا ناطق غير صامت

نـــؤمـــــل في دار الفنــــاء بقـــــاءنــــا
ونـــرجـو مـــن الـــدنيا صـــداقـــة مـاقـــت
ومـــا النـــاس الا كـــا الغصـــون يـــد الـــردي
تقترب منهـــا كـــل عـــــود لنـــا حـــــت
لقـــد أبلغـــت رســـل المنـــايـــا وأسمعـــت
ولكنهـــــا لم تحظ منـــــا بنــــاصـــــت

وله مـن أخرى عـزى بها أخاه نجم الـدين أيوب وولـده ناصر الـدين محمد:

مــــا بعـــــد يـــومــــك للمعنـــى المدنـــف
غير العــــويـــــل وحسرة المتـــــأســـــف
مـــا أجـــرأ الحدثـــان كيـــف سطـــا على الا
ســـــد المخـــــوف سطـــــا ولم يتخـــوف
مــــن ذا رأى الأســـــد الهصـــور فـــريســـة
أم ابصر الصبـــــح المنير وقـــــد خفـــــي
مــــن ثـــــابـــــت دون الكماة ســـــواه ان
زلـــت بهم اقـــــدامهـــــم في الموقـــــف
مـــــاكـــــان اسنـــــى البـــــدر لـــــو لم يستتر
مـــــاكـــــان أبهى الشمـــــس لـــــو لم تكســـف
مـــــاكنـــــت اخشـــــى ان تلـــم ملمـــــة
يـــــومـــــا وأنـــــت لكـــــربها لم تكشـــف
أيـــــام عمـــــرك لم تـــــزل مقســـــومـــــة
للـــــــه بين تعفـــــــف وتعـــــــرف
متهجـــــــد العبـــــــاده او تـــــــاليـــــــا
مـــــن آيـــــة او نـــــاظـــــرا في مصحـــــف
فجـــع النـــدى والبـــاس منـــك بحـــاتـــم
وبحيـــــدر والحلـــــم منـــــك بـــــأحنـــــف
بـــــا الملـــك فـــزت وحـــزتـــه عـــن قـــدرة
ومضيـــــت عنـــــه بسيرة المتعفـــــف

ووصفــت يــا أسـد الــدين محمـد
مـدحـا بما ملـك بـه لم يـوصـف

وفي تاريخ الدولتين: فوض الامر لصلاح الدين بعد أسد الدين، واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذلت الاموال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله عليه، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وماعاد عنه، ومازداد الا جدا الى ان توفاه الله الى رحمته.

العاشر: في صفة خلعته التي خلعت عليه للوزارة.

قال الشيخ شهاب الدين في الروضتين: صفة الخلعة التي لبسها صلاح الدين رحمه الله: عمامة بيضاء تنيسية بطرف ذهب، وثوب دبيقي بطراز ذهب، وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار، وسيف محلى بخمسة آلاف دينار، وحجرة بثمانية آلاف دينار، وعليها سرج ذهب وسرفسار ذهب مجوهر وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قصبة بذهب، وفيها مشدة بيضاء بأعلام بيض، ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخرى، ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان يوما مشهودا، وسار الجيش بكماله في خدمته، ولم يتخلف عنه منهم سوى عين الدولة الياروقي - كما ذكرنا - وسار بجيشه إلى الشام، فلامه نور الدين على ذلك، وأقام صلاح الدين بصفة نائب الملك نور الدين يخطب له على المنابر بالديار المصرية.

الحادي عشر: في نسخة التقليد المنشأ بتفويض الوزارة لصلاح الدين:

«من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى

السيد الأجل الملك الناصر مصطفى الأئمة، منجد الأمة، صلاح الدين، كافل قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين، أبي المظفر يوسف العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله الا هو، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الأئمة الطاهرين المهديين، وسلم تسليما كثيرا، أما بعد:

فالحمد لله مصرف الاقدار، ومحصي الأعمال والأعمار، وعالم سر الليل وجهر النهار، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكا دوارا تتعاقب فيه أحوال الأقمار بين انقضاء واستقبال سرار، وروضاء إذا ذوت فيه الدوحات أينعت الفروع، سابقة النوار، باسقة الثمار، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها، والقائم بنصر دولته، فلا تزال حتى يرث الارض ومن عليها قائمة على أصولها.

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين ودله على مكان الاختيار، وأغناه باقتضاب الالهام عن رؤية الاختيار، وعضد به الدين الذي ارتضاه، وعضده بمن ارتضاه، وأنجز له من وعد السعادة ماقضاه قبل اقتضاه، ورفع محله عن الخلع فكلهم مضاف إلى الخلق غير مضاه، وجعل مملكته الأسد وشبله ونعمته ميراثا أولى به ذوي الارحام من بني الاولاد وأهله، وأظهر في هذه القضية ماأظهر في كل القضايا من فضل أمير المؤمنين وعدله، فأولياؤه كالآيات التي سبق ذراري أفقها المنير، ونسق درر عقدتها النظم النضير، ﴿ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة ١٠٦] والحمد لله الذي أتم له الرشاد، وجعله أولى من خلق ساد وللحق شاد، وآثره بالمقام الذي لاينبغي الا له في عصره، وأظهر له من المعجزات لنصره مالايستقل العدد بحصره، وجمع له ولمن والاه من رفع قدره، ووضع أصره، وجعل الامامة موضوعة في عقبه، والمعقبات تحفظه بأمره، وأودعه

من الحكـم التي رآه لها أحوط من أودعـه، واطلع من وجهه أنـوار الفجر الذي جهل من ظـن ان من غير مطلعه، وآتاه مالم يؤت أحـدا، وأمات به غياً وأحيا رشدا، وأقـامه للدين عاضدا فأصبـح به معتضدا، نحمده على ماآتاه من توفيق يذلل الصعب الجامح ويدني البعيد النازح، ويخلف على الدين مـن صلاحه الخلف الصـالح، ويلزم آراءه جدد السعـود الواضح، ويـؤتيه آيـات الارشاد فـأية نـار قدح القـادح، ونصلي على النبي محمـد الذي أنجـى أهل الايمان ببعثـه، وطهر بهديـه من رجـس الكفر وخبثـه، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جادت يده بلسان ذي النعال الحاد(٧) وعلى الائمة من ذريته الذين أذل الله بعزهم أهل الالحاد.

ومنه:

وإن اللـه سبحانـه وتعالى مـاأخلى دولـة أمير المؤمنين التي هـي محط الهدى، مـن لطف تـلافى الحادثـة بشعبهـا، ولما لم تكد تنسـى الحادثـة في الأجـل الملـك المنصور أسـد الـديـن شيركـوه رضي الله عنـه، نظـر أمير المؤمنين في اصطفائك أيها السيد الاجل الملك النـاصر لخدمته بعده لتسد في تقـدمـة الجيوش مسـده، وتلحـق بـه في المجـد أولك، ونحمـد فيـك العواقب ولـك، فاعلم هذا مـن أمره ورسمه، واعمل بمـوجبه وحكمه إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

الثاني عشر: في مجيء نجم الدين أيوب الى ولده صلاح الدين بمصر.

لما ملك صـلاح الديـن الديار المصريـة بالوزارة أرسـل الى نور الـدين يطلـب أباه أيـوب وأخـوته وقـرابتـه، فـأرسلهم مكـرمين مـع جماعة مـن ألـزامهم وأهـل مودتهم، وشرط عليهـم السمع والطـاعة لـه واستقر أمـره هنالك، وتمكن سلطانه، وخرج العاضد بنفسه للقاء أبيه أيوب، وبالغ في احترامـه والاقبـال عليـه وقـال: ﴿ادخلـوا مصر إن شـاء اللـه آمنين﴾

[يوسف ٩٩] ولما اجتمعوا قرأ بعض المقرئين: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾إلى قوله: ﴿توفني وألحقني بالصالحين﴾[يوسف: ١٠٠ - ١٠١].

ثم بعد ذلك أخذت دولة المصريين في الضعف، والدولة الايوبية في القوة، ولما اجتمع صلاح الدين يوسف مع أبيه سلك معه الأدب، وفوض إليه الأمر كله، فقال له: ياولدي مااختارك الله لهذا الأمر الا وأنت جدير به، فلا ينبغي ان تعبر مواقع السفارة، وحكمه في الخزائن كلها، وأنزله اللؤلؤة المطلة على الخليج، وأعطاه وأهله الاقطاعات الجليلة بمصر، وتمكن صلاح الدين من البلاد، وضعف أمر العاضد بالكلية.

الثالث عشر: في ذكر ماجرى بين نور الدين وصلاح الدين.

قال صاحب تاريخ الدولتين: إن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين، ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا، أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره وقال: كيف أقدم صلاح الدين ان يفعل شيئا بغير أمري، فكتب في ذلك عدة كتب فلم يلتفت إليه الملك الناصر صلاح الدين، الا انه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه مافارق قبول رأيه واشارته.

وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه وطلب منه حساب مصر وما صار إليه، وكان كثيراً مايقول: ملك ابن أيوب، ولما ملك الناصر مصر انتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفرق عماله، واعطاه تل باشر، ثم أخذها منه، ولقد كان يتألم لملك الملك الناصر ذلك، ويقال: إنه لما مرض قال: ماأخطأت الا في انفاذي أسد الدين الى مصر بعد علمي برغبته فيها، ومايحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب، ثم التفت الى

أصحابه فقال: إذا مـا مت فصيروا بابني اسماعيل إلى حلب فـإنه لايبقى عليه غيرها.

وقال ابن أبي طي ولقـد كان يبلغ الملك الناصر من أقـوال نور الدين وأقوال أصحـابه أشياء تؤلمه وتمضـه، غير أن يلقاها بصدر رحـب، وخلق عـذب، قال صـلاح الـدين: ولقـد كـان يعتمد نـور الـدين في مخاطبـاتي ومراسـلاتي الأشياء التي لايصبر على مثلها لعلي أتضـور أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوما قط.

وقال صاحب تـاريخ الدولتين: قد وقفت على كتاب بخـط نور الدين يشكر فيـه من صلاح الديـن، وذاك ضد ماقـاله ابن أبي طي، كتـب نور الـدين ذلـك الكتاب الى الشيـخ شرف الديـن بن أبي عصرون رحمه اللـه وهو بحلب ليوليه قضاء مصر صورته:

«حسبي اللـه وكفى، وفق اللـه الشيخ الامـام شرف الدين الى طـاعته وختـم له بخير. غير خـاف عن الشيـخ ماأنـا عليه وفيـه، وكل غـرضي ومقصودي في مصـالح المسلمين ومايقربنـي إلى الله، والله ولي التـوفيق، والمطلع على نيتي، وأنـت تعلم نيتي كما قال عز من قـائل ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد ٤٣].

أنت تعلـم أن مصر اليوم قـد لزمنا النظـر فيها، فهـي من الفتـوحات الكبار، اللـه تعالى جعلها دار اسـلام بعدما كـانت دار كفر ونفـاق، فلله المنة والحمـد، الا ان المقدم على كـل شيء أمور الديـن التي هـي الأصل وبها النجاة، وأنت تعلـم أن مصر واقليمها ماهي قليلة، وهي خـالية من أمـور الشرع، ومـاتـدخـر الـدمـوع الا للشـدائد، وأنـا مـاكنـت أسخـى ولاأشتهـي مفـارقتـك، والان قـد تعين علي وعليـك أيضـا ان ننظـر الى مصالحها، ومـا لنا أحد اليوم لها الا انـت، ولا اقدر اولي امورها واقلـدها

الا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب عليك وفقك الله ان تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها، وتعمل ماتعلم أنه يقربك الى الله، وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله، فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي وفقه الله، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي، وقد كتبت هذا بخطي حتى لاتبقى عليّ حجة، تصل أنت وولدك إلى عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام .

بموافقة صاحبي واتفاق منه، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير، جزاه الله خيرا وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الاسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسلما»

الرابع عشر: فيما فعله صلاح الدين من المعروف بعد توليته.

قال ابن أبي طي: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم مايستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابه سجل به من ديوان الانشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين تتقدمه، آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف اردب غلة، فسامح بجميع ذلك وأبطله من الدواوين، وأسقطه عن المعاملين، وأنهي إليه مايستأدى بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره، وعوض عنه بعدة ضياع، فأغاث أهل الحجاز وأوسعهم من العين والغلة، وذلك كله باشارة نور الدين رحمه الله، وفي أيامه.

الخامس عشر: في قتل المؤتمن الطواشي زمام الدار.

قال العماد: وشرع صلاح الدين يوسف في نقص اقطاع المصريين،

فقطع منهم الزوائد مـن أجل من معه من العساكـر، وكان بالقصر خصي يـدعى مـؤتمن الخلافـة متحكم في القصر، فـأجمع هـو ومن معـه على أن يكاتبـوا الفرنـج ويقبضوا على الأسـديه والصـلاحية، لأن صلاح الديـن يخرج بمن معه، فيؤخذ من بقي من أصحـابه بالقاهرة، ويتبع من ورائه، فتكون عليهـم الدائرة، فكاتبوا الفـرنج، واتفق أن رجـلا من التركمان عبر بالبئر البيضاء، فـرأى مع انسان ذي خلقان نعلين جديديـن ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما وأخذهما وجاء بهما الى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبه الفـرنج فيهما مـن أهـل القصر يرجـون بحركتهـم حصـول النصر، فأخـذ الكتاب وقال: دلـوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي مـن الرهط، فلما أحضروه ليسـألوه ويعـاقبوه على خطـه، نطق بـالشهادة قبـل كلامـه، ودخل في عصمة اسلامه، وثبت اعتصامه وعرف استسلامه، ورأى اخفاء هذا السر واكتتـامه، واستشعـر الخصي العصي، وخشي أن يشق على شـق العصي العصي، فما صـار يخرج مـن القصر مخافـة، وإذا خـرج لم يبعـد مسافـة، وصلاح الـدين عليـه مغضب، وعنـه مغض لا يـأمر فيـه ببسط ولاقبض، إلى أن استرسـل واستبسل، وظـن أن مانسلـه من الشر العقيـم نصـل، وكان لـه قصر في قريـه يقال لها الخرقـانية، وهـي بقرب قليـوب، فخـلافيه يـوما للـذته، ولم يـدر أنه يـوم ذلته وانقضـاء ساعتـه بانقضـاء دولته، فـأنهض صلاح الـدين مـن أخذ رأسـه، ونزع مـن حياتـه لباسـه، وذلك يـوم الأربعاء الخامس والعشريـن من ذي القعدة سنـة أربع وستين وخمسمائة.

وفي تـاريـخ بيبرس: خـرج مـؤتمن الخلافـة ذات يـوم إلى بستـان لـه بقليوب، فسير إليـه جماعة من أصحـابه فقتلوه وأتـوا برأسه، ثـم استعمل على أذمـة القصور قـراقوش، وهـو خصي من مماليـك عمه أسـد الديـن ليطالعه بما يجري في القصور.

وفي تاريخ ابن كثير: وكان له قصر على النيل بالخرقانية من أعمال قليوب ذو بساتين، فخرج إليه للتنزه، فعلم صلاح الدين بذلك، فأرسل إليه جماعة فقتلوه وأتوا برأسه في التاريخ المذكور الآن. ثم عزل صلاح الدين جميع الخدم الذين يلون خدمة القصر، واستناب على القصر عوضهم بهاء الدين قراقوش الأسدي.

السادس عشر: في وقعة السودانية.

ولما قتل مؤتمن الخلافة الخادم الحبشي، ثار السودان عند القصر ونادوا، وكانوا يزيدون على خمسين ألف، فنهض إليهم صلاح الدين، وكانت الوقعة بين القصرين، وقامت الحرب بينهم يومين، وصار السودان كلما التجأوا الى محلة أحرقت عليهم، وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة تعرف بالمنصورة، فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها على أموالهم وأولادهم جميعا، فلما أتاهم الخبر بذلك هزموا وركبتهم السيوف، وقتل منهم خلق كثير، فطلبوا الأمان فأجيبوا إلى ذلك، فمضوا إلى الجيزة، فعبر إليهم الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف ، وضعف أمر العاضد بالكلية، وتلاشى حاله، وخربت محلتهم، واتخذت بستانا، فأصبح أمرهم كأن لم يكن، وحكم صلاح الدين على القصر، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان خصيا أبيض، وبقي لايجري في القصر صغيرة ولاكبيرة الا بأمر صلاح الدين، وكان صلاح الدين كل يوم يطلب من العاضد شيئا من المال والرقيق والخيل، حتى أنه أرسل إليه يوما، وهو في بستان له يسمى الكافوري، يطلب منه فرسا، فقال: والله ماعندي الا هذا الفرس الذي أنا راكبه، ونزل عنه، وشق خفيه ورمى بهما، وأرسل الفرس إليه، ولزم العاضد بيته من ذلك اليوم حتى كان منه ماكان.

وقال ابن كثير: وحين قامت الحرب بينهم، كان العاضد ينظر من القصر، وقد قذف الجيش الشامي من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهام، فقيل كان ذلك بأمر العاضد، وقيل لم يكن بأمره، فأمر شمس الدولة تورانشاه، وكان حاضرا للحرب باحراق منظرة العاضد، ففتح بابها ونودي: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السودان من بلادكم، فقوي الشاميون، وضعف جأش السودان جدا.

وفي تاريخ بيبرس: وأقاموا على الحرب أربعة أيام ليلا ونهاراً، وقتل من الجمعين خلق كثير، ولما علموا المغلوبية هربوا بأجمعهم إلى الجيزة، فندب إليهم صلاح الدين أخاه تورانشاه فقاتلهم وهزمهم ولم ينج منهم الا الشريد، وأرسل إلى نواب البلاد بقتل من وجد منهم، وكان جوهر هذا سببا لزوال ملك الفاطميين، وكان سبب ملكهم اولا جوهر أيضا، وهو جوهر القائد الذي أرسله المعز من المغرب، كما ذكرنا مفصلا.

وقال العماد: ولما قتل مؤتمن الخلافة غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه، فحسبوا ان كل بيضاء شحمة، وان كل سوداء فحمة، فثار أصحاب صلاح الدين الى الهيجاء ومقدمهم أبو الهيجاء، واتصلت الحرب بين القصرين، وأحاطت به العسكرية من الجانبين، ودام الشر فيه يومين حتى حس الاساحم بالحين، وكلما لجأوا الى محلة احرقوها عليهم، وحووا ماحواليهم، وأخرجوا إلى الجيزة، وأذلوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السودان بعدها من شدة، ولم يجدوا الى الخلاص سبيلا، وأينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا، وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة وكانت لهم المعمرة المعمورة، فأتى بنيانها من القواعد، فأصبحت خاوية، ثم حرثها بعض الامراء واتخذها بستانا، فهي الآن جنة لها ساقية.

قال: وكـان قد وصل إلى صـلاح الدين قبـل هذه النوبـة أخوه الأكبر فخر الديـن شمس الدولة تورانشاه بـن أيوب أنفذه إليه نور الـدين من دمشق يشـد أوده بمصر لما سمع بحـركة الفـرنج، وأهـل القصر، فوصـل القاهرة في ثالث ذي القعدة.

قال: وباشر بنفسه وقعة السودان هذه، وكان له فيها اثر عظيم.

السابع عشر: فيما مدح به صلاح الدين.

قال العماد: ومما مدحـت به صلاح الـدين في ذلك التـاريخ تهنيـة له بالملك وتعزية له:

أيـا يـوسـف الحسـن والاحسـان خير مـن
حـوى الفضـل والافضـال والنهـي والأمـرا
ومـن للهـدى وجـه النجـاح بـرأيـه
تجلى وثغـر الثغـر مـن عـزمـه أفترا
حمى حـوزة الـديـن الحنيـف بحـوزه
مـن الخالـق الحسنـي ومـن خلقـه الشكـرا
أبـوه أبـى الاالعـلاء وعمـه
بمعـروفـه عـم الـورى البـدو والحضرا
وطـال الملـوك شيركـوه بطـولـه
ومـا شـاركـوه في العلى فحـوى الفخـرا
بنـو الأصفـر الافـرنـج لاقـوا ببيضـه
وسمـر عـواليـه منـايـاهـم حمرا
ومـا ابيـض يـوم النصر واخضر روضـه
مـن الخصـب حتـى اسـودبـالنقـع واحمرا
رأى النصر في تقـوى الالـه وكـل مـن
تقـوى بتقـوى اللـه لا يعـدم النصرا

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: وكثرت كتب صلاح الدين الى أصدقائه مبشرة بطيب انبائه فيها كتاب ضمنه هذا البيت:

ماكنت بالمنظور أقنع منكم
ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت في جوابها أبياتا منها:

ياهل لسالف عيشتي بفنائكم
من عودة محمودة ورجوع
مذ غبتم عن ناظري ماأذنت
للقلب شمس مسرة بطلوع
كنت المشفع في المطالب عندكم
فغدوت اطلب طيفكم بشفيع
أصبحت أقنع بالسلام على النوى
وبقربكم كم بت غير قنوع

قال: ووصل منه كتاب ايضا ضمنه هذا البيت:

وأنثر دمع الدر من قبل أبيضا
وقد حال مذ بنتم فاصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه ابياتا منها:

هنيئا لمصر حوز يوسف ملكها
بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وماكان فيها قبل يوسف شاورا
يماثل الا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبي ابشر اليوم بالمنى
فقد نلت ما أملت بل حزت ماشئتا

ومما كتبه العماد على لسان غيره الى صلاح الدين قصيدة منها:

بـــا لملـــك النـــاصر استنـــارت
في عصرنـــا أوجـــه الفضـــائل
على مـــن حقـــه فـــروض
شكـــرا لماجـــاد مـــن نـــوافـــل
يـــوســـف مصر الـــذي إليـــه
تشـــد آمـــال النـــا الـــرواحـــل

أجـــريـــت نيلين في ثـــراهـــا
نيـــل نجيـــع ونيـــل نـــائل
ومـــا نفيـــت الســـودان حتـــى
حكمـــت البيـــض في المقـــاتـــل

الأبيات:

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعا لجماعة من الأعيان، وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى منها:

يـا صـلاح الـديـن الـذي أصلـح الفـا
سـد بـا لعـدل منـه خطـوب الـزمـان
أنـت أجـريـت نيـل مصر الى الشـا
م نـــو الا أم ســـال نيـــل ثـــاني
وعلى نيلهـــا الكفيـــك فضـــل
فهما بـــالنضـــار جـــاريتـــان
وصلـــت أعطيـــاتـــك الغـــر غـــزرا
فتلقـــت آمـــال النـــاب التهـــاني
خلـــع راقـــت العيـــون وراعـــت
وغـــلا وصفهـــا عـــن الامكـــان

مــــذهبــات كـــأنها خلــع الــرضـــوان
قــــد أهــــديــــت لاهــــل الجنــــان
مشرفـــات بطـــرزهــــا الــــذهبيــــا
ت الحســــان الــــرفيعــــة الاثمان
فـــالعمامــــات كـــــالغمامــــات والطــــر
ز تــــروق كثيرة اللمعــــــان
والموالي بها مـــــن التـــــه والفخـــــ
ــــر على الــــدهـــر ســـاحبـــوا الاردان
كيـــف خـــص العماد بـــالادون المخـــ
ــلق مـــن دون عصبـــة الـــديـــوان

الأبيات:

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة منها:
عبــــدك شمــــس الــــدولــــة المرتجا
منتظــــر تشريفــــك المذهبــــا
وأعتــب صــلاح الــديــن في حــالتــي
عســـاه بـــالاصــــلاح ان يعتبـــا
عــــرفــــه مــــا تــــم فــــإني أرى
مــــن فضلــــه للفضــــل ان يغضبــــا
وكيــف يــرضـــى ذاك بعـــض الــرضـــى
ومجده بـــــأبــــــاه كـــــل الابـــــا
وقـــل لـــه جـــاءتـــه ملبـــوســـة
تخلفـــت مــــن تبـــع في سبـــا
عمامـــــة رقـــــت ورثـــــت فما
نشـــرتهـــا الاوطــــــارت هبـــا

قال المؤرخ: فوصل من صلاح الديـن عمامة مذهبة، وكتب يعتذر عن العمامة التي قبلها.

وقال عرقلة في صلاح الدين وقد أنفذ له من ديار مصر ذهبا ولغيره سلاما:

صلاح الدين قد أصلحت دنيا
شقي لم يبت الا حريصا
أتى منك السلام لنا عموما
وجودك جاءني وحدي خصوصا
وكنت كيوسف الصديق لما
تلقى منه يعقوب القميصا(٨)

وكان العرقلة من جملة المترددين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق، فلما سار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار، فلما تم أمره بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي
زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الألف التي كنت واعدي
بها في يدي قبل الممات تصير
وهيهات والافرنج وبينكم
سياج قتيل دونه وأسير
ومن عجب الايام انك ذو غنى
بمصر ومثلي بالشآم فقير(٩)

وقال ايضا:

قل للصلاح معيني عند اعساري
يا ألف مولاي أين الالف دينار
أخشى من الاسر ان حاولت ارضكم
وما تفي جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضديات مسطرة
من بعض ما خلف الطاغي أبو الطاري

حمراكـــأسيـــافكـــم غبراكخيلكـــم
عتقـــاثقـــالاكـــأعـــدائي وأطهاري(١٠)

وأنفذ له عشرين دينارا من مصر فقال:
يـــامـــالكـــامـــابـــرحـــت كفـــه
تجودبـــــالمال على كفـــــي
أفلـــح بـــالعشريـــن مـــن لم يـــزل
في رأس عشريـــن مـــن الكهـــف
يـــاألـــف مـــولاي ولكنهـــا
محســـوبـــة مـــن جملـــه الألـــف(١١)

وذكـر العماد في الخريدة أن العـرقلـة قصـد صلاح الـديـن إلى مصر، فأعطاه ذلك، وأخـذ له من أخوته مثل ذلـك، فعاد الى دمشق وهومسرور محبور، وكان ذلك ختـام حياته، ودناء أجل وفاته، ومـات بدمشق في سنة ست أو سبع وستين وخمسمائة رحمه الله.

الثـامن عشر: في أشيـاء ملتقطة فيما يتعلـق بالأبـواب المذكورة في أمـر شاور.

وكـان متـولي قوص والصعيـد الأعلى، فلما دفـن الصـالح طـلائع بـن رزيك واستـوزر ابنه رزيك أرسل إلى عمـة العاضد فخنقهـا، واجتمع الى رزيك أولاد عمتـه ومن جملتهـم عز الـدين حسـام، فعزل شـاور، فعصى عليه، وجمع العربـان وأهل الصعيد، وسار إلى القاهرة، وخـرج إليه جماعة من أمرائهـا كانوا كاتبوه، فخـرج رزيك تحت الليل فضل الطـريق وتاه، فـوقع عنـد أطفيـح وثـم بيوت عـرب، فقبضـوا عليـه وحملوه إلى شـاور، وأخرجت إليـه خلع الوزارة وتم أمـره، وأكرم شاور رزيك وصلـب الذي أتى به، ونادى عليـه: هذا جزاء من لايرعى الجميل، وكـان للصالح إليه احسان، وتفرق آل رزيـك في البلاد، ونجا حسام الذي كـان سبب هلاك

بني رزيك، بأموال، وصـار إلى حماه فأقام بها، واشترى القرى، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان في خـروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينـار فوفوا له وردوهـا عليه، ثم أراد تقـي الدين أخذهـا منه فقال: مـن العجب أن الفرنج تفي لي بردها وتأخذها أنت مني فكف عنه.

وكـان لشاور ثـلاثـة أولاد: طـيّ، والكامـل، وسليمان، فتبسطـوا على النـاس فمجوهـم، وكان ملهـم وأخوه ضرغـام مـن صنائع الصـالح بـن رزيك، فلما شاهـدا ميل الناس عن شاور بسبب اولاده أخذا في مراسلة رزيك بـن الصالح، وهـو في السجن، والعمـل له في إعادتـه الى الوزارة، وبلـغ ذلك طيـا، فدخـل على أبيه فـأخبره بهذا، ثـم قال: تـلاف حالـك بقتلك رزيك، فـأنكر عليه، فتركه ولده طي، ودخـل على رزيك فقتله في سجنه، وسمع شاور فقامت قيـامته،ونمـى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا وأثـارا من استحلفاه مـن الامراء وزحفا بـالعساكر الى شـاور، فانهزم وخـرج من بـاب القـاهرة، وهـرب الى الشام، وأدرك ضرغـام ولـديه طيـا وسليمان فقتلهما وأسر الكامـل فأخذه ملهـم واعتقله عنـده، وأراد ضرغام قتله فمنعه منـه ملهم وحفظ له جميلا، واستقر ضرغـام في الوزارة، وخلع عليـه ولقب بـالملـك المنصـور، ثم بلغـه أن جماعـة مـن الامراء حسـدوه وكاتبوا شاور وهو في الشام، فـأخذ في إعمال الحيلة عليهم وأحضرهـم إلى دار الوزارة ليـلا فقتلهم جميعا، ولم يتعـرض إلى أموالهم ولا لمنـازلهم، وقيل إنه قتل منهم سبعين أميرا، ويقال إنه جعلهم في توابيت، وكتب على كل تابـوت اسم صاحبـه، فكان ذلك أكبر الاسبـاب في هلاكه وخـروج دولة المصريين، لانه اضعف عسكر مصر بقتل الامراء.

وأما شـاور فإنـه لما وصل الى بصرى اتصل خبره بنـور الديـن، فندب جماعة الى تلقيه، وأنزله بجوسق الميـدان الاخضر، وأحسن ضيافته، ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أمر نور الـدين لجماعة من أعيان دمشق أ ن يذهبوا

إليه ويسألوه عن حاجته، فاجتمعوا به، وقال بعد كلام طويل: ان رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بي فله علو الرأي، فأجاب نور الدين الى ان يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر، وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته في أحسن زي، فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان الى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين الى قلعة دمشق، واخذ في وقته ذلك في جمع العساكر.

وأما ضرغام فإنه حين استقر به الامر أنشأ كتابا الى نور الدين على يد علم الملك ابن النحاس يظهر فيه الطاعة، فاظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق، فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرقيق الفرنجي، وأخذ جميع ماكان معه، وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه الى الساحل وسار إلى مصر.

التاسع عشر: فيما يتعلق بأسد الدين.

ولما توجه أسد الدين إلى مصر وقرب منها نزل بمن معه على تل في الجوف قريب من بلبيس يعرف بتل بسط، وضربوا خيامهم هناك، ولما علم ضرغام بذلك جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجمع العساكر، وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر، وهو على يومين من القاهرة فإنهم لايثبتون لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، فأمر ضرغام الامراء بالخروج، فخرجوا في أحسن زي وأكمل عدة، والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم أخو ضرغام، وجاءوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلا عليه، ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر قال لشاور: ياهذا لقد غررتنا وقلت: إنه ليس

بمصر عسكر فجئنا في هذه الشرذمة، فقال شاور: لايهولنك ماتشاهده من كثرة الجموع فأكثرهم الحمالة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الوطيس وكلبت الحرب، وأما الامراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي وسترى ذلك إذا لقيناهم، ثم وقف الفريقان مصطفين من غير حرب، إلى أن حمي النهار، والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار وخلعوا السلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظل، فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما، وتركوا أمراء المصريين، ولم يمكن شاور من تقييدهم فهربوا وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس فنزلوا على القاهرة وقاتلوا أياما وارسل شاور الى العاضد في اصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له، وأما ضرغام فإنه خرج من باب زويلة، والعامة تلعنه وتصيح عليه، فلحقه رجل من أهل الشام فطعنه وأرداه ونزل إليه وحز رأسه، وحمله إلى أسد الدين فصعب على أسد الدين، وأوجعه ضربا وأراد قتله، فشفع فيه شاور ودخل شاور القاهرة وقتل ملهما أخا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم، وكان معتقلا فيها، وكذلك خرج معه القاضي الفاضل، وكان أيضا معتقلا فيها معه، واستقام أمر شاور في الوزارة وأقام أسد الدين على المقس ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيام ،وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه: شاور ثلاثين ألف دينار ،وقال: ترحل الآن في أمن الله ودعته فلما سمع أسد الدين ذلك ارسل اليه: ان نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيما عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الآخر لشاور، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه، وقال شاور: أنا ماقررت شيئا، أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا الى الشام، وقد سيرت إليكم نفقة

فخذوهـا وانصرفوا، وأنـا أنفصل مـع نور الديـن، فقال أسـد الديـن: انا لايمكنني مخالفة نـور الديـن ولا انصرف الا بامضـاء أمره، فـأمر شـاور باغلاق أبواب القـاهرة، واخذ في الاستعداد للحرب، واستعد أسـد الدين ايضا، وسير صلاح الـدين في قطعة من الجيش الى بلبيـس لجمع الغلال والاتبان والأحطاب، ويكـون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة، وأخـذ في قتال القاهرة، وكـاتب شاور ملك الافـرنج مري يستنجده ويقـول له: ان أسد الديـن طلع معـي نجدة على ضرغـام، فلما حصل في البـلاد طمع فيهـا، ومتى ملكـوها مضافـة الى بلاد الشام لم يكـن لكم معهم عيـش ولاقرار، وضمن له في كـل مرحلة يرحلهـا الى ديار مصر ألف دينار، وقـرر له شيئا لقضيم دوابـه وشيئا لاسبتـاريته، فخرج مـري من عسقـلان في جموعه الى فاقوس في سبـع وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعـة وعشرون ألف دينار، ولما تحقق أسد الديـن قرب الفرنج من القاهـرة جاء إلى بلبيس، وانضاف إليه من أهلها الكنـانية، وخرج شاور في عساكر مصر، واجتمـع بالفرنج، وجاء حتى خيم على بلبيس وأحاط بها محاصرا لاسـد الدين يباكر الحرب ويراوحها، وأقاموا على ذلك مـدة ثمانية أشهر وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الديـن، فتشوش من ذلك، ثم عمل حيلـة حيث جمع أعلاما للفرنج، وكـان قد أخذها منهم وأعطـاها إلى نجاب وقال لـه: تحيل حتى تدخـل إلى بلبيس وتعطـي هذه الاعـلام لاسد الـدين ينشرهـا على أسوار بلبيـس، فإن ذلـك ممـا يفت في اعضـاد الكفـار، ففعل ذلـك، فلما رأى الأفرنج الأعلام خافوا على بلادهـم وسألوا الاذن من شاور في الانفصال، فانـزعج شاور لذلـك واستمهل منهم أيـاما وجمع أمراء المشورة، فـأشاروا عليه بمصالحة أسد الـدين، وتكفل الامير شمس الخلافة بذلـك، فانفذه اليه فتـم الصلح على يـديه على أن يحمـل شاور إلى أسـد الديـن ثلاثين ألف دينار أخـرى، وأقام أسد الدين بظـاهر بلبيس ثلا ثـة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل، وسار أسـد الدين قاصدا الشام، وجعل مسيره على البرية، واتفـق أن البرنس أرنـاط صاحـب الكرك والشـوبك خـرج

يترقب خروج أسد الدين من البرية ليوقع به، فأحسّ أسد الدين بذلك، وسلك طريقا من خلف المكان الـذي هو فيه، وشق الى الغور، وخرج الى البلقـاء، وسلمه اللـه منه، ودخـل دمشـق، واجتمع بنـور الديـن، وأخبره بالاحوال.

وأما شـاور فإنه بعـد رحيل أسد الـدين والفـرنج إلى بلادهـم عاد الى القاهرة، وتتبع مـن علم أنه بينه وبين أسد الدين معـرفة أو صحبة، وكان استفسد جماعـة من عسكر أسد الـدين منهم خشترين الكـردي، وأقطعه شطنوف وقتل جماعة مـن أهل مصر وشرد آخرين، ثم توجـه أسد الدين في ربيع الاول لسنـة اثنتين وستين قاصـدا الديـار المصرية، وكتـم أخباره، فما راع شاور الا ورود كتـاب مري يعرفـه فيه بأن أسـد الدين قصـد ديار مصر وخرج عن دمشق، فطلب شاور منـه إعادة النجدة والمقرر من المال يصل إليه على مـاكان في العام الماضي، فسار مري في عساكـر الفرنج الى مصر، وخـرج شاور بعسـاكر مصر واجتمـع به، وقعـدوا جميعا في انتظـار أسـد الديـن، وعلـم أسد الـديـن باجتماعهـم على بلبيـس، فنكب عـن طريقهم وأم الجبل، وخرج على أطفيح وشـن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره، فسار في عساكره والفرنج صحبته يقفـون أثره، ولما علم أسد الدين بذلك اندفـع من بين أيديهم حتى بلغ شرونة مـن صعيد مصر، وتحيل في مـراكـب ركبها، وعـدَّى إلى البحـر الغـربي، وأدرك شـاور بعض سـاقتـه ومسقطي عسكـره فأوقع بهم، وأحضر أيضاً مـراكب، وقطع النيـل في أثر أسد الديـن بجميع جيوشه وجيوش الفـرنج، وسار أسد الـدين الى الجيزة وخيـم بها مقـدار خمسين يـومـا، واستمال قـومـا يقـال لهم الجعفـريـون والطلحيون القـرشيون، فأنفـذ أسد الدين الى شـاور يقول له: أنـا احلف باللـه وبكل يمين اني لاأقيم ببلاد مصر ولاأعـاود إليها أبدا، ومـا أساءل منـك الا نصر الاسـلام فقط، وهـذا العـدو قـد حصل في هـذه البـلاد، والنجدة عنه بعيـدة وخلاصه عسير فتجتمع معـي نستأصل شأفتـه، وما

أظن ان يكون غنيمة أبدا في الاسلام مثل هذه، فقتل شاور الرسول وقال: ماهؤلاء فرنج هؤلاء فرج، ثم أعلم الفرنج بذلك، ونزل شاور بعد ذلك في اللوق والمقسم، وأمر بعمل الجسر بين الجيزة والجزيرة، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين، ولما رأى أسد الدين ذلك، كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل ادخاله الفرنج الى دار الاسلام، فقاموا معه وأمروا عليهم نجم الدين ابن مصال، وهو ابن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ الى الاسكندرية مستخفيا، فظهر في هذه الفتنة، وكان قد أرسل الى اسد الدين خزانة من السلاح مع ابن أخت الفقيه ابن عوف، ثم وصل الى أسد الدين رسول ابن مدافع وأخبره بقرب شاور، وبأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وماثقل حمله، وسار سيرا حثيثا حتى قارب دلجة، فأمر بنهبها فنهبت، وسار ليلا بالمشاعل حتى أتى على الأشمونين، وأمر عسكره أن يقفوا على تعبئة وأصبحوا على ذلك والتقوا، فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة، وانهزموا وكان أسد الدين قد فرق أصحابه فريقين: فريقا معه وفريقا جعله مع صلاح الدين، وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور، فداخلهم الضعف من هذا الطريق، ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا وعلموا ان لامنجا لهم الا الصبر، فتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم، فلم تزل الحرب قائمة الى الليل، فولت عساكر الفرنج والمصريين الادبار، وكاد ملك الفرنج مري أن يؤسر، وصار شاور ومن معه الى منية ابن خصيب، وسار أسد الدين على الفيوم الى الاسكندرية فدخلها ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وكان فيها ابن الزبير متوليا ديوانها، فحمل الى أسد الدين الأموال وقواه بالسلاح، وخاف أسد الدين أن يحصره شاور والفرنج ، فأمر صلاح الدين بالمقام بالاسكندرية وترك عنده جماعة من العسكر، ومن به مرض أو جراح او ضعف، واستحلف له وجوه الاسكندرية، ورحل في أقوياء العسكر قاصدا الى الصعيد، ونزل

الفـرنج وشـاور على الاسكندريـة وحـاصروها مـدة ثـلاثة أشهـر بأشـد القتال، ولما سـار أسد الـدين بـالصعيد حصّـل من تلـك البلاد أمـوالا عظيمة، ولم يزل هنـاك حتى صام رمضان، واتصل بـه اشتداد الامر على الاسكندرية فرحـل من قوص الى جهتها، واتبعه جماعة كثيرة مـن العربان وأهل تلـك البلاد، وبلـغ ذلك شـاورا، فرحـل هو والفـرنج واضطـر الى الصلح، وضجـرت الفرنج أيضـا، وتوسط ملـك الافرنج في ذلـك، فتقرر امر الصلـح على ان شاورا يحمـل الى اسد الـدين جميـع ماغـرمه في هـذه السفرة، ويعطـي الفرنج ثـلاثين الف دينـار، ويعود كل منهـم الى بلاده، وطلب صـلاح الدين مـن ملك الافرنـج مركبـا يحمل فيها الضعفـاء من أصحابه، فأنفذ اليه عدة مراكب.

قال الشريـف الادريسي: كنت في الجملة ممن خـرج في المراكب، فلما وصلنا الى مينـاء عكا اخـذونا واعتقلـونا في معصرة القصـب الى ان وصل الملـك مري فـأطلقنـا، فخـرجنا الى دمشـق، وخـرج صـلاح الديـن مـن الاسكندرية[الى عمـه] ثم سارا من بـلاد مصر وفي قلب أسد الديـن من مصر، لما شاهدها وشاهد من مغلاتها.

العشرون: في ذكـر عـود الفـرنـج إلى مصر، وعـود أسـد الـديـن إليهـا وماجرى بعد ذلك.

وفي هذه السنـة أعني سنـة أربع وستين طمـع مُرِي ملـك الأفرنـج في مصر وعـول على الـدخـول إليهـا والاستيلاء عليهـا، فجمـع إليـه ملـوك الفرنج وكبراء الداوية والاسبتارية فـأجابوا إلى الخروج معه، فأحضر وزيره وأمره بـاقطاع بلاد مصر لخيالتـه وفرق قراها على أجنـاده، وكان اللعين لما دخـل ديار مصر أقـام من أصحـابه مـن كتب لـه أسماء القرى جميعهـا، وتعرف لـه خبر ارتفاعهـا، ثم سـار حتى نـزل الداروم، فلما سمـع شاور بذلـك قامـت قيامته وأرسـل أميرا من أمـرائه يقال له بـدران فسألـه عن

سبب مجيئه فتلكأ عليه ثم استلان جانبه وضمن له رضيخة على أن يوري عنهم ولايكشف لشاور حالهم، ويقال إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم الحيلة على المصريين ويعلم شاورا إنه انما قصد مصر للخدمة، ففعل ذلك بدران، ولما سمع شاور بذلك أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار، وقال له: بدران غشني ولم ينصحني وأنا واثق بك، فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مُري، وكان بينهما مؤانسة، فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة، فقال: مرحباً بالملك الغدار، والا ماالذي أقدمك الينا؟ قال: اتصل بنا أن الفقيه عيسى زوج أخت الملك الكامل ابن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتزوج الكامل بأخت صلاح الدين، فقلنا هذا عمل علينا، فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض العهد، فقال له الملك: القول الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على آرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك، فخرجنا نتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة: فأي شيء طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب، فقال له الملك: نحن ننزل على بلبيس إلى ان تعود، ثم انه سار خلفه لايلوي على شيء حتى خيم على بلبيس في شهر صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم: علم الملك ابن النحاس، وابن الخياط يحيى وابن قرجلة، ثم قاتل بلبيس ليلا ونهارا حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقا كثيرا، وخرب أكثرها، وأحرق جل آدرها، ثم أخرج الاسارى الى ظاهر البلد وحشروا في مكان واحد، وحمل في وسطهم برمحه ففرقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته قد أطلقتكم شكرا لله عز وجل على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فانني قد ملكتها بلاشك، ووقف الى ان عدى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الاسارى

فـاقتسموهـم، وبقي أهـل بلبيس الـذين أسروا أكثـر من أربعين سنـة في ملـك الفرنـج، وهلك أكثـرهـم في أيديهم، وأفلـت منهم اليسير، والملـك النـاصر لما ملـك ديـار مصر وقـف مغل بلبيـس على كثـرتـه على فكـاك الأسرى منهم، وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه.

ولما جـرى ذلك وبلـغ شاور، اجتمـع بالعـاضد وقـال: إن البلاد قـد أخذت منا فاكتـب الى نور الدين واطلب منه المعونـة، فكتب جميع ذلك، وسخـم شـاور أعـالي الكتـب بالمداد، ولما بلـغ نـور الديـن ذلـك انزعـج انزعاجا عظيما وانفذ اسد الدين وكان من ذلك ماذكرناه.

وأما الفـرنج فسـاروا إلى جهة مصر، وبلغ أجـرة الجمل ثـلاثين دينارا، وتـرك الناس اكثـر أمـوالهم فنهبت واحـرقـت مصر في تـاسع رجـب كما ذكرنـا، ثم إن الافـرنج نزلـوا في بركـة الحبش وتخطفوا مـن ظفروا بـه، ثم رحلوا فنـزلوا على بـاب البرقيه نزولا قـاربوا به البلـد حتى صـارت سهام الجرخ تقـع في خيمهم، فقـاتلوا البلـد أيـاما، فلما تيقـن شاور الضعـف عدل إلى طريق المخادعة إلى ان تصل عسـاكر الشام، فأنفذ الى مري لعنه الله رسـالة طـويلة وفيها: ان هـذا بلد عظيـم وفيه خلـق كثير، ولايمكن تسليمـه إليـك ولا أخـذه الا بعـد ان يقتل مـن الفـريقين عـالم عظيـم، وماتعلم انـت ولا أنا لمن الدائرة، والرأي ان تحقن دماء اصحـابك ودماء اصحابي، وتحصل شيئا ادفعه لـك، واستقرت المصانعة على اربعمائة ألف دينار، وقيـل الفي ألـف دينار، فعجـل له منهـا مائة ألـف دينار فـأجاب مري الى ذلك، وانعقدت الهدنة، ورحل إلى بـركة الحبش، وحمل شاور إليه مائة الف دينـار، ثم اخذ يماطله بالبـاقي انتظارا لقدوم العساكـر، ويوهم انه يجمع الاموال، فلم يشعر الفـرنج الا بهجوم عسكر الشام عليهم، فلما رأوهـم رحلوا الى بلبيس، ونزل أسد الدين بـالمقس، ثم رحل ملك الافرنج ونـزل على فاقـوس، واتبعه أسـد الديـن ونزل على بلبيـس، ثم لما رحلـت

الفرنج بالكلية نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق، وأخرج إليه شاور الاقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ثم بعد ذلك جرى ماذكرنا في الابواب الماضية.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن نور الدين محمود بن زنكي ملك قلعة جعبر، أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك العقيلي، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام ملكشاه، وهي من أمنع القلاع مطلة على الفرات من الجانب الشرقي وسبب ملكه إياها ان صاحبها نزل يتصيد فأخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه الى نور الدين في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، فاعتقله وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل، فعدل به إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل، فسير إليها نور الدين عسكرا مقدمه فخر الدين مسعود بن ابي علي الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفر منها بشيء، فأمدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الأمير مجد الدين ابن الداية، وهو رضيع نور الدين وأكبر أمرائه، فحصرها أيضا فلم يبد لها فيها مطمع فسلك مع صاحبها طريق اللين، وأشار عليه بأن يأخذ من نور الدين العوض ولايخاطر بنفسه في حفظها فقبل قوله وسلمها، وأخذ العوض عنها: سروج وأعمالها، والملاحة التي من بلد حلب وباب بزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، وكان مالك العقيلي هذا آخر بني مالك بالقلعة المذكورة.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

ياروق بن ارسلان التركماني: توفي في هذه السنة، وكان مقدما كبيرا واليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخلقة، وكان

يسكن بظاهر حلب، وبنى على نهر قويق هو واتباعه عمائر كثيرة، وتعرف الآن بالياروقية، وهو مشهور هناك.

وقال ابن خلكان: ياروق بن ألب ارسلان التركماني، كان مقدما جليل القدر في قومه، وكان عظيم الخلقة هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبلية، وبنى على شاطىء نهر قويق، فوق تل مرتفع هو وأهله واتباعه ابنية كثيرة وعمائر متسعة، وتعرف الآن بالياروقية، وهي شبه القرية، وسكنها هو ومن معه، وهي مسكونة آهلة يتردد أهل حلب اليها في أيام الربيع ويتنزهون هناك في الخضرة، وعلى قويق وهو موضع كثير الانشراح والانس، وياروق بفتح الياء آخر الحروف، وبعد الالف راء مضمومة ثم واو ساكنة وفي آخره قاف، وقويق بضم القاف وفتح الواو وسكون الياء آخر الحروف، وفي آخره قاف، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع وينقطع في الصيف.

مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن أتابك طغتكين، صاحب دمشق، مات في هذه السنة ببغداد، ودفن بداره التي عند النظامية، وبلغ نور الدين فجلس له في العزاء.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والستين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنجد بالله، وصاحب مصر العاضد، والوزير بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد كتب الى نور الدين محمود بن زنكي يستنجد على الفرنج لانهم حاصروا مدينة دمياط في صفرمن هذه السنة خمسين يوما بحيث ضيقوا على اهلها وقتلوا منهم خلقا لايحصون، وهم في أمم لايحصون كثرة، قد اجتمعوا من البر والبحر

رجاء ان يملكوا الديار المصرية، وخوفا من استيلاء المسلمين على القدس الشريف.

وكتب صلاح الدين الى نور الدين يطلب منه ان يرسل اليه بامداد من الجيوش فانه ان خرج من مصر خلفه اهلها بسوء، وان غفل عن الفرنج اخذوا دمياط وجعلوها معقلا لهم يتقوون به على اخذ مصر،

فارسل اليه ببعوث كثيرة يتلو بعضها بعضا، واغتنم نور الدين غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد اليها في جيشه فجاس خلال الديار، وقتل من رجالهم وسبى من نسائهم واطفالهم شيئا كثيرا، واجلت الفرنج عن دمياط لانه بلغهم ان نور الدين رحمه الله قد حصر بلادهم، وقتل خلقا من رجالهم وسبى كثيرا من نسائهم، وغنم مالا جزيلا من اموالهم.

ولما اجلت الفرنج عن دمياط فرح المسلمون ونور الدين وصلاح الدين على ذلك فرحا شديدا، وانشد الشعراء في ذلك كل منهم قصيدا.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها قدم الفرنج دمياط وحاصروها، وذلك أن أسد الدين لما ملك مصر خاف الفرنج بالساحل فكاتبوا أهل صقلية والأندلس يستمدونهم ويعلمونهم أنهم خائفون على بيت المقدس، فأمدوهم بالمال والسلاح والعدد والرجال فنزلوا دمياط ظنا أنهم يملكونها، فأرسل صلاح الدين إليها العساكر برا وبحرا، وأمدهم بالأموال والأسلحة والأقوات، وسير إلى نور الدين يعلمه بذلك، ويشكو إليه أنه إن خرج من القاهرة مايأمن أن تنقض الشيعة أمرنا، فسير إليه نور الدين عسكرا نجدة، وسار بنفسه لقصد الفرنج، فصعد الى الكرك وحاصرها، وجاءت الفرنج، الى بيسان، فرحل نور الدين عن الكرك للقائهم، فرجعوا الى عكا، فعاد نور الدين الى دمشق، ولما سمع فرنج الشام بنزول الفرنج على دمياط طمعوا واشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار

مـن المسلمين، واسروا صاحبـه، وكان مملـوكا لنـور الديـن يسمى ختلـج العلم دار وأولاده.

وفي المرآة: وفيهـا نزلـت الفرنـج على دمياط يـوم الجمعة ثـالث صفـر، وجدوا في القتال وأقـاموا عليها ثلاثـة وخمسين يوما يضربونها بـالمجانيق، ويـزحفون اليهـا ليـلا ونهارا، ووجه اليهـا صـلاح الديـن العسـاكر مـع شهاب الـدين خـاله، وطلـب من العـاضد مـالا فبعث اليـه بشيء كثير، فكان صلاح الدين يقول: مارأيـت أكرم من العاضد جهز إلي في حصار الفرنج ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

واشعل نـور الدين بـلاد الفرنج بـالغارات، ووقـع فيهم الفناء فـرحلوا بعد أن مات منهـم خلق كثير وكان رحيلهم في ربيـع الآخر، وفي شعبان سـار نور الـديـن الى الكرك فنـازلـه وضربـه بالمجـانيـق، واجتمع ملـوك الساحل وجاءوه، فتأخر الى البلقاء.

وقال القاضي ابن شداد: لما رأى نور الـدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنـزل على الكرك محاصرا لها في شعبان، وقصده فرنـج الساحل فـرحل عنها، وقصد لقـاءهم فلم يقفـوا له، ثم بلغـه وفاة مجد الدين ابن الـداية بحلب في رمضان فاشتغل قلبه لانـه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشـام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التـي خربت كثيرا من البـلاد، وسار يطلـب حلب فبلغـه موت أخيـه قطـب الديـن بالموصـل، وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط، أنفذ الى البلد وأودعه من الرجال والابطال الفرسـان والميرة والآلات والسلاح ماأمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بـامدادهم بالعساكر والآلات وازعـاج العدو عنهـم إن نزل عليهم، وبـالغ في العطايا والهبات، وكان وزيـرا متحكما لايرد امره في

شيء، ولما رأى الفرنج عجزهم عن المسلمين رحلوا خائبين خاسرين، فأحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل منهم خلق كثير وسلم البلد، بحمد الله تعالى.

وقال العماد: وأقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه ومدار فلكه ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، وسبق تقي الدين ابن أخي السلطان الى دمياط فدخلها، وكذا شهاب الدين محمود خاله فنزلها، واتصل الحصار، وتواصلت الأنصار، ودب في الفرنج الفناء وهب عليهم البلاء، فرحلوا عنها في الحادي عشرين من ربيع الأول.

قال صاحب تاريخ الدولتين: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة الاحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث ان يتبسم لتتم السلسلة على ماعرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك وقال: إني لاستحي من الله تعالى أن يراني مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج.

وبلغني ان اماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أعلم نور الدين ان الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة فقال: يارسول الله ربما لايصدقني فاذكر لي علامة يعرفها فقال: قل له بعلامة ماسجدت على تل حارم وقلت: يارب انصر دينك ولاتنصر محمودا، ومن هو محمود الكلب حتى تنصره، قال: فانتبهت ونزلت الى المسجد، وكان من عادة نور الدين ان ينزل اليه بغلس ولايزال يركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة الا انني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها، والح علي في ذلك، فقلتها

فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا، وأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

وأرسل نور الدين الى العاضد كتابا يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط، وقد كان ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الاتراك في مصر، والاقتصار على أسد الدين وألزامه وخواصه، فكتب إليه نور الدين يمدح الاتراك ويعلمه انه ما أرسلهم واعتمد عليه الا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها الا سنهام الاتراك، فان الفرنج لايرعبون الا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية ولحصلوا منها على الامنية، فلعل الله ان ييسر فتح المسجد الاقصى مضافا الى نعمه التي لاتحصى ولعمارة اليمني قصيدة منها قوله:

من شاكر والله اعظم شاكر
ما كان من نعمى بني ايوب

طلب الهدى نصرا فقال وقد أتوا
حسبي فأنتم غاية المطلوب

جلبوا الى دمياط عند حصارها
عز القوي وذلة المغلوب

وجلوا عن الاسلام فيها كربة
لو لم يجلوها أتت بكروب

فالناس في أعمال مصر كلها
عتقاؤهم من نازح وقريب

ان لم تظن الناس قشرا فارغا
وهم اللباب فأنت غير لبيب

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة:

مصر بيوسفها أضحت مشرفة
وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها
فللمصالح من أيامه نمط[١٢]

ذكر بقية الحوادث:

منها أنه أبطل الأذان بمصر «حي على خير العمل» وأمر صلاح الدين ان يذكر في الخطبة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

ومنها أن شهاب الدين محمد بن ايلغازي بن أرتق، صاحب قلعة البيرة، سار في عسكره، وهومائتا فارس الى نور الدين، وهو بعشترا، فلما وصل الى قلعة اللبوة من عمل بعلبك ركب متصيدا، فصادف ثلاثمائة فارس من الافرنج قد شنوا الاغارة على بلاد الاسلام فانفصلوا واقتتلوا فانهزم الفرنج، وأكثر شهاب الدين فيهم القتل والاسر، فلم يفلت منهم الا من لايعتد به، وسار شهاب الدين برؤوس القتلى الى نور الدين، فركب نور الدين والعسكر للقائه، وكان في جملة تلك الرؤوس رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد، وكان من الشجاعة بمحل كبير، ولانه كان شجا في حلوق المسلمين، وكذلك ايضا كان فيها رأس غيره من مشهوري الفرنج، فازدادوا سرورا، وكان ذلك في سابع عشر شوال من هذه السنة.......

ومنها أن في ليلة عيد الفطر رزق السلطان صلاح الدين ولده الملك الافضل نور الدين علي، وفرح به فرحا عظيما، وخلع واعطى وتصدق بما بهر به العقول.

ومنها أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين كان مسيره من دمشق

الى ولده صلاح الدين بمصر في هذه السنة وقد ذكرناه في السنة الماضية، ومن قصيدة الحكيم عبد المنعم في ذلك قوله:

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه — وكل أبنائه شهب فلا أفلوا

جاءوا كيعقوب والاسباط إذ وردوا — على العزيز من ارض الشام واشتملوا

لكن يوسف هذا جاء أخوته — ولم يكن بينهم نزع ولا زلل

وملكوا ملك مصر في شماخته — ومثلها الرجال مثلهم نزل

ومنها ان نور الدين رحمه الله خرج في هذه السنة إلى داريا فأعاد عمارة جامعها، ومشهد أبي سليمان الداراني، وشتى بدمشق.

قال في المرآة: وفي هذه السنة أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن، وكان قديما عند قبة أبي سليمان الداراني فأحرقه الافرنج لما نزلوا على داريا في أيام مجير الدين آبق، فعمر نور الدين ــ في هذه السنة ــ هذا الجامع في وسط القرية.

ذكر الأمور المزعجة:

منها الزلزلة الكبرى:

قال ابن الأثير : وفي ثاني عشر شوال من هذه السنة كانت زلزلة عظيمة لم يـر الناس مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام، فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وغيرها، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد

والاحصاء، فلما أتى نـور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمـر ماانهدم من أسوارهـا وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرهـا، فلما وصلها أتاه خبر بـاقي البلاد وبخـراب أسوارها وخلـوها من أهلها، فـرتب ببعلبك مـن يحميها ويعمرهـا وسار إلى حمص ففعـل مثل ذلك، ثـم إلى حماة، ثم الى بـارين، وكان شديد الحذر على البـلاد من الفرنج، ولاسيما بارين، فـانها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البته، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مـع أمير كبير، ووكـل بـالعمارة من يحث عليهـا ليـلا ونهارا، ثـم أتـى الى مدينة حلـب، فرأى فيها من آثار الزلـزلة ماليس بغيرها مـن البلاد، فإنها قد أتـت عليها، وكـانوا لايقـدرون يأوون إلى بيـوتهم السالمة مـن الخراب خوفا من الزلـزلة، فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمـون بظاهرها من الفـرنج، فلما شـاهد ماصنعـت الزلـزلة بها وبأهلهـا أقام فيهـا وباشر عمارتها بنفسـه، وكان هـو يقـف على استعمال الفعلـة والبنائين، ولم يـزل كذلك حتى أحكـم أسوارها وجميع البلاد وجوامعهـا، وأخرج من الأموال مالايقدر قدره.

وأما بلاد الفـرنج ـ خذلهم اللـه ـ فإنها ايضا فعلـت فيها الزلزلـة قريبا من هـذا، وهـم ايضا يخافون نـور الدين على بـلادهم، فاشتغل كـل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر.

قال العماد: وكـانت قـلاع الافرنـج المجاورة لبعـرين كحصـن الاكراد وصـافيتا والعـريمة وعـرقة وقـد وافقت الـزلـزلة الفـرنج يـوم عيدهـم في الكنائس، ﴿فخر عليهـم السقف من فوقهـم وأتاهم العذاب مـن حيث لايشعـرون﴾ [النحـل ٢٦]، وذكـر العماد قصيـدة في مـدح نـور الـديـن ووصف الزلزلة:

هـــل لعـــاني الهوى مـــن الأسر فـــادي
ولســـاري ليـــل الصبـــابـــة هـــادي

جنبوني خطب البعاد فَسَهْل
كل خطب سوى النوى والبعاد
كنت في غفلة من البين حتى
صاح يوم الاثيل بالبين حادي
قد حللتم من مهجتي في السويدا
ومن قلبي محل السواد

إلى أن قال:

أتمنى بالشام أهلي ببغداد
وأين الشام من بغداد
وما اعتياضي عن حبهم يعلم الله
تعالى الا بحب الجهاد
واشتغالي بخدمة الملك العادل
محمود الكريم الجواد
أنا منه على سرير سروري
راتع العيش في مراد مرادي

إلى أن قال:

هم نعم الملاذ من نائب الدهر
ونعم المعاذ عند المعاد
جل رزء الفرنج فاستبدلوا منـ
ـه بلبس الحديد لبس الحداد
فرق الرعب منه في أنفس الكفـ
ـار بين الأرواح والأجساد
سطوة زلزلت بسكانها الأرض
وهدت قواعد الاطواد
أخذتهم بالحق رجفة باس
تركتهم صرعى صروف العوادي

خفضت من قلاعها كل عال ... وأعادت تلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه فهو ماض ... مظهر سر غيبه فهو بادي

وفي المرآة: وكانت هذه الزلزلة عامة في الدنيا أخربت قلاع المسلمين وبلادهم بالشام وحلب والعواصم وأنطاكية، ونزلت الى اللاذقية وجبلة، وجميع بلاد الساحل إلى الداروم، ويقال انه لم يمت من دمشق الا رجل أصابه حجر وهو على درج جيرون لان أهلها خرجوا الى الصحراء، ثم امتدت الزلزلة، وقطعت الفرات فوصلت الى الموصل وسنجار ونصيبين والرها وحران والرقة وماردين وغيرها، وامتدت الى بغداد وواسط والبصرة وجميع بلاد العراق، ولم ير الناس زلزلة من أول الاسلام مثلها أفنت العالم.

ومنها نزول الافرنج على دمياط وقد ذكرناه مفصلا...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والستين بعد الخمسمائة:

ماجريات نور الدين محمود:

وهي أنه سار الى الرقة فأخذها، وكذلك نصيبين، والخابور، وسنجار، وسلمها الى زوج ابنته ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، ثم سار الى الموصل فأقام بها أربعة وعشرين يوما وأقرها لابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود مع الجزيرة، وزوجه ابنته الاخرى، وأمر بعمارة جامعها وتوسعته ووقف على تأسيسه بنفسه وجعل له خطيبا ودرسا للفقه، وولى التدريس للفقيه أبي بكر البرقاني تلميذ محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وكتب له منشورا بذلك، ووقف على الجامع قرية من قرى الموصل، وذلك كله باشارة الشيخ الصالح العابد عمر الملاء، وكانت له

زاويـة يقصد فيهـا، وله في كـل سنـة دعوة في شهـر المولد، يحضر عنـده الملوك والامراء والعلماء ويحتفل بذلك، وقد كـان الملك نور الدين صاحبه يستشيره في اموره ومـايعتمده من المهمات، وهـو الذي أشار عليـه في مدة مقامـه بالموصـل بجميع مافعلـه من الخيرات، وأسقـط عنهم المكـوسات والضرائب، وأخـرج من بين أهلهـا الظـالم الغاشـم فخـر الـدين عبـد المسيح، وسماه عبـد الله، وأخذه معـه الى دمشق، فـأقطعه اقطاعـا حسنا وكان عبد المسيح هذا نصرانيا، فأظهـر الاسلام، وكان يقال: ان له كنيسة في جـوف داره، وكـان سيء السيرة في حـق العلماء. وخـاصـة المسلمين، وكان نـور الدين لم يدخـل الموصل حتى قـوي الشتاء فأقام بها كما ذكـرنا أربعة وعشريـن يومـا، فلما كان آخر ليلـة أقام بها، رأى رسـول الله صلى الله عليه وسلـم في المنام وهو يقول له طـابت لك بلدك وتـركت الجهاد وقتال اعداء الله، فنهض من فـوره الى السفر، وماأصبح الا وهو سائر الى الشـام، واستقضـى الشيـخ شرف الـــديـن ابـن أبي عصرون، وكـان على سنجـار ونصيبين والخابـور فـاستنـاب فيهـا ابـن أبي عصرون نـوابـا مـن أصحابه.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة اتصل بنـور الدين أن شهاب الدين غازي ابـن أخيه صـاحـب الموصل قـد فوض أموره الى فخـر الديـن عبد المسيح، وأنه استولى وقـام بالامر وتحكم، فأنف لذلك وكـرهه وعظم عليه لانه كان يبغض فخـر الدين المذكور لما بلغه من خشونـة سياسته، وقال: انا أولى بتـدبير اولاد أخي، وسار عنـد انقضاء الغـزاة جريدة في قلـة من العسكـر وعبر الفـرات عنـد قلعة جعبر وملـك نصيبين، فـأتـاه بها نـور الديـن محمد بن قـرا أرسلان بن داود صاحـب حصن كيفا، وكثـر جمعه، وكان قد تـرك عساكره بالشـام لحفظ ثغوره، فلما اجتمعت العسـاكر سار الى سنجـار فحصرها ونصـب عليها المنـاجيـق وملكها وسلمهـا الى عماد الـدين ابـن أخيه قطـب الديـن، وكان قـد جاءتـه كتب الامـراء الذيـن بالموصـل سرا يبذلـون له الطاعـة ويحثونه على الـوصول إليهـم، فسار الى

الموصل فأتى مدينة بَلَد، وعبر الدجلة فسار فنزل شرق الموصل على حصن نينوى، ويوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة، وكان سيف الدين غازي ابن أخيه قد أرسل عز الدين مسعود بن قطب الدين أخاه الى أتابك شمس الدين ايلدكز صاحب همذان وأذربيجان وبلد الجبل وأصفهان والري وتلك الأعمال يستنجده على عمه نور الدين، فأرسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ينهاه عن التعرض للموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها، فلم يلتفت إليه، وقال للرسول: قل لصاحبك أنا أصلح لاولاد أخي منك، فلم تدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان، فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا بالفرنج، وهم أشجع العالم، ولي مثل ربع بلادك، فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم ولايحل لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا حفظ ماأهملت وإزالة الظلم عن المسلمين.

وعزم من بها من الامراء على مجاهرة عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد لنور الدين، فعلم ذلك فأرسل الى نور الدين في تسليم البلد اليه على ان يقر بيد سيف الدين غازي، ويطلب لنفسه الامان، فأجابه الى ذلك وشرط ان يأخذ فخر الدين معه الى الشام، ويعطيه عهده اقطاعا يرضيه، فسلم البلد في جمادى الاولى من هذه السنة، ودخل القلعة من باب السر، ثم وهب الموصل لسيف الدين غازي ابن أخيه، وأمر بعمارة جامعها، ورتب فيها خصيا له يقال له كمشتكين، وأمره بأن لاينفرد عن سيف الدين غازي بقليل من الأمور ولابكثير، وكان مقامه بالموصل أربعة وعشرين يوما، وعاد الى الشام.

وفي تاريخ الدولتين: وجعل نور الدين سعد الدين كمشتكين دزدارا في قلعة الموصل، ثم قسم جميع ماخلفه أخوه قطب الدين بين اولاده

بمقتضى الفريضة ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها، فلما دخلها خلعها على سيف الدين.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة وقال: أنست بك، وأمنت إليك، وأنا غير مختار لفرقتك، وأمره ان يروح في الرسالة الى الخليفة، فمضى وسار على البرية بخفير من بني خفاجة، فوصل الى الخليفة، وقضى حاجته، ثم رجع الى نور الدين، وهويحاصر سنجار، فأخذها وسلمها الى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي.

قال: وحضر مجاهد الدين قيماز صاحب اربل الى خدمة نور الدين بالموصل.

ذكر ماجريات صلاح الدين يوسف بن أيوب:

منها: أن صلاح الدين عزل قضاة مصر لانهم كانوا شيعة، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي، واستناب في سائر الاعمال شافعية.

وفي تاريخ قضاة مصر: ولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن عيسى ابن درباس بن مبشر بن عبدوس الهمذاني الماراني الكردي الموصلي، وكان قاضي الغربية، قدم من المشرق الى مصر فولاه صلاح الدين رحمه الله، وكان عنده بمكان.

وفي تاريخ الدولتين: ولى صدر الدين عبد الملك المذكور القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

ومنها: ان صلاح الدين خرج الى الغزاة واغار على الرملة وعسقلان، وهجم ربض غزة، ثم رجع الى القاهرة.

وفي تاريخ بيبرس: في هذه السنة تجهز صلاح الدين للمسير الى الساحل غازيا، فمضى واغار على عسسقلان والرملة، فأتاه ملك الفرنج فقاتله وهزمه، ونجا بنفسه، ثم رجع الى القاهرة.

ومنها أنه لما عاد من هذه الغزوة وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله، فأشفق عليها، وأحب ان يجتمع بها شمله، فخرج في النصف من ربيع الاول، وكانت بأيلة قلعة في البحر، قد حصنها أهل الكفر، فعمر لها مراكب حملها الى ساحلها على الجمال، وركبها الصناع هناك وشحنها بالرجال وفتح القلعة في العشر الاول من ربيع الآخر، واستحلها واستباح بالاسر والقتل أهلها، وملاها بالعدد والعدد وحصنها بأهل الجهاد والجلاد، واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سمت القاهرة، ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الاولى.

و منها أنه سار الى الاسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويرتب قواعدها، وهي أول دفعة سار إليها في أيام سلطانه، وعم أهلها باحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها.

ومنها انه كان بمصر سجن يعرف بدار المعونة، فهدها صلاح الدين، وبناها مدرسة للشافعية، وبنى بها أيضا مدرسة للمالكية، وكانت دار العزل، وكان ذلك في النصف من محرم هذه السنة، واشترى ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب دارا كانت تعرف بمنازل العز، فجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها الروضة وحمام الذهب وغيرها، وكان ذلك في النصف من شعبان، وفي النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة أخو السلطان على العربان بالصعيد، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

ومنها أن صلاح الـدين شرع في هذه السنة في عمارة سور القـاهرة لانه كـان قـد تهدم اكثره وصـار طـرقا لايـرد داخـلا ولاخـارجـا، وولى أمـره لقـراقوش الخادم، وقبـض على القصـور وسلمهـا إليه وأمـر بتغيير شعـار الاسماعيليـة، وقطـع مـن الاذان «حـي على خير العمـل» وشرع في تمهيـد اسباب الخطبة لبني العباس كذا ذكره ابن أبي طي.

ومنهـا أن شمـس الـدولـة طلـب من أخيـه السلطـان ربـع الكـامـل بالقاهرة، وزاد على اقطاعه نويش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

ومـن جملة الحوادث في هـذه السنـة أن في نصـف شعبان هبـت ريـح شديدة عظيمة، ورعدت السماء بقعقعة لم يسمع بمثلها، فخر الناس على وجوههم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنـة والخليفة هو المستضيء بأمـر الله، والخليفة بمصر العـاضد، والـوزير بها الملـك الناصر صـلاح الـدين يـوسف، ولكنـه في الحقيقة سلطـانها، وليس لأحد معـه كلام لا مـن أمرائها ولامـن أعيانها، والعاضـد تحت حكمه وقهـره، ومع هـذا قطعت الخطبـة باسمـه وخطب بـاسـم المستضيء الخليفة، وعقيـب ذلـك مـات العـاضد، والكـلام فيـه مفصلا على أنواع:

الأول: في قطع خطبته:

قطعت خطبتـه من ديـار مصر في محرم هذه السنـة، وسبب ذلـك ان صلاح الـدين لما ثبت ملكه في البـلاد، وأمن السودان والأجنـاد، وضعف أمر العاضد، وصـار قراقوش حاكما في قصره، كتب نور الـدين إلى صلاح

الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، وقطع خطبته، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، وكان المستضيء قد راسله في ذلك، ولما وصل رسول الخليفة الى نور الدين بذلك سيرنور الدين كتاب الخليفة وكتابه إلى صلاح الدين يأمره بالقبض على العاضد وأهله والخطبة للامام المستضيء فجمع صلاح الدين الامراء وشاورهم في ذلك، فمنهم من خوفه، ومنهم من هون عليه، فحضر الفقيه أبو يحيى بن اليسع الجامع يوم الجمعة سابع المحرم وصعد المنبر قبل طلوع الخطيب، ودعا للامام المستضيء فلم ينكر أحد عليه، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين جميع الخطباء أن يخطبوا للمستضيء.

وفي تاريخ الدولتين: استفتح صلاح الدين سنة سبع وستين وخمسمائة باقامة الخطبة في الجمعة الاولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر منها.

وقال فيه أيضاً: إن صلاح الدين لما تمكن في الديار المصرية وضعف أمر العاضد كتب إليه نور الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه بذلك الزاما لافسحة فيه، واتفق ان العاضد مرض، واستشار صلاح الدين الامراء فاختلفوا فيه كما ذكرنا، وكان قد دخل في مصر انسان أعجمي يعرف بالامير العالم.

قال ابن الأثير: وقد رأيناه بالموصل كثيرا، فلما رأى ماهم فيه من الاحجام قال: انا ابتدىء بها، فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم ينكر أحد عليه ذلك، فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح

فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الديار، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الايام التي قد بقيت من أجله فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم بذلك على مانذكره إن شاء الله تعالى.

ولما انتهى الخبر إلى نور الدين بالشام أرسل الى الخليفة ببغداد يعلمه بذلك مع شهاب الدين أبي المعالي بن أبي عصرون، فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وعملت القباب، وفرح المسلمون فرحا شديدا، وكانت الخطبة لبني العباس قد قطعت من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز الفاطمي باني القاهرة إلى هذا الأوان، وذلك مائتا سنة وثمان سنين.

وقال ابن الجوزي: ووصل يوم السبت ثاني عشرين المحرم ابن أبي عصرون رسولا يبشر بأن الخليفة خطب له بمصر وضربت السكة باسمه، وخلع على الرسول وأنكمدت الروافض، وقد صنفت في هذا كتابا سميته «النصر على مصر» وعرضته على الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

وقال العماد: وشيع نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وأمرني بانشاء بشارة عليه، تقرأ في سائر بلاد الاسلام، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الامام في مدينة السلام.

قال: ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها:

قد خطبنا للمستضيء بمصر ... نائب المصطفى إمام العصر

وخذلنا النصرة العضد العا ... ضد والقاهر الذين بالقصر

وأراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء.

وقال العماد في الخريدة: قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ونصرة وزير الخليفة كنصرته ثم قال:

وأشعنا بها شعار بني العباس ... فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا المدعي يدعو ثبورا ... وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشمي في أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الله ... وجلت عن كل عد وحصر

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين صندل — وهو من أكابر الخدم - المقتفوي، ومعه التشريف لنور الدين والكتاب للعماد ليقرأه، فتناوله منه الموفق ابن القيسراني وكان عنده في مقام الوزير، فقرأه.

وذكر في «عبرة أولى الأبصار»[١٣] أن الخليفة سير إلى نور الدين الخلع ومعها سيفان، اشارة الى تقليد مصر والشام، وسير معها طوقا زنته ألف دينار، وبعث أيضاً الى صلاح الدين تشريفا أقل من تشريف نور الدين، فلبس صلاح الدين ذلك التشريف، فركب به في الديار المصرية، وهي أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية بعد استيلاء بني عبيد عليها، وأما نور الدين فكذلك لما لبس التشريف خرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى الى الميدان الاخضر، ثم عاد.

. الثـاني: في كتاب صـلاح الديـن الى الخليفـة المستضيء بخط القـاضي الفاضل يهنيه بفتح مصر، أوله:

﴿سلام قولا مـن رب رحيـم﴾[ياسين ٥٨] ﴿يبشرهـم ربهم بـرحمة منه ورضوان وجنـات لهم فيها نعيـم مقيم﴾ [التـوبة ٢١] وصلـوات الله التي تنزل بها الـروح الأمين وتشيعها الملائكـة بالتـأمين على مولى الأمـة ومولى النعمـة، ووالي الامر المصـون بقاؤه في عقبـه، وولي اللـه الذي ﴿لاخـوف عليهم﴾ [البقـرة ٢٦٢] ولاخوف به، الخليفـة على الحقيقة، والامـام الذي يحمـي مـن دون اللـه الحقيقـة على الحقيقـة، ووارث السقـايتين: زمـزم والكـوثـر، والـولايتين: السريـر والمنبر، والـدعـائين: اليـوم وفي المحشر، والشرفين: المشعـر والمعشر، والطـرفين: المشهـد الاول والمشهـد الاكبر، والمقامين: مقام ابـراهيم ومقام محمد صلى الله عليهما وسلـم أبدا سرمدا، والشعـاريـن: الابيـض في القلـب والاسـود في اليـد، والخلـديـن: في دار السلام ودار السلامـة، والموطنين: مقام الامامة ودار المقـامة، والشفاعتين: سـالفا في أهـل العمار، وآنفا في أهـل النـار، والسلامين: سـلام لكم مـن ألسنة الابرار و﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعـم عقبى الدار﴾ [الرعد ٢٤] على الخليفـة ابن الخلائف، على رغـم من رضي أن يكـون مع الخوالـف، وابن الأئمة المشهورين في المناظر والمواقف .

مولينا ومـولانا الامام المستضيء باللـه أمير المؤمنين، صلوات الله على تلك الأنوار القـدسية يتضوع عن نسيـم الأنفاس الفردوسية، والحمـد لله الذي وفى الـدين دينه المسـؤول، وأغمد عـن أهله سيف الفتنـة المسلول، فأورث أمير المؤمنين حقـا كان بـه ممطولا، وأطال يـده إلى استيفاء طـائلة كـان دم الحق بها مطلـولا، وكتـاب المملـوك صـادر الى المقـر الأشرف الأصيل، مـن شرفه لشرف الرسـول رسيل، والاسـم الشريـف المستضيء به قـد صـدحـت منـابـره وعـروشـه، وطـرزت المدائن والملابـس والـدنـانير

والدراهم رقومه ورقوشه، وجهزت إلى بلاد الكفار في العام مرة أو مرتين بعوث نصره وجيوشه، والزمن قد وقرته السكينة لا الوجوم، والكواكب قد همت بأن تتساقط ايثار الضرب لاايثار الرجوم، ونشأة الدعوة المنيفة قد أشبهت ولاية النبوة الشريفة، وقد طالع وزير أمير المؤمنين بتفصيل ماأجمله، وتحصيل مامنعته الجلالة أن يستوفيه ويستكمله، راجيا ان يناله من الملاحظات النبوية مايجعل له سلطانا، ويمكن في قلوب الاعداء والاولياء مكانا، حتى يحفظ على الخلافة من لايعنيه الا إياها، وينفذ على الثقلين في الخافقين أوامرها وقضاياها، ويستضيف لها نصرا الى نصر، ويستنجز لها ماكتب ﴿في الزبور من بعد الذكر﴾ [الأنبياء ١٠٥]، نوه الله باسم أمير المؤمنين في الملأ الأعلى، وطبق بدعوته المعمورة حتى لايستثنى مكان بألا، وقلص به الامة ضلالة ومد عليه ظلا، ان شاء الله تعالى......»

وفي أيام العاضد وصل اسطول الفرنج الى الاسكندرية، وكان معهم من الخيل الف وخمسمائة فرس، وفي الاسطول ثلاثون ألف مقاتل في مائتي شيني، ومعهم آلات الحرب والحصار، ومعهم أربعون مركبا اخرى تحمل الازواد، وفيها من الرجال والغلمان تتمة خمسين الف رجل، وكشفوا المسلمين عن البر، وطلعوا فضربوا خيامهم وكانت ثلاثمائة خيمة، وحاصروا الاسكندرية أياما، ففتح المسلمون أبواب المدينة بالليل وكبسوا الفرنج على غفلة فأفنوهم قتلا وأسراً، وغنموا جميع ماأحضروه، وغنموا بعض المراكب واحرقوا بعض المراكب الباقية.....

الثامن: فيما جرى بعد موته.

قال ابن كثير رحمه الله : لما مات العاضد، استحوذ الملك الناصر صلاح الدين يوسف على القصر بما فيه، وأخرج منه أهل العاضد إلى دار أفردهالهم، وأجرى عليهم الارزاق والنفقات الهنية عوضا عما فاتهم من

الخلافة، واستعرض حواصل القصرين، فوجد فيهما من الحواصل والامتعة والآلات والثياب والملابس شيئا كثيرا باهرا، وأمرا هائلا، فمن ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر وقضيب زمرد طوله اكثر من شبر وسمكه نحو الابهام، وجبل من ياقوت، ووجد فيه ابريق عظيم من الحجر المائع، وطبل للقولنج، فاتفق أن بعض أمراء الاكراد اخذه في يده، ولم يدر ماشأنه، فلما ضرب عليه حبق فألقاه من يده فكسره فبطل أمره، وأما القضيب الزمرد فان السلطان كسره ثلاث فلق فقسمه بين نسائه، وقسم بين الامراء شيئا كثيرا من قطع البلخش والياقوتت والذهب والاثاث وغير ذلك، واستمر البيع فيما كان هنالك من الاثاث والامتعة نحوا من عشر سنين، وأرسل الى الخليفة ببغداد هدايا عظيمة سنية، وكذلك الى الملك العادل نور الدين، وأرسل إليه جانبا كبيرا صالحا، وكان مما أرسله لنور الدين ثلاث قطع بلخش زنة الواحدة واحد وثلاثون مثقالا، والاخرى ثمانية عشر مثقالا والثالثة دونهما، مع لآلىء كثيرة وستون ألف دينار وعطر لم يسمع بمثله، ووجد في القصر أيضاً خزانة كتب ليس في دار الاسلام مثلها تشتمل على نحو الفي ألف مجلد، ومن عجائب ذلك انه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري(١٤).

وقال العماد الكاتب: كانت الكتب قريبا من مائة وعشرين الف مجلد، وقد تسلمها القاضي الفاضل، وأخذ منها شيئا كثيرا مما اختاره وانتخبه.

قال: وقسم القصر الشمالي بين الامراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في قصر عظيم على الخليج، الذي يقال له اللؤلؤة، الذي فيه بستان الكافوري، وسكن أكثر الامراء في دور من كان ينتمي الى الفاطميين، وصار لايلقى أحد من الاتراك أحد من أولئك الذين كانوا بها من الاكابر الا شلحوه ثيابه ونهبوا داره حتى تمزق كثير منهم في البلاد وتفرقوا شدر مذر، وصاروا أيادي سبأ.

وقال ابن أبي طي: ولم يوجـد في القصر من المال كثير، لان العاضد قد ضيعه في اعطائه الفـرنج في المرات العديدة، ووجد فيه ذخـائر جليلة من ملابس وفرش وخيـول وخيام وكتب وجوهر، ووجد فيه ابـريق عظيم من الحجر المائع، فانفذه السلطان الى بغداد.

وجعل السلطان أهـل العاضد في موضع خارج القصر، وجعـل أمرهـم الى قـراقوش الخادم، وفـرق بين النسـاء والـرجال ليكـون ذلـك أسرع إلى انقراضهـم، واستعـرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعـدة والعديد والطريـف والتليد، فـأطلق من كـان منهم حرا، وأعتـق من رأى اعتـاقه، ووهب مـن أراد هبته، وفـرق على الامراء والاصحـاب من نفـائس القصر وذخائره شيئـا كثيرا، وحصل هو على اليتيمات وقطـع البلخش واليـاقوب وقضيب الزمرد، وأطلـق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيـق، فأقام البيع في القصر مدة عشر سنين.

قال: ومـن جملة ماباعـوا خزانة الكتب، وكـانت من عجائب الـدنيا، ويقال إنه لم يكـن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم مـن الدار التي بالقاهرة في القصر، ويقال إنها كانـت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف كتاب، وفيهـا من الخطـوط المنسوبـة أشياء كثيرة، وانقضـت تلك الـدولة برمتها، وذهبـت تلك الايام بجملتها بعـد ان كانوا قد احتـووا على البلاد واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا.

وحكـي أن الشريف الجليـس، وهـو رجل كـان قريبـا مـن العاضـد، يجلـس معـه ويحدثـه، عمـل دعـوة لشمـس الـدولـة ابـن أيـوب أخـي السلطان، بعد القبـض على القصر وأخذ مافيه، وانقـراض دولتهـم، وغرم هـذا الشريف على هـذه الدعـوة مـالا كثيرا، وأحضرها أيضـا جماعة مـن أكابر الأمـراء، فلما جلسوا على الطعام قال شمس الـدولة لهذا الشريـف: حدثني بأعجب ماشاهدته من أمـر القوم، قال: نعم طلبني العاضد يوما

وجماعـة من النـدمـاء، فلما دخلنا عليـه وجدنـا عنـده مملوكين مـن الترك عليهما أقبية مثل أقبيتكم وقـلانس مثل قلانسكم، وفي أوساطهـم مناطق كمناطقكـم، فقلنا له: يـاأمير المؤمنين ماهذا الـزي، الذي مارأينـاه قط؟ قال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا.

وفي تـاريـخ الـدولتين: أخبرني أبـو الفتـوح أن السلطـان جعـل أهـل العاضد في دار بـرجوان. في الحارة المنسوبة إليه بالقـاهرة، وهي دار كبيرة واسعـة، كان عيشهـم فيها طيبـا، ثم نقلـوا بعد الـدولة الصـلاحية منهـا وأبعدوا عنها.

التاسـع: في ذكر كتـاب كتبه القاضي الفـاضل عـن صلاح الـدين الى وزير بغداد، على يد الخطيب شمس الدين أبي المضاء:

«كتـب الخادم هذه الخدمـة مـن مستقـره ودين الـولاء مشروع، وعلـم الجهاد مـرفوع، وسؤدد السواد متبـوع، وحكم السداد بين الائمة مـوضوع، وسبـب الفساد مقطـوع ممنوع، وقـد توالـت الفتوح غـربا ويمنـا وشامـا، وصارت البلاد، بل الدنيا والشهر بل الدهـر حرما حراما، وأضحى الدين واحدا بعدمـا كان أديانا، والخلافة إذا ذكرهـا أهل الخلاف لم يخروا عليها صما وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعـة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة، وذلـك بأنهم اتخذوا عباد الله مـن دونه أولياء، وسموا أعـداء الله أصفيـاء، وتقطعوا أمـرهم بينهـم شيعا، وفـرقـوا أمر الامـة وكان مجتمعـا، وكـذبـوا بالنـار فعجلـت لهم نـار الحتـوف، ونشـرت أقلام الظبـا حـروف رؤوسهم نشـر الاقلام للحروف، ومـزقوا كل ممـزق، وأخذ منهم كـل مخنق، وقطع دابرهم، ووعـظ آتيهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنـابرهم، وحقت عليهـم الكلمة تشريـدا وقتلا، وتمت كلمات ربـك صدقـا وعدلا، وليـس

السيف عمن سواهـم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليـل عن سير اليهم بنائم، ولاخفاء عن المجلس الصاحبي أن مـن شد عقد خلافة وحل عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الاخلاف والاسلاف فانه مفتقر إلى أن يشكر مـانصح، ويقلد مافتح، ويبلغ مـاقترح، ويقدم حقه ولايطرح، ويقرب مكـانه وإن نزح، وتأتيه التشريفات الشريفـة، وتواصل إليه امـداد التقدمـات الجليلة اللطيفة، وتلبـى دعوتـه بما أقام مـن دعوة، وتوصل عـروته بما وصل من عروة، وتـرفع دونه الحجب المعترضـة، وترسل اليه السحب المروضة، فكل ذلك تعود عـوائده وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهـه لنصرها، وجرد سيفه لـرفع منارها والقيـام بأمرها، وقـد أتى البيـوت من أبـوابها، وطلـب النجعة مـن سحـابها، ووعد آمـالـه الواثقـة بجـواب كتـابها، وأنهض لايصال ملطفـاتـه، وتنجـز تشريفاتـه خطيـب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالامر قيام من بر، واستفتح بلباس السواد الأعظم، الـذي جمع الله عليه السواد الاعظم، امـلا انـه يعود اليـه بما يطـوي الـرجـاء فضل عقبـه، ويخلـد الشرف في عقبه......»

ذكر ماجريات نور الدين:

منها أن نـور الديـن استدعـى ابن أخيـه صاحـب الموصل، فـوصل بالعسـاكر إلى خدمته، وكـانت غزوة عرقـه فأخذهـا نور الدين ومعـه ابن أخيه، وذلك في المحرم من هذه السنة.

وقال ابـن أبي طي: جمع نـور الديـن عساكـره وخرج الى عـرقة ونـازلها وقاتلهـا أياما حتـى فتحها واحتوى على مافيهـا كلها وغنم النـاس غنيمة عظيمة.

وقال ابـن الأثير: خرجت مـراكب من مصر إلى الشـام، فأخذ الافـرنج

من اللاذقية مركبين منها مملوءين من الامتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم باعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمور لاطائل تحتها، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا في بلادهم، بعضهم نحو أنطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة، وأخرب ربضه، وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيتا وعريمة فاخذهما وكذلك غيرهما، ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير وعادوا إليه وهو بعرقة، فسار في العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب، وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا في ولايتها مثلما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ما أخذوه من المركبين وتجدد معهم الهدنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لايعطي الجزية حتى يلطم.

ومنها أن نور الدين أمر في هذه السنة باتخاذ الحمام الهوادي وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده، وكان سبب ذلك أنه اتسعت مملكته وبعدت بلاده، وكانت من حد النوبة الى باب همذان لايتخللها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم قد بلغوا الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده واجرى الجرايات لها ولميرتها، فوجد بها راحة كبيرة، كانت الاخبار تأتيه لوقتها، لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوا لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التي هو فيها في ساعته فتنقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد التي تجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا الى ان تصل الاخبار اليه، فانحفظت الثغور بذلك.

ومنها أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين باسقاط المكوس

والضرائب عن أهل مصر والقاهرة، وقرأ المنشور بذلك على رؤوس الاشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر من هذه السنة، والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار.

وفي تاريخ الدولتين: قرئت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر على المنبر بالقاهرة في التاريخ المذكور عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين، فهو كان الآمر، وذاك المباشر.

ذكر وقوع النفرة بين نور الدين وصلاح الدين:

وذلك أن نور الدين غزا في هذه السنة بلاد الافرنج في السواحل، فأحل بهم بأسا شديدا، ثم عزم على محاصرة الكرك، وكتب الى صلاح الدين أن يلاقيه بالعساكر المنصورة الى بلاد الكرك ليجتمعا هناك على المصالح فيما يعود نفعه على المسلمين، فتوهم من ذلك صلاح الدين، وخاف أن يكون لهذا الامر غائلة يزول بها ماحصل له من التمكين، ولكن ركب في جيشه من الديار المصرية ليقصد امتثال المرسوم، فسار أياما، ثم كرّ راجعا معتلا بقلة الظهر والخوف من اختلال الديار المصرية إذا بعد منها، واشتغل عنها، وأرسل يعتذر بذلك إلى السلطان نور الدين، فوقع في نفسه منه، واشتد غضبه عليه، وعزم على الدخول الى الديار المصرية وانتزاعها من يد صلاح الدين وتولية غيره فيها، ولما بلغ هذا الخبر الى صلاح الدين ضاق ذرعه بذلك، وذكره بحضرة الامراء والكبراء فبادر ابن أخيه تقي الدين عمر فقال: والله لو قصدنا نور الدين لنقاتلنه، فشتمه الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف وأسكته، ثم قال لابنه: اسمع ماأقول لك، والله ما هاهنا أحد أشفق عليك مني، ومن خالك هذا - يعني شهاب الدين الحارمي - ولو رأينا الملك نور الدين لبادرنا إليه ولقبلنا الارض بين يديه، ولو كتب الي ان ابعثك إليه مع نجاب لفعلت، ثم أمر من هنالك بالانصراف

والذهـاب، فلما خلا بـابنه قـال: أمالـك عقل، تـذكر مثـل هذا بحضرة هؤلاء، ويقـول ابن أخيك مثـل هذا الكلام، وتقـره عليه، فلا يبقـى عند نور الـدين وجه أهم عنـده من قصدك وقتالـك، ولكن ابعث إليه وتـرقق لـه، وتواضـع له، وقـل: أي حاجـة إلى مجيء مولانـا، ابعث الي بنجـاب أجيء معه الى بين يـديك، فانك اذا فعلت هذا تمادى الـوقت بها تحصل به الكفاية من الله تعالى، ففعل صـلاح الدين ذلك، وكان كما قال نجم الدين أيوب: ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ [الاحزاب ٣٨].

وقـال العماد: وكان صـلاح الديـن واعـده نور الـدين أن يجتمعـا على الكـرك والشـوبـك يتشـاوران فيها يعود بـالصـلاح المشترك، فخـرج مـن القاهرة في الثاني والعشرين من المحـرم، فلقي في تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا وعدة، وعاد الى القاهرة في النصف من ربيع الاول.

وفي تاريخ بيبرس: تجهـز صلاح الدين من مصر الى الكـرك، وكان قد قدر مع نور الـدين ان يخرج من دمشق ويجتمعا على غزو الافـرنج، فسبق صلاح الـدين، وخرج نور الـدين من دمشـق، فأوجس صلاح الـدين في نفسه خيفـة منه أن يعزلـه عن مصر ويوليها غيره، فـرجع عائدا وقـد بقي بينـه وبين الكرك مسـافة قـريبة، وأرسـل الى نـور الديـن رسولا وأصحبـه هدايـا كثيرة، وتحفا جليلة، وكتـب اليه يعتـذر بأن والده ضعيـف، وكان الرسول إليه الفقيه عيسى الهكاري، فلاطفـه نور الدين وخاطبه بالحسنى حتى قال نور الـدين: حفظ مصر عندنا أهم مـن غيرها، وفطن لما قصده برجعته، وعز ذلك عليه في باطنه.

وقال ابن الأثير: لما نصـح نجم الدين ولـده صلاح الدين وأشـار عليه بأن يرسـل رسولا الى نور الدين يستعطفـه، فأرسل إليه بذلـك، عدل نور الدين عن قصده، وكان من جملة ماقـال نجم الدين لولده صلاح الدين: الايام تنـدرج، والله كـل وقت في شـان، وكان الامـر كما قال، تـوفي نور

الديـن، ولم يقصد صـلاح الديـن، ولا أزاله، وكـان هذا الـرأي من نجـم الدين من أحسن الآراء وأجودها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والستين بعد الخمسمائة:

ذكر ماجريات نور الدين:

منها: ان نوز الـدين برز الى الافرنج وكـانوا قد اجتمعوا بـالشام لقصد مدينة زرا، فـوصلوا الى سمكين، فهربوا مـن نور الدين الى الغـور، ثم إلى السواد، ثم إلى الشلالة، فبعث نور الديـن سرية إلى طبرية فعاثوا هنالك وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا، ورجعت الفرنج خائبين.

ومنها: أن نور الـدين فتح في هذه السنة مرعـش في ذي القعدة، وأخذ بهسنا في ذي الحجة منها.

ومنها: أن كلب الـروم اللعين خرج في جنوده الشياطين، فقصـد الغارة على ناحية زرا من حوران، ونزلوا بقريـة تعرف سمكين، فركب نور الدين وهو نـازل بالكسـوة إليهم، فلما عرفـوا وصولـه رحلوا إلى الفـوار، ثم إلى السواد، ثم نزلـوا بالشلالة، ونزل نور الديـن عشترا فأنفذ سرية إلى أعمال طبرية، واغتنموا خلوهـا، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخـاضة، فوقف الشجعان حتـى عبرت السرية، ورحل نور الـدين من عشترا فنزل بظـاهر زرّا.

قال العماد: وكنـت راكباً في لقائهم مـع الملك العادل، وهـو يقول لي: كيف تصف ماجرى فمدحته بقصيدة منها:

عقــــــدت بنصرك رايــــــة الايمان
وبــــدت لعصرك آيــــة الفــــرســــان
يـــاغــالــب الغلـب الملـوك وصـائد الـــ
ـــصيد الليــوث وفـــارس الفــرســـان
يـــاســالـــب التيجــان مـــن أربـــابها
حـــزت الفخـــار على ذوي التيجـــان
محمـــودا المحمـــود مـــا بين الـــورى
في كـــل اقليـــم بكـــل لســـان
يـــاواحـــدا في الفضـــل غير مشـــارك
اقسمـــت مـــالـــك في البسيطـــة مـــن ثـــان

ومنها:
وجلـوت نـور الـديـن ظلمـة ظلمهـم
لما أتيـــت بـــواضـــح البرهـــان
وهـــزمتهـم بـــالـــرأي قبـــل لقـــائهـم
والـــرأي قبـــل شجـــاعـــة الشجعـــان
أصبحـــت لـــلاســـلام ركنـــا ثـــابتـــا
والكفـــر منـــك مضعضـــع الاركـــان

وهي قصيدة طويلة مدح فيها أمراءه الحاضرين للجهاد معه.

ومنها أن نـور الديـن سار قـاصدا جـانب الشمال، فسـار إلى بعلبك، ومنها الى حمص، ثـم حلب، وفعـل في كل منهـا من المصـالح مـاوجب، وقصـد بـلاد قليـج أرسـلان ملك الـروم، وكـان العماد معـه، ووصـل الى مرعش، وكان الزمان في أطيب فصـوله، وهو زمن المشمش، وكتب العماد الى صديق له بدمشق:

كتـــابي فـــديتـــك مـــن مـــرعـــش
وخـــوف نـــوائبهـــا مـــــرعشي

وما مرّ في طرفها مبصر
صحيح النواظر الاغشي
وما حل في ارضها آمن
من الضر والضيم الاخشي
ترنحني نشوات الغرام
كأنني من كاسه منتشي
اسر وأعلن برح الجوى
فقلبي يسر ودمعي يشي
بذلت لكم مهجتي رشوة
فحاكم حبكم مرتشي
وكيف يجد الكرى مغرم
بنار الغرام حشاه حشي
بمرعش أبغي وبلوطها
مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة، ونمى حديثها الى نور الدين، فاستنشدنيها فأنشدتها إياه ونحن سائرون في واد كثير الأشجار وزدتها بيتين بدهتهما في الحال:

وبالملك العادل استأنست
نجاحا مني كل مستوحش
وما في الانام كريم سواه
فإن كنت تنكر ذا ففتش

قال ابن الأثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونيه واقصرا، عازما على حربه وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطيه وسيواس وغيرهما من تلك البلاد، قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده،

وأخرجه عنها طريدا، فسار إلى نور الدين مستجيرا به وملتجئا إلى ظله، فأكرم نزله وأحسن إليه، وحمل له مايليق أن يحمل للملوك، ووعده النصر، والسعي في رد ملكه إليه، وأرسل إلى قليج أرسلان وشفع إليه في اعادة ماغلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه، فابتدأ بكيسوم وبهسنا ومرعش، ومرزبان فملكها ومابينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها، خوفا وفرقا، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه، فأجابه الى الصلح، وكان في جملة رسالة نور الدين: إنني اريد منك أمورا وقواعد، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها ان تجدد اسلامك على يد رسولي، حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام، فإني لاأعتقدك مؤمنا، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، والثاني إذا طلبت عسكرك الى الغزاة تسيره، فانك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فاما ان تكون تنجدني بعسكرك لاقاتل بهم الفرنج، واما ان تجاهد من يجاورك من الروم، وتبذل الوسع والجهد في جهادهم، والثالث ان تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ابن أخي، وذكر امورا غيرها.

فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال: ماقصد نور الدين الا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبته الى ماطلب، أنا أجدد اسلامي على يد رسوله، واستقر الصلح، وعاد نور الدين، ونزل عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها الى ان مات نور الدين، فرحل العسكر وعاد قليج ارسلان وملكها.

ومنها أن مليح بن لاون، مقدم بلاد الارمن التجأ إلى نور الدين، وتقوى به على الروم والارمن، وكانت الدروب تحت اذنة والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح

ابن لاون فكسرهم وقتل وأسر، وساق لنور الدين من مقدمي الروم ثلاثين أسيرا، فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين بن الشهرزوري بالأسرى والهدايا الى الخليفة المستضيء بأمر الله، ومعه كتاب يشرح هذه الكسره، ومافتح من البلاد.

ومنها أنه وصل شهاب الدين ابن أبي عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين وخمسين دينارا من دنانير النثار التي نثرت يوم دخل الشهاب الى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكي والد نور الدين قديما من انعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين احياء ذلك الرسم في حقه، فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما، وكان مراده رحمه الله ان يستوهب ببغداد على شاطىء دجلة ارضا يبني عليها مدرسة للشافعية، ويقف عليها الناحيتين، فعاقه امر القدر عن قدرته على الأمر.

ومنها ان نور الدين أرسل الى صلاح الدين الموفق خالد القيسراني ليقيم له حساب الديار المصرية، وذلك لانه استقل الهدية التي ارسل بها إليه من خزائن العاضد، ومقصوده ان يقرر له على الديار المصرية خراج يحمل اليه كل سنة.

ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها: أن صلاح الدين بعث الى نور الدين هدية منها: فيل وحمارة عتابي، فبعث بها نور الدين الى بغداد، وخرج الناس للقائها، وعجبوا من خلقة الحمارة.

وقال العماد: خرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل والحمارة العتابية، والذخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزائن القصر.

قال: ووصل ذلك الينا ونحن بحلب بالميدان الاخضر، وأهدى نور الدين الفيل الى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحف الثياب والعود والعنبر، ثم سيره سيف الدين هدية الى بغداد للخليفة مع ماسيره معه من التحف اللطيفة، وسير نور الدين الحمارة إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

ومنها أن صلاح الدين نزل في هذه السنة على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون، فبرح بها، وفرق عنها عربها وخرب عمارتها، وبعث سراياه على أعمالها، وأرسل كتابا بذلك الى نور الدين.

وقال ابن الأثير وابن شداد: هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية، وانما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لانها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، فخرج صلاح الدين في أثناء السنة فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد عنها، فلم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة، وحصل ثواب القصد.

وفي المرآة: وفي هذه السنة سار نور الدين إلى الموصل، وصلى في الجامع الذي بناه وسط البلد، وتصدق بمال عظيم، ولما علم صلاح الدين أن نور الدين قد توجه الى الموصل خرج بعساكره، فحصر الكرك والشوبك، ونهب أعمالها، وكانت جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار الى الفرنج، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين، فنهبهم صلاح الدين، وقتل البعض وأجلى من بقي منهم عن أرض الكرك، وكتب كتابا الى نور الدين يخبره بما جرى من العربان، وأنه لم يبق منهم أحد، فإنهم كانوا آفة على المسلمين، ودليلا للكفار على الاسلام،

ثـم عاد صـلاح الـدين الى مصر، وعـاد نـور الديـن مـن الموصل وقطـع الفرات، وقصد بلاد الروم، وقد ذكرناه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير نجـم الديـن أيوب والـد السلطان صـلاح الـدين يـوسف بـن أيوب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هـو أبو الشكـر أيوب بـن شادي، والـد الملوك بنـي أيوب، الكـردي الزرزاني، وهـم خيار الأكـراد من بلاد دويـن، بشمال بلاد أذربيجـان، مما يلي الكرج، ومنهـم من يقـول: أيوب بـن شادي بـن مروان بـن يعقوب، وأغرب بعضهم فزعـم أنهم من سلالة مروان بن محمـد الجعدي آخر بني أمية، وهذا ليـس بصحيح، والذي عليه الجمهور أنه لايعـرف بعد شادي أحد في نسبهـم، والذي نسـب الى بني أميـة ادعاء هـو الملك أبـو الفداء اسماعيل بن طغتكين بـن أيوب بن شادي، ويعرف بابـن سيف الاسلام، وقـد ملك اليمـن بعـد أبيه فتعـاظم في نفسـه، وادعـى الخلافة، وتلقـب بالامام الهادي بنور الله، المعز لـدين الله، أمير المؤمنين، وزعم انه أموي، ومدحه الشعراء وأطروه، ولهجوا بذلك، وقال هو في ذلك ايضا.

وإني أنا الهادي الخليفة والذي
أدوس رقاب الغلب بالضمر الجرد

ولا بد من بغداد أطوي ربوعها
وأنشرها نشر السماسرة البرد

وأنصب أعلامي على شرفاتها
وأحيي بها ما كان أسسه جدي

ويخطب لي فيها على كل منبر
وأظهر دين الله في الغور والنجد

وهـذا الادعـاء ليس بصحيـح، ولا لـه أصـل يعتمد عليـه ولامستنـد يستند إليه.

قـال ابن أبي طـي: لايعـرف في نسـب نجم الـديـن أكثـر من والـده شادي، وحدثنـي أبي قال: كان تقي الديـن عمر يزيد فيقـول شادي بن مروان، وسمعت أنا من يقول: شادي بن مروان بن يعقوب.

قال: وأجمع الجماعـة من آل أيوب ان دعـوى ابن سيـف الاسلام أنهم من بني مـروان بن محمد الجعدي آخـر خلفاء بني أمية كـذب، وأن جميع آل أيوب لايعرفون جدا فوق شادي.

قال: وكذلك أخبرني السلطان الملك الظـاهر، قال: وصحة دليل ذلك أني وقفت على كتـاب وقف رباط النجمي بـدمشق ولم يزد فيـه على نجم الـدين أبي سعيـد أيـوب بن شـادي العـادلي، والمقصود أن الأمير نجـم الديـن والأمير أسد الدين شيركـوه كانا أخويـن، وكان نجم الديـن أسن من أسد الدين، ولدا بأرض الموصل.

وقال ابن أبي طي في تـاريخه الكبير: كان مولد نجم الديـن أيوب ببلد شبختان، وقيل انه ولد بجبل جور وربي في الموصل، ومولد أبيه شادي في بلد دوين.

الثاني: في بيـان ابتداء أمـره وانتسابـه واتصالـه بالـدولة، وهـو أن أباه شادي كان من أعيـان أهل دوين وكان له صاحب يقـال له جمال الدولة مجاهد الـدين بهروز، وكـان من أظـرف الناس وألطفهـم، وكان بينـه وبين شادي أخـوة أكيدة، فجـرت لبهروز قضية في دويـن، فخرج منهـا حياء، وذلك انـه اتهم بزوجة بعـض الأمراء بدوين، فـأخذه صاحبهـا فخصاه،

فلما جرى له ذلك لم يقدر على الاقامة، فخرج وقصد خدمة أحد الملوك السلجوقية وهو مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه، واتصل بالـلالا الذي لاولاده، فوجده لطيفا كافيا في جميع الامور، فتقدم عنده وفوض إليه أموره، وجعله يركب مع أولاد السلطان مسعود إذا كان له شغل، فرآه السلطان يوما مع اولاده فانكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه وشكر دينه ومعرفته، ثم صار يسيره الى السلطان في الاشغال، فخف على قلبه فلعب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده، واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه، وسلم إليه أولاده، وأرصده لمهماته، وسار ذكره في تلك النواحي فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ماصار إليه من النعمة وليقاسمه ماخوله الله تعالى، وليعلم أنه مانسيه، فلما وصل إليه بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق أن السلطان رأى أن يسير المجاهد المذكور الى بغداد واليا ونائبا عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد، يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، فولى مكانه نجم الدين أيوب، فنهض في أمرها، وشكره بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سنا من أخيه أسد الدين شيركوه، ثم إن شيركوه رأى يوما امرأة تبكي، فقال لها: مايبكيك؟ فقالت: أنا داخلة من باب القلعة فتعرض لي الاسفهسلار، فقام شيركوه وتناول حربه الاسفهسلار وضربه بها فقتله فمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وعرف بهروز بذلك، فوصل جوابه: لابيكما علي حق، وبيني وبينه مودة متأكدة مايمكنني ان اكافيكما بسيئة، ولكني اشتهي ان تتركا خدمتي، وتخرجا من بلدي وتطلبا رزقكما، فلما وقفا عليه خرجا ووصلا إلى الموصل، فأحسن إليهما الاتابك عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود بن زنكي، واقطعهما اقطاعاً حسناً، ثم لما ملك الاتابك قلعة بعلبك - كما ذكرنا - استخلف بها نجم الدين أيوب، ثم بعد مدة انتقل الى دمشق،

وأقام في خدمة نور الدين محمود بن زنكي، ثم لم يزل معه في السراء والضراء والحضر والسفر حتى صار أكبر الأمراء عنده، فصار لايقطع أمرا دونه، ثم إن نور الدين أرسل أخاه شيركوه الى الديار المصرية ثلاث مرات ـ كما ذكرناه ـ وكان معه في كل مرة ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب.

ولما جرى ماجرى من أمور المصريين، وغلب عليهم صلاح الدين يوسف، وصار أمر الديار المصرية إليه ـ كما ذكرناه مفصلا ـ طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه نجم الدين فأرسله إليه مع أهله وحاشيته ـ كما ذكرنا.

وقال العماد الكاتب: لما دخل فصل النيروز استأذن نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وخيم بظاهر البلد ثم سار فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب من سنة خمس وستين وخمسمائة، وركب العاضد خليفة مصر لاستقباله، ووصف ذلك عمارة اليمني في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين منها قوله:

صحت به مصر وكانت قبله
تشكو سقاما لم تغن بطبيب

عجبا المعجزة أتت في عصره
والدهر ولاد لكل عجيب

رد الاله به قضية يوسف
نسقا على ضرب من التقريب

جاء تـه أخوته ووالده الى
مصر على التدريج والترتيب

فاسعد بأكرم قادم وبدولة
قد ساعدتك رياحها بهبوب

وفي تاريـخ الدولتين: وكان بهروز المذكـور، أمره في جميـع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهـان، وكانت خيلـه خمسة آلاف فارس، فـأقر نجم الديـن في ولاية تكريت وأضـاف إليه النظر في جميع الـولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود.

ثم إن عماد الديـن زنكي والد نور الـدين محمود طمع في أخـذ بغداد، ووصل الخبر إلى قراجا السـاقي وهو أتابك السلطان محمـود، فجرد ألف فارس للقـاء زنكي، فانهزم زنكـي، وقتل جماعـة من أصحابـه ونهب جميع مـاكان معـه في عسكره، وجـاء إلى تكريـت وبـه عدة جـراحات، وعلـم مكانـه الامير نجم الدين وأخـوه شيركوه، فأحسنـا إليه وداويا جراحـاته، وخدماه أحسن خـدمة، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يـوما، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهـر، حتى أنهما أعطياه جملة مـن البقر حمل عليها ماسلم معـه من أمتعته، فكان زنكي يـرى لنجم الدين أيـوب هذه اليد، ويواصله بالهدايا والالطاف مدة مقـامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ماذكرنا تلقاه زنكي بالرحب والسعة واحترمه احتراما عظيما.

وقال صـاحب تـاريخ الدولتين: وكـان نجم الديـن قد سـاس الناس بتكريـت أحسن سياسـة، حتى ملك بذلـك حبات قلوبهم، وكـان أخوه شيركوه معـه في القلعة، وكـان شجاعـا باسـلا ينزل مـن القلعة ويصعـد إليها في أسبابه وحاجاته، وكان نجـم الدين لايفارق القلعة ولاينزل منها، فاتفق ان اسـد الدين شيركوه نزل يـوما لبعض شأنه، ثـم عاد الى القلعة، وكـان بينه وبين كـاتب صـاحب القلعـة قوارص، وكـان رجلا نصرانيـا، فاتفـق في ذلك اليوم ان النصراني صادف أسـد الدين صاعـدا الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة، فجرد أسـد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد الى القلعة، وكـان مهيبا، فلـم يتجاسر أحـد على معارضتـه في أمر النصراني بشيء، وأخـذ النصراني برجلـه فـألقاه مـن القلعـة، وبلغ ذلـك الى بهروز وحصـل عنده مـن خوّفـه جـرأة أسد الـدين، وأنـه ذو عشيرة كبيرة، وأن

أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا، وأنه ربما كان منه أمر تخشى عاقبته، ويصعب استدراكه، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة الى نائب سيره صحبة الكتاب، فأجاب نجم الدين ذلك بالسمع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ماكان له بها من أهل ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل، فخرجا واتصلا به كما ذكرنا، وقيل ان أسد الدين خرج إلى الموصل قبل نجم الدين، ثم إنه جرى بين أسد الدين وبين جمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر ان يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك، وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة، وخرجا معه إلى الشام، وشهدا معه حروب الكفار وقتال الافرنج لعنهم الله، وكان لاسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء والفعلة الغراء.

وقال ابن أبي طي: حدثني أبي عن سعد الدولة أبي الميامن عن حسام الدين سنقر غلام نجم الدين أبي طالب، وكان في خدمة نجم الدين أيوب، قال: لما دخل نجم الدين أيوب الديار المصرية الى ولده صلاح الدين كنت معه في خدمته، وكانا قد اجتمعا في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بأرباب الدولتين إذ تقدم نصراني كان في خدمة نجم الدين، فقبل الارض بين يديهما وقال لنجم الدين: يامولانا هذا تأويل مقالتي لك حين ولد هذا السلطان - يعني صلاح الدين - فضحك نجم الدين وقال: صدقت والله، ثم التفت الى الجماعة الذين حوله من أكابر العلماء والقضاة والامراء، وقال: لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أني ليلة رزقت هذا الولد - يعني السلطان صلاح الدين - أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب أخي شيركوه من قتله ذلك النصراني، وكنت قد ألفت هذه القلعة وصارت لي كالوطن، فثقل علي الخروج منها جدا، وفي ذلك الوقت جاءني البشير

بولادة هذا ـ يعني صلاح الدين ـ فتشاءمت به وتطيرت لما جرى عليّ، وخرجنا من القلعة وانا لاسميته ولا التفت إليه، وكان هذا النصراني معي كاتبا لي، فلما رأى ما نزل بي قال: ياسولاي أي شيء لهذا المولود من الذنب، وبما استحق ذلك منك وهو لايضر ولاينفع، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله تعالى، فما يدريك أن هذا الطفل يكون سببا لوصول الخيرات إليك ويكون هو ملكا عظيم الصيت، جليل المقدار، فعطفني كلامه عليه، وها هو قد جرى ماقال لي، فتعجب الحاضرون من ذلك، وحمد السلطان ووالده الله تعالى وشكراه، ولعمارة اليمني في نجم الدين مدائح ومراثي منها:

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم
وروجهه بدوام العز متسم

يقول فيها:

أضحى بك النيل محجوجا ومعتمرا
كأنما حل فيه الحل والحرم

إلى ان قال:

والناصر ابنك كافي كل معضلة
إذا الحوادث لم تكشف لها غمم

الثالث: في سيرته.

وكان شجاعا باسلاً أميناً، خيرا محسنا، ناصحا عظيما في أنفس الناس بالخير والدين وحسن السياسة، وكان لايأتي أحد من أهل العلم والدين من مدينة الا انفذ إليه، وقد ذكره العماد الكاتب وذكر من دينه وعفته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء كثيرة حسنة.

وقال ابن خلكان: وكان نجم الدين رجلا مباركا كثير الصلاح مائلا

للخير، حسـن النية، جميـل الطويـة، وظهـرت ثمرة بـركته في أولاده، ولـه خانقاه بدمشـق تعرف بالنجمية، وخانقاه بالديـار المصرية ومسجد وقناة خارج باب النصر من القـاهرة، وخانقاه أخرى لطيفة ببعلبـك بناها حين كان نائبا بها عن عماد الدين زنكي.

وفي المرآة: وكان نجـم الدين رجلا عـاقلا حازما شجـاعا حليما رحيما، جوادا، عاطفا على الفقراء والمساكين، محبـا للصالحين، قليل الكلام جدا، لايتكلم الا عن ضرورة.

ولما قدم مصر سألـه ولده صلاح الدين ان يكون هـو السلطان، فقال: أنت أولى، وكان يلعب بالاكرة دائما.

وقال القاضي ابن شـداد: وكان شديد الركض بالخيـل، يلعب بالاكرة، ومن يراه يقول: مايموت الا من وقوعه من ظهر الفرس.

الرابع: في وفاته

خرج نجم الدين يوما من باب النصر، أحد أبواب القاهرة، فشبت به فرسه، فـألقاه في وسط المحجة، وذلك يوم الاثنين ثـامن عشر ذي الحجة مـن سنـة ثمان وستين وخمسمائة، وحمل إلى داره، وبقي متـألما إلى أن تـوفي يوم الاربعـاء سابع عشريـن الشهر المذكـور، ويقال في الثامـن والعشرين منه.

وفي تاريخ بيبرس: وكان سبـب وفاته أنه تقنطر عن فـرسه، فحمل إلى داره فمات بها.

وفي تاريخ الدولتين: وعاش ثمانية أيام بعـد وقوعه من الفرس، وكانت وفاتـه يوم الثلاثـاء السابع والعشرين مـن ذي الحجة، وكان ولـده صلاح الدين غائبا عنه في بلاد الكرك والشوبك على الغزاة.

وقال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة نجم الدين أبيه، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه وسقى بالرحمة تربه، ماعظمت به اللوعة، واشتدت الروعة، وتضاعفت بغيبتنا عن مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصبر فأبى، وانحدرت العبرة، فياله فقيدا فقد عليه العزاء وهانت بعده الارزاء، وتخطفته يد الردى في غيبتي، هبني حضرت فكنت ماذا أصنع.

قال: فدفن نجم الدين الى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقلا بعد سنين الى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الاصفهاني وزير الموصل، وكان جمال الدين المذكور مواخيا لاسد الدين شيركوه كما ذكرنا.

وفي تاريخ القاضي الفاضل: وصل كتاب من المدينة النبوية يوم الخميس رابع صفر من سنة ثمانين وخمسمائة يخبر بوصول تابوت الامير نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه، واستقرارهما بتربتهما مجاورين الحجرة المقدسة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

الخامس: فيما يتعلق به.

خلف نجم الدين من الأولاد: صلاح الدين يوسف الناصر، وسيف الدين أبا بكر العادل، وشمس الدولة توران شاه، وشاهنشاه، وسيف الاسلام طغتكين ، وتاج الملوك بوري، ومن البنات ست الشام وربيعة خاتون، وقال عمارة اليمني يرثيه:

صفـو الحيـاة وإن طـال المدى كـدر
وحـادث الـدهـر لا يبقـي ولا يـذر
ومـا يـزال لسـان الـدهـر ينـذرنـا
لـو أثـرت عنـدنـا الآثـار والنـذر
كـم شـامـخ العز ذاق الموت مـن يـدهـا
مـا أضعـف القـدر ان ألـوى القـدر
أودى علي وعثمان نخلبهـا
ولم يفتهـا أبـو بكـر ولا عمـر
ومـن أراد التـأسي في مصيبتـه
فللـورى في رسـول اللـه معتبر
لا قـدسـت ليلـة كـادت مصيبتهـا
الأكبـاد حـزنـا على أيـوب تنفطـر
كـأنها صـور اللـه الكمال بـه
شخصـا ويـوسـف منـه السمـع والبصر
إذا الليـالي تجافـت عـن حشـاشتـه
فـالجرح منـدمـل والـذنـب مغتفـر
يـا نـاصر الحق والايـام خـاذلـة
إن الغـريـب بغير الـدمـع ينتصر
مـا مـات أيـوب الا بعـد معجـزة
في الحق لم يـؤتها مـن جنسـه بشر
مضـى حميـدا مـن الـدنيـا وليـس لـه
في رتبـة ارب منهـا ولا وطـر
صلى الالـه على نجـم اضـاء لنـا
مـن نسلـه النيران والشمـس والقمـر

وهي قصيدة طويلة، وله قصيدة أخرى في مرثيته واولها هو قوله:

هـي الصـدمـة الاولى فمـن بـان صبره
على هـول ملقـاهـا يضـاعـف أجـره
أذم صبـاح الاربعـاء فـإنـه
تبسـم عـن ثغـر المنيـة فجـره

أصـــاب الهدى في نجمـــه بمصيبـــة
تـــداعـــى سماك الجو منهـــا ونسره
فـــلا تعـــذلـــونا واعـــذرونـــا فمـــن بكـــى
على فقـــد أيـــوب فقـــد بـــان عـــذره
أقـــام بـــأعمال الفـــرات وخيلـــه
يـــراع بها نيـــل العـــزيـــز ومصره
إلى ان رمـــاهـــا مـــن أخيـــه بضيعـــم
فـــرى نـــابـــه أهـــل الصليـــب وظفـــره
تعـــاقبتها مصرا تعـــاقـــب وابـــل
يبيـــت بقطـــر النيـــل ينهـــل قطـــره
ووا خيتـــه في البر حيـــا وميتـــا
فقبرك في دار القـــرار وقبره
وقـــد شخصـــت أهـــل البقيـــع اليكما
والا فسكـــان الحجـــون وحجـــره
هنيئـــا الملـــك مـــات والعـــز عـــزه
وقـــدرتـــه فـــوق الـــرجـــال وقـــدره
وأدرك مـــن طـــول الحيـــاة مـــراده
ومـــا طـــال الا في رضـــى اللـــه عمـــره
وأسعـــد خلـــق اللـــه مـــن مـــات بعـــدمـــا
رأى في بنـــي أبنـــائه مـــا يسره
رعـــى اللـــه نجما تعـــرف الشمـــس أنـــه
أبـــوهـــا ونـــور البـــدر منهـــا وزهـــره
وأبقـــى المقـــام الناصري فـــانـــه
لـــدولتكـــم كنـــز الـــرجـــاء وذخـــره

....

-١١٤٩ـ

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، وصاحب مصر السلطان الملك الناصر يوسف بن أيوب، وصاحب الشام وحلب وغيرهما الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، غير أنه توفي إلى رحمة الله في هذه السنة، على مانذكره عن قريب ان شاء الله تعالى.

فلنبدأ أولا بما جريات صلاح الدين ثم ماجريات نور الدين، ثم نذكر وفاته ان شاء الله.

ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها أنه ارسل أخاه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب إلى اليمن، وكان صلاح الدين قد أقطعه قوص وأعمالها وارتفاعها مائة ألف دينار، ثم تجهز منها وسافر، ووصل زبيد، وقتل ابن المهدي صاحبها، وكان يلقب أمير المؤمنين، فلما قتله سير نواب الحصون مفاتيحها إليه، وهي واحد وأربعون حصنا.

وقال العماد: وفي رجب توجه توران شاه أكبر أخوة صلاح الدين الى اليمن فملكها، وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمني، شاعر القصر، وكان كثير المدح لتوران شاه، فتجهز وسار إلى مكة، ثم الى زبيد فملكها، وقبض على الخارجي بها وأهلكه نائبه سيف الدولة مبارك بن منقذ، ومضى إلى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز وغيره من القلاع.

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره، وكثرة عدد أخوته وقوة بأسهم، وكان بلغه ان باليمن انسانا

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه، يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم انه ينتشر ملكه الى الارض كلها، فاستتب أمره، فرأى ان يسير إليها اخاه الاكبر الملك المعظم توران شاه، وكان كريما اريحيا، حسن الاخلاق، فمضى اليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها، وكان اخو هذا الخارجي باليمن قبله.

وقال ابن أبي طي، وكان سبب خروج شمس الدولة الى اليمن انه كان كريما جوادا، وكان اقطاعه بمصر لايقوم بفتوته، ولاينهض بمروءته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد الى مصر ومدح اصحابها، فلما زالت دولتهم انضوى الى شمس الدولة ومدحه، وكان اذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة اموالها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها، ومن جملة شعره قوله في القصيدة التي أولها:

العلم مذ كان محتاجا الى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم

كم تترك البيض في الاجفان ظامئة
الى الموارد في الاعناق والقمم

امامك الفتح من شام ومن يمن
فلا ترد رؤوس الخيل باللجم

فعمك الملك المنصور سومها
من الفرات الى مصر بلا سأم

الأبيات:

وله قصيدة أخرى منها قوله:

أفاتح أرض النيل وهي منيعة
على كل راج فتحها ومؤمل

_١١١٥١_

متى توقد النار التي أنت قادح
بغمدان مشبوباً سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وأبين
وصنعاء من حصن حصين ومعقل

الأبيات:

وقال ابن أبي طي: ووافق ذلك أن كاتبه رجل من أهل اليمن يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه لان صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه وتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوده فوق ماكان في نفسه، وأصحبه جماعة من الامراء، ومقدار الف فارس خارجا عمن سيره من حلقته، وسار في البر والبحر: في البر العساكر وفي البحر الاسطول يحمل الازواد والعدد والآلات، فوصل الى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائرا، ثم خرج متوجها منها الى اليمن، فوصل زبيد في أول شوال، فنزل عليها، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجمع الاشراف بنو سليمان في جمع جم وعدد كثير، فهجم زبيد وتسلمها واحتوى على مافيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي على بن مهدي، ثم رحل الى عدن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عنوة وولاها عز الدين بن الزنجيلي، ثم سار الى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتعز وغيرها، وسار الى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء، فدخلها شمس الدولة، فلم يجد فيها الا شيخا او امرأة عجوزا، فأقام بها ثمانية ايام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة، فرجع الى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد الامير سيف الدولة المبارك بن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ فساد أمره، فرأى المصلحة في قتله فقتله ابن منقذ بزبيد،

فلما بلغ شمس الـدولة قتله استصوبـه، ولما دخل شمس الدولـة في زبيد انفذ اليه صاحب الحمام[١٥] وصالحه هو وباقي الملوك على اداء المال، ثم تتبع تلك الحصون والقـلاع فاحتوى عليها جميعها وكتب بـذلك الى اخيه الملك النـاصر صلاح الدين، فـارسل الى نور الـدين يخبر بذلك، فـأرسل نور الـدين مهـذب الديـن أبا الحسـن علي بن عيسـى النقاش بـالبشارة بذلك الى بغداد.

وذكر العماد الأمير مجد الدين سيـف الدولة المبارك بن كامـل بن منقذ المستناب ووصفه بأنه من الكفاة الـرماة والدهاة وذوي الآراء، وانه فاضل من أهل بيت فضل، كتب الى العماد من شعره:

لما نـزلـت الـديـر قلـت لصـاحبـي
قـم فـاخطـب الصهبـاء مـن شماسـه

فـأتـى وفي يمنـاه كـأس خلتهـا
مقبـوسـه مـن نبراسـه

وكـان مـا في كـاسـه مـن خـده
وكـأنما في خـده مـن كـاسـه

وكـأن لـذة طعمهـا مـن ريقـه
وأريجهـا الفيـاح مـن أنفـاسـه

لم أنـس ليلـة شربها بفنـائه
إذ بـات يجلـوهـا على جـلاسـه

إذ قـام يسقيتـا المدام وكلما
عـاتبتـه ردا لجواب بـراسـه

ومدحه ابو الحسن بن الذروي المصري بقصيـدة غراء ذالية ماأظن انه نظم على قافية الذال ارق منها لفظا وأروق معنى، اولها:

لـك الخير عـرج على ربعهـم فـذي
ربـوع يفـوح المسك مـن عـرفهـا الشـذي

مبـارك عيـس الـوفـد بـاب مبـارك
وهـل منقـذ القصـاد غير ابـن منقـذ

وفي المرآة: لما سار شمس الـدولة الى اليمن، وكان أعيـانها قد كتبوا الى صلاح الـدين يسـألونه ان يبعـث اليهم بعـض أهله، فلما وصـل شمس الدولـة الى مكة صعد صـاحبها الى أبي قبيس فتحصـن فيه بقلعة بنـاها عليه، وأغلـق باب الكعبة، وأخـذ المفاتيح، فجـاء شمس الدولـة فطاف بالبيت وصلى ركعتين، وصعد الى باب الكعبة وقال: اللهم ان كنت تعلم اني جئت الى هذه البـلاد لاصلاح العباد وتمهيدهـا فيسر علي فتح الباب، وان كنت تعلم اني جئـت لغير ذلك فلا تفتحه، ومد يـده فجذب القفل بها، فدخل شمس الدولة الى البيـت وصلى ودعا، فلما بلغ امير مكة ذلك نزل الى خدمته وحمل المفاتيح واعتـذر وقال: خفت منك، والآن فانا تحت طاعتـك، فقال: إذا اخذت منـك مفاتيح مكـة فلمن اعطيها؟ ثـم خلع عليه وعلى أصحابه وطيب قلوبهم وسـار الى اليمن، فانهزم عبد النبي بين يديـه الى زبيد، وكـان أبوه المسمى بـالمهدي قد فتـح البلاد، وقتـل خلقا كثيرا، وشق بطـون الحوامل، وذبـح الاطفال على صـدور امهاتهم، وكـان يرى رأي القـرامطة، ويظهر انه داعيـة لصاحب مصر، ويتستر بـالاسلام، وكان قد مات قبل دخول شمس الـدولة اليمن بسنين وملك بعده ولده عبد النبي، ففعل باليمن أشد مما فعلـه أبوه وسبى نساءهم واستعبدهم، وكان أبوه لما مات بنـى عليه قبة عظيمة وصفح حيطانها بـالذهب الاحمر والجواهـر ظاهـرا وباطنـا بحيث لم يعمـل في الـدنيا مثلهـا، وجعل فيهـا قناديل الذهـب، وستور الحرير، ومنع أهل اليمن مـن زبيد الى حضرموت ان يحجوا الى الكعبة، وامـرهـم بالحج الى قبر أبيه، وكانوا يحملـون اليه من الامـوال كـل سنة مـا لايحد ولايـوصـف ويطـوفـون حولـه مثلما يطـاف بالكعبة، ومن لم يحمل مالا قتله، وكانـوا يقصدونه من البحر فاجتمع فيه أمـوال عظيمـة، وأقـام عبـد النبي على الظلـم والفسـق والفجـور وذبـح الاطفـال وسفك الـدمـاء وسبى النسـاء الى ان دخـل شمـس الدولـة الى اليمـن، وجاء الى زبيـد، فيقـال انه حصر عبـد النبـي فيهـا وأمنه وقيـده وقتله، ويقال انـه انهزم بين يديه وجاء الى قبـة ابيه فهدمها، وأخـذ ماكان

فيهـا مـن المال والجواهـر والفضــة، وكـان على ستمائة جمل ونبـش القبر وأحرق عظـام أبيه وذراهـا في الريح ومضـى الى صنعاء، فحلـف شمس الدولـة ان لاينتهي عنه حتـى يقتله ويحرقه كما فعـل بأبيه، وصـار خلفه فرجع الى زبيد، وعاد شمس الدولة اليهـا فظفر به وأخذ ماكان معه وقتله وصلبه وحرقه كما فعل بعظام أبيه.

وفي تاريخ ابـن كثير: ولما وصل شمس الدولة الى زبيد خـرج اليه عبد النبي فقاتله فانهزم، وأسر شمس الـدولة، وأسر زوجته الحرة وكانت ذات أموال جزيلة، فـاستقرها على أشياء جزيلة وذخـائر جليلة، ونهب الجيش زبيد، ثـم سار الى عـدن فقاتلـه صاحبها نـاشر فهزمـه توران شـاه وأخذ البلد بيسر ومنـع الجيش مـن نهبها وقـال: ماجئنـا لنخرب البـلاد، وانما جئنـا لعمارتهاوملكهـا، ثم سـار في النـاس سيرة حسنـة عـادلة فـأحبـوه، واستوثـق له ملك اليمـن وخطب فيهـا للخليفة العباسي المستضيء بـأمر الله، وقتل الداعي المسمى بعبد النبي.

ومنها ارسال صلاح الدين بالهدايا الى نور الدين رحمه الله.

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة وصل رسـول نور الدين، وهو الموفق ابـن القيسراني، واجتمع بـالملك النـاصر، وانهى اليه رسـالة نـور الديـن، وطالبـه بحساب جميـع ماحصل وارتفـع اليه مـن ارتفاع البـلاد، فصعب ذلك على السلطـان واراد شق العصا، لولا مـاثاب اليه من السكينـة، ثم امـر النـواب بعمل الحسـاب وعـرضـه على ابن القيسراني، واراه جـريـدة الاجناد بمبلـغ اقطاع وكميات جـامكيتهم ورواتب نفقـاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك ارسل معه هدية الى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: ووقفـت على برنـامج شرحهـا بخط الموفـق ابن القيسراني، وهـي خمس ختمات: احداهـا ختمة ثـلاثون جزءا مغشـاة بأطلـس أزرق مضببة

بصفائح ذهب وعليها اقفال ذهب مكتوبة بذهب بخط يانس، وختمه بخط راشد مغشاة بديباج فسستقي عشرة اجزاء، وختمه بخط ابن البواب، في مجلد واحد بقفل ذهب، و ختمه بخط مهلهل جزء واحد، وختمه بخط الحاكم البغدادي، وثلاثة احجار بلخش: حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف، وست قصبات زمرد: قصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث، وقصبة وزنها مثقالان ونصف وقصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وحجر وزنه سبعة مثاقيل، وحجر أزرق وزنه ست وخمسون مثقالا وسدس ومائة عقد جوهر مختومة وزنها ثمانمائة وسبعون مثقالا، وقارورة دهن بلسان، وعشرون قطعة بلور، وقطعة جزع، وذكر تفصيلها ابريق يشم، طشت يشم، سقرق مذهب، صحون صيني وزبادي وسكارج وأربعون قطعة عود طيب: قطعتين كبار كرتان وزن احداهما ثلاثون رطلا بالمصري، والاخرى واحد وعشرون رطلا، ومائة ثوب أطلس وأربعة وعشرون بقيارا مذهبة، وأربعة وعشرون ثوبا حريري، وأربعة وعشرون ثوبا من الوشي حريرية بيض. وحلة فلفلي مذهبة، وحلة مرايش صفراء مذهبة. وذكر غير ذلك انواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون الف دينار مصرية، وعدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه.

قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل الى نور الدين لانه اتصل بهم وفاته، فمنها ماأعيد ومنها مااستهلك لان الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعا عليهم من نهبهم واستبدا بأكثرها، وقيل انها وصلت جميعها الى السلطان لانه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من ردها.

قال: وحدثني من شاهد هذه الهدية انه كان معها عشرة صناديق مال لايعلم مقداره.

ومنهـا أن صـلاح الديـن صلـب في رمضـان منهـا جماعة مـن أعيـان المصريين، فإنهم قصدوا الـوثوب عليه، واعادة الدولة العلـوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهـم، فمنهم: عبد الصمد الكاتب، والقـاضي العويرس، وداعي الدعاة، وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه الشافعي.

وفي تاريـخ ابن كثير: اجتمع نجم الـدين عمارة الشاعر اليمنـي الفقيه الشافعـي مع جماعة مـن رؤوس الدولة الفـاطمية الذيـن كانوا حكـاما، فـاتفقـوا فيما بينهـم أن يعيـدوا الـدولـة الفـاطميـة، وكتبـوا الى الافـرنـج يستدعـونهم اليهم، وعينوا خليفة مـن ذرية الفاطميين، ووزيـرا وامراء في غيبة السلطـان صلاح الدين ببـلاد الكرك، ثم اتفق مجيئـه، وحرض عمارة اليمنـي شمـس الدولـة تـورانشـاه على المصير الى اليمن ليخـف الجيـش ويضعـف عـن مقـاومـة الفرنـج إذا قـدمـوا لنصرة الفـاطميين، فخـرج تـورانشـاه، ولم يخرج عمارة الى اليمن بـل أقـام بـالقـاهرة يفيـض في هـذا الحديث ويداخـل المتكلمين فيه، وكان من أكـابر الدعاة اليـه المحرضين عليه، هـذا وقد أدخلوا معهم في هـذا الامر بعض من ينسـب الى الملك الناصر، وذلك من قلة عقلهم وكثرة جهلهـم، فخانهم احوج ماكانوا اليه وهو الشيـخ زين الـدين علي بن نجـا الواعـظ، جاء الى السلطـان الملك النـاصر فأخبره بما تمالأ القـوم عليه، وبما انتهـى أمرهـم اليه، فـأطلق لـه السلطـان امـوالا جزيلـة، وافـاض عليـه حلـلا جميلـة، ثم استـدعـاهـم السلطان واحـدا واحدا فقررهـم فأقروا لـه بذلـك فاعتقلهم، ثـم استفتى الفقهاء في أمـرهم فأفتـوه بقتلهم وتبدد شملهـم، فعند ذلك امـر بصلب رؤوسهم وأعيانهم دون اتبـاعهم وغلمانهم، وأمر بنفي من بقـي من جيش العبيديين الى اقـاصي البلاد، وأفـرد ذرية العاضـد وأهل بيتـه في دار، فلا يصل اليهـم اصلاح ولافساد، وأجرى عليهـم من الارزاق كفايتهـم، وقد كان عمارة معـاديا للقـاضي الفاضـل، فلما احضر بين يدي السلطـان قام القاضي الفـاضل فاجتمع بـالسلطان ليشفع فيـه، فتوهم انه يكلمـه فيه، فقال: يـامولانا السلطان لاتسمـع منه، فغضب القاضي الفـاضل ونهض

وخرج من القصر، فقال لـه السلطان: انه كان قد شفع فيـك، فندم ندما عظيما ولما ذهب به ليصلب اجتاز بدار القاضي، فطلبه فتغيب عنه فأنشد عند ذلك:

عبـــد الـــرحيـــم قـــد احتجـــب
ان الخلاص هـــــو العجـــــب(١٦)

وفي تاريـخ الدولتين: وكان صلـب المذكوريـن يوم السبت ثـاني شهر رمضـان، وكان الـذيـن صلبوا منهـم: الفضـل بـن كامـل بـن الكامـل القـاضي، وابن عبـد القوي الـداعي، والعـويـرس، وكان قـد تولى ديـوان النظر ثم القضاء بعد ذلك، وشهريـا كاتب السر، وعبد الصمد أحد امراء المصريين، ونجـاح الحمامـي، ورجـل منجـم نصراني أرمنـي قـال لهم: ان أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني الشاعر.

قال العماد في البرق: ووصل من صلاح الديـن يوم وفاه نور الدين إلى دمشـق كتـاب يتضمـن هـذه القضيـة، وهو بخـط ابـن قـريـش، يعنـي المرتضى.

وفي قضية عمارة يقول العلامة تـاج الدين الكند ي رحمه الله، قال أبو شامة: نقلته من خطه:

عمارة في الاســـلام أبـــدى خيـــانـــة
وبـــايـــع فيهـــا بيعـــة وصليبـــا

وأمســـى شريـــك الشرك في بغـــض أحمد
فـــأصبـــح في حـــب الصليـــب صليبـــا

وكـــان خبيـــث الملتقـــى إن عجمتـــه
تجد منـــه عـــودا في النفـــاق صليبـــا

سيلقـــى غـــدا مـــا كـــان يسعـــى لأجلـــه
ويسقـــى صـــديـــدا في لظـــى وصليبـــا

قلت: والصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث من الصلابة، والرابع هودك العظام، وقيل هو الصديد أي يسقى مايسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وقال ابن أبي طي: وكان داعي الدعاة يعلم بدفائن القصر، فعوقب ليعلم بها فامتنع من ذلك، فمات واندرست.

ذكر ماجريات نور الدين رحمه الله:

منها: أن نور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح ابن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل الى خدمته أيضا ضياء الدين مسعود بن قفجاق، صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضاً الأمراء من البلاد، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم من الفرات، فبذل له صاحبهاخمسين ألف دينار على سبيل الجزية ثم عاد إلى حلب، وأراد ان يسرع الى دمشق، فتوقف لمرض سريته، فتصدق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في محفة تحمل على أيدي الرجال، وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه، ثم سار على طريق سلمية، فجاء الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان، وسمع الفرنج به فتفرقوا، ودخل دمشق.

ومنها أنه في جمادى الأولى أبطل فريضة الأتبان، وكتب بذلك منشورا وعلامته بخطه «الحمد لله» يقول فيه: «وبعد فإن سنتنا العادلة، وسير آبائنا الزاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، واغاثة الملهوف. وانصاف المظلوم، واعفاء رسم ماسنه الظالمون من جائرات الرسوم، ومانزال نجدد للرعية رسماً من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون في حياضه، ونستقري أعمال بلادنا المحروسة، ونصفيها من الشبه والشوائب، ونلحق مانعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه

من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله تعالى الكافل لنا بشيوع المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ماجرت، العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير، وقصر حجاج والشاغور والعقيبة ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع مايقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابه طلبا لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهربا من انتقامه وأليم عقابه، وسبيل الثواب اطلاق ذلك على الدوام وتعفية آثاره، والاستغفار من أوزاره والاحتراز من التدنس بأوضاره، وابطال رسمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين ومابعدها على تعاقب الايام والسنين».

ومنها أن نور الدين تكلف في هذه السنة بافادة الألطاف والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وكسوة نسوة الأيامى في أيامها، واغناء فقراء الرعية وانجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذل وعون الضعفاء، وتقوية المقترين بعدله.

ذكر وفاة نور الدين: والكلام فيه على أنواع.

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الجليل الملك العادل، أبو الغنائم نور الدين محمود بن الملك الأتابك، قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي ابن الملك الأتابك أقسنقر، الملقب بقسيم الدولة، أيضاً المعروف بالحاجب، ابن عبد الله، وكان آقسنقر مملوك السلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي، كما ذكرنا، فنور الدين أيضا تركي سلجوقي ولاء.

ولد قبل طلوع الشمس يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة احدى

عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرها من البلدان الكثيرة، وتعلم الفروسية والرمي.

الثاني: في ألقابه.

السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط نور الدين، وعدته ركن الدين، وسيفه قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومقرها، ورضي الامامة وأمرها، فخر الملة ومفتخرها، شمس المعالي وفلكها، سيد ملوك الشرق والغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين.

ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته، وقال: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

وروي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني يأمره أن يكتب له صورة مايدعى له على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول ماليس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاما ودعا له فيه، ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لاعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آقسنقر، ناصر أمير المؤمنين، فإن هذا مايدخله كذب ولامزيد، فكتب نور الدين على رأسها بخطه: مقصودي أن لايكذب على المنبر، أنا بخلاف كل مايقال، أفرح بما لاأعمل.

الثالث: في صفته:

قال ابن خلكان: كان أسمر اللون، طويل القامة، حسن الصورة، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه .

وقال ابن كثير: كان حلو العينين، واسع الجبين، تركي الشكل، ليس له لحية الا في حنكه.

وفي المرآة: وكان معتدل القامة، واسع الجبهة بلحيته شعرات خفيفة في حنكه، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة.

الرابع: في سيرته.

كان ملكاً مهيباً متواضعاً، عليه جلالة نور الاسلام، وتعظيم قواعد الشرع.

وقال ابن خلكان: وكان ملكاً عادلاً، زاهداً، عابداً، ورعاً، مستمسكاً بالشريعة، مائلاً إلى أهل الخير، مجاهدا في سبيل الله.

وفي تاريخ الدولتين: ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصالحين، وجمع الله له من العقل المتين والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضيين، والتشبه بالعلماء الصالحين والاصغاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ مالهم ودقتهم، حتى روى في حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصا منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث، رجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثا، كما جاء في الحديث.

فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك مايبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه مايحيره، يحب الصالحين ويواخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم وزوج ذكرانهم باناثهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من واحد من ولاته أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكايته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل قابله

باسقاط المنزله والعزل، فلما جمع الله لـه من شريف الخصال يسر له جميع مايقصده مـن الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقـلاع، ومكن له في البلدان والبقاع.

وفي تاريـخ ابن العميد: وكـان ملكاً عظيماً جليـلاً، عابداً سخيـاً كريماً صالحاً، معدوداً من الأبدال.

وفي تاريـخ ابن العميد: وكما اشتهـر من قلة ابتهـاجه بالشعـر لما علم من تزيد الشعراء، وهي طريقة عمـر بن عبد العزيز رضي الله عنه، زاهد الخلفاء.

قال يحيـى بن محمد الـوهراني، في مقامة لـه، وقد سئل في بغـداد عن نور الدين: هـو سهم للدولة سديد، وركن للخلافـة شديد. وأمين زاهد، وملـك مجاهد، تسـاعـده الافلاك، وتعضـده الجيـوش والاملاك، غير أنـه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيـل، وبالمحل الجدب للشاعر الاديب، فما يرزى ولايعـزى، وما لشـاعر ﴿عنده مـن نعمة تجزى﴾ [الليـل ١٩] واياه عنى أسامة بن منقذ بقوله:

سلطـانـنـا زاهـد والنـاس قـد زهـدوا
فكـل على الخيرات منكمـش
أيـامـه مثـل شهـر الصـوم طـاهـرة
مـن المعـاصي وفيهـا الجوع والعطـش (١٧)

وقال صـاحب التـاريخ: ماكـان يبذل أمـوال المسلمين الا في الجهاد، ومايعود نفعه على العباد، وكان كما قيل في حـق عبد الله بن محيريز، وهو من سادات التابعين بـالشام، قال يعقوب بن الحافظ: حـدثنا ضمرة عن الشيباني قـال: كان ابـن الديلمي مـن أنصر الناس لأخوانـه، فذكـر ابن محيريز في مجلســه، فقال رجل: كـان رجلاً بخيـلاً، فغضب ابن الـديلمي وقال: كـان جوادا حيث يحب اللـه، بخيلا حيـث تحبون، وأما شعـر ابن

منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليله الميلاد يمدح نور الدين:

في كل عام للبرية ليلة
فيها يشب النار بالايقاد

لكن لنور الدين من دون الورى
ناران نار قرى ونار جهاد

أبداً يصرفها نداه وبأسه
فالعام أجمع ليلة الميلاد

ملك له في كل جيد منة
أبهى من الأطواق في الأجياد

أعلى الملوك يدا وأمنعهم حمى
وأنداهم كفاً أبذل تلاد

يعطي الجزيل من النوال تبرعا
من غير مسألة ولاميعاد

لازال في سعد وملك دائم
مادامت الدنيا بغير نفاد(١٨)

ولقد أكثر ابن منير وابن القيسراني والعماد الكاتب وغيرهم في مدح نور الدين بالكرم والجود وذلك كله يرد قول الوهراني وابن منقذ، على أن ابن منقذ قد رددنا شعره بشعره كما تراه، وإنما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله في وصف قوم ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا﴾ في القرآن العظيم قوله: ﴿منها إذا هم يسخطون﴾ [التوبة ٥٨] وما كل وقت يتفق العطاء، ويفعل الله مايشاء.

الخامس: في شجاعته.

كان يقال: إنه لم ير على ظهر الفرس أحسن ولا أثبت منه، وكان حسن اللعب بالأكرة، وربما ضربها ثم يسوق وراءها ويأخذها من الهواء بيده ثم يرميها إلى آخر الميدان، ولم ير جو كانه يعلو على رأسه، ولايرى الجوكان في يده لان الكم ساتر لها، وكان شجاعا صبورا في الحرب

يضرب بـه المثل في ذلـك، وكان يقـول: قـد تعرضـت للشهادة غير مـرة، فقال لـه مرة الفقيـه قطب الـدين النيسـابوري: بـالله يـامولانـا لاتخاطر بنفسك، فـإنك لـو قتلت قتـل جميع مـن معك وأخـذت البلاد، فقـال: اسكت ياقطب الـدين، من هو محمود، ومن كـان يحفظ البلاد قبلي ﴿الله الذي لاإله إلا هو﴾ [الحشر ٢٢] قال: فبكى من حضر.

وكـان إذا خضر الحرب شـد تركـاشين، وحمل قـوسين، وبـاشر الحرب بنفسـه، وشجاعتـه ظاهـرة في غزواتـه، وفتـوحاتـه على ماذكـر في السنين المتقدمة.

السادس: في ورعه وزهده.

وقال ابـن الأثير في تاريخه: قد طـالعت تـواريخ الملوك المتقـدمين من قبل الاسـلام إلى يومنا هذا فلـم أر فيها بعد الخلفـاء الراشدين وعمـر بن عبد العـزيز رضي الله عنهـم ملكا أحسن سيرة مـن نور الديـن، ولاأكثر تحريا للعدل والانصاف منه.

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه اللـه: وكان لايأكل ولايلبس ولايتصرف فيما يخصه الا من ملـك اشتراه من سهمه من غنـائم الكفار، وكان يحضر الفقهـاء ويستفتيهم فيما يحل لـه مـن تناول الأمـوال فـأفتـوه من جهـات عينوها فلـم يتعد الى غيرها، ولم يلبس حـريرا قط ولاذهبا ولافضـة، ومنع من بيع الخمـر في بلاده، وكان يحدّ شاربها، والناس عنـده سواء في ذلك، وكـان كثير الصيـام ولــه أوراد في الليـل والنهـار، وكـان يقــدم أشغـال المسلمين عليها، ثم يتم أوراده، وكان قد تـزوج الخاتون بنت معين الدين أنـر، فطلبت منـه زيادة نفقـة، وقال: وقـد فـرضت لها مـايكفيها، واللـه لاأخـوض جهنم بسببهـا، وهذه الأمـوال ليست لي وإنما هـي للمسلمين وأنا خـازنهم فلا أخونهم فيها، ولي بحمـص ثلاث دكاكين اشتريتهـا من الغنائم قد وهبتها لها، وكان يحصل منها قدر يسير.

وكان أول من بنى دار العدل بدمشق وسماها دار الكشف، وسببه أن الامراء لما قدموا دمشق اقتنوا الامـلاك واستطالوا على الناس وخصوصاً أسد الدين شيركوه، وكثرت الشكاوى الى القاضي، فلم يقدر على الانصاف من أسد الدين، فشكوا إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدل، فأحضر أسد الدين شيركوه أصحابه وديوانه وقال: إن نور الدين مابنى هذه الدا ر الا بسببي وحدي لينتقم مني، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين، والله لئن أحضرت الى دار العدل بسبب واحد منكم لاصلبنه، فإن كان بينكم وبين أحد منازعة فأرضوه مهما أمكن، ولو أتى على جميع مافي يدي، فان خروج أملاكي من يدي أهون من أن يراني نور الدين بعين الظالم ويسوي بيني وبين آحاد العوام، ففعلوا وأرضوا الخصوم، فجلس نور الدين في دار العدل وقال للقاضي: ماأرى أحدا يشكو من شيركوه، فأخبره الخبر، فسجد فقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا، وكان نور الدين يقعد في دار العدل في كل اسبوع أربعة ايام أو خمسة، ويحضر عنده العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة، ويساءل الفقهاء عما أشكل عليه.

وكان إذا مات أحد من جنده، أو قتل وله ولد فإن كان كبيرا أقر الاقطاع عليه، وإن كان صغيرا رتب معه من يتولى أمره الى ان يكبر، وما كان أحد من الأمراء يتجاسر أن يجلس عنده من هيبته، فإذا دخل فيه فقير أو عالم أورب خرقة قام ومشى إليه وأجلسه إلى جانبه، ويعطيهم الاموال، فإذا قيل له في ذلك، يقول: هؤلاء لهم حق في بيت المال، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا.

وأسقط ماكان يؤخذ من دار البطيخ وسوق الخيل والغنم والكيالة وجميع المكوس، وعاقب على شرب الخمر، وكان كثير المطالعة في الكتب

الدينيـة متبعا الآثار النبويـة مواظباً على الصلوات الخمـس في الجماعات عاكفـاً على تلاوة القرآن، حريصـاً على فعل الخير، عفيف البطـن والفرج، مقتصدا في الانفـاق، متحريا في المطعـم والمشرب والملبس، لم تسمـع منه كلمة فحـش قط لا في رضاه ولا في غضبـه، هذا مـع ماجمع الله فيـه من العقل المتين والرأي الصائب الرصين، والاقتـداء بسنة السلف الصالحين، حتى روى حـديث المصطفى وأسمعـه، وكان قـد استجيز له ممـن سمعه وجمعه حرصا منه على الخير ونشر السنة والتحـديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمـة أربعين حديثـا كما جاء في الحديـث، وكان يكتـب خطا حسنـا، وكان عـارفـا بمـذهب أبي حنيفـة رضي اللـه عنـه، وليس عنـده تعصب على أحد، والمذاهب كلها سواء.

وقال ابن الأثير: كان يـوما يلعب بالاكره في ميدان دمشـق، فجاء رجل فوقف بازائه وأشار إليه، فقال للحاجب: اسـأله ماحاجته؟ فسأله، فقال لي مـع نور الـدين حكـومة، فـرمى الصـولجان من يـده وجاء إلى مجلـس القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري، وتقدمه الحاجب يقول للقاضي: قد قال لك: لاتنزعج واسلك معه مـاتسلكه مع آحاد الناس، فلما سوى بينه وبين خصمه وتحاكما، فلم يثبـت للرجل عليه حق، وكان يـدعي ملكاً في يد نور الدين، فقال نور الديـن للقاضي والعدول: هل ثبت له عليّ حق؟ قالوا: لا، قال: فـاشهدوا أني قد وهبت له هذا الملـك، وقد كنت أعرف أنه لاحـق له عنـدي، وإنما حضرت معه لئـلا يقال عنـي أني دعيت الى مجلس الشرع فأبيت.

قال: ودخل يوما إلى خزائنه فـرأى مالا كثيراً فقال: من أين هذا؟ قال خازنـه: بعث بـه القاضي كمال الـدين مـن فائض الاوقـاف، فقال: ردوه اليـه وقولـوا لـه: إن رقبتـي دقيقة لاتقـدر على حملـة غـدا، وأنت رقبتـك غليظـة تقدر على حملـه، وكان لـه برسـم نفقته الخاص في كـل شهر مـن

الجزية مـايبلغ ألفي قـرطاس يصرفها في كسـوته وملبوسـه ومأكولـه حتى أجرة خيـاطه وجـامكية طبـاخه، ويستفضـل منها مـايتصدق بـه في آخر الشهر، ويقـال ان قيمة القـراطيس مـائة وخمسون درهما، وقيـل كل ستين قرطاسا أو سبعين بدينار.

قال ابن الأثير: وما كـان يصل إليه من هدايا الملـوك وغيرهم يبعثه الى القاضي كمال الـدين يبيعه، ويعمـر به المسـاجد المهجورة ولايتنـاول منه شيئاً.

وقال ابن الجوزي: وكان يتـدين بطاعة الخلافة، والطرق آمنـة في أيامه، والمحامد كثيرة، وكان يميل إلى التواضـع ويحب العلماء وأهل الدين، وقد كاتبني مرارا، وقد صنف له كتابـا سماه الفخر النوري فيه أحاديث العدل والجهاد ومـواعظ، وغير ذلك، وصنـف نور الديـن أيضا كتابـا في الجهاد وهو بدمشق.

وقال السبط رحمه الله: كـانت له عجائز بدمشق وحلـب، وكان يخيط الكوافي ويعمل السكاكر للابـواب وتبيعها العجائز ولايدري أحد، فكان يوما يصوم ويفطر على اثمانها.

وحكى شرف الـدين يعقـوب ولد المبـارز المعتمد ان في دارهـم سكرة من عمل نور الدين، وهي باقية الى سنة خمس وستمائة يتبركون بها.

وفي المرآة: قال: حكـى لي رجل صالح مـن أهل حران، قـال: لما قتل أتابك زنكي على قلعة جعبر، وملك نـور الدين قلعة حلب تصدق وأزال المكوس، ورد المظالم، وأنـا حديث عهد بعـرس، وقد ركبني دين، فقـالت لي زوجتـي قد سمعـت أوصـاف نـور الديـن واحسـانـه الى الناس، فلـو قصدته وأنهيت إليـه ذلك لقضى دينك، قال: فخرجـت من حران وليس معي سوى درهمين، فتركـت عندها درهما وتزودت بدرهـم وأتيت الفرات

وقـت القائلـة فعبرت جسر منبـج وأبعـدت عن أعين النـاس، وخلعـت ثيابي ونزلـت فتوضأت للصلاة وصليت ركعتين وإذا إلى جـانبي شخص ملفوف في عباءة، فقال لي: يافقير من أيـن أنت؟ قلت: من حران، قال: وإلى أيـن؟ قلـت: إلى حلـب، قـال: وماتصنـع فيهـا؟ فقلـت: أنـا فقير مديـون، وقد بلغنـي احسان نـور الديـن إلى الخلق فقصـدته لعلـه يقضي ديني، فقـال: وأين أنت من نـور الدين، ومـن يوصلك إليه، كـم عليك دين؟ قلت: خمسون دينـارا فأخرج يده من العباءة وبحـث الرمل وأخرج منـه قرطـاساً وألقـاه إلي، وقـال: خذ هـذا فـاقض بـه دينك وارجـع إلى أهلك، قـال: فأخـذته فعددتـه وإذا به خمسون دينـاراً، فالتفـت فلم أره، فبهت وبـت في مكاني أتفكـر هل أرجـع إلى حران أم أمضي إلى حلـب، وتـرجح عنـدي المضي إلى حلـب، وقلـت في نفسي: فهذه أوفي بها دينـي فمن أيـن أتقوت؟ ثم قمـت وقصدت طريق حلـب، فبت بباب بـزاعة، وقمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح، وقعدت تحت القلعة، وإذ فتـح بابها ونزل نـور الديـن في أبهة عظيمة والامراء بين يـديه حتى جـاء الى الميدان، فلما أراد ان يدخل نظـر الي فرمقني طويـلا وأشار الى خـادم بين يديـه، فجاء الخادم إليّ وقـال: قم، فـأخذني وصعـد بي الى القلعة، قال: فنـدمت على مجيئي حلب، وقلـت: ياليتني قبلت مـن ذلك الرجل الصالح، ولعل نور الدين توهم أني اسماعيلي.

قال: فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين الى القلعة وجلس في الإيوان، ومد سماط عظيم، ولم يمـد يده اليه، وإذا قد فتح بـاب عن يمينه صغير وخرج منه خادم وعلى يده طبق خوص مغطـى بمنديل فوضعه بين يديه، وفيه غضـارة عليها رغيف فتـأملها من بعيد وهـي ثردة فتناول منهـا شيئا يسيرا وأكل النـاس وأكلت معهـم، وصرف الناس وبقيـت قاعـدا خائفـا فأومـأ إليّ، فقمت وأتيت الى بين يـديه وانا خـائف أرعد، فقال: مـن أين أنت؟ قلت: من حران، قال: وما الذي أقدمك؟ قلت: علي دين وبلغني احسانـك إلى الناس فقصدتك لتقضي دينـي، قال: وكم دينـك؟ قلت:

خمسون ديناراً، قال: أما أعطاك صاحب العباءة أمس على الفرات خمسين ديناراً، هلا رجعت إلى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر، وإذا حصل القوت للفقير فلا يطلب شيئاً آخر، ثم قال: مانضيع تعبك، ورفع سجادته وكانت زرقاء، وإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة.

قال: فبكيت بكاء كثيراً وقلت: لا آخذه حتى تخبرني بصاحب العباءة، قال: هو أمر لايلزمك، فقلت: يامولاي أنا غريب وضيف ولي حرمة، فبالله عليك أخبرني، فقال: احلف لي أنك لاتتحدث بهذا في حال حياتي فحلفت له، فكشف القباء وإذا بتلك العباءة على جسده، وقال: أنا ذاك الفقير، فقلت: بالله الذي أعطاك هذه المنزلة بأي شيء وصلت إلى هذا؟ فقال: بقوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ [الانبياء ١٠١]، قال: لما التقينا بالافرنج على حارم ونصرنا الله عليهم وعدت إلى حلب التقاني في الطريق شاب حسن الوجه طيب الرائحة فسلم علي، وقال: يامحمود أنت من الأبدال، وقد أعطاك الله الدنيا فاشتر بها الآخرة وسله مهما شئت، ثم علمني كلمات، وقال: إذا طلبت أمراً فاذكرها، فقلت له: فبالله من أنت؟ فقاتل: أنا أخوك الخضر، ثم غاب عني، فإذا عزمت على أمرٍ أو أردت أن أذهب إلى مكة أو المدينة أو إلى أي بلد شئت لبست العباءة، وتكلمت بتلك الكلمات وأغمض عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة.

قال السبط أيضاً: وحكى لي نجم الدين الحسن بن سلام، أحد عدول دمشق وأعيانها، وكان صديقنا وصاحبنا رحمه الله، قال: لما ملك الأشرف ابن العادل دمشق وبنى مسجد أبي الدرداء في القلعة وأفرده عن الدور، قال: وما صلى فيه أحد منذ زمان أبي الدرداء إلى الآن، فقلت له: الله الله يامولانا مازال نور الدين منذ ملك دمشق يصلي فيه الصلوات الخمس، فقال: من أين لك هذا؟ قلت: حدثني والدي ـ وكان من

أكابر عدول دمشـق، وكان أبوه يلقب بالسعيد ـ أنه لما نـزلت الفرنج على دمياط بعد وفـاة أسد الدين شيركـوه رحمه الله، وضايقوهـا وأشرفت على الأخذ، فأقام نور الدين عشرين يوماً صائماً لايفطر الا على الماء، فضعف وكاد يتلـف ، وكان مهيبـاً لايتجاسر أحد أن يخاطبـه في ذلك، وكـان له إمـام يقال لـه يحيـى ضرير يصلي بـه في هذا المسجـد، وكـان يقرأ عليـه القرآن، وله عنـده حرمته، فاجتمع إليه خـواص نور الدين وخدمـه وقالوا له: قـد خفنا على السلطان ونحـن من هيبته مانقـابله، وأنت تـدل عليه، ونحن نسألـك أن تسأله أن يتناول شيئا ممـا يحفظ به قوتـه فقال: نعم إذا صليت به غـداة الفجر سألته، قال: فلما كان في تلـك الليلة رأى الشيخ يحيى في المنام رسول اللـه صلى الله عليه وسلم يقول له: يـايحيى بشر نور الديـن محمود برحيل الفـرنج عن دميـاط، قال: فقلت: يارسـول الله ربما لايصدقني، وأريد له أمارة، قال: قل له: «بعلامة يوم حارم».

قال: فانتبه يحيى وهو ذاهب العقل، فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم شرع يـدعو، ففاته أن يتحـدث معه، فقال لـه نور الدين: يـايحيى، قال: لبيك يامولانا، قال: تحدثني أو أحدثك؟ قال: فارتعد يحيى وخرس فقال له: أنا أحـدثك، رأيت النبي صلى الله عليه وسلـم في هذه الليلة، وقال لـك كذا وكذا، فقال: نعـم يامولانـا، فقال: يامـولانا مامعنى قـوله عليه السلام: «بعـلامة يوم حارم» فقـال له نور الديـن: لما التقى الصفان يـوم حارم خفـت على الاسـلام لأني رأيت مـن كثـرة الفرنـج مـاهالنـي، فـانفـردت عـن العسكـر ونـزلـت فمـرغـت وجهـي على التراب وقلـت: ياسيـدي من محمود في الـدين، الدين دينـك، والجند جندك، وهـذا اليوم هو، فافعل مايليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم.

السابع: فيما فعله من الخيرات ومابناه من بيوت العبادات وغيرها.

وكان نـور الديـن رحمه الله بنى المدائن وأوقـف الاوقاف، وبنـى سور

دمشق والمساجد والمدارس، ووقف أوقافا على المرضى والمجانين، وبنى المكاتب لليتامى، وبنى المارستان في دمشق، ووقف على سكان الحرمين وأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعرضوا للحاج، وأمر باكمال سور المدينة، وأجرى إليها العين التي تأخذ من أُحد من عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الربط والخانات والقناطر، وجدد كثيراً من قني السبيل، ووقف كتباً كثيرة في مدارسه، وأول من بنى دار العدل بدمشق، وقد ذكرناه، وبنى جامعا في الموصل، وفوض عمارته الى الشيخ عمر الملاء، وكان من الصالحين، وإنما سمي الملاء لانه كان يملأ تنانير الآجر، ويأخذ الاجرة فيتقوت بها، وكان لايملك شيئا من الدنيا، وكان عالما بفنون العلوم، وجميع الملوك والعلماء والأعيان يزورونه ويتبركون به، وصنف كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يعمل بمولد رسول الله عليه السلام في كل سنة، ويحضر عنده صاحب الموصل والأكابر، وكان نور الدين يحبه ويكاتبه، وكان مكان الجامع النوري خربة واسعة ماشرع أحد في عمارتها الا وقصر عمره، فأشار عمر على نور الدين بعمارتها جامعاً، فاشتراها وأنفق عليها أموالا كثيرة، يقال ستون ألف دينار، ويقال ثلاثمائة ألف دينار، فتم في ثلاث سنين، ولما تمّ جاء نور الدين إلى الموصل ـ وهي المرة الاخيرة ـ فصلى فيه، ووقف عليه قرية بالموصل ورتب فيه الخطيب والمؤذنين والحصر والبسط وغيرها، ثم دخل عمر الملاء على نور الدين وهو جالس على دجلة، فوضع بين يديه أوراق الحساب والخرج، وقال: يامولانا أشتهي ان تنظر فيها، فقال له نور الدين: ياشيخ نحن عملنا هذا لله دع الحساب إلى يوم الحساب، ثم رمى بالأوراق في الدجلة.

وقال ابن الأثير: وبنى جامع حماة على العاصي وهو من أحسن الجوامع.

قال: ووقع بيد نور الدين أفرنجي من أكابر الملوك ففدى نفسه بمال

عظيم، فشاور نور الدين أمرائه فأشاروا ببقائه في الاسر خوفاً من شره، فأرسل إليه نور الدين في السر يقول: أحضر المال، فأحضر ثلاثمائة ألف دينار، فأطلقه نور الدين، فعند وصوله الى مأمنه مات، وطلب الأمراء سهمهم من المال، فقال نور الدين: ما تستحقون منه شيئاً لانكم نهيتم عن الفداء، وقد جمع الله لي الحسنيين: الفداء وموت اللعين، وخلاص المسلمين منه، فبنى بذلك المال مارستان دمشق ومدرسة ودار الحديث بدمشق، ووقف عليها الاوقاف.

قال ابن الأثير: وبلغني ان اوقاف نور الدين في أبواب البر بالشام في وقتنا هذا ـ وهو سنة ثمان وستمائة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها ملك، بل حق ثابت بالشرع باطنا وظاهرا، صحيح الشراء.

وقال السبط: أما في زماننا هذا فقد تشعث وقفه وتغيرت صفاته، ولم يبق منه الا آثاره وبركاته

وقال ابن الأثير: وفي سنة وفاته أكثر من الخيرات والصدقات والاوقاف، وعمارة المساجد المهجورة، واسقاط كل ماكان فيه من الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج وماتحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج.

قال [العماد]: وأمرني بكتابة المناشير، فكتبت أكثر من ألف منشور وحسبنا ماتصدق به في تلك الشهور فكان ثلاثين الف دينار.

وقال العماد: بنى جامع قلعة دمشق ومسجد عطية بباب الجابية، ومسجد الرماحين، ومسجد سوق الصاغة ومسجد دار البطيخ، ومسجد العباسي، ومسجداً بجوار بيعة اليهود، ومسجد الكشك، وأشياء أخر.

وقال ابن الجوزي: وكان من عزمه أن يفتح البيت المقدس، فعمر

منبراً وقبلة بجامع حلب على اسم القدس، فتوفي قبل الفتوح، فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس، حمل المنبر إليه وأبقى القبلة بجامع حلب.

وحكي عن الشيخ أبي عمر شيخ المقادسة رحمه الله قال: كان نور الدين رحمه الله يزور والدي الشيخ أحمد رحمه الله في المدرسة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدير، ونور الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن.

وقال ابن خلكان رحمه الله: وبنى نور الدين المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل: دمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنبج، والرحبة، وبنى جامع الرها، وجامع منبج، ودار الحديث بدمشق.

وقال النويري في تاريخه: وأحصيت أوقافه، وكانت في كل شهر تسعة عشر ألف دينار مصرية من وجه حل: أما من إرث والده أو من سهمه في الغنيمة، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام مثل: دمشق، وحمص وحماه، وحلب، وشيزر، وبعلبك، وغيرها، لما هدمت بالزلازل.

وقال ابن كثير: وبنى المارستان الذي بدمشق، وهو أحسن مابني من المارستانات بالبلاد، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها الا فيه، فلا يمنع منه الأغنياء ومن جاء إليه مستوصفا، فلايمنع من شرابه،، ولهذا جاء نور الدين إليه وشرب من شرابه.

وقال ابن كثير: ويقول بعض الناس: إنه لم تخمد النار فيه منذ بني الى زماننا هذا والله أعلم، وقد بنى الخانات في الطرقات والابراج والخفر في الاماكن المخوفة، وفيها الحمام الهوادي التي تطالع بالاخبار في أسرع مدة، وبنى الربط والخانقاهات.

وقال ابن الأثير: وهـو أول من بنى دار الحديث، ووقـف على من يعلم الايتـام الخط، وجعـل لهم نفقـة وكسوة، وعلى مـن يقـرأ آي القـرآن وعلى المجاورين بالحرمين، وكان الجامع بـدمشق داثراً، فولى نظره للقاضي كمال الديـن محمد بـن عبد اللـه الشهرزوري الموصلي الـذي قدم عليـه، فولاه قاضي القضاة بدمشـق فأصلح أموره، وفتح المشاهد الأربعـة، وقد كانت حواصل الجامع بها من حين احترق في سنة احدى وستين وأربعمائة.

وأضاف إلى أوقـاف الجامع الاوقـاف التي لايعـرف واقفوهـا، ولاتعرف شروطهم فيهـا، وجعلها قلما واحـدا، وسمي مـال المصالـح ورتب غليـه ذوي الحاجـات والفقـراء والمسـاكين والارامل والايتـام ومـا أشبـه ذلـك، وأحاط السـور على حارة اليهود وكـان خرابـاً، وأغلق باب كيسـان، وفتح باب الفرج ولم يكن هناك قبله باب بالكلية.

وحكى الشيخ شهاب الدين أن نور الـدين وقف بستان الميدان سوى الغيط الـذي قبليه، نصفـه على تطييب جـامع دمشـق، والنصف الآخـر يقسـم على أحـد عشر جزءاً جـزآن على تطييـب المدرسـة التي أنشـأهـا للحنفيـة والتسعة الاجـزاء الباقيـة على تطييـب المساجـد التسعة، وهـي: جامع الصالحيـة بجبل قاسيون، وجامع القلعـة، ومسجد عطية، ومسجد ابن لبيد بالفسقار، ومسجد الرمـاحين المعلق، ومسجد العباسي بالصاغة، ومسجد دار البطيخ المعلق، والمسجد الذي جـدده نور الدين بجوار بيعة اليهود، لكل من هذه المساجد جزء من أحد عشر جزءاً من النصف.

الثامن: في فتوحاته وبلاده.

قال النويـري: وكأن قد اتسع ملكه جدا، وخطـب له بالحرمين ومصر والشـام وحلب وديـار بكـر والجزيرة، وكـذلك بـاليمـن لما ملكها الملـك المعظم تورانشـاه بن أيوب بن شادي، وطبق ذكـره الارض بحسن سيرته

وعـدله وكـرمه وصـدقاتـه، وتصدق في شهـر واحد بثـلاثين ألف دينـار، وقسم في يوم واحـد مائتي ألف دينار خلاف الـدواب والسلاح والخيام، وكان يحضر أماثل البلد عنده ويعطيهم الـذهب ويقول: تصدقوا به على من تعرفونه في جواركم من الارامل والايتام.

وقال ابن الجوزي: ولي نـور الدين الشام سنين وجاهد بـالثغور، وانتزع من أيـدي الكفار نيفـا وخمسين مدينة وحصنـا، منها: الـرها، وكـان محبا للعلماء وأهـل الديـن، وكاتبنـي مـراراً، وعاهـد ملـك الافرنـج صاحـب طرابلـس، وقد كـان في قبضته أسيراً، على أن يطلقـه بثلاثمائة ألـف دينار وخمسين ومائة حصـان، وخمسمائة زدرية ومثلهـا أتراس أفـرنجية، ومثلهـا قنطاريـات، وخمسمائة أسير من المسلمين، وأنـه لايغير على بلاد الاسـلام سبع سنين وسبعـة أشهر وسبعـة أيام، وأخـذ منه في قبضتـه على الوفـاء بذلـك مائة من اولاد كبراء الافـرنج وبطـارقتهم، فإن نكـث أراق دمهم، وعزم على فتح بيت المقدس فوافته المنية في شوال من هذه السنة.

وذكـر الحافظ ابـن عساكـر رحمه الله فتـح نـور الديـن رحمه الله نيفـا وخمسين حصناً، منها: تل باشر وعينتاب، واعـزاز، ومرعش، وبهسنى، وتل خالد، وحارم، والمرزبـان، ورعبان، وكيسون، والرها، وكسرابرنـس انطاكية وقتله، وقتـل معه ثـلاثة آلاف ، وأخذ مـن القومـض ثلاثمائة الـف دينار وخمسمائة زرديـة، وخمسمائة حصان، وخمسمائة أسير، واتسـع ملكه، ففتـح الموصـل والجزيـرة وديـار بكـر والشام، والعـواصـم، ودمشـق، وبعلبـك وبانيـاس، ومصر، واليمن، وخطـب له في الـدنيا، وأظهـر السنة بحلـب، وأزال الأذان بحي على خير العمل، وكان يتعـرض للشهادة، ويسأل الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.

-١١١٧٦-

التاسع: في وفاته:

قال العماد: وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر، قال: ونظمت للهناء بالعيد والطهر قصيدة منها:

عيدان فطر وطهر
وفتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه
حقاً هناء وأجر
وفيهما بالتهاني
رسم لنا مستمر
طهارة طاب فيها
أصل وفرع وذكر
نجل على الطهر نام
زكا له منك نجر
محمود الملك العاد
ل الكريم الاغر
وبابنه الملك الصا
لح العيون تقر
مولى به اشتد للد
ين والشريعة ازر

وهي قصيدة طويلة آخرها:

هذا الطهور ظهور
على الزمان وأمر
وذا الختان ختام
بمسكه طاب نشر

قال: وفي يوم العيد ركب نور الدين على الرسم المعتاد، محفوفاً من الله بالاسعاد، والقدر يقول له: هذا آخر الاعياد، ووقف في الميدان

الاخضر، ورمى القبـق، وكان قد ضرب خيمتـه في الميدان القبلي الاخضر، وأمر بوضـع المنبر، وخطب له القاضي شمـس الدين بن الفـراش، قاضي العسكر، بعد ان صلى به، وعاد الى القلعـة وأنهب سماطه العام، على رسم الاتراك وأكابر الاملاك.

قـال: ثم حضرنـا على خوانـه الخاص في يوم الاثنين ثـاني العيد، بكـر وركب ودخل الميـدان والعظماء يسايرونه وفيهم همام الديـن مودود، وكان قديما في أول دولته والي حلـب، فقال لنور الدين في كـلامه عظة لمن يغتر بأيـامه: هل نكون هـاهنا في مثل هذا اليـوم في العام القابل؟! فقـال نور الـدين: قـل: نكـون بعد شهـر، فـإن السنـة بعيدة، فجـرى على منطقهما ماجـرى به القضـاء السابـق، فإن نـور الديـن لم يصل إلى الشهـر، وهمام الدين لم يصل الى العام.

ثم شرع نور الـدين في اللعب بالاكـرة، فاعترضه أمير يقال لـه يرنقش وقال له: بـاش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، وكـان ذلك على خلاف مذهبـه، ونهره وزجره، ثم ساق ودخـل القلعة واحتجب فبقي اسبـوعا في منزله، ثم اتصل به مرض، وأشار عليـه الاطباء بالفصد فامتنع من ذلك، وكان مهيبـاً فما روجع، وانتقـل يوم الاربعـاء حادي عشر شـوال من دار الفناء الى دار البقاء.

وقال ابن شـداد: وكانت وفاة نور الـدين بسبب خوانيـق اعترته عجز الاطباء عن علاجها.

وقـال ابن الاثير: وكـان نـور الـدين قـد شرع بتجهيـز المسير الى مصر لاخذها من صلاح الـدين، فإنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنـج من ناحيته فـأرسل الى الموصـل وديـار الجزيرة وديـار بكر يطلـب العسـاكر ليتركهـا بالشـام لمنعه من الافـرنج، ليسير هو بعسـاكره الى مصر، وكان المانـع من

صلاح الـدين من الغزو الخوف مـن نور الديـن، فإنه كان يعتقـد ان نور الديـن متى زال عـن طريقـه الفرنـج أخذ البـلاد منه، فكـان يحتمي بهم عليه، وكـان نور الـدين لايـرى الا الجد في غزوهـم بجهده وطـاقته، فلما رأى اخلال صلاح الـدين بالغزو، علـم غرضه فتجهز للمسير إليـه فأتاه أمر الله الذي لايرد.

قال: وحكـى لي طبيب بدمشـق يعرف بالـرحبي، وهو أحـذق الاطباء قـال: استدعـاني نـور الديـن في مـرضـه الذي تـوفي فيـه مع غيري مـن الاطبـاء، فـدخلنـا عليـه وهو ببيـت صغير بقلعـة دمشـق، وقـد تمكنـت الخوانيـق منه، وقـارب الهلاك، فلا يكـاد يسمع صـوته، وكـان يخلو فيـه للتعبـد في أكثر أوقـاته، فـابتدأ بـه المرض، ينتقل عنـه، فلما دخلنا عليـه ورأينا مـابه قلـت: كان ينبغي أن لايـؤخر إحضـارنا عنـدك إلى أن يشتد المرض الى هذا الحد، فـالآن ينبغي ان تنتقل الى مكـان فسيح، فلـه اثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء، ومات عن قريب.

قال ابن عسـاكر: وتوفي يوم الاربعاء الحادي عشر من شـوال سنة تسع وستين وخمسمائة ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل الى تـربة تجاور مدرسته التي بنـاها لاصحـاب ابي حنيفة رضي اللـه عنـه جوار الخواصين في الشـارع الغربي.

وقال العماد: قلت في ذلك:

عجبـت الى الموت كيـف اهتـدى ... الى ملـك في سجـايـا ملـك

وكيـف ثـوى الفلـك المستـديـر ... في الارض والارض وسـط الفلـك

وقال ابن كثير: حصلت له علـة الخوانيق ومنعته عن النطق، فمات في التاريخ المذكور، وصلي عليه بجامع القلعـة ودفن بها حتى حُول الى تربته

التي بنيت له بباب المدرسة التي أنشأها للحنفية وقبره بدمشق مشهور، يزار ويخلق شباكه فيستطيب رائحته كل مار، وإنما يقول الناس: نور الدين الشهيد، لما حصل له من الخوانيق، وكذا كان يقال لأبيه الشهيد، ويلقب بالقسيم، وكانت الافرنج يقولون له ابن القسيم.

وقال ابن خلكان: ويقول أهل دمشق ان الدعاء عند قبره مستجاب، وقال القاضي: ولقد جربت ذلك فصح، وكان عمره حين مات ثمانيا وخمسين سنة، وله في الملك ثمان وعشرون سنة.

العاشر: فيما رثي به، وما قيل له من الاشعار:

قال العماد: ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة:

لفقـد الملـك العـادل ... يبكـي الملـك والعـدل
وقـد أظلمـت الآفـا ... ق لاشمـس ولاظـل
ولما غـاب نـور الديـ ... ـن عنـا أظلـم الحفـل
وزال الخصـب والخير ... وزاد الشر والمحـل
ومـات البـاس والجود ... وعـاش اليـاس والبخـل
وعـز النقـص لما هـان ... أهـل الفضـل والفضـل
ومـا كـان لنـور الـديـن ... لـولا نجلـه مثـل

وقال أيضاً:

يا ملك أيامه لم تزل
لفضله فاضلة فاخره
ملكت دنياك وخلفتها
وسرت حتى تملك الآخرة

وكان الواعظ أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد الواسطي من الصالحين الكبار أنشد لنور الدين بقوله:

مثل وقوفك أيها المغرور
يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلما
فاحذر بأن تبقى ومالك نور
نهيت عن شرب الخمور وأنت في
كاس المظالم طافح مخمور
عطلت كاس سالف المدام تعففا
وعليك كاسات المظالم تدور
ماذا تقول إذا انقلبت الى البلى
فردا وجاءك منكر ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في
يوم الحساب مسحب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في
ضيق اللحود موسد مقبور
وددت أنك ما وليت ولاية
يوما ولا قال الانام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفيرة
في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانا حزينا باكيا
قلقا ومالك في الانام مجير
أرضيت ان تحيى وقلبك دارس
عافي الخراب وجسمك المعمور

ـ ١١١٨١ ـ

أرضيت ان يحظى سواك بقربه
ابدا وأنت مبعد مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها
يوم المعاد لعلك المعذور

فلما سمعها الملك نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر البلاد، وقيل إن برهان الدين البلخي أنكر على نور الدين استعانته في الحروب بأموال المكوس، قال: وكيف تنصرون وفي عسكركم الطبول والخمور والزمور؟!

وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر أنه رأى في منامه أنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره أن يكتب مناشير بوضع المكوسات والضرائب عن البلاد، وقال: هذا تفسير رؤياك، وكتب إلى الناس يستحل منهم عما أخذ منهم ويقول: إنما صرفت في قتال أعدائكم من الكفرة، وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا من التجار لنور الدين، وكان يقول في سجوده: اللهم أنا العشار المكاس.

الحادي عشر: في تملك ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الاتابك زنكي بن آقسنقر.

ولما توفي نور الدين في التاريخ المذكور، ملك ولده المذكور دمشق وما معها بعد أن حلف له الامراء والمقدمون بدمشق، وكان عمره احدى عشرة سنة، وأطاعه أهل الشام، وخطب له الناصر صلاح الدين بمصر وضرب السكة باسمه، وأظهر له الطاعة، وتولى تربيته وتدبير دولته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، وقال له كمال

الـدين بـن الشهرزوري ولمن معـه مـن الامراء والمقـدمين: قد علمتـم أن صلاح الديـن صاحب مصر من أصحاب الشهيـد، والمصلحة ان نشاوره في الذي نفعلـه ولانخرجـه من بيننـا فيخرج عـن طاعتنـا، ويجعل ذلـك حجة علينا وهـو أقوى منا، لانه انفـرد اليوم بملك مصر، فلم يـوافق هذا القول أغراضهم، وخـافوا ان يدخل صلاح الدين فيخـرجهم، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنيه بالملك، وأرسـل دنانير مصر عليها اسمه، ويعـرفه أن الخطبة والطاعـة له كما كانت لأبيه.

ولما سار سيف الـدين غازي بن قطـب الدين، صاحـب الموصل، إلى الجزيرة وملـك البلاد الجزريـة على مانـذكره أرسـل صلاح الـدين يعتـب الملك الصـالح حيث لم يعرفـه قصد سيف الديـن ابن عمه بـلاده قبل أخذهـا ليحضر في خدمتـه ويكفه عنـه، وكتب إلى الشهـرزوري والأمراء يقول لهم: لو كان نـور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقـامي أو يثق إليه ثقته إلي لسلـم إليه مصر التي هـي أعظم ممالكـه وولاياته، ولـو لم يعجل إليه الموت لم يعهد إلى أحـد بتربيته لولده والقيام بخـدمته غيري، وأراكم قد تفردتـم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خـدمته وأجازي انعام والـده بخدمة يظهـر أثرها له، وأجـازي كلا منكم بسـوء صنيعه في تـرك الذب عـن بلاده، وتمسـك ابن المقـدم وجماعـة من الأمـراء بالملـك الصالح ولم يـرسلوه إلى حلب خوفـا أن يغلب عليهم شمس الـدين علي ابـن الدايـة، فإنـه كان أكبر الامـراء النـورية، وإنما منعـه من الاتصـال بخدمتـه مرض لحقـه، وكان هـو وأخوه بحلب وأمـرها إليهـم وعساكـرها معهم في حياة نور الدين وبعده.

ولما عجز عن الحركـة أرسل إلى الملك الصالح يدعـوه إلى حلب ليمتع به البـلاد الجزرية من سيف الـدين ابن عمـه، فلم يمكنه الامراء الـذين معه من الانتقال إلى حلب.

وفي المرآة: وكان الصالح لم يبلغ الحلم فأجلسوه مكان أبيه، وحضر القاضي كمال الدين ابن الشهروزري وشمس الدين ابن المقدم، وجمال الدين ريحان، وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمير الأعمال، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا أن تكون أيديهم واحدة، وأن شمس الدين بن المقدم إليه تقدمة العساكر وتربية الملك الصالح، ووصل كتاب صلاح الدين، من انشاء الفاضل الى دمشق وفيه:

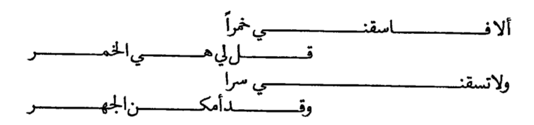
أدام الله أيام مولانا الملك الصالح، ورفع قدره، وأعظم أجر المملوك في مولانا السلطان الملك العادل وأجره، أصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة، وفيه أقيمت الخطابه بالاسم الكريم، وصرح بذكره في الموسم العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولاتأثيم، والله تعالى يخلد ملك مولانا الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه، ويديم النعمة عليه.

وذكر فصولا تتعلق بالتهنئة والتعزية:

وقال العماد: أخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل، وقد أبدى الحزن والعويل، وهو مجذوذ الذوائب مشقوق الجيب، حاسر حاف، مما فجأه وفجعه من الريب، وأجلسوه في الايوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تُتُش، فاستوفى كل قلب حزنه فاستوحش، وبعد ان تحالفوا له أنشأ العماد كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين ترجمته: «اسماعيل ابن محمود» وفيه: «أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل مذب الشام بل الاسلام، حافظ ثغوره وملاحظ أموره ومقدم الجهاد ومقتني فضيلته ومؤدي فريضته، ومحيي سنته وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره، على أنه يعز ان يرى الزمان نظيره، وما هاهنا مايشغل السر ويقسم الفكر الا أمر الفرنج خذلهم

الله، وما كان اعتماد مولانا العادل وسكونه إليه الا لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل، فقد ادخره لكفايات النوائب، وأعده لحسم ادواء المعضلات اللوازب، وأمله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده ومكنه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله الا صورة، والمعنى باق، والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سموه من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر».

وفي تاريخ ابن كثير: لما مات نور الدين، وتولى ابنه المذكور، اختلف الامراء، وحارت الآراء، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور، وانتشرت الفواحش، حتى ان ابن أخيه سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود صاحب الموصل لما تحقق موت عمه، وكان محصوراً منه نادى مناديه بالبلد بالمساحة في اللعب واللهو والشرب والطرب، ومع المنادي دف وقدح ومزمار، وتحقق حينئذ قول الشاعر:



وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين، وعزم الافرنج على قصد دمشق، فبرز إليهم الاتابك ابن المقدم فواقفهم عند بانياس، فضعف عن مقاومتهم فهادنهم مدة، ودفع إليهم أموالا جزيلة عجلها لهم، ولولا خوفهم من قدوم السلطان الملك الناصر صلاح الدين، صاحب الديار المصرية لما هادنوه، ولما بلغ ذلك صلاح الدين كتب الى الامراء، وخاصة الى ابن المقدم يلومهم على ماصنعوا من المهادنة ودفع الاموال الى الافرنج وهم أقل وأذل ، وأنه عزم على قصد البلاد لحفظها من الافرنج، فردوا إليه كتابا فيه غلظة، وكلاما فيه بشاعة، فلم يلتفت

إليهـم، ومن شـدة خوفهـم منه كتبـوا إلى سيف الـدين غـازي صاحـب الموصل ليملكـوه عليهم ليـدفعوا بـه الملك النـاصر صلاح الـدين، فلـم يفعل لانه خاف أن تكون مكيدة منهم لـه، وذلك أنه كان قد هرب منه الطواشي سعـد الدولـة كمشتكين الذي كان قـد جعله عنـده نور الـدين عيناً عليه، وحافظاً له من تعـاطي مالايليق عليه، فلما سمع الخادم بموت استـاذه خاف أن يمسكـه، فهـرب سراً، فحين تحقـق غازي مـوت عمـه بعث في طلب الخادم ففاته، فاستحوذ على حـواصله، ودخل سعد الدولة حلب، ثـم سار الى دمشق فـاتفق مع الأمـراء على أن يأخذ ابـن استاذه الملك الصـالح اسماعيل إلى حلب فيربيـه هنالك، وتكون دمشـق مسلمة إلى الاتابك شمـس الدين ابن المقدم والقلعة إلى الطـواشي جمال الدين ريحان، فسـار معـه الأمـراء والأكـابـر مـن دمشـق وذلـك في الثـالـث والعشرين من ذي الحجـة من هذه السنة، وحين وصلـوا إلى حلب جلس الصبي على سرير مملكتهـا، واحتاطوا على بني الداية شمـس الدين وعلى أخيه مجد الـدين الذي كـان رضيع نور الـدين وأخوتـه الثلاثة، وقـد كان شمس الديـن ابن الداية يظن أن يسلـم إليه ابن نور الديـن ليربيه، لانه أحق الناس بذلك، فخيبوا ظنـه وسجنوه وأخوه في الجب، فكتب صلاح الديـن إلى الامراء يلـومهم على مـافعلوا مـن نقل الـولد إلى حلـب، ومن سجن لبني الـداية، وقد كانـوا من خيار الامراء، ورؤوس الأمـراء الاكابر، ولم ماسلموا الولد إلى مجد الدين بن الـداية الذي كان أحظى الناس عند نور الدين.

فكتبوا إليـه يسيئون الادب عليـه، وكل ذلـك مما يـزيده حنقـاً عليهم، ويحرضه على القدوم بجيشـه إليهم، ولكنه في هذا الوقت في شغـل شاغل بما دهم بـلاده من الأمر الهائل، كما سنذكـره إن شاء الله تعـالى في السنة الآتية، إنه على ذلك قدير.

-١١١٨٦-

ذكر الأمور المزعجة:

ومنها أن ملك الروم خرج من القسطنطينية، وقصد بلاد قليج أرسلان، فجرت فيها حرب استظهر فيها المسلمون، فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده، وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كبيرة.

ومنها أن الفرنج حاصروا بانياس ثم عادوا عنها، وقد قلنا إن هذا كان بعد موت نور الدين، وأن شمس الدين محمد بن عبد الملك خرج من دمشق، وراسل الافرنج وبذل لهم، فعادوا.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السبعين بعد الخمسمائة:

ذكر تملك صلاح الدين دمشق وأخذها من الملك الصالح بن نور الدين:

ولما مات نور الدين في التاريخ الذي ذكرناه، وتولى عوضه ولده اسماعيل، وطمعت الفرنج في بلاد الشام، واختلفت آراء أمراء الشام، وعزم السلطان صلاح الدين للتوجه إلى الشام لأخذها وحفظها من الأفرنج، ولكن عرض عليه أمران: الأول مجيء الافرنج إلى بلاد مصر، والثاني مخالفة الكنز المقدم بأسوان، فلنذكر الامرين اولا، ثم نذكر أخذ صلاح الدين دمشق.

أما الأمر الأول، فقد قال ابن كثير: استهلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على عزم الدخول الى الشام ليحفظه من أيدي الافرنج المخذولين، ولكن قد دهمه أمر شغله عنه، وذلك أن الفرنج قدموا الى ساحل البلاد المصرية في اسطول لم يسمع بمثله في كثرة مراكبه ومافيه آلات الحصار، وكثرة الرجال والمقاتلة من جملة ذلك مائتا شيني في كل منها مائة وخمسون مقاتلاً، وأربعمائة قطعة أخرى، وكان قدومهم من صقلية إلى ظاهر اسكندرية قبل رأس السنة بأربعة أيام، فنصبوا المنجنيقات والدبابات حول البلد، وبرز إليهم أهلها فقاتلوهم دونها قتالا شديداً، واستمر القتال أياماً، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير، ثم اتفق أهل البلد على تحريق مانصبوه من المنجنيقات والدبابات، ففعلوا ذلك، فأضعف ذلك قلوب الافرنج وفت في أعضادهم، ثم كبسهم المسلمون في منازلهم فقتلوا من أحبوا وأرادوا وغنمواماشاءواواختاروا، وانهزم الكفار في كل وجه ولم يكن لهم ملجأ إلا

البحـر والقتـل، أو الأسر، واستحـوذ المسلمـون على أمـوالهم وأثقـالهم وخيولهم وما ضربوه مـن الخيام لنزولهم، وبالجملة قتلوا خلقـاً من الرجال وغنمـوا شيئـا كثيراً مـن الامـوال، وركـب مـن بقـي منهـم في الاسطـول راجعين إلى بلادهم خائبين لعنهم الله.

وفي تـاريخ بيبرس: وفي هـذه السنة قصـد الافـرنج ثغـر الاسكندريـة وجاءوا في مائتـي شيني وطريدة، وأمـد الملك الناصر صلاح الـدين أهل الثغر بالعسكر وتحرك ليتوجه إليهم، فـألقى الله في قلوبهم الرعب فعادوا خـائبين بعد أن ضـايقوا الثغـر وزحفـوا عليه ثـلاثـة أيام وقـاتلوا قتـالا شـديداً.

وفي تاريـخ الدولتين: أمـا وصول الاسطـول إلى اسكندريـة فكان يـوم الاحـد السادس والعشريـن مـن ذي الحجـة سنة تسـع وستين، وانهزم في أول المحـرم سنة سبعين، وأرسـل صلاح الـديـن كتابـاً الى بعض الامـراء بالشـام وفيه وصـول أول الاسطول وقت الظهـر، ولم يزل واصـلا الى وقت العصر، وكان ذلـك على حين غفلة من المتـوكلين بالنظـر، لا على خفاء من الخبر، واستنـزلوا خيولهم مـن الطرائد ورجـالهم من المراكب، فكـانت الخيـل ألفين وخمسمائة فارس، وكـانوا ثـلاثين ألـف مقاتـل مابين فـارس وراجل، وكـانت عـدة الطرائد مائتـا شيني، في كـل شيني مـائة وخمسون راجـلاً، وكـانـت عـدة السفـن التـي تحمـل آلات الحرب والحصـار مـن الاخشاب الكبار وغيرها سـت سفن، وكانت عدة المراكب الحمالـة برسم الازواد للرجـال أربعين مركبا، وفيها مـن الرجال المتفرقين وغلمان الخيـالة وصناع المراكـب وأبراج الزحـف ودباباتـه والمنجنيقية مايتـم خمسين ألف راجل، ولما تكـاملوا نـازلين على البر حملوا على المسلمين حملـة أوصلوهـم إلى السور، وفقـد من أهـل الثغر في وقت الحملـة ماينـاهز سبعـة أنفس، واستشهد محمود بن البصار بسهم جرخ، وجـدفت مراكب الافرنج داخلة

الى الميناء، وكـان به مراكـب مقاتلة، ومراكـب مسافرة فسبقهـم المسلمون فخسفوها وغرقـوها وغلبوهم على أخذها وأحرقـوا مااحترق منها، واتصل القتال إلى المسـاء فضربوا خيامهم بـالبر، وكانت عدتهم ثـلاثمائة خيمة، فلما أصبحوا زاحفـوا وضايقوا وحاصروا ونصبـوا ثلاث دبابات بكبـاشها، وثلاثة مجانيق كباراً تضرب بحجارة سـوداء اصحبوها معهم من صقلية، والـدبابـات تشبه الابـراج في جفاء أخشـابها وارتفـاعها وكثرة مقاتلتهـا واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السـور، وألحوا في القتال عامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منـزلة العسـاكر بفاقـوس يوم الثلاثـاء ثالـث يوم نزول العدو على جنـاح الطائر، فاستنهض السلطان العساكـر إلى الثغرين اسكندريـة ودمياط، وأما اسكندريـة فإنهم فتحوا على غفلة وخـرج منها من كـان بها من الأمراء، فأحـرقوا الدبـابات المنصوبة، وأنـزل الله النصر على المسلمين والخذلان على الكفـار، واتصـل القتال الى العصر مـن يـوم الاربعاء، وانهزم الافرنـج، واستمر القتل والجرح فيهم، ولم يسلـم منهم الا مـن نزع لبسـه، ورمـى في البحر نفسـه، وتقحـم المسلمون في البحـر على بعض المراكـب فخسفوهـا وأتلفوها، فـولت بقية المراكـب هاربـة، وبقي العدو بين قتل وغـرق وأسر، واحتمى ثلاثمائة فارس في رأس تـل فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا، وأقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس».

وذكر ابن شداد أن نـزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكـانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة مابين شيني وطراده وبطسة وغير ذلك.

وأما الأمر الثاني: فهو نوبة الكنز.

وقـال بيبرس في تـاريخه: وفي هـذه السنـة خـالـف الكنـز بـأسـوان، وهومقدم من المصريين كـان قد انتزح إلى أسوان، فأقام بها، ولم يـزل يدبر أمره، ويجمـع السودان عليه، ويخيـل لهم أنه يملـك البلاد ويعيد الـدولة المصرية ويقطع خطبة الناصر صلاح الديـن، ويخطب لداود بن العاضد،

فاجتمع إليه جمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فانتهى خبره إلى الملك الناصر، فجرد عسكراً إليه، وقدم عليه أخاه الملك العادل وتوجه صحبته أبو الهيجاء السمين، فسار إلى الكنز وقد حشد جمعا كثيرا من السودان والرعية وعربان البلاد، فالتقوا وقتلوا الكنز، وأبادوا جموعه، واطمأن الصعيد، وعاد الملك العادل وسكن القصر بالقاهرة، ولقب من ذلك الحين بالملك العادل، والكنز المذكور من قبيلة ربيعة، وكان مسكنهم بجزيرة العرب ومستقرهم منها باليمامة، وانتقلوا إلى مصر من أيام المتوكل العباسي، فسكنوا بيوت الشعر في صحارى هذه الأعمال، وكانت البجاة تشن الغارات في كل وقت، فمنعوهم من ذلك، ثم تزوجوا عندهم، وظفروا بمعدن الذهب بالعلاقي، فتمولوا.

وفي تاريخ ابن كثير: ومما عوق الملك الناصر صلاح الدين عن الشام رجل يعرف بالكنز، وسماه بعضهم عباس بن شادي، وكان من مقدمي الديار المصرية، ومن الدولة الفاطمية، وكان قد انتزح إلى أسوان وجمع عليه خلقاً من الرعاع من الحاضرة والعربان، وزعم لهم أنه سيعيد الدولة، ويدحض الدولة التركية، ثم ذكر قريباً مما ذكرناه.

وقال ابن أبي طي: خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شادي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها وأخذ أموال الناس، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان السلطان استنابه بمصر، فجمع له العساكر، وأوقع به وبدد شمله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

وأما توجه السلطان صلاح الدين إلى الشام فقد كان في هذه السنة، فخرج إلى البركة في مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلبيس في ثالث عشر ربيع الاول، وكان عنده رسل شمس الدين

صاحب بصرى صديق ابن جاولي، وشمس الدين ابن المقدم، ثم سار الى إيلة، ثم أناخ على بصرى فاستقبله صاحب بصرى، ولم يزل في خدمته الى الكسوة، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين آخر شهر ربيع الاول، وسار في عسكره حتى دخل دمشق، ودخل إلى دار العقيقي، وكانت مسكن أبيه، وكان في قلعة دمشق جمال الدين ريحان الخادم، فاستمالـه صلاح الدين حتى ملك القلعة أيضاً، ونزل في القلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين، وأظهر السلطان لأهل دمشق أنه إنما جاء لتربية الملك الصالح بن نور الدين، وحفظ ماله من المصالح، وجاء إليه أعيان البلاد منهم: القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، فأكرمه السلطان وبالغ في اكرامه والامراء والاجناد والاتراك والاكراد والعربان، ثم أرسل السلطان الكتب الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر، وفي بعض كتبه:

«وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول».

وفيه: «ثم لقينا الأجل ناصر الدين بن المولى أسد الدين، والأمير سعد الدين بن أنر يوم السبت السابع والعشرين منه، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب، واستقبلنا هناك الأجناد الدمشقية، ولما دخلنا دمشق أمرنا بالنداء باطابة النفوس وإزالة المكوس».

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة خرج الملك الناصر صلاح الدين إلى دمشق، واستناب عنه الملك العادل أخاه بالديار المصرية، وكان السبب في ذلك أن الملك الصالح بن نور الدين كتب إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن ممدود صاحب الموصل، وإلى أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، بأن يحضرا إليه بعساكرهما ليجتمعوا جميعاً على قصد صلاح الدين، وأخذ الديار المصرية منه.

فأما أخوه عماد الـدين زنكي فانه امتنع منه لأن صلاح الـدين كان قد كـاتبـه وأطمعـه في ملـك والده بحكـم أنـه الكبير، فحملـه الطمـع على الامتناع على أخيـه، فلما رأى أخوه امتناعـه سار إليه الى سنجـار وحاصره بها، وامتنع عماد الديـن، وجد في حفظ البلد والذب عنهـا، فدام الحصار عليـه فبينا هـو يحاصرها أتـاه الخبر بانهزام عسكـره الذي مـع أخيه عـز الديـن مسعود مـن صلاح الديـن، لأنه كـان عند مسيره إلى سنجـار قد رتبه مع عسكر بدمشق، وصحبتـه أمير كبير يسمى عز الدين محمود، فلما وصل صـلاح الدين إلى دمشق أخـذها وانهزم العسكر الذي بها، فـراسل الملك الصالـح أخاه عماد الدين وصالحه على مابيـده، ورحل إلى الموصل إلى سيف الـدين ابـن عمه ليستنجـده على صلاح الـدين، فسـار بنفسه، وسار صلاح الـدين من دمشق إلى حمص، واستخلف عليهـا أخاه سيف الاسلام طغتكين، وقاتـل أهل حمص يوما واحدا فملكهـا وامتنعت القلعة عليه، فسـار عنها إلى حماه وبها عـزالدين جـورديك، وهومـن مماليـك نور الديـن فامتنع من التسليـم، فسير إليه صلاح الديـن يذكر أنه في طـاعة الملك الصالح، وأنـه ماخرج الا لحفظ البلاد من الفـرنج، فاستحلفه على ذلك، وسلم إليـه البلد، فلما تسلمها سار منها إلى حلـب فحاصرها وبها الملك الصـالح بـن نور الـدين، واتفق وصـول سيف الـدين غـازي من الموصـل منجداً لـه، وتقدمـت عسـاكره لقتـال صـلاح الديـن، فبذل لـه صلاح الدين تسليم حمص وحماة، وأن يقر بيـده مدينة دمشق ويكون فيها نائباً من جهـة الملك الصالح، فلم يجبه إلى ذلك، وقـال: لابد من تسليم جميع مـاأخذه مـن بلاد الشـام وعوده الى مصر، أو القتـال، وكان صـلاح الدين في أثنـاء المراسلة يجمع عساكـره ويتأهب للقائه، فلما امتنـع سيف الدين من اجـابته لما بذل، سار بعسكره فالتقى هووعسكـر سيف الدين غـازي على قرون حماه، فهـزمهم وتبعهـم حتـى حازوا معسكـرهم، وغنـم منهم غنـائم كثيرة ودوابا وسـلاحا، وعـاد العسكر السيفـي منهز مـا إلى حلب فتبعهـم صلاح الـدين إليهـا، ونزل عليهـا محاصراً لها، فراسلـوه في

الصلح على أن يكون له مابيده من بلاد الشام، ولهم مابأيديهم من بلاد حلب معاً، فأجابهم وانتظم الصلح، ورحل عن حلب في شوال منها، وقطع خطبة الملك الصالح من بلاده وأزال اسمه عن السكة.

وفي تاريخ النويري: وفي هذه السنة أرسل شمس الدين بن الداية المقيم بحلب كمشتكين الطواشي يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الى حلب ليكون مقامه بها، فسار الصالح إليه، ولما استقر بحلب تمكن كمشتكين وقبض على شمس الدين ابن الداية وأخوته، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وأخوته، وهورئيس حلب، واستبد كمشتكين بتدبير الملك الصالح، فخاف ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه، فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس، ووصل إلى دمشق، واستقر فيها، ولم ينتطح فيها عنزان، ولااختلف سيفان، وذلك أن نائبها شمس الدين ابن المقدم كان قد كتب إليه أولاً، فأغلظ ورمى الكتاب، فلما رأى أمره متوجهاً جعل يكاتبه ويستحثه على القدوم، ويعده بتسليم البلد، فلما رأى الجد لم يمكنه المخالفة، فسلمه البلد، فنزل السلطان أولا في دار والده، وهي دار العقيقي، وهي التي بنيت مدرسة للملك الظاهر بيبرس رحمه الله، ولما ثبت أمره بها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين، وأخذ ما في القلعة من الأموال، ثم سار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، ونزل عليها في حادي عشر جمادى الأولى، وملك المدينة وعصت عليه القلعة، فترك عليها من يضيق عليها، ورحل إلى حماه، وملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها عز الدين جرديك أحد المماليك النورية، فامتنع، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ بلاد الملك الصالح بن نور الدين عليه، وإنما هو نائبه، وقصد جرديك من صلاح الدين أن يكون سفيره بينه وبين الحلبيين، فأجابه إلى ذلك، فسار جرديك إلى حلب للرسالة، واستخلف في قلعة حماه أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب

قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم بذلك أخوه سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين، فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب، فنازلها على جبل جوشن وحصرها، فاجتمع أهل حلب، وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب، فأرسل كمشتكين إلى سنان مقدم الاسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، ووثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب، ثم رحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، وذلك أن أهل حلب راسلوا القومص صاحب طرابلس، ووعدوا له بأموال جزيلة إن هو رحل عنهم السلطان صلاح الدين، وكان هذا اللعين قد أسره نور الدين ومعتقلاً مدة عشر سنين، ثم فاداه على مائة ألف دينار، وألف أسيرمن أسارى المسلمين، وكان لاينسى ذلك لنور الدين، فركب القومص لعنه الله من مدينة طرابلس في جيشه، فلم يتجاسر على مقابلة صلاح الدين، بل قصد حمص ليأخذها بغتة، وركب إليه السلطان، وقد أرسل سرية الى بلده، فقتلوا منها وأسروا وغنموا، فلما اقترب السلطان منه نكص على عقبه، وكر راجعا الى بلده، وتراءى انه قد أجاب الى ماسألوا، فوصل صلاح الدين الى حماة، وسار الى حمص، فرحل الفرنج عنها، وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان المعظم، ثم سار إلى بعلبك فملكها، ولما استقر صلاح الدين في هذه البلاد أرسل الملك الصالح ابن نور الدين الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود ابن زنكي، وجعل مقدم جيشه أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود، ولقبه سلفندار، ووصلوا إلى حلب، وانضم إليه عسكر حلب، وساروا الى صلاح الدين، وأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماه وأن تبقى بيده دمشق، ويكون فيها نائبا للملك الصالح بن نور الدين، وانمافعل ذلك صلاح الدين لقلة الجيش الذي معه بالنسبة لجيش هؤلاء، فامتنع من المصالحة الخادم كمشتكين الا ان يجعل لهم الرحبة التي بيد ابن عمه

ناصر الدين ابن أسد الدين شيركوه، فقال: ليس لي ذلك ولا أقدر عليه، فأبـوا الصلح وأقدمـوا على القتال، فجعل صلاح الـدين جيشه كـردوساً واحداً، وذلك يـوم الاحد التاسع عشر من شهر رمضـان عند قرون حماه، فصبر صبراً عظيماً، وجاءه في أثنـاء الحال ابن أخيـه تقي الـدين عمـر بن شاهنشـاه ومعه أخـوه فرخشـاه في طائفة مـن الجيش، وقـد ترجـح دسته عليهم وخلص رعبه إليهم، فانهزموا مدبـرين وغنم صلاح الدين وعسكره أمـوالهم، فأسر منهـم من أسر مـن رؤسائهـم، ونادى ان لايتبـع مدبـر، ولايذفف على جـريح، ثم أطلق من وقع في أسره، وسـار على الفور حتى نـازل حلـب، فـانعكـس عليهـم الحال، فبـالامـس كـان يطلـب منهـم المصالحة، واليـوم هم طلبوا منـه أن يكف عنهم ويسير عنهـم على أن له المعـرة وكفـر طاب وبـاريـن زيـادة على مابيـده مـن أراضي حماة وحمص وبعلبك مـع دمشق، فقبل منهم وكـف عنهم وحلف أن لايغزو بعـدها الملك الصـالح، وأن يدعـو له على سائر منابـر بلاده وممالكـه، وشفع في بني الـداية أخـوة مجد الديـن أن يخرجوا مـن السجن، ففعلـوا ذلك، ثـم رجـع مـؤيـدا منصـوراً، فلما وصـل الى حماه وصـل إليــه رسـل الخليفـة المستضيء بأمـر الله ومعـه الخلع السنية والتشريفـات العباسيـة، والاعلام السود وتوقيع من الديوان بـالسلطنة ببلاد مصر والشام، وأفيضت الخلع على أهلـه وأقـاربه وأصحـابـه وأصهـاره وأعـوانـه وانصاره، وكـان يـومـا مشهوداً، واستنـاب على حماه ابن خـاله وصهره ابـن الامير شهاب الـدين محمود، ثم سار الى حمص فاطلقها لابن عمـه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، كما كانت لأبيه من قبل، ثم الى بعلبك، ثم الى البقاع، ثم الى دمشق في ذي القعدة من هذه السنة.

وفي المرآة : لما دخل السلطان صـلاح الدين دمشق في مجيئـه من مصر التقـاه أهل دمشـق بـأسرهم، ونثـروا عليـه الدراهـم والـدنانير، وأحسـن صلاح الـدين إلى ابـن المقدم والقـاضي ابن الشهـرزوري، ومشى إلى دار كمال الـدين فـانـزعج وخـرج إلى لقـائه، ودخل صـلاح الـدين فجلـس

وباسطه وقال: ياكمال الدين لما كنت في الشحنكية قد كانت بيننا هنات ومشاحنات، وكان كمال الدين يكرهه وكان كل واحد منهما ينقض على الآخر أحكامه، فقال له صلاح الدين: مامشيت إليك إلا لأزيل مافي خاطرك من الوهم وأعرفك أن مافي قلبي لك ماتكره، فطب نفساً وقر عيناً، فالامر أمرك، والبلد بلدك.

وأكثر الشعراء في أخذ صلاح الدين دمشق، ثم كتب إلى الملك الصالح كتاباً تواضع فيه له، وخاطبه بمولانا ابن مولانا، ويقول: إنما جئت من مصر خدمة لأؤدي مايجب من حقوق المرحوم، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك وتختل أمورك وماقصدي إلا جمع كلمة الاسلام على الافرنج، فعرض كتابه على أرباب دولته وفيهم خالد بن محمد بن القيسراني وغلمان أبيه وابن العجمي، فأشاروا عليه بأن يكاتبه بالغلظة، فكتب إليه ينكر عليه وينسبه إلى كفر النعمة وجحد احسان والده، ووعده وتهدده، وبعث بالكتاب ينال بن حسان صاحب منبج، فأغلظ لصلاح الدين الجواب وقال: السيوف التي ملكتك مصر هي التي تردك، وأشار إلى سيفه، فغضب صلاح الدين وقال: والله لولا أنك رسول لضربت عنقك، والله ماجئت إلى هاهنا شرها ولاطمعاً في الدنيا وفي مصر كفاية، وإنما جئت لاستنقذ هذا الصبي من يد مثلك وأمثالك، فأنتم سبب زوال دولته، ثم طرده بغير جواب، فعاد إلى حلب، واستناب صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين، وسار إلى حمص فأخذها، وفتح حماه، وسار إلى حلب فاستعانوا عليه بالاسماعيلية وأعطوهم مالاً وضياعاً، فأرسلوا إليه جماعة من فتاكهم، ورآهم ناصر الدين خمار تكين صاحب أبي قبيس، فعرفهم لانه كان مثاغراً لهم، وأنكر عليهم مجيئهم، وسبق إلى خيمة صلاح الدين ليخبره فأدركوه على باب الخيمة، ثم أرادوا الهجوم على صلاح الدين، وكان أمير جندار سيف الدين طغرل هناك، فجذب سيفه وقتل واحداً منهم، واجتمع الغلمان على الباقين فقتلوهم، ورحل صلاح الدين عن حلب في

أول رجب وجاء إلى حمص، ثم نازل بعلبك فأخذها في رمضان من الخادم يمن الريحاني، ووصل عسكر الموصل إلى حلب وانضاف إليهم عسكر حلب، ونزلوا على تل السلطان، فساق عليهم صلاح الدين وبغتهم، وكان مقدمهم عز الدين مسعود أخو سيف الدين غازي، فكسرهم كسرة عظيمة وانهزموا إلى حلب، وغنم أثقالهم، وأسر أبطالهم، وجاء فحصر حلب وهذه هي المرة الثانية من حصار حلب، والمرة الاولى من كسرة المواصلة، ورجع صلاح الدين فنزل بارين، وأخذها من ابن الزعفراني، وكان من أكابر أمراء نور الدين، ولقبه فخر الدين واسمه مسعود، واعطى مدينة حماة لخاله وقيل لابن خاله وصهره ابن شهاب الدين محمود، وأعطى حمص لناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد السلطان الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين من الموصل، واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه، وقيل ان ابن المقدم كتب إلى السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والاحسان، وعفى آثار الظلم والعدوان، وأبطل ماكان الولاة استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب المحرمات(١٩).

وقال صاحب الروضتين: وكان قد كتاب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها:

تهن أطول الملوك يدا
في بسط عدل وسطوة وندا

لاتستقـــل الـــذي صنعـــت فقـــد
قمـــت بفـــرض الجهـــاد مجتهـــدا
وجســـت أرض العـــدا وأفنيـــت مـــن
أبطـــالهم مـــا يجاوز العـــددا
ومـــا رأينـــا غـــزا الفـــرنـــج مـــن الـــ
ـــملوك في عقـــر دارهـــم أحـــدا
فسر إلى الشـــام فـــالملائكـــة
الابـــرار يلقـــاك جمعهـــم مـــددا
فهـــو فقير إليـــك يـــأمـــل أن
يصلـــح بـــالعـــدل منـــه مـــا فســـدا
واللـــه يعطيـــك فيـــه عـــاقبـــة النصر
كما في كتـــابـــه وعـــدا
فما حبـــاك الـــورى وألهمـــك العـــدل
وأعطـــاك مـــا ملكـــت ســـدى

ومدح وحيش الاسـدي صلاح الدين عند أخـذه دمشق بقصيدة أولها هو قوله:

قـــد جـــاءك النصر والتـــوفيـــق فـــاصطحبـــا
فكـــن لأضعـــاف هـــذا النصر مـــرتقبـــا
للـــه أنـــت صـــلاح الـــديـــن مـــن أســـد
أدنـــى فـــريســـة الايـــام إن وثبـــا
رأيـــت جلـــق بعـــز لا نظير لـــه
فجئتهـــا عـــامـــراً منهـــا الـــذي خـــربـــا
نـــادتـــك بـــالـــذل لما قـــل نـــاصرهـــا
وأرفـــع الخلـــق مـــن أوطـــانها هـــربـــا
أحييهـــا مثلما أحييـــت مصر فقـــد
أعـــدت مـــن عـــدلها مـــا كـــان قـــد ذهبـــا
هـــذا الـــذي نصر الاســـلام فـــاتضحـــت
سبلـــه وأهـــان الكفـــر والصلبـــا

ويـــوم شـــاور والايمان قـــد هـــزمـــت
جيـوشـــه كـــان فيـــه الجحفـــل اللجبـــا
ويـــوم دميـــاط والاسكنـــدريـــة قـــد
أصـــارهـــم مثـــلاً في الارض قـــد ضربـــا
والشـــام لـــو لم يـــدارك أهلـــه انـــدرســـت
آثـــــاره وعفـــت آيـــــاتـــــه حقبـــــا

ولما نزل السلطان صلاح الدين على حلب أشير على ابن نور الدين أن يجمع أهل حلب في الميدان، ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بلسانه أنهم الوزر والملجأ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس، فنزل الصالح من باب الدرجة، وصعد من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: ياأهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم، واللاجىء إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الاب وشابكم عندي بمنزل الاخ، وصغيركم عندي حل محل الولد، وخنقته العبرة، وسبقته الدمعة وعلا نشيجه، فافتتن الناس، وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك، وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه، وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أن يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على عادتهم القديمة، وأن يجهروا بحي على خير العمل، والاذان والتذكير في الاسواق وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكون عقود الانكحة الى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، وأن تكون العصبية مرتفعة، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان أبطله نور الدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

وقال ابن أبي طي: فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحي على خير العمل، وصلى أبي في الشرقية مسبلاً، وصلى وجوه الحلبيين خلفه، وذكروا

في الأسواق، وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر، وصلوا على الاموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الامامية إليه وفعلوا جميع ماوقعت الايمان عليه.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن السلطان صلاح الدين استخدم في هذه السنة العماد الكاتب، وسببه أنه التقى القاضي الفاضل على حمص ومدحه بأبيات من الشعر، فدخل الفاضل على صلاح الدين وقال له: غدا تأتيك تراجم الاعاجم ومايحلها مثل العماد، فقال: مالي عنك مندوحة، أنت كاتبي ووزيري، وقد رأيت على وجهك البركة، فإذا اسكتبت غيرك تحدث الناس، فقال الفاضل: هذا يحل التراجم، وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك فإذا غبت قام مقامي فاستكتبه.

وقال العماد: وأول ماأهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان من هذه السنة بقصيدة منها قوله:

عاينت طودسكينة ورأيت شمـ ... ـس فضيلة ووردت بحر فواضل

ورأيت سحبان البلاغة ساحبا ... ببيانه ذيل الفخار كوائل

أبصرت قساً في الفصاحة معجزاً ... فعرفت أني في فكاهة باقل

حلف الحصافة والفصاحة والسما ... حة والحماسة والتقى والنائل

بحر من الفضل الغزير خضمه ... طامي العباب وماله من ساحل

وجميع مافي الارض سبعة أبحر ... وبحوره تسمى بعشر أنامل

في كفه قلم يعجل جريه
ما كان من أجل ورزق آجل

الأبيات:

ومنها أن أخا السلطان المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وصل من اليمن الى دمشق وأقام بها مدة، ثم حضر الى الديار المصرية.

ومنها أن في غيبة صلاح الدين بالشام اجتمعت بالقاهرة طائفة من جند الارمن والاسماعيلية وجند المصريين، وغلمان العادل أبي بكر، ونادوا بشعار أبي طاهر بن العاضد، فلما سمع العادل بذلك أوقع بهم وقتل منهم جماعة، واعتقل جماعة، ونفى آخرين، وكان الذي حملهم على ذلك الشريف ابن هانىء...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين مقيم بمرج الصفر، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة، فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم السلطان أموراً فالتزموها، وكان الشام ذلك العام جدباً، فأذن السلطان للعساكر المصرية بالرحيل إلى بلادهم، وإذا استغلوا خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل، واعتمد على العماد فيما كان بصدده، وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل، وعلى الصيد ومدحه العماد بقصيدة منها:

سواك لسهم العلى لن يريشا
فنسأل رب العلى أن تعيشا

من الناس بالبر صدت الكرام
وبالباس في البر صدت الوحوشا

وكم سرت من مصر نحو العريش
فهدمت للمشركين العروشا
سراياك تبعث قدامها
من الرعب نحو الاعادي جيوشا
ويوم حماة تركت العداة
كما طيرت بالفلا الريح ريشا

ذكر الحرب بين السلطان صلاح الدين وبين غازي بن مودود صاحب الموصل

وأصل ذلك أن غازي هذا الذي هو ابن أخي نور الدين كتب إلى جماعة الحلبيين يلومهم على ماوقع بينهم وبين السلطان صلاح الدين من المصالحة، وأرسل رسولاً إلى صلاح الدين، ودفع له كتابين: أحدهما إلى صلاح الدين ليأخذ منه عهدا للمواصلة ويكشف ماعنده، والكتاب الثاني إلى الحلبيين يلومهم على الصلح ويخبرهم أنه واصل بعساكر الشرق، ولما دخل الرسول على صلاح الدين غلط ودفع كتاب الحلبيين إليه، وذلك لسعادة صلاح الدين، فتأمله صلاح الدين وعلم أن الرسول غلط، فلم يقل له شيئاً، وفهم الرسول، فقام وخرج من عنده ولم يمكنه الاستدراك، وكتب صلاح الدين إلى مصر إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بتجهيز العساكر المصرية إلى الشام بسرعة، وجمع غازي العساكر من الجزيرة، وكان أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار عاصياً عليه، مائلا لصلاح الدين، فصالحه، وكان أخوه عز الدين مسعود وعسكره انهزموا في العام الماضي، لما التقوا بصلاح الدين — كما ذكرناه - فصالح غازي فاجتمع معه عسكر كثير، عدته ستة آلاف فارس، وسار إلى نصيبين في ربيع الاول، وأقام بها حتى انقضى الشتاء، فضجر العسكر وفنيت نفقاتهم، فصار العود الى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر، ثم سار الى حلب والتقاه الملك الصالح بن نور الدين، فاعتنقه

سيف الـدين غـازي، وبكى ونزل بظـاهر حلـب بعين المباركـة، وصعد القلعة جريدة، وكان أمراء حلب يركبون كل يوم الى خدمته.

وفي تاريخ النويري: وكان غازي في عشريـن ألف مقاتل، ثم رحل إلى تل السلطان، ومعه هؤلاء العساكـر: عسكر الشرق، وديار بكر، والحلبيون، وبلغ صلاح الديـن وهو بدمشق، ولم يكن عنده سـوى ستة آلاف فارس، كذا في المرآة.

وفي تاريـخ النويري: وسـار صلاح الدين نحـوهم ومعه ألـف فارس، ولكـن الجيوش قـد خرجـت من الـديار المصريـة وفي جحافـل كالجبـال ووصـل الى حماة، ونزل بها، وتـرك أثقـالـه بها، وساق الى جبـاب التركمان، وجاءه رسول الحلبيين بأنهم يخوفونه بأسهم، ويـأمرونه بالرجوع إلى أن قال رسولهم: فـوافيته وهو في خيمـة صغيرة، وهو على بساط، وتحتـه سجادة، وبين يديـه مصحف وهو مستقبل القبلـة، وإلى جانبه زرديتـه وسيفه بين يديـه، وقوسـه وتركـاشه معلـق في عمود الخيمـة، قال: فلما رأيتـه وقع في خاطري أنـه المنصور، لأني فارقت سيـف الدين غازي والأمـراء وهم على طنافـس الحرير والخمور تـروق وليس في خيـامهم خيمة الا وفيهـا أنواع المحـرمات، فـأديت إليـه الـرسالـة، وجـاء وقت الظهـر فضج العسكـر لصوت الاذان، وفي كل خيمـة إمام، فقال لي: الحق بأصحـابك وقل لهم يستعدون للقائي فإني عند طلوع الشمـس نازل عليهم و﴿يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ [الاعراف ٨٧].

قال: ففارقته وأنا على بصيرة من نصرته وخذلانهم، وسقت عامة الليل فوافيتهـم وقت الفجر وهـم سكارى، فطلبت سيـف الدين غـازي فقيل لي: هو نائم، قـال: فوالله ماانبسطـت الشمس الا واعلام صلاح الـدين قد أقبلـت والكوسات تخفـق وأصحابنا نيـام، فقاموا مسرعين، وكـان يوم الخميس العـاشر من شوال، وكـانت مـلاقاتهم على تل السلطـان، وكان

على ميمنةِ السلطان صلاح الدين ابن خاله شهاب الدين محمود، وعلى ميسرته صاحب بصرى، وهو في القلب، وكان في ميمنة المواصلة مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، وعلى ميسرتهم الحلبيون وسيف الدين غازي في القلب.

وفي المرآة: وكان صلاح الدين قد وقف على تل عال فحمل ابن زين الدين فطحن ميسرة صلاح الدين، وحمل الحلبيون على ميمنته فتعتغوها، ونزل صلاح الدين من التل، ورأى أن يباشر الامر بنفسه، وإلا اختل الامر، فساق عليهم، واتفق وصول العساكر المصرية في تلك ا لساعة مع تقي الدين عمر، وعز الدين فرخشاه، وناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، فهال ذلك الحلبيين من دق الكوسات وحسن الاطلاب، والعدد الوافرة، والخيل العربية، فانخذلوا وولوا منهزمين.

وفي تاريخ النويري: وحمل السلطان صلاح الدين بنفسه الكريمة، فكانت باذن الله الهزيمة، فقتلوا من الحلبيين والمواصلة خلقاً، وأخذت مضارب سيف الدين غازي وحواصله وأسر جماعة من رؤوسهم، فأطلقهم السلطان بعد أن خلع عليهم، وقد كانوا استعانوا بجماعة من الافرنج في حال القتال، وليس هذا من صنيع الصناديد.

وفي تاريخ بيبرس: وكان غازي قد سبق، ووصل صلاح الدين وقت العصر، وقد تعب هووأصحابه وعطشوا، فألقوا نفوسهم على الارض ليس فيهم حركة، وأشار على غازي جماعة من أصحابه بقتالهم في تلك الساعة، فتأخر إلى الغد، فلما التقوا من الغد انكسر عسكر سيف الدين ورجع إلى حلب، ولم يقتل من الفريقين مع كثرتهم سوى رجل واحد، وترك سيف الدين أخاه عز الدين مسعود بحلب، وسار إلى الموصل وهويظن أنه لاينجو، وأن صلاح الدين يعبر الفرات إليه ويقصده بالموصل، فاستشار وزيره في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة الحميدية

فمنعه من ذلك، وثبت قلبه، وعزل عز الدين عن إمارة العسكر، واستعمل مكانه مجاهد الدين قايماز.

وفي تاريخ النويري وغيره: ووجد السلطان صلاح الدين في مخيم غازي شيئا من الاقفاص التي فيها الطيور المطربة وذلك في مجلس شرابه، وكيف ينصر من كان هذا مسلكه، ومذهبه، فأمر صلاح الدين بردها عليه وقال للرسول: قل له: اشتغالك بهذه الطيور أحب إليك من الوقوع فيما رأيت من المحذور، وغنم السلطان من أموالهم شيئا كثيرا، ففرقه على أصحابه وأنعم بخيمة الملك سيف الدين غازي على ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، ورد وطاقه من الجواري والمغنيات، وقد كان معه أكثر من مائة مغنية، ورد الاقفاص وآلات اللعب الى حلب، وقال: قولوا له: هذه أحب إليك من الحرب، ووجد عسكر المواصلة كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والملاهي.

وفي المرآة: ولما انهزم غازي ومن معه ساق صلاح الدين وراءهم وأسر أمراءهم، ونجا غازي بنفسه، وعاد صلاح الدين إلى خيامهم، فوجد سرادق سيف الدين غازي مفروشا بالرياحين والمغاني جلوس في انتظاره، والخمور تروق، ومطابخه بقدورها، وفيه أقفاص الطيور فيها أنواع من القماري والبلابل والهزارات، ثم فرق صلاح الدين الخزائن والخيل والخيام على أصحابه، وأعطى عز الدين فرخشاه سرادق سيف الدين، وكان عز الدين قد أبلى في ذلك اليوم بلاءا حسناً.

ذكر ماجرى لصلاح الدين بعد انتصاره:

قال النويري: لما رجع الحلبيون الى حلب وهم منهزمون ندموا على نقضهم الايمان، ومخالفتهم لطاعة الرحمن، وشقهم العصا على السلطان، وتحصنوا بالبلد خوفاً من وثوب الاسد ابن أخي الاسد، وأسرع صاحب

الموصل فوصلها وماصدق حتى دخلها، وأما السلطان صلاح الدين فإنه لما فرغ من قسمة ماغنم أسرع المسير إلى حلب، فوجدهم قد حصنوها والقلعة قد أحكموها، فقال: من المصلحة أن نبادر إلى فتح الحصون التي حول البلد، ثم نعود إليهم فلا يمتنع علينا أحد منهم، فشرع يفتح الحصون حصنا حصنا ويهدم من أركان دولتهم ركنا ركنا، ففتح بزاعة ثم سار إلى أعزاز، فأرسل الحلبيون إلى سنان مقدم الفداوية، فأرسل جماعة من أصحابه ليقتلوا صلاح الدين، فدخلت طائفة منهم في زي الجند، فقاتلوا أشد القتال حتى اختلطوا بهم، ثم وجدوا فرصة ذات يوم والسلطان ظاهر للناس فحمل عليه واحد منهم فضربه بالسكين على رأسه، فإذا هي باللامة فسلمه الله، غير أن السكين مرت على خده فجرحته جرحاً هيناً، ثم أخذ الفداوي رأس السلطان ليذبحه، ومن حوله قد أخذتهم دهشة، ثم ثاب إليهم عقلهم فبادروا إلى الفداوي فقتلوه وقطعوا رأسه، ثم هجم آخر في الساعة الراهنة على السلطان فقتل ثم هجم آخر على بعض الامراء فقتل أيضاً، وهرب الرابع فأدرك فقتل، وبطل القتال ذلك اليوم، ثم صمم السلطان على البلد ففتحه وأقطعه ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وقد اشتد حنقه على أهل حلب لما أرسلوا من الفداوية، وجاء فنزل تجاه البلد على جبل جوشن، وضرب خيمته على رأس الياروقية وذلك في خامس عشر ذي الحجة من هذه السنة، وجبى الأموال وأخذ الخراج من القرى ومنع أن يدخل البلد شيء أو يخرج منها شيء واستمر حصاره، إياها حتى انسلخت هذه السنة.

وفي تاريخ بيبرس: لما انهزم غازي وغنم صلاح الدين وعسكره ثقله وثقل عسكره، سير طائفة إلى بزاعة فحصروها وقاتلوا من بها وأخذوها، ورتب بها من يحفظها، وسار إلى منبج فملكها عنوة وأخذ صاحبها أسيراً، وكان بينه وبين صلاح الدين عداوة قديمة، وهوقطب الدين ينال ابن حسان المنبجي، ثم أطلقه فسار إلى الموصل فأقطعه سيف الدين

غازي الرقة، ثم دخل إلى أعزاز فنازلها وحصرها وهي من أحصن القلاع، وقتل عليها كثير من العسكر، ثم ذكر حكاية الفداوية كما ذكرناها.

وفي المرآة: لما نزل صلاح الدين على منبج وبها قطب الدين ينال بن حسان، فقاتله واتفق وقوع ثلمة في السور، فطلب الامان لنفسه، فآمنه فخرج سليباً وأخذ صلاح الدين من الحصن ثلاثمائة ألف دينار، وعرض عليه المقام عنده فامتنع، وسار الى صاحب الموصل، كما ذكرناه، ثم سار السلطان ففتح حصن بزاعة، ثم نازل أعزاز فأقام عليها ثمانية وعشرين يوماً، وفتحه في ذي الحجة من هذه السنة.

وفي تاريخ الدولتين: وهنأ العماد الكاتب السلطان بقصيدة منها:

فالحمد لله الذي أفضاله
حلو الجنا على السنا وضاحه

عاد العدو بظلمه في ظلمة
في ليلة ويل قد خبا مصباحه

وجنى عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهيض جناحه

حمل السلاح الى القتال وما درى
أن الذي يجني عليه سلاحه

وقال: وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة يد بيضاء.

وقال العماد: نظمت قصيدة والابيات منها:

نصر أنار لملككم برهانه
وعلا لذلة شانيكم شانه

ما أسعد الاسلام وهو مظفر
وأبو المظفر يوسف سلطانه

الملك مرفوع لكم مقداره
والعدل موضوع بكم ميزانه

والـــدهـــر يـــأتي بغير مـــرادكـــم
فعلى القضـــاء لأجلكـــم جـــريـــانـــه

فكـــأنما اللـــه في أحكـــامـــه
فلـــك على ايثـــاركـــم دورانـــه

فخـــراً بنـــي أيـــوب إن فخـــاركـــم
بـــذ الملـــوك الســـابقين رهـــانـــه

يكفـــي حســـودكـــم اعتقـــالاهمه
فكـــأنما أشجـــانـــه أشجـــانـــه

الـــديـــن عـــز الـــديـــن عـــز بنصركـــم
والكفـــر ذل بعـــونكـــم أعـــوانـــه

قـــد كـــان جيشهـــم كبحـــر زاخـــر
والـــلابســـون جـــواشنـــا حيتـــانـــه

الأبيات:

وقال العماد أيضاً في فتح منبج قصيدة منها قوله:

نـــــزولـــــك في منبـــــج
على الظفـــــر المبهـــــج

ونجحـــــك في المرتجي
وفتحـــــك للمـــــرتـــــج

دليـــــل علـــــى نجـــــح مـــــا
تحاول أو تـــــرتجي

أمـــــورك فيما تـــــروم
واضحـــــة المنهـــــج

وشـــانيـــك دامـــي الشـــؤ
ون منـــك شقـــي شجـــي

وقال ابن أبي طي: لما ملك السلطان منبـج وتسلم الحصن صعد إليه، وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره، فكان في جملة أمواله

ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ماناهز ألفي ألف دينار، فحان من السلطان التفاته فرأى مكتوباً على الاكياس والآنية يوسف، فقيل له ولد يؤثره ويحبه اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له، فقال السلطان: أنا يوسف، وقد أخذت ماخبىء لي، فتعجب من ذلك.

وقال العماد أيضاً قصيدة في فتح أعزاز منها:

أعطاه رب العالمين دولة
عزة أهل الدين في اعزازها
حاز العلى ببأسه وجوده
وهو أحق الخلق باحتيازها

إلى أن قال:

تهن من فتح عزاز نصرة
أوقعت العداة في اعتزازها
واليوم ذلت حلب فإنها
كانت تنال العز من عزازها
وحلب تنفي كمشتكينها
كما انتفت بغداد من قيمازها

ذكر بقية الحوادث:

منها: أنه في رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من اليمن إلى الشام وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر وأعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام وأمره أن يكون في وجه الفرنج، لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج على عادتهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين صاحب مصر والشام محاصر لحلب، وقد ضجر الناس من طول الحصار، فترددت الرسل بينهم، وتقررت القاعدة بين صلاح الدين والملك الصالح ابن نور الدين، وسيف الدين غازي صاحب الموصل، وصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين، وتحالفوا أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين قد أشرف على أخذ حلب فسألوه الصلح فصالحهم على أن تكون حلب وعملها للملك الصالح بن نور الدين فقط، وكتب بذلك الكتاب، فلما كان المساء بعث الملك الصالح إلى صلاح الدين يسأل منه زيادة قلعة عزاز، وأرسل بأخت له صغيرة وهي الخاتون بنت نور الدين ليكون ذلك أدعى إلى قبول السلطان سؤاله، فحين رآها صلاح الدين قام قائماً وقبل الارض وأجابها إلى سؤالها، وأطلق لها من الجواهر والتحف شيئا كثيرا.

ذكر رحيل صلاح الدين عن حلب:

ولما تعاقدوا على ماذكرنا رحل صلاح الدين عن حلب يوم الجمعة لعشربقين من المحرم، وقصد بلد الاسماعيلية الذين اعتدوا عليه، فحاصر حصنهم مصيات، فقتل وخرب وسبى حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، لأنهم جيرانه، فقبل شفاعته، وقد أحضر إليه نائب بعلبك الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، الذي كان نائب دمشق جماعة من أسارى الافرنج الذين عاثوا بالبقاع في غيبة السلطان واشتغاله بحصار مصيات، فجدد

له العـزم على غزو الافـرنج، فصالـح الاسماعيلية أصحـاب سنان ثـم كر راجعاً إلى دمشق.

وفي تاريخ الدولتين: وكان الأسرى أكثر مـن مائتي أسير، وقال ابن أبي طـي: وكـان أكبر الـدواعـي في مصـالحة صـلاح الـديـن لسنـان مقـدم الاسماعيلية وخـروجه من بـلادهم خوفه مـن الفرنج أن يهيجـوا في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فـربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالـح سنانا وعاد إلى دمشق.

وقال العماد: وكان خرج شمس الدولـة أخو السلطان من دمشق حين سمـع أن الافرنـج على الخروج، وباسطهـم عند عين الجر في تلـك المروج، ووقع مـن أصحابـه عدة في الاسار منهـم سيف الديـن أبو بكـر السلار، ووصل السلطـان إلى حماه واجتمع فيها بـأخيه شمـس الدولة ثـاني صفر وهـو أول لقائه بعـدمـا أزمع عنـه إلى اليمن السفـر، وتعـانق الاخـوان في المخيم بـالميدان...... قال: ثم سرنـا إلى دمشق ووصلنا إليها سـابع عشر صفر، وفـوض ملك دمشق إلى أخيـه الملك المعظـم شمس الدولـة، وعزم إلى مصر السفر... وفي هـذا الشهر تـزوج صلاح الـدين بـالست خـاتون عصمة الـدين بنـت معين الديـن أنر، وكـانت زوجـة الملك نـور الديـن الشهيد رحمه اللـه، فأقامـت بعده في القلعة محترمـة مكرمة، وولي تـزويجها منه أخـوها الامير سعـد الديـن مسعود بـن أنر، وحضر القـاضي ابن أبي عصرون العقـد ومعه جماعـة من العـدول، وبـات السلطان عنـدها تلـك الليلة والليلة التي بعدها ثم سافر إلى مصر بعد يومين من الدخول بها.

ذكر توجه صلاح الدين من دمشق إلى مصر:

خرج من دمشق يوم الجمعة الرابـع من ربيع الأول، ونزل بمرج الصفر ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين.

ذكر دخول صلاح الدين القاهرة:

دخل السلطان صلاح الدين القاهرة يوم السبت السادس عشر من ربيع الأول، وتلقاه أخوه الملك العادل سيف الدين إلى عند بحر القلزم ومعه من الهدايا والتحف شيء كثير، ولاسيما من المآكل المتنوعة.

ذكر ماصدر من صلاح الدين بعد دخوله القاهرة:

من ذلك أنه أمر ببيع الكتب في القصر كل اسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وكانت كتب كثيرة جداً، قالوا إنها كانت أكثر من مائة ألف مجلد، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار مايشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلداً، وكانت خزائن مملوءة بها في القصر، وكان الحاكم على القصر ومتولي أموره الأمير بهاء الدين قراقوش، ولما حضرت الناس للشراء، كان الدلالون يخرجون عشرة من كل فن، كتباً مميزة وتباع بالهون، وتسام بالدون، وربما كان دلال يشارك مع واحد فتقوم عنده بعشرة ثم بعد ذلك يبيعونه بمائة.

قال العماد: ولما رأيت الامر حضرت واشتريت كما اشتروا، واستكثرت من ذلك، ولما عرف السلطان بذلك، وكان بمئين، أنعم بها عليّ، وأبرأ ذمتي من ثمنها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ماعينت عليه من كتبها، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر في بعضها، وقال: كنت طلبت كتباً عينتها، فهل في هذه منها شيء؟ فقلت كلها وما استغني عنها فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا بالنسبة إلى جوده أقل نوال.

ومن ذلك أنه أمر ببناء سور على مصر والقاهرة، ودور السور تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة ذراع بالهاشمي.

وفي تاريخ الدولتين: ولما تملك السلطان مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لايمنعها، وقال: إن أفردت كل واحدة بسور أحتاج إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم.

وقال العماد: ومبلغ السور وهو دائر بالبلدين: مصر والقاهرة، بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان، من ذلك مابين قلعة المقسم على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبراجه وأبدانه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع الهاشمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل وقطع الخندق وحفر واديه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها، ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع، والعمارة مستمرة، ووظائف نفقاتها مستدرة.

ومن ذلك أن السلطان رحمه الله أمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها، وتولاه الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وأمر أيضاً باتخاذ دار في القصر بيمارستاناً للمرضى ووقف على المدرسة والبيمارستان وقوفاً كثيرة.

- ١١٢١٤ -

ذكر خروج صلاح الدين إلى الاسكندرية:

ثم إن السلطان صلاح الدين خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب معه ولديه الافضل عليا والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دمياط فأقام بظاهرها يومين، ثم وصل إلى ثغر الاسكندرية.

قال العماد: وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد ابن محمد السلفي، وسمعنا عليه ثلاثة أيام :الخميس والجمعة والسبت رابع عشر شهر رمضان. قال: وشاهدنا مااستجده السلطان من السور الدائر ومانصرفنا حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

وقال ابن أبي طي: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها، رأى ان لايخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد اخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الاسطول وجمع له الأخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد مايحتاج الاسطول إليه، وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له اقطاعا مخصوصا وديوانا مفردا، وكتب الى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الاسطول وأن لايمنع من أخذ رجاله ومايحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لايبارح البحر، ويُغزى إلى جزائر البحر.

ذكر مجيء الرسل إلى صلاح الدين:

وفيها وصلت الرسل إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب، وهم رسول سيف الدين صاحب الموصل، ورسول صاحب حصن كيفا، ورسول صاحب ماردين، فأولا جاءوا الى دمشق فاستوثقوا

بتحليف أخي السلطان صلاح الدين وهوشمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب الحصن في الأسر.

وقال ابن أبي طي: وصل رسول صاحب الموصل القاضي عماد الدين ابن كمال الدين الشهر زوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه وأكرمه السلطان واحترمه وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان، ورسول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق وخرجوا إلى السلطان بمصر فاعترضهم الفرنج، وأسر رسول صاحب الحصن ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان فأطلقه وأحسن إليه.

ذكر خروج صلاح الدين إلى مرج فاقوس من أعمال مصر:

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لارهاب العدو، وهو يركب للصيد والقنص، ويتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص.

وقال في الخريدة : كنا مخيمين على مرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية تسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدة من وصل في قيد الاسار، وسنذكر خروجه في الغزاة في السنة الآتية إن شاء الله.

وفي هذه السنة أبطل صلاح الدين الذي كان يؤخذ من الحج بجده مما يحمل في البحر، وعوض صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانية آلاف اردب قمحا تحمل إليه في البحر ويحمل مثلها فتفرق في أهل الحرمين.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن صاحب المرآة ذكر أن في هذه السنة كانت نوبة الكنز مقدم

السودان بالصعيد، جمع كل أسود بالصعيد، وسار إلى القاهرة في مائة ألف ليعيد الدولة المصرية، فخرج إليه الملك العادل سيف الدين أبو بكر، وأبو الهيجاء الهكاري، وعز الدين موسك، والتقوا فقتل الكنز ومن معه، ويقال إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً، وعادوا إلى القاهرة.

ومنها ماذكره في المرآة أنه خرج الفرنج إلى بقاع بعلبك، وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بها، فخرج وكمن لهم في الشعاري والغياض وأوقع بهم وقتل وأسر نحو مائتي رجل.

ومنها أن الروم قصدت بلاد قليج أرسلان بن مسعود في جمع من الحشود فالتقاهم وكسرهم وقتل منهم جماعة وأسر أسرى كثيرين، وبعث برؤوس القتلى وببعض الأسرى إلى الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

ومنها أنه عصى شهاب الدين محمد بن نزار صاحب شهرزور على سيف الدين غازي، وكان في طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك أن مجاهد الدين قايماز كان متولي مدينة إربل، وكان بينه وبين ابن نزار عداوة فأرسل إليه وزير سيف الدين كتابا حسناً يأمره بالعود إلى الطاعة، والرجوع عن المخالفة والمعصية، فلما وصل الكتاب إليه بادر إلى الحضور للخدمة السيفية بالموصل فأوجب ماجرى من ابن نزار.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

قاضي القضاة الشهرزوري: أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله ابن أبي أحمد الشهرزوري، الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، قاضي القضاة بدمشق، وكان فاضلا ديناً أمينا ثقة ورعاً، ولي القضاء بدمشق لنور الدين محمود بن زنكي، واستوزره أيضاً فيما حكاه ابن الساعي، قال: وكان يبعثه في الرسائل، كتب مرة على أعلى القصة: محمد بن عبد

الله الرسول، فكتب الخليفة تحت ذلك: صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وقد فوض إليه نور الدين نظر الجامع ودار الضرب، وعمر له المارستان والمدارس وغير ذلك من الأمور.

وقال ابن خلكان: وكانت ولادته سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بالموصل، وتوفي يوم الخميس سادس المحرم من سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل قاسيون، وقال: ولما ملك صلاح الدين الشام أقره على ماكان عليه في أيام نور الدين، وكان شهماً جسوراً كثير الصدقة والمعروف، وقف أوقافا كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق، وبنى بالموصل مدرسة للشافعية ورباطاً بمدينة الرسول عليه السلام، وتولى القضاء بالموصل أيضاً وله نظم جيد، فمن ذلك قوله:

ولقد أتيتك والنجوم رواصد
والفجر وهم في ضمير المشرق
وركبت من أهوال كل عظيمة
شوقاً إليك لعلنا أن نلتقي

وفي المرآة: قدم بغداد وتفقه على أسعد الميهني بالنظامية، وسمع الحديث ببغداد والموصل، وكان رئيس أهل بيته، وولي القضاء بدمشق وحمص وحماة وحلب وجميع الشام في أيام نور الدين وكان إليه أمر المدارس والمساجد والاوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية، وكان صاحب القلم والسيف، وكانت شحنكية دمشق إليه، ولى فيها بعض غلمانه، ثم ولاها نور الدين لصلاح الدين، وكانت بينهما مضاغنة، وكل واحد منهما ينقض حكم الآخر، فلما كتب إليه صلاح الدين بأن يساعده على أخذ دمشق أعانه وفتح له أبوابها، فلما دخلها صلاح الدين مشى إلى دار كمال الدين، وطيب قلبه، وجاء إلى الشيخ أحمد والد الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وأحمد أول من سكن جبل قاسيون، فزاره ومعه ألف دينار، فدفعها للشيخ أحمد فامتنع من أخذها، فاشترى كمال

الـديـن قـريـة الهامـة بـوادي بـردى، ووقـف نصفهـا على الشيـخ أحمد والمقادسـة والنصف الآخـر على الاسارى، وهي بـاقية إلى هلـم جرا، ولما مرض كمال الديـن وهو بدمشق بلغ ابن أبي عصرون، وهـو بحلب، فقدم دمشق ودخل على القـاضي كما الدين وعانقه وبكيا، فلما تـوفي كمال الدين تـولى ابن أبي عصرون أمـره، وخـرج في جنازتـه ماشيـاً هـو وجميع الملـوك مشاه: سيـف الاسلام، وتقي الديـن عمر، وشمس الدولـة وغيرهم وصلى عليه بجامع دمشـق وحمل إلى قاسيون فدفن بسفحه قـريبا من الجادة عند مسجد البصار، ولم يكـن عنده من أولاده أحد، وإنما كان عنـده ابن أخيه ضياء الديـن أبو الفضائل، وكان كمال الـدين قد تصدق بجميـع ماكان عنده، وأوصى بمالـه ووقف أوقافا كثيرة على أبواب البر، وقيـل إنه لم يكن له كفن فكفن في احرامه، وأوصى بالقضـاء إلى ابن أخيه ضياء الدين مع وجود ولده، وكان لكمال الدين ولد اسمـه محمد بن عبد الله، ولقبه محيي الـدين، وكـان أبـوه ضياء الـدين قـاضيـا على حلب، وهـو تـاج الديـن الشهرزوري.

وفي تاريخ الدولتين: ولما مات كمال الدين كان عمره ثمانين سنة.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والسبعين بعد الخمسمائة

استهلـت هـذه السنـة والخليفـة هو المستضيء بـأمـر اللـه العبـاسي، والسلطان صلاح الديـن مخيم بمرج فاقوس ثم عـاد إلى القاهرة وأقام بها، ثـم قصد أنه يسير الى غزة وعسقلان.

ذكر غز وصلاح الدين عسقلان والرملة:

وفي جمادى الأولى سار السلطـان صلاح الـدين مـن مصر إلى سـاحـل الشام لغزو الافرنـج، فوصل الى عسقلان والرملة في الـرابع والعشرين من الشهـر فنهـب، وتفـرق عسكـره في الاغـارة، وبقـي السلطـان في بعـض

العسكر فلم يشعر الا بالافرنج قد طلعت عليهم، فقاتلهم، وكان لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد حسن الصورة لما بدت لحيته، فأمره أبوه تقي الدين بالحملة على الافرنج، فحمل عليهم وقاتلهم وأثر فيهم أثراً كبيراً، فعاد سالماً، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية، فحمل عليهم فقتل شهيدا، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الفرنج للسلطان، فمضى منهزما الى مصر على البرية ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديداً، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا تفرقوا للاغارة أسرى، وأسر للملك المظفر تقي الدين عمر ولده شاهنشاه، فبقي عندهم سبع سنين، وقتل ابنه الاخر كما ذكرنا، فحزن على المقتول والمفقود، وصبر تأسيا بأيوب وناح كما ناح داود، وكذلك أسر الفقيهان الاخوان: ضياء الدين عيسى وظهير الدين، وكانا من أكبر أصحاب السلطان صلاح الدين فافتداها السلطان بعد سنتين بسبعين ألف دينار، ووصل السلطان الى القاهرة في نصف جمادى الآخرة.

وفي المرآة: خرج صلاح الدين في جمادى الاخرة من مصر بالعساكر، ونزل على عسقلان، ثم نزل يريدتل الصافية، فازدحمت العساكر على الجسر تريد العبور، فلم يشعروا إلا وقد خالطهم الفرنج، فثبت تقي الدين عمر وقاتل ثم غلب، وقتل من المسلمين خلق كثير وانهزمت عساكر الاسلام، وأسر كثير منهم الفقيه عيسى وغيره، ولولا أن الليل حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد، وسار صلاح الدين في الليل إلى مصر من غير دليل ولاماء ولازاد، وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع، ونكب صلاح الدين نكبة شديدة وكاد يتلف جوعاً وعطشاً، ونهبت خزائنه وقتل رجاله وأسر أبطاله، وكان مقدم الفرنج أرناط، وكان من أكبر ملوك الافرنج، ومأتلف عسكر المسلمين الا انهم كانوا تفرقوا في الغارات، وكانوا زيادة على عشرين ألفاً، ووقعت الكسرة ومعظمهم لم يعلم، فلما رجعوا من الغارات لم يجدوا صلاح الدين، ولم يكن لهم

حصن يأوون إليه، فدخلوا الرمل وتبعهم الفرنج قتلا وأسرا، ومن سلم منهم مات جوعاً وعطشاً، وكان يوماً عظيماً على الاسلام لم يجبره الا وقعة حطين، ورجع أرناط بجمعه إلى حماه كما نذكره ان شاء الله الآن.

وقال ابن الأثير: كتب صلاح الدين بخط يده إلى أخيه تورانشاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة وفي أوله:

ذكرتك والخطي يخطر بيننا
وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ومانجانا الا الله سبحانه وتعالى منه، إلا لأمر يريد سبحانه(١٩)

ذكر حصر الفرنج حماه: وذلك أنه وصل من الفرنج كند كبير في البحر، فرأى صلاح الدين وقد عاد منهزماً إلى مصر فاغتنم خلو البلاد، وليس بها إلا شمس الدين تورانشاه بن أيوب نائبا عن أخيه، وليس عنده كثير من العسكر، فجمع الكند من بالشام من الفرنج، وفرق فيهم الأموال، وسار الى مدينة حماة وبها شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي خال صلاح الدين، وهو يومئذ مصاب بمرض شديد، وكانت طائفة من العسكر الصلاحي بالقرب منها، فدخلوا إليها وأغاثوا من بها، وقاتلوا الفرنج قتالا شديداً، ودخل الفرنج البلد، فاجتمع العسكر وأهل البلد وقاتلوهم حتى أزاحوهم منها وأخرجوهم إلى ظاهرها، فساروا الى حارم، واتفقت وفاة شهاب الدين الحارمي على مانذكره إن شاء الله تعالى.

قال العماد: ومن شرط هدنة الفرنج أنه متى جاء ملك من ملوكهم كبير لايمكنهم دفعه، فإنهم يقاتلون معه ويؤازرونه وينصرونه، فإذا انصرف عنهم عادت الهدنة كما كانت، فقصد هذا الملك وجملة الفرنج معه مدينة حماة وصاحبها شهاب الدين مريض، ونائب دمشق ومن معه

من الامـراء مشغولون بلـذاتهم فكادوا يأخذون البلـد، ولكن هزمهـم الله تعالى بعد أربعـة أيام، فانصرفوا إلى حصـن حارم فلم يتمكنوا مـن أخذه وكشفهم عنه الملك الصالح صاحـب حلب، وقد دفع إليهم من الأموال والأسارى ماطلبه الكفرة النصارى.

وقال العماد أيضـاً: ووصل في هذه السنة إلى السـاحل من البحـر كند كبير يقال له اقلندس أكبر طـواغيت الكفر، قلت: هذا هو الـذي ذكرناه الآن، الذي جرى منه ماجرى.

ذكر توجه صلاح الدين الى الشام:

لما سمع السلطـان بنزول الفـرنج على حـارم برز مـن الديـار المصرية قـاصـداً إلى بلاد الشـام لغـزو الفـرنـج، ونـزل في البركة حتـى خـرجـت العساكر، ورحـل من البركة يوم عيـد الفطر بعساكره، ووصـل إلى أيلة في عـاشر الشهـر، واستنـاب أخـاه بمصر الملـك العـادل، وأقـام بها أيضـاً القـاضي الفاضـل بنيـة الحج، وسافـر العماد معـه، ووصل السلطـان إلى دمشق في الـرابع والعشرين مـن شوال وبها أخـوه شمس الدولـة مشغولا بلذاتـه ولهوه، وكان قد بعـث إلى الفرنـج بمال مصانعة، فعـز على صلاح الديـن ولامه وقبـح فعله، وقـال: أنت مشغـول باللعـب وتضييع أمـوال المسلمين، وأقام صلاح الدين بدمشق.

ذكر قبض الملك الصالح صاحب حلب على كمشتكين مدبر دولته:

قـال العماد: وقعت المنـافسـة بين الحلبيين مدبـري الملـك الصالـح ، واستولى على أمـره العدل ابـن العجمي أبـو صالـح، وكان سعـد الديـن كمشتكين الخادم مقـدم العسكـر وأمير المعشر، وهـو صـاحـب حصـن حـارم، وقد حسـده أمثالـه مـن الأمراء والخدام فسلمـوا لابن العجمـي

الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه، واستقل كمشتكين بالأمر فتكلم فيه حساده، وقالوا للملك الصالح: ماقتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلا كمشتكين فهو الذي حسن ذلك للاسماعيلية، وقالوا له: أنت السلطان وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر، فما زالوا عليه حتى قبض عليه، وطالبوه بتسليم قلعة حارم، فكتب إلى نوابه بها وأبوا، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة وخوفوه بالصرعة، فلما طال أمره قصر عمره.

ونزل عليه الأفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين، وولى بها مملوكاً يقال له سرخك.

وقال ابن الأثير: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين، فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم، فلم يجب إلى ما طلب منه، فعلقوه منكوساً ودخن تحت أنفه، فمات، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها، ثم إنه أخذها بعد ذلك.

قال ابن شداد: أما الملك الصالح فإنه تخبط أمره، وقبض على كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقاتل عسكر الملك الصالح العساكر الأفرنجية، ولما رأى أهل القلعة حصرها من جانب الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأخير من رمضان، ولما عرف الفرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم، ثم عاد الصالح إلى حلب، ولم يزل أصحابه على الاختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان صلاح الدين رحمه الله.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أنه اجتمعت طائفة من الافرنج وقصدوا أعمال حمص، فقتلوا

وأسروا وسبوا، فسار ناصر الدين محمـد بن شيركوه إليهم وسبقهم ووقف على طريقهـم مكمنا لهم، فلما وصلوا خـرج عليهم هـو والكمين، ووضع السيف فيهم، فقتل أكثرهم، ومـن سلم منهم لم يفلت إلا مثخنا بالجراح واسترجع منهم جميع ماأخذوه، ورده على أصحابه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير شهاب الديـن محمود بن تكش الحارمي خـال السلطان صلاح الديـن يوسف بـن أيوب، كان من خيـار الامراء وشجعانهم، وقـد أقطعه ابـن أخته حماه حين فتحهـا، وقـد حـاصره الفرنـج هنـاك وهـو مريـض، وكـادوا يأخـذون البلد ولكـن هـزمهم اللـه بعـد أربعة أيـام كما ذكرنـا، فانصرفوا خائبين، وتوفي شهاب المذكـور بعد ذلك في هذه السنة، وأعطى صلاح الدين حماه لناصر الديـن منكورس بن خمارتكين صاحب صهيون، وقيل إنما أعطـاها لتقي الـدين عمر، وكـان ناصر الديـن نائباً عنـه والله أعلم.

كمشتكين الخادم، خادم نور الـدين محمود بن زنكي، وكان مـن أكابر خدامه ولاه قلعة الموصل نيابه عنـه، فلما مات نور الدين هرب إلى حلب، وأقطعه الملك الصـالح حارم، وأقام بها وعصى عليـه، فلما حصره الفرنج صالحه كما ذكرناه، ثم قتله الملك الصالح كما ذكرناه.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلـت هـذه السنة والخليفـة هـو المستضيء بـأمر اللـه، والسلطـان صلاح الـدين بالشام، وجـاءه كتاب من القاضي الفـاضل وهو بالـديار المصرية يهنيـه بولـود مولـود له وهـو أبو سليمان داود، وهـو موف لاثنـي عشر ولداً، وقد ولد بعده عدة ذكور أيضاً، فإنه توفي عن سبعة عشر ولداً

ذكراً، وابنة صغيرة وهي مؤنسة خاتون التي تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن الملك العادل كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وذكر هذا في تاريخ الدولتين في السنة الماضية، نقلا عن العماد الكاتب.

وفي رمضان وصلت الخلع السنية من الخليفة إلى السلطان صلاح الدين، وهو بدمشق، وزيد في ألقابه: معز أمير المؤمنين، وخلع أيضاً على أخيه تورانشاه ولقب بمصطفى أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة أسقط صلاح الدين المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ منهم شيء كثير، ومن عجز عن أدائه حبس، وربما فاته الوقوف بعرفه، وعوض السلطان أميرها بمال يحمل إليه من مصر وبغلال في كل سنة ثمانية آلاف اردب ليكون عوناً له ولاتباعه، وقرر أيضاً قدر ذلك للمجاورين يحمل إليهم في كل سنة.

ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين رحمه الله:

وفيها عصى شمس الدين بن المقدم ببعلبك، وكان صلاح الدين قد أعطاه إياها، وقدم صلاح الدين إلى دمشق فأرسل يطلبه فاعتذر خوفاً من شمس الدولة لأنه طلب منه بعلبك فامتنع، فخرج صلاح الدين من دمشق ونزل على بعلبك، وأقام سبعة أشهر يحاصرها فنفد ماعنده، فأرسل إلى السلطان يطلب العوض، فأعطاه بارين وكفر طاب، وخرج شمس الدين بن المقدم إليها، وسلم صلاح الدين بعلبك إلى أخيه شمس الدولة.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين نازلاً على ظاهر حمص ولم يجيء إلى خدمته ابن المقدم المذكور لانه بلغه أن أخاه تورانشاه طلب بعلبك منه فأطلقها له، فامتنع ابن المقدم من الخروج إليه لذلك، وجاء السلطان إلى دمشق ثم حضر إلى بعلبك بنفسه فحصره فيها من غير قتال حتى

جاءت الامطار والثلوج والبرد، فعاد إلى دمشق في رجب ووكل بالبلد من يحصره بغير قتال، ثم حصل التعويض، فخرج كما ذكرنا.

ذكر تجهيز صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب لغزو الافرنج:

وفي هذه السنة جهز صلاح الدين المذكور بين يديه لقتال الفرنج الذين قد عزموا على قتال المسلمين، وعاثوا في نواحي دمشق وقراها بالفساد، وأمره أن يداريهم حتى يتوسطوا البلاد ولايقاتلهم حتى يقدم عليه، فلما التقوا عاجلوه بالقتال فكسرهم وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة وهو الكنفري، وكان من أكابر ملوكهم، وركب صلاح الدين رحمه الله في أثر ابن أخيه، فما وصل الكسوة حتى تلقته الرؤوس على الرماح والغنائم والأسرى.

وفي المرآة: بلغ صلاح الدين أن الكنفري يريد أن يغير على دمشق، فبعث عز الدين فرخشاه ابن أخيه بعساكر دمشق، وقال له يقيم عند مرج عيون، فإن جاءوا فأرسل كتب الطيور إليّ ولاتواقعهم حتى آتيك، فسار ونزل مرج عيون، فلم يشعر الا بطلائع الكنفري قد خالطته، ووقع القتال فلم يقدر فرخشاه على اعلام صلاح الدين فقاتلهم بنفسه، وجرح الكنفري جراحة موثقة فأخذوه وانهزموا، وغنمهم فرخشاه، ومات الكنفري بعد أيام، وجاء صلاح الدين فنزل قصر يعقوب، وبعث السرايا والغارات إلى بلد الافرنج.

ذكر بناء الافرنج قلعة عند بيت الاحزان:

وفي هذه السنة بنت الفرنج لعنهم الله قلعة عند بيت الاحزان للداوية، فجعلوه مرصاداً لحرب المسلمين وقطع طرقاتهم عليهم، ونقضت ملوكهم العهود التي كانت بينهم وبين صلاح الدين، وأغاروا

على نـواحي البلـدان من كـل جـانب ليشغلـوا المسلمين عنهم، وتتفـرق جيـوشهم فـلا تجتمع في بقعـة واحدة، فـرتـب السلطان ابـن أخيه تقـي الدين عمر بثغر حماه، ومعه شمس الـدين ابن المقدم، وسيف الدين علي ابن أحمد المشطـوب، وبثغر حمص ابن عمـه ناصر الـدين محمد بـن أسد الدين شيركوه، وبعـث إلى أخيه سيف الدين أبي بكر وهـو الملك العادل نائب مصر، يأمره أن يرسـل إليه بألف وخمسمائة فارس يستعين بهم على قتال الافرنج، وكتب إلى الافرنج يأمـرهم بتخريب هذا الحصن الذي بنوه للداويـة فامتنعـوا الا ان يبذل لهم مـاغرمـوه عليه، فبـذل لهم ستين ألف دينار، فلـم يقبلوا، فـوصلهم إلى مـائة ألف دينـار، فأبـوا، فقال لـه ابن أخيـه تقـي الـديـن عمر: ابـذل هـذه في أجنـاد المسلمين، وسر إلى هـذا الحصن، ففعل ذلك.

ثم استهلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة:

كان السلطـان صلاح الدين نـازلا بجيشه على تل القاضي ببـانياس، ثم قصده الافرنج بقضهم وقضيضهم، فنهـض إليهم فالتقاهم، فماهو الا ان تواجـه الفريقان حتـى أنزل الله تعالى نصره، فـانهزمت الافرنـج، وقتل منهـم خلق كثير، وأسر منهـم جماعـة من ملـوكهم منهـم مقـدم الداويـة ومقـدم الاسبتاريـة وصاحـب الرملـة، وصاحـب طبرية، وقسطـلان يافـا وآخرون من ملوكهـم، وخلق من شجعانهم وأبطالهم ومن فـرسان القدس جماعة كثيرون، تقريباً من ثلاثمائة أسير من فرسان النصارى.

وفي تـاريـخ بيبرس: وكـان فيمـن أسر بـاديـن بـن بـارزان، وأود بـن القومصيـة، وأخو صاحب جبيـل، فحملوا إلى قلعة دمشق فـاعتقلوا بها، فأما بن بارزان فاستفك نفسـه بجملة عظيمة، وبألف أسير، واستفك ابن القومصية أيضاً، ومات أود في السجن.

وقال العماد الكاتب: لما أسر هؤلاء استعرضهم السلطان في الليل حتى أضاء الفجر، وصلى يومئذ الصبح بوضوء العشاء، وقد كان السلطان ليلتئذ جالساً في نحو العشرين، وهم في هذه العدة، فسلمه الله منهم، ثم أرسلهم إلى دمشق ليعتقلوا بقلعتها، فافتدى ابن بازان صاحب الرملة نفسه بعد سنة بمائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صورية واطلاق ألف أسير من بلاده، وكذا افتدى جماعة منهم أنفسهم بأموال جزيلة وتحف جليلة، ومنهم من مات في السجن فانتقل منه إلى سجين.

واتفق أنه في اليوم الذي ظفر فيه السلطان على الفرنج بمرج عيون هذا ظهر الاسطول على بطسة للافرنج في البحر وأخرى معها، فغنموا منها ألف أسير من السبي، وعاد إلى الساحل مؤيدا منصورا، وقد امتدح الشعراء السلطان في هذه الغزوة بمدائح كثيرة، وكتب بذلك إلى بغداد، فدقت البشائر بها فرحاً، وسروراً، وقد كان الملك المظفر تقي الدين عمر غائباً عن هذه الوقعة مشتغلاً بما هو أعجب منها، وذلك أن ملك الروم قليج أرسلان بعث يطلب حصن رعبان، وزعم أن نور الدين محمود اغتصبه منه، وأن ولده قد أغضى له عنه، فلم يجبه إلى ذلك السلطان، فبعث صاحب الروم عشرين ألف مقاتل يحصرونه، فأرسل السلطان تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس، منهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، فالتقوا بهم فهزموهم باذن الله، فاستقرت يد الملك الناصر صلاح الدين على حصن رعبان، وقد كان قديما مما عوض به ابن المقدم عن بعلبك، وكان تقي الدين عمر يفتخر بهذه الوقعة، ويرى أنه قد هزم عشرين ألفاً، وقيل ثلاثين ألفاً بثمانمائة، وكان السبب في ذلك أنه بيتهم وأغار عليهم وهم غارون، فما لبثوا أمامه بل فروا منهزمين عن آخرهم، فأكثر فيهم القتل واستحوذ على جميع ماتركوه في خيامهم.

ثم ركب صلاح الدين في جحافله إلى الحصن الذي كانت الفرنج قد

بنوه في سنة أربع، وسبعين وخمسمائة وحفروا فيه بئراً وسلموه إلى الداوية، فقصده السلطان فحاصره ونقبه من جميع جهاته، وألقى فيه النيران فجعله دكاً وخربه إلى الأساس، وغنم مافيه من الحواصل، فكان فيه مائة ألف قطعة من السلاح ومن المأكل كل شيء، وأخذ منه سبعمائة أسير، فقتل بعضاً وأرسل إلى دمشق الباقين، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً، غير أنه مات من أمرائه عشرة بسبب مانالهم من الحرّ والوباء في مدة الحصار، وكانت أربعة وعشرين يوماً، وعاد الناس إلى زيارة مشهد يعقوب عليه السلام على العادة القديمة، وكان الحصن المذكور الذي بناه الافرنج قريبا من صفد، وكان عرض سوره عشرة أذرع، وارتفاعه أربعون ذراعاً، وكان بيت الاحزان الذي يزعمون ان يعقوب عليه السلام كان ينفرد فيه ويبكي على يوسف، عليه كنيسة، فجعله السلطان مسجداً، وقد امتدحه الشعراء، فقال بعضهم وهو أحمد بن نقاده الدمشقي:

هلاك الفرنج أتى عاجلا
وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها
لما عمرت بيت أحزانها

ذكر الأمور المزعجة:

منها كان غلاء شديد بسبب قلة المطر وعمّ العراق والشام وديار مصر واستمر إلى سنة خمس وسبعين، فجاء المطر ورخصت الاسعار، ولكن تعقب ذلك وباء شديد وعم البلاد مرض واحد وهو البرسام، فما ارتفع إلا في سنة ست وسبعين، فمات في ذلك الوباء خلق كثير وأمم لايعلم عددهم الا الله عز وجل.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن الفرنج قصدوا مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغارة، فشنوا الغارة ونهبوا وأحرقوا وأسروا وقتلوا، فلما سمع العسكر المقيمون بحماة ساروا إليهم متوكلين على الله لأنهم كانوا عدة قليلة، وصدقوا القتال فنصرهم الله، وانهزمت الافرنج وكثر القتل والاسر واستردوا منهم ماغنموا، ووصل صلاح الدين إلى حماه، فأمر باحضار الاسارى وقتلهم، فأحضروا وقتلوا.

ومنها أن السلطان ختن ولده الملك العزيز عثمان فاتخذ له يوسف بن الحسين، ويعرف بابن المجاور معلماً، وتسلم فرخشاه بعلبك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والسبعين بعد الخمسمائة:

ذكر ماجريات صلاح الدين رحمه الله:

منها أنه سار بعساكره إلى أن وصل إلى رعبان منجداً لنور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا على قليج أرسلان بن مسعود ملك الروم، وسبب ذلك أن نور الدين بن محمد بن قرا أرسلان تزوج بابنة قليج أرسلان، ثم أحب مغنية وتركها نسياً منسياً، فشكت حالها إلى أبيها، فعزم على قصد بلاده، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستنجده ويسأله كف يد قليج أرسلان عنه، فأرسل صلاح الدين إلى قليج أرسلان في ذلك، فأعاد الجواب: إنني كنت عند تزويجه ابنتي دفعت إليه عدة حصون، ولابد من اعادتها إليّ، وكان صلاح الدين قد هادن الفرنج فسار في عساكره نحو بلاد قليج أرسلان وهي: ملطية، وسيواس، وقونية، ومابينها، فلماسمع قليج أرسلان بقربه منه أرسل إليه بعض أمرائه، وذكر له بعض الحديث الذي جرى منه، فقال صلاح

الـدين للرسـول: قـل لصاحبـك لئـن لم تـرجع عـن بـلاده لاسيرن إلى ملطية ، ولاأنزل عن فـرسي الا في الباب، وكان الرسول قد عـاين جيشاً عظيما، وكـان عاقـلاً أريباً، فقـال لصلاح الـدين: أريـك أقول للسلطـان كلاماً لم يرسلنـي به استاذي؟ فقال له: تعطيني الأمـان؟ فقال: قل وأنت آمن، فقـال: يامـولانا أما هـو قبيح بمثلك وأنـت أعظم السـلاطين قدراً وأكبرهم شأنا ان يسمع الناس عنك أنـك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصـالـح المملكـة، وأعرضـت عـن كـل مـافيـه صلاح لـك ولـرعيتـك وللمسلمين عامة، وخسرت أنـت وعسكرك الأموال العظيمة لأجـل قحبة مغنية، مـايكون عذرك عنـد الله تعالى، ثـم عند الخليفة وملـوك الاسلام، وكافة العالم، وهـب أن أحداً مايواجهك بهذا، أما يعلمـون ان الامر كذا، ثم احسب أن قليـج أرسلان مات وهذه ابنته قـد ارسلتني إليك تستجير بك وتسألك أن تنصفها من زوجهـا، فإن فعلت فهو الظن، وإن لم يكن أفيحسن بك أن تـردها، فقال صلاح الديـن: الحق ببلدك وإن الامر لكما تقول، ولكـن هذا الرجل دخـل علي واستجار بي، ويقبح بي تركـه، ولكن اجتمع بـه وأصلح الحال بينكـم على ماتحبون وأعينكـم عليه، ووعـد من نفسه بكـل جميل، واجتمـع الرسـول بنور الـدين بـن قرا أرسـلان، وترددا القـول بينهم فـاستقـر له أن يخرج المغنيـة بعـد سنـة، وإن لم يفعل ينـزل صـلاح الديـن عـن نصرته ويكـون هو وقليـج أرسـلان عليه، ولما تقـرر الحال على ذلك قصـد صلاح الدين بـلاد ابن لاون، وذلك أنه كـان قد استمال قوماً مـن التركمان وبذل لهم الامان وأمرهم أن يرعـوا مواشيهم في بـلاده، وهـي بـلاد حصينـة منيعـة كثيرة الـوعـر، ثـم غـدر بهم، وسبـى حريمهـم وأخذ أمـوالهم، وأسر رجالهم وقتـل منهم جماعـة، فنزل صـلاح الدين على النهر الأسود، وبـث الغارات على بلاده، فخاف ابن لاون على حصن له على رأس جبـل أن يؤخذ، فخربـه وأحرقه، وهو يسمـى حصن المناقير، وسمـع صلاح الـدين بذلـك فأسرع السير فـأدركه قبـل أن ينقل مافيه من ذخـائر وأقوات فغنمها وانتفع المسلمون بها غنموه، فـأطلق ابن

لاون من عنـده من أسرى التركهان، وأعاد السبـي والأموال، وعـاد صلاح الدين، وتوجـه إلى مصر ومعه الملك الظاهر غازي، والملـك العزيز ولداه واستخلف على الشام ودمشق عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه ابن أخيه.

ومنها أنـه في رجب قـدمت رسـل الخليفة النـاصر لديـن الله ومعهـم خلع وهدايا إلى الملك الناصر صلاح الدين فلبس السلطان خلع الخليفة بدمشق، وزينت له البلاد، وكان يوماً مشهوداً.

وفي المرآة: وفيهـا وصـل شيـخ الشيـوخ وصحبتـه رسـول الخليفـة إلى الملـك الناصر صـلاح الديـن يوسـف بـن أيوب، ومعهما خلـع وهدايـا، فلبس السلطان الخلع بدمشق وزينت له المدينة، وكان يوما مشهوداً.

ومنها أن السلطان سار من الشام إلى الـديار المصرية لينظر في أحوالها وأمورها ويصوم بها رمضـان، ومن عزمه أن يحج عامه ذلـك إلى بيت الله الحرام، واستناب على الشـام ابن أخيـه عز الديـن فرخشـاه بن شـاهنشاه ابن أيوب، وكتب القاضي الفاضل عن الملك العادل أبي بكر نائب مصر إلى أهل اليمـن ومكه يعلمهم بعـزم السلطان على الحج في هـذا العام إلى المسجـد الحرام ليتأهبـوا للملك ويهتمـوا به، واستصحـب السلطان معـه صدر الدين أبـا القاسم عبد الرحيم بن شيخ الشيـوخ ببغداد، الذي قدم في الرسـالة مـن جهة الخليفة ليكـون في خدمتـه الى الديـار المصرية، وفي صحبته الى الحجاز الشريف، فدخـل السلطان مصر وتلقاه الجيش، وكان يومـا مشهوداً، وأما صدر الـدين فانـه لم يقم بها الا قليلا حتى تـوجه الى الحجاز الشريف في البحر، فأدرك الصيام بالمسجد الحرام.

وفي المرآة: وإنما ركب شيـخ الشيوخ البحر من مصر ومضـى الى مكة لنذر كان عليه، وأقام إلى أيام الموسم وحج وعاد الى بغداد.

-١١٢٣٢-

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر، صاحب الموصل، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود، وهو والد سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، وأقام في الملك عشر سنين وشهوراً، وأصابه مرض مزمن، وتوفي يوم الاحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وتولى بعده أخوه عز الدين مسعود.

وقال ابن كثير: وكان سيف الدين غازي شاباً حسنا مليح الشكل، تام القامة مدور اللحية، مكث في الملك عشر سنين ومات عن ثلاثين سنة وكان عفيفا في نفسه مهيباً وقورا لايلتفت إذا ركب ولا إذا جلس، غيورا لايدع احدا من الخدم يدخل على النساء، وكان لايقدم على سفك الدماء، وينسب الى شيء من البخل.

فأجلس مكانه في المملكة أخوه عز الدين مسعود، وجعل مجاهد الدين قيماز نائبه ومدبر مملكته، وجاءت رسل الخليفة يلتمسون من صلاح أن يبقي سروج والرها والرقة وحران والخابور ونصيبين بيده كما كانت في يد أخيه، فامتنع السلطان من ذلك، وقال: هذه البلاد هي حفظ ثغور الاسلام، وإنما كنت تركتها في يده ليساعدنا على غزو الافرنج، فلم يكن يفعل ذلك، وكتب إلى الخليفة يعرفه بذلك.

وفي تاريخ بيبرس: وكان مرض غازي السل، وأراد أن يعهد بالملك إلى ابنه الأكبر معز الدين سنجر شاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة، فخاف من صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولم يجبه أخوه مسعود إلى ذلك، فأشار عليه أكابر دولته بأن يجعل الملك في أخيه عز الدين مسعود، وأن يجعل لولديه بعض البلاد، وأن يكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما، والمتولي لأمرهما مجاهد الدين قيماز، ففعل ذلك، وأعطى جزيرة

ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شـاه، وقلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين، وكان مجاهد الدين قيماز الحاكم في الجميع.

وقال ابن الأثير: كان قـد علق به سل، وطالت علتـه وأجدبت البلاد قبل موته، وخـرج الناس يستسقون، وخرج سيف الديـن معهم فاستغاث إليه النـاس، وقالوا: كيف يستجـاب لنا والخمور والخواطي والمظـالم بيننا، فقال: قـد أبطلتها، ورجعـوا الى البلد وفيهـم رجل صـالح يقـال له أبـو الفـرج الدقـاق، فـأهرق الخمـور لاغير، ونهب العـوام دكاكين الخمـاريـن، فاستدعـى الدقاق إلى القلعة وقـال له: أنت جرأت العـوام على السلطان وضرب على رأسـه، فانكشـف رأسـه وأطلق بعـد قليـل: ونزل مكشـوف الرأس، فقيـل له غـط رأسك، فقـال: والله لاغطيتـه حتى ينتقـم لي ممن ظلمنـي، فمات الدزدار والـذي ضربه بعـد قليـل، ومرض سيـف الديـن وتوفي.

ذكر حكايته مع الشيخ أبي أحمد الحداد الزاهد:

كان أبـو أحمد قد انقطع في قريـة من بلد الموصل يقـال لها الفضلية ومنها أصله، وهي على فراسخ من الموصـل، قال السبط: حدثني أبو بكر القديمي واسماعيـل الشعار، وكانا قـد صحبا الشيخ أبا أحمد، قـالا: كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد، فقال له يوما: ياسيف الدين أي فائدة في زيارتك وأنـت تشرب الخمر وتبيح المحرمـات، وتمكس المسلمين، فإن كنت تـدع هذا وإلا فلا تجيء إلى عندي، فقـال: ياسيدي انـا تائب إلى الله من جميع ماقلت وترك الجميع وعاد إلى ماكان عليه.

وكان للشيخ طاقة على باب الزاويـة ينظر من يجيىء من دمشق، قال: فبينما نحـن عنده يـومـا إذا بسيف الـدين قـد أقبـل وصعد على الـدرج، فقال: يا أبـا بكر أغلق الباب في وجهـه وقل له: عندي شغـل وادفعه إلى أسفل الدرج، قال أبـو بكر القديمي: فخرجت فـاستحييت منه، فقال

لي سيف الدين: ياشيخ افعل بي ماأمرك الشيخ، وأدار ظهره اليّ، فدفعت في ظهره حتى أنزلته إلى أسفل الدرج فقعد يبكي وصاح الجند بأسرهم، فأشار إليهم أن اسكتوا، ثم قال لي: ياشيخ اصعد الى الشيخ وقل له: فما لي توبة؟ قال: فصعدت إليه وأخبرته، فقال: قل له يجوز قد أذنت له، قال: فخرجت وقلت له: بسم الله، فدخل على الشيخ فبكى وقبل يده وتاب إلى الله تعالى، وعاد إلى الموصل، وأقام مدة يسيرة ومات يوم الاحد ثالث صفر، ولم يبلغ ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً.

وأراد أن يعهد إلى ابنه سنجرشاه فامتنع أخوه عز الدين مسعود من ذلك، وقال له مجاهد الدين قيماز وأكابر الأمراء: قد علمت استيلاء صلاح الدين على البلاد وقربه منا، وسنجرشاه صبي لارأي له، وأخوك عز الدين كبير السن صاحب رأي وشجاعة فاعهد إليه واجعله وصياً على أولادك ففعل، وكانت الرعية قد خافت من عز الدين مسعود لاقدامه على سفك الدماء وحدته، فلما ولي تغيرت اخلاقه، فصار رفيقاً بالرعية قريباً منهم محسناً إليهم، ولما مات سيف الدين كان صلاح الدين في حدود الروم فأرسل إليه مجاهد الدين قيماز الفقيه أبا شجاع بن الدهان البغدادي، فطلب منه أن يكون مع عز الدين كما كان مع أخيه سيف الدين ويبقي عليه الجزيرة ومابيده من حران والرها والرقة وخابور ونصيبين وقاطع الفرات، فقال صلاح الدين: أما ماخلف له من بلاد الموصل فهو باق على حاله، وأما ماذكره من بلاد الجزيرة فإنما كانت بيده بشفاعة الخليفة على شرط أن يقوي ثغور المسلمين بالمال والعساكر، أما الآن فالخليفة قد فوض أمرها إليّ، لا أفعل الا ماأراه من المصلحة.

الملك المعظم تورانشاه:

مات في هذه السنة.

قال ابن كثير: السلطان الأكبر، الملك المعظم شمس الدين تو رانشاه إبن أيوب، الذي افتتح بلاد اليمن عن أمر أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فمكث فيها حيناً، واقتنى منها أموالاً جزيلة ثم استناب فيها، وأقبل نحو أخيه إلى الشام شوقاً إليه، وكان قدومه إليه في سنة احدى وسبعين وخمسمائة كما ذكرنا، فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات محمودة، واستنابه على دمشق مدة، ثم سار إلى مصر فاستنابه على اسكندرية، فلم توافقه وكان يعتريه القولنج فمات بها في هذه السنة فدفن فيها، ثم نقلته أخته ست الشام بنت أيوب فدفنته بتربتها التي بالشامية البرانية بدمشق، فقبره القبلي، والوسطاني قبر زوجها ابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، والمؤخر قبرها رحمها الله، والتربة الحسامية منسوبة إلى ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وهي إلى جانب المدرسة من غربيها.

وقد كان الملك تورانشاه كريما جواداً ممدحاً شجاعاً باسلا عظيم الهيبة كبير النفس، واسع الصدر، وقال فيه ابن سعدان الحلبي:

هو الملك إن تسمع بكسرى وقيصر ... فإنهما في الجود والبأس عبداه
وما حاتم ممن يقاس بمثله ... فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولذ بذراه مستجيراً فإنه ... يجيرك من جور الزمان وعدواه

ولا تحمـل للسحـائب منـة
إذا هطلت جـودا سحـائب جـدواه
ويـرسـل كفيـه بما اشتـق منهما
فلليمـن يمنـاه ولليسر يسراه

ولما بلغ خبر موته إلى أخيه السلطان صلاح الدين وهو مخيم بظاهر حمص، حزن حزناً شديداً عليه وجعل ينشد باب المراثي من الحماسة، وكانت محفوظته.

وقال ابن خلكان: وكانت وفاة تورانشاه يوم الخميس مستهل صفر، ويقال خامس صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وتورانشاه بضم التاء المثناة من فوق، وسكون الواو، وبعدها راء مهملة ثم بعد الألف نون ساكنة وبعدها شين معجمة وألف ساكنة وهاء، ومعناه ملك الشرق، وشاه لفظ أعجمي ومعناه الملك، وتوران اسم بلاد الترك، والعجم يسمون الترك تركمان، ثم حرفوه فقالوا: توران، وقد علم أن المضاف إليه يقدم على المضاف في لغتهم، فافهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، غير أن الملك الصالح بن نور الدين محمود مات في هذه السنة.

ذكر وفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الملك الصالح اسماعيل بن السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب حلب وماوالاها، وكان أبوه نور الدين رحمه الله قد عهد بالملك له، وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة، وكان مولده في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ولم يبق عليه سوى مدينة حلب.

الثاني: في سيرته.

قال ابن خلكان: كان محسناً محمود السيرة.

وقال النويري: وكان من أعف الملوك، ومن يشابه أباه فما ظلم. وصف له الاطباء في مرضه شرب الخمر، فاستفتى بعض الفقهاء في شربها تداويا فأفتاه بذلك، فقال له: أيزيد شربها في أجلي، أو ينقص منه شيئاً؟ قال: لا، قال: فوالله لاأشربها وألقى الله وقد شربت ماحرمه علي.

وفي تاريخ بيبرس: أفتاه بذلك فقيه من مدرسي الحنفية، فقال: أرأيت إن قدر الله قرب الاجل، أيؤخره شرب الخمر، فقال الفقيه: لا، فقال له ماذكرنا.

وذكر ابن الأثير أنه لما اشتد به المرض وضعف، وصف له الاطباء قليل خمر، فقال: لاأفعل حتى أسأل الشافعية فأفتوه بالجواز، وسأل العلاء الكاساني فأفتاه أيضاً، فلم يفعل.

وقال السبط: أخطأ الكاساني فإن الخمر لايباح عند أبي حنيفة رضي الله عنه وجميع أصحابنا للتداوي، وكذا عند مالك وأحمد، وعند الشافعي يجوز للضرورة، وعندنا إن الله لم يجعل شفاء الامة فيما حرم عليها.

وفي تاريخ المؤيد: وكان عفيف اليد والفرج واللسان ملازماً لامور الدين، لايعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب.

الثالث: في وفاته.

وقال ابن خلكان: وتوفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة ودفن في المقام الذي بالقلعة، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة، وهو مشهور هناك.

وفي المرآة: وكان مرضه القولنج بدأ به في تاسع رجب

وقال المؤيد في تاريخه: في رجب توفي الملك الصالح وعمره تسع عشرة سنة، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الاطباء الخمر، فمات ولم يستعمله.

وفي تاريخ ابن كثير: وكانت وفاته بقلعة حلب ودفن بها، وكان سبب وفاته فيما قيل أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر سقاه سماً في عنقود عنب في الصيد، وقيل بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب، وقيل في خشكنانكة، فاعتراه قولنج، فمازال كذلك حتى مات وهو شاب حسن الصورةبهي المنظر، ولم يبلغ عشرين سنة، ولما يئس من نفسه استدعى الامراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، لقوة سلطانه وتمكنه ليمنعها من صلاح الدين، وخشي أن يبايع لابن عمه الآخر عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وهو زوج أخته وتربية والده فلايمكنه حفظها من صلاح الدين، فلما مات استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود صاحب الموصل، فجاء إليهم، فدخل حلب في أبهة عظيمة وكان يوماً مشهوداً، وذلك في العشرين من شعبان من هذه السنة، فتسلم خزائنها وحواصلها ومافيها من السلاح،

وكان تقي الدين عمر بمدينة منبج فهرب إلى حماة فوجد أهلها قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل، وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود في أخذ دمشق لغيبة صلاح الدين بالديار المصرية، وأعلموه بمحبة أهل الشام لهذا البيت الأتابكي، وقال: بيننا وبينه أيمان وعهود، وأنا لاأغدر به، فأقام بحلب شهوراً، وتزوج بأم الملك الصالح في شوال ثم سار إلى الرقة فنزلها وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب منه أن يقايضه من حلب إلى سنجار، وألح في ذلك، وتمنع أخوه ثم رضي على كره منه، فسلم إليه حلب، وسلمه عماد الدين سنجار والخابور والرقة وسروج وغير ذلك من البلاد، وعاد عز الدين مسعود إلى حلب، ولما سمع السلطان صلاح الدين بهذه الامور ركب من الديار المصرية في عساكره، فسار حتى الفرات.

وفي تاريخ بيبرس: تسلم عماد الدين صاحب سنجار حلب عوضاً عن سنجار، وذلك أنه لما رحل عز الدين إلى الرقة جاءته رسل أخيه، عماد الدين يطلب أن تسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها سنجار فلم يجبه إلى ذلك فقال: إن لم تسلموا إليّ حلب، وإلا سلمت أنا بسنجار إلى صلاح الدين، فأشار الامراء على عز الدين بتسليم حلب إليه، فاستقر الأمر على تسليمها إلى عماد الدين، وأخذ سنجار عوضا عنها، وبلغ ذلك صلاح الدين فخاف على دمشق، وبرز من مصر وسار إلى الشام في محرم السنة الآتية على مانذكره إنشاء الله تعالى.

ذكر بقية ماجريات صلاح الدين:

منها: أنه لما استهلت هذه السنة كان صلاح الدين مقيماً بالقاهرة مواظباً على سماع الاحاديث، جاء كتاب من نائبه بالشام عز الدين فرخشاه يهنيه بما منّ الله تعالى به على الناس من كثرة ولادة النساء من التوائم جبراً لما كان أصابهم في العام الماضي من الوباء والفناء، وبأن

الشـام مخصب بـإذن الله جبراً مـن اللـه تعالى لما كـان أصابهم في العـام الماضي من الجدب والغلاء.

ومنها: أنه في شـوال منها توجه صـلاح الدين إلى الاسكندريـة، وخيم بظاهرها عنـد عمود السواري، فشاهد ما أمر بـه من تحصين سورها وعمارة أبراجهـا وقصورهـا، وسمع موطـأ الامام مـالك رحمه اللـه على الشيخ أبي طاهر بن عوف عن الطرطـوشي، وسمع ذلك معه العماد الكاتب، وأرسل القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة يهنيه بهذا السماع.

ومنهـا أنه ولـد لصـلاح الديـن ولدان وهما الملـك المعظـم تورانشـاه، والملك المحسـن أحمد، وكان بين ميـلادهما سبعة أيـام، ، فزينـت البلاد، واستمر الفرح والسرور.

وفي تاريخ الدولتين: الملك المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين، ولد بمصر في ربيع الأول مـن هذه السنـة، وهو لأم الاشرف، والملـك المعظم أبـو منصور تـورانشـاه فخر الـدين ولـد بمصر في ربيـع الأول من هـذه السنة، ومات سنـة ثمان وخمسين وستمائة، وهي السنة التي أخـرب العدو من التتار مدينة حلب وغيرها.

ذكر بقية الحوادث:

منهـا أن الأفـرنـج غـدرت ونقضت عهـودهـا، وقطعـت السبـل على المسلمين براً وبحراً، سراً وجهـراً، فأمكن الله من بطسـه عظيمة لهم فيها نحو ألفين وخمسمائة نفس من رجالهم المعدوديـن، منهم من ألقاهم الموج إلى ثغر دمياط، قبـل خروج السلطان صلاح الدين مـن مصر، فأحيط بها فغرق بعضهم، وحصل في الاسر ألف وسبعمائة منهم.

ومنها أن فـرخشاه ابـن أخي السلطان صـلاح الدين ونـائبه بـدمشق،

سار إلى أعمال الكرك ونهبها لما بلغه أن الفرنج تطرقوا لان يسيروا إلى مكة وإلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فجمع العساكر الدمشقية، وسار إلى بلدهم ونهبه وخربه، وعاد إلى بلاد الاسلام، وأقام بها ليمنع البرنس من التعرض إلى المسلمين، وأما الذين سيرهم الفرنج إلى الحجاز، فأهلك الله تعالى جميع من سيروا، وقتلوا وأسروا.

ومنها أنه استوت عدة جيش صلاح الدين على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين طواشية وقراغلامية.

ومنها أن صاحب ماردين حصر قلعة البيرة وكانت لشهاب الدين الارتقي، وهو ابن عم قطب الدين ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي، فمات شهاب الدين الارتقي، وملك القلعة بعده ولده، وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلما كان في هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عز الدين مسعود يستأذنه في حصر البيرة، وأخذها فأذن له فسار فنزل شميشاط وكانت له، وأرسل عسكره إليها فحصرها، فسير صاحبها إلى صلاح الدين يطلب منه أن ينجده، فسير رسولا فشفع فيه فرحل صاحب ماردين عن البيرة.

ومنها أن المسلمين فتحوا الشقيف من الفرنج، وذلك أن الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل، واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم يظفرون منه بفرصة، فخلت بلادهم من ناحية الشام، فسمع فرخشاه الخبر فجمع عساكر الشام، ثم قصد بلاد الفرنج وأغار عليها، ونهب دبورية ومايجاورها من القرى، وأسر الرجال، وسبى النساء وغنم الأموال، وفتح منهم الشقيف وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة.

ومنها أن البرنس صاحب الكرك لعنه الله عزم على قصد تيماء من أرض الحجاز ليتوصل منها إلى المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فجهزت له سرية من دمشق تكون حاجزة بين وبين أرض الحجاز، فصده ذلك عن قصده لعنه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والسبعين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، والسلطان صلاح الدين خرج من مصر إلى الشام في خامس المحرم من هذه السنة، وكان ذلك آخر عهده بمصر لم يعد إليها بعد ذلك.

وفي تاريخ المؤيد: وفي خامس المحرم سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الشام، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة، وخرجت أعيان الناس لوداعه، أخذ كل منهم يقول شيئا في الوداع وفراقه وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتنكد المجلس على الحاضرين، فلم يعد صلاح الدين إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الفرنج، وغنم ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة.

وفي المرآة: وفي خامس المحرم من هذه السنة خرج صلاح الدين من مصر، ونزل البركة قاصداً إلى الشام، وخرج أرباب الدولة لوداعه، وأنشد

الشعراء أبياتاً في الوداع، فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيم: تمتع... إلى آخره، وطلب القائل فلم يوجد، فوجم السلطان، ونظر الحاضرون فكان كما قال، اشتغل السلطان بالشرق والافرنج، ولم يعد بعدها إلى مصر، وسار السلطان على أيلة والحسا ووادي موسى، وكان فرخشاه بدمشق، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا عند الكرك لقصد السلطان، فخرج من دمشق فنزل طبرية وعكا ودبورية، فقصدوه فالتقاهم وكسرهم وقتل منهم ألوفا وأسر وساق عشرين ألفاً من الانعام وغيرها، وفتح حصناً مشرفاً على السواد على شقيف يقال له حصن جلدك، وقتل من فيه وأسكنه المسلمين وجعلهم طلائع وساق إلى بصرى فالتقى السلطان عندها فسربه، ودخلا دمشق في صفر.

وفي تاريخ ابن كثير: أغار صلاح الدين في طريقه على أطراف بلاد الفرنج بأرض الكرك، وجعل أخاه تاج الدين بوري بن أيوب على الميمنة يسير ناحية عنه ليتمكنوا من بلاد العدو، فالتقوا على الازرق بعد سبعة أيام، ووصل السلطان الى دمشق في حادي عشر صفر منها، وقيل في سابع عشر.

ذكر ماجريات صلاح الدين من الغزوات وغيرها بعد دخوله دمشق:

منها أنه خرج من دمشق في العشر الأول من ربيع الأول، ونزل قرب طبرية، وشن الاغارة على بلاد الافرنج مثل بيسان وجينين والغور، فغنم منها، وقتل جماعة.

وقال ابن كثير: واقتتل مع الفرنج تحت حصن كوكب، فقتل خلق من الفريقين، ولكن كانت الدائرة للمسلمين، ثم رجع مؤيدا منصوراً إلى دمشق، ثم سار إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها، ثم عاد إلى دمشق.

وفي تـاريخ بيبرس: وفيهـا سـار صلاح الـديـن من دمشـق إلى بيروت فحاصرها ونهب مـاوجد، وأمر اسطول مصر أن ينزلـوا عليها ويحاصروها، فكان وصولـه لها قبل وصولهم، وكان عازما على حصـارها الى ان يفتحها، وأتاه الخبر بأن بطسـة عظيمة ألقاها البحـر إلى دمياط خرج من فيهـا من الفرنـج للحج الى بيت المقدس، فـأسروا من بها، فكان عـدة الاسرى ألفاً وستمائة وستة وسبعون أسيراً فضربت بذلك البشائر.

ومنها أنه سار إلى البلاد الحلبية والجزريـة ليأخذها، وذلك أن المواصلة والحلبية قد كاتبوا الفرنج حتـى يغزو على أطراف البلاد ليشغلوا السلطان صلاح الـدين بنفسه عنهم، فكـان سيره على بلاد البقاع ثـم إلى حماه، ثم إلى حلـب فحاصرهـا ثـلاثاً، ورأى أن العـدول إلى غيرهـا أولى به، فسـار حتى قطع الفـرات من البيرة، وصار معه مظفـر الدين كوكبري صـاحب حران، وكاتـب ملوك تلك الاطراف، واستمالهم، فـأجابه نور الـدين محمد ابن قـرا أرسلان صاحـب حصن كيفا، وصار معـه ونازل السلطان مـدينة الرها وحاصرهـا وملكها وسلمها الى مظفر الدين كـوك بوري، ثم سار الى الرقة وأخذها من قطب الديـن ينال بن حسان المنبجي، فسار هو إلى عز الـدين مسعـود صاحـب الموصـل، ثم صـار صـلاح الديـن إلى خابـور، وملكهـا وملك ايضـاً قرقيسيـا ومـاكسين وعربـان، واستولى على الخابـور جميعها، ثـم سار إلى نصيبين وحـاصرها وملـك المدينة، ثـم ملك القلعـة واقطعها أميراً كان معه يقال له أبـو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبهـا مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار، فـأقام عليهـا منجنيقا وأقـاموا عليـه من داخـل المدينة مجانيـق، وضايـق الموصـل، فلما رأى طـول الحصـار رحل عنهـا الى سنجـار وحـاصرهـا وملكها واستناب بها سعد الدين بن معين الدين، وكان من أكبر الامراء، ثم سار صلاح الـدين إلى حران وعزل عن نصيبين في طريقـه أبا الهيجاء السمين، ثم عاد إلى حلب، وقد استحوذ على بلاد الجزيرة، وخضعت له

الملـوك هناك، ولما وصـل الى حلـب تسلمها مـن صـاحبهـا عماد الديـن زنكي، وقد كان قـايض أخاه عز الدين مسعـود بها إلى سنجار، كما ذكرنا في العام الماضي، فـاستوسقت الممالـك شرقاً وغربـاً، وبعداً وقربـاً، وتمكن حينئذ من قتال أعـدائه من الفرنج لعنهم الله، وتملكـه حلب وغيرها إنما كان في السنة الآتية على مانذكره إن شاء الله تعالى.

وفي تاريـخ بيبرس: عبر صلاح الدين الفـرات وملك الديـار الجزرية، وسبب ذلـك أن مظفر الديـن كوكبري ابـن زين الديـن علي بن بكتكين مقطع حـران أرسل الى صـلاح الدين يعلمـه أنه معـه وأنه محب لـدولته، ووعده النصر، وأنـه إذا عبر الفرات يعينه ويعرفـه أخذ البلاد، فرحـل عن بيروت، ورسل مظفـر الديـن متواتـرة إليه تحثـه على القدوم، فجـد السير يظهر أنـه يريد حصر حلـب، ولما قارب الفرات سـار إليه مظفر الـدين واجتمع بـه فقصد البيرة، وكان صـاحبها مع صـلاح الدين وفي طـاعته، فعبر هوواصحـابه من الجسر الـذي عند البيرة، وكـان عز الديـن مسعود ومجاهد الـدين قايماز لما بلغهما وصول صـلاح الدين إلى الشام قـد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة لئـلا يتعرض صلاح الدين إلى حلـب، ثـم تقـدمـا إلى دارا، فنـزلا عنـدهـا، فجـاءهما أمـر لم يكـن في الحسـاب، فلما بلغهما عبوره الفـرات عادا إلى الموصـل، وأرسـلا إلى الرهـا عسكراً يحميهـا ويمنعها، فلما سمـع صلاح الـدين ذلـك قوي طمعـه في البلاد وكاتب الملوك أصحاب الاطراف ووعدهم، وبذل لهم البذول على نصرته، فأجـابه نور الديـن بن قرا أرسلان صـاحب حصن كيفا لقـاعدة كـانت بينهما لما كـان عنده بـالشام، فقصـد آمـد وحصرها وقـاتلها أشـد القتال، وكـان بها مقطعها الامير فخـر الديـن الزعفـراني، فطلب الامـان وسلم البلـد، وصار في خدمة صـلاح الدين، ولما ملك المدينـة زحف إلى القلعة فسلمها إليـه الدزدار الذي بها على مال أخـذه، ولما ملكها صلاح الدين سلمها إلى مظفر الدين كوكبـوري مع حران، ثم سار إلى الرقة وبها

مقطعها قطب الدين ينال المنبجي، فسار عنها إلى عز الدين مسعود وملكها صلاح الدين، وسار إلى الخابور وقرقيسياء وماكسين وعربان، فملك جميع ذلك، فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين فملك المدينة لوقتها، وحصر القلعة أياماً فملكها وأقام بها ليصلح شأنها، ثم أقطعها أبا الهيجاء السمين، وسار عنها.

ومنها أنه لما ملك نصيبين جمع أمرائه وأرباب المشورة فاستشارهم بأي البلاد يبدأ، بالموصل أو بسنجار، أو بجزيرة ابن عمر، فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين: لاينبغي أن نبدأ بغير الموصل، فإنها في أيدينا لامانع لها، وإن عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية، ووافقه ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيراً ليقطعه الموصل: إذا ملكها، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، فأشار بهذا الرأي لما في نفسه.

وصار صلاح الدين إلى الموصل، وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا عسكراً كثيراً من فارس وراجل وأظهرا من آلات الحصار ماحارت له الابصار، وبذلا الاموال الكثيرة وشحنا مابقي بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار، وغيرها بالرجل والسلاح والاموال، ولما قارب صلاح الدين الموصل ترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وناصر الدين ابن عمه ومعهم نفر من أعيان دولته، وقربوا من البلد، فرأى ماهاله من عظم البلد، ورأى السور قد ملىء من الرجال، وليس فيه شرافة إلا وعليها مقاتل، سوى من عليه من عامة البلد، فعلم أنه لايقدر عليه، وأنه متى نازله وعاد عنه انكسر ناموسه، ثم رجع الى معسكره وصبح البلد فنازله وضايقه، ونزل محاذي باب كندة، وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادي، وأنشب القتال فلم يظفر، وأقام أياماً، ولم ينل منها شيئاً،

وترددت الرسل إلى عز الدين مسعود ومجاهد الدين في الصلح، فطلب عز الدين اعادة البلاد التي أخذت منهم، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط تسليم حلب إليه، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين، ولم ينتظم صلح ولاتم أمر، فلما رأى صلاح الدين أنه لاينال من الموصل غرضا، وان من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصده من عساكره وأصحابه، سار عن الموصل إليها، وسنذكر ماجرى بعد ذلك في السنة الآتية ان شاء الله تعالى.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن البرنس صاحب الكرك عليه اللعنة عمل مراكب في بحر القلزم ليقطعوا الطريق على التجار والحجاج، وذلك لما عجز عن ايصال الاذى للمسلمين في البر، فوصلت أذيتهم الى عيذاب، وخاف أهل المدينة النبوية من شرهم فأمر العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين نائب مصر الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الاسطول أن يعمل مراكب في بحر القلزم لمحاربة البرنس، ففعل ذلك، فظفر بهم في كل موطن، وقتلوا منهم وحرقوا وغرقوا وسبوا وقهروا وأسروا في مواطن كثيرة ومواقف هائلة، وأمن البر والبحر بأذن الله، وأرسل صلاح الدين الى أخيه العادل أبي بكر يشكر من مساعيه، وأرسل الى ديوان الخليفة بما أنعم الله به عليهم من الفتوحات براً وبحراً.

وفي المرآة: في هذه السنة كانت وقعة الحاجب لؤلؤ مع الفرنج، خرج ابرنس صاحب الكرك إلى أيلة فأقام بها ومعه الاخشاب على الجمال والصناع، فعمل المراكب، وكان قصده مكة والمدينة والغارات في البحر، فلما تم عملها ركب فيها، ووصل الى عيذاب في بحر القلزم، فأخذ مراكب التجار ونهب وقتل وأسر، وسار يريد جده، وبلغ الخبر إلى سيف الدين العادل أخي السلطان، فأمر حسام الدين الحاجب لؤلؤ، فركب في

بحر القلزم، وسار خلفهم، وساعده الريح فأدركهم وقد أشرفوا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وهرب بعضهم في البر، وأسر الباقين فأخذ مائة وسبعين أسيراً، وخلص أموال التجار، وردها عليهم، واستولى على مراكبهم، وعاد الى القاهرة، وكتبوا الى صلاح الدين بذلك، فقال بضرب رقاب الاسرى بعضهم بالقاهرة، وبعضهم بمكة، وبعضهم بالمدينة، ففعلوا وكتبوا بذلك إلى الخليفة.

وفي تاريخ المؤيد: وكان حسام الدين لؤلؤ مظفراً فيه، شجاعاً فسار في طلبهم مجداً وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة وسار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ، فأدركهم بساحل الحوراء وتقاتلوا أشد القتال، فظفر الله بهم، وقتل لؤلؤ أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم.

ومنها أن عز الدين صاحب الموصل اجتمع هووشاه أرمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين، وسبب ذلك أن رسل عز الدين ترددت إلى شاه أرمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة بالكف عن الموصل، ومايتعلق بعز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وغالطه، فأرسل إليه أخيراً مملوكاً له يقال له سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعده، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها، وقال له: إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته فأبلغه بكتمر الشفاعة، فسوفه في الاجابة رجاء أن يفتحها، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان، ولم يقبل منه خلعة ولاصلة، وأبلغ صاحبه الخبر فسار إلى ماردين وصاحبها قطب الدين بن ألبي، وهو ابن أخت شاه أرمن وابن خال عزالدين وحموه، وحضر صحبة شاه أرمن دولة شاه صاحب بدليس وأرزن، وسار

عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الاثقال، فلما سمع صلاح الدين باجتماعهم سيّر الى ابن اخيه تقي الدين، وهو بحماه يستدعيه ، ورحل الى رأس عين، فلما سمعوا برحيله تفرقوا، فعاد شاه أرمن الى خلاط واعتذر بأنه يجمع العساكر ويعود، وعاد عز الدين الى الموصل، وأقام قطب الدين بماردين، وسار صلاح الدين فأقام تحت ماردين أياماً...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسي، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في الشرق لاجل فتح البلاد التي ليست تحت يده.

ذكر فتوحات صلاح الدين رحمه الله في هذه السنة:

منها فتح آمد:

قال ابن كثير: في الرابع عشر من محرم هذه السنة تسلم السلطان صلاح الدين مدينة آمد وحصنها بعد قتال وحصار شديد من يد صاحبها بعدما حمل ماأمكنه من حواصله وأمواله وأثقاله مدة ثلاثة أيام، ولما تسلم السلطان البلد وجد فيه شيئاً كثيراً من الحواصل وآلات الحرب والسلاح، حتى قيل إنه وجد برجاً مملوءاً بنصول النشاب، وبرجاً آخر فيه مائة ألف شمعة وأشياء يطول شرحها، ووجد فيها خزانة فيها ألف ألف مجلد وأربعون ألف مجلد فوهبها كلها للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين حماراً، ثم وهب السلطان البلد بما فيه لنور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكان في خزانتها ثلاثة آلاف ألف دينار،

فامتدحه الشعراء على ذلك، وعلى حسن صنيعه الجميل، ومن أحسن ماقاله بعضهم في ذلك من جملة قصيدة له في السلطان:

قــل للملــوك تنحــواعــن ممــالكــم
فقــد أتــى آخــذ الــدنيــا ومعطيهــا

وفي المرآة: وفي يوم الاحد عاشر المحرم تسلم السلطان آمد ودخل إليها، وجلس في دار الامارة، ثم سلمها وأعمالها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكان قد وعده بها لما جاء إلى خدمته، ولما أخذها صلاح الدين خرج الرئيس محمود بن علي ومحمد بن كيكلدي منها بأموالهما وحريمهما إلى الموصل، وأعانهما صلاح الدين بدواب تنقل بعض قماشهما، فحملا ماخف حمله وعجزا عن حمل كثير من الذخائر والاسلحة.

وفي تاريخ المؤيد: في العشر الأول من محرم هذه السنة ملك صلاح الدين آمد بعد حصار وقتال وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان ابن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا.

وفي تاريخ ابن العميد: وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين من مصر إلى الرها ففتحها، ثم سار إلى الموصل فنازلها واستشفع صاحبها عز الدين مسعود بن مودود من الخليفة الناصر لدين الله، فشفع فيه الخليفة فرحل صلاح الدين عن الموصل، ونزل على سنجار فحاصرها ثم تسلمها وأحسن إلى رعيتها، ثم توجه إلى حرزم فأخربها، ثم كتب إلى الخليفة يطلب منه آمد، فأجابه الخليفة وبعث إليه بتقليدها، فوصل إليه التقليد في ذي الحجة من هذه السنة، ثم سار السلطان إلى آمد فنازلها لثلاث بقين من ذي الحجة وفتحها بالامان في العشر الاول من محرم سنة ثمانين وخمسمائة وسلمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا.

-١١٢٥١-

ومنها فتح عينتاب:

ولما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار وقطع الفرات قاصدا حلب، واجتاز في طريقه بعينتاب وبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين، فنزل إليه وقام بالضيافة، فأبقاها عليه.

وفي تاريخ المؤيد: لما فتح صلاح الدين آمد سار إلى الشام، وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عينتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد تسلم عينتاب من نور الدين، فبقيت معه إلى الآن، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه، فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان ومن جملة أمرائه، ثم سار السلطان إلى حلب.

ومنها فتح حلب:

ولما فرغ السلطان من أمر عينتاب سار إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود.

وقال ابن كثير: سار السلطان في بقية المحرم إلى مدينة حلب فنازلها وحصرها، وقاتله أهلها قتالاً جيداً وجرح أخو السلطان تاج الملوك بوري ابن أيوب جرحاً بليغاً فمات منه بعد أيام، ثم اتفق الحال بين السلطان وبين صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر على عوض أطلقه السلطان وهو أن يرد عليه سنجار ويسلمه البلد، فخرج عماد الدين زنكي وجاء إلى خدمة السلطان وعزاه في أخيه ونزل عنده في المخيم، ونقل أثقاله إلى سنجار، وزاده السلطان خابور والرقة ونصيبين وسروج، واشترط عليه ارسال العسكر في الخدمة للغزاة وودعه السلطان، وكان أهل حلب ينادون على عماد الدين زنكي: «ياحمار بعت حلب بسنجار»، وكان تسلم السلطان حلب في صفر، وصعد إلى قلعتها يوم

الاثنين السابع والعشريـن من صفر، وعمل لـه الامير طمان وليمة عظيمة، وكـان يومـاً مشهوداً، ثـم إن السلطان رحمه اللـه أسقط عـن حلب وعـن سائر بلاد الجزيرة المكوس والضرائب، وكذلـك عن بلاد الشام ومصر، ثم أرسل الى عسـاكره ليجتمعوا إليـه ليتصدى لقتال الفـرنج الملاعين، لانهم عاثـوا في البلاد يمينـا وشمالاً في غيبة السلطـان واشتغالـه ببلاد الجزيـرة، وكان السلطـان قد بشر بفتـح بيت المقـدس حين فتح حلـب، وذلك أن الفقيه مجد الـدين ابن جهبـل الشافعي رأى في تفسير أبي الحكـم المغربي عند قـوله تعالى: ﴿ألم* غلبـت الروم* في أدنـى الأرض﴾ [الروم١-٣] الآيـة ، البشـارة بفتـح بيـت المقـدس في سنـة ثـلاث وثمانين وخمسمائة، واستـدل على ذلـك بـأشيـاء، فكتب في ورقـة وأعطـاهـا للفقيـه عيسـى الهكـاري ليبشر بها السلطـان فلـم يتجـاسر على ذلك خـوفـاً مـن عـدم المطابقة، فـاعلم بذلك القاضي فخر الـدين بن الزكي، فنظـم معناها في قصيدة يقول فيها:

وفتحكـم حلـب الشهبـاء في صفـر
قضـى لكـم بـافتتـاح القـدس في رجـب

وقدمها للسلطان، فتشوقـت همة السلطان إلى ذلك، فلما افتتحها - كما سيأتي إن شاء الله تعالى - أمر القـاضي فخطب يومئذ، وكان يوم الجمعة، ولما بلغه ان ابـن جهبل هـو الذي اطلـع على ذلك أولاً، أمـره أن يدرس، فدرس على الصخرة درساً عظيماً وأجزل له العطاء، وأحسن عليه الثناء.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة سار صلاح الـدين من تل خالد إلى حلب، واستدعى إليهـا العساكر من جميع الجهات، فـاجتمع عليها خلق عظيم، وتحقق عماد الدين أنه ليس بـه قبل، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر له مع صلاح الدين في اعادة بـلاده إليه وتسلم حلب منه، فرفع الحديث، وتقـررت القاعـدة ولم يشعر أحـد من العسكـر ولا من الـرعية حتى تـم الامر واستفاض، فـاستعلم العسكر مـن عماد الدين فـأعلمهم

وأذن لهم في تيسير أنفسهم، فأرسلوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الـدين بكتكين فـاستحلفوا صلاح الـدين على العسكـر وعلى أهل البلـد، وخرجـت العساكـر إلى خدمتـه بالميـدان الاخضر فخلع عليهـم، ونقل عماد الديـن أقمشته وآلاته من القلعة، ثـم نزل إلى السلطان، وسيره معه في الميـدان، وأنزلـه عنده في الخيمـة، وقدم لـه تقدمـة سنية وخيـلاً، وخلع على جماعة من أصحـابه وسار من يومه إلى سنجـار، وطلع صلاح الدين الى القلعة وتسلمها في صفر من هذه السنة.

وفي المرآة: نـازل صلاح الـدين حلـب في سـادس عشر المحرم، ونـزل بـالميدان الاخضر، وبـاشر القتـال بكرة وعشيـاً، وزحف يـومـا أخوه تـاج الملـوك بـوري فجاءه سهـم في عينـه، فـوقـع مـريضاً، فمات في الثـالـث والعشرين من صفر، ثـم علم عماد الدين زنكي، أنه لاطاقـة له به، وقال لحسام الدين طمان: اخرج إلى صلاح الـدين وسله في الصلح، فخرج سراً ولم يعلـم به أحـد، فقـرر الصلح وأن يـرد إليـه سنجار وأعمالها والخابـور ونصيبين، وأنه يسلم إليه قلعة حلب، وعلـم الناس بالصلح فخرجوا إلى صلاح الدين فخلـع عليهم، وجعل أهل حلب تحت القلعة اجـانة وثيابا وصابوناً وصاحوا عماد الدين: يافاعل، ياصانع، انزل فاغسل الثياب مثل المخـانيث، مـايصلح لـك غير هـذا، وعملوا فيـه الاشعار، وغنـوا بها في الاسواق، منها:

وبعـــت بسنجـــار خير القـــلاع
ثكلتـــك مـــن بـــائع مشتري

فلما كـان اليـوم الثالـث والعشرون مـن صفـر تـوفي تاج الملـوك أخـو السلطان، فحـزن السلطان عليه حزنـا عظيما وجلس للعزاء، وكـان يبكي ويقول: مـاوفت حلـب بشعرة من أخـي، وقيل إنه قـال: ماغلـت حلب ببوري، والأول أليق بالسلطان لانه ماكان في البيت مثل بوري.

وسـار عماد الديـن إلى سنجار، وأقـام السلطـان بالمخيـم غير مكترث

بحلب لما جرى عليه من وفاة أخيه، ثـم صعد القلعة سلخ صفر، فأنشده القاضي:

وفتحـه حلبـا بـالسيـف في صفـر
مبشر بفتـوح القـدس في رجـب

فعجب الناس مـن رمية من غير رام، فكان كما قال، ولكـن بعد أربع سنين، وهـو الذي خطـب بـالقـدس لما فتحه السلطـان، وولى السلطـان القضاء بحلب مجير الدين ابن زكي الـدين، والقلعة سيف الدين أركش، والديوان ناصح الـدين اسماعيل بن العميد، فأعطى تل بـاشر وتل خالد لبدر الـدين دلـدرم بن بهاء الديـن بن ياروق، وأعطـى قلعة أعـزاز لعلم الدين سليمان بن جندر، ثم رحل عـن حلب يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر، ودخل دمشق ثالث جمادى الاولى.

وفي تاريخ المؤيـد: ولما استقر الصلح بين صلاح الديـن وعماد الدين، عمل عماد الديـن دعوة للسلطان واحتفل، فبينما هـم في سرورهم إذ جاء انسان، فـأسر إلى السلطان بموت أخيـه بوري فـوجد عليه في قلبـه وجدا عظيماً وأمر بتجهيزه، ولم يعلم السلطان في ذلك الـوقت أحدا ممن كان في الدعـوة بذلـك حتى لايتكـدر عليهم ماهـم فيه، وكـان يقول: مـاوقعت علينا حلـب رخيصة بمـوت بوري، وكـان هذا مـن السلطان مـن الصبر العظيم.

ومنها: فتح حارم.

ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حـارم وبهاسرخك الذي ولاه الملك الصالح بـن نور الدين محمـود في تسليم حارم، وجرت بينهما مـراسلات فلم ينتظم بينهما حـال، وكاتب سرخك الفـرنج، فوثب عليـه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم إلى السلطان، فتسلمها.

وفي تاريخ بيبرس: وكان السلطان: قد أنفذ إلى حارم من يتسلمها، فدافع الوالي الذي بها، فسار بنفسه إليها فتسلمها، وعاد إلى حلب، ورتب فيهاولده الظاهر غازي ومعه الامير يازكوج، ثم رحل عنها وسار نحو دمشق.

وقال ابن كثير: رحل السلطان من حلب في أواخر ربيع الاخر بجيوشه وعساكره، وقد جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وولى قضاءها لمحيي الدين بن الزكي، فاستناب له فيها نائباً، ورجع هو مع السلطان في خدمته، فاجتاز بحماه ثم بحمص، ثم على بعلبك، ثم دخل دمشق في ثالث جمادى الاولى في أبهة عظيمة، وفي نيته الخروج سريعاً إلى قتال الافرنج.

ذكر مافعل السلطان صلاح الدين بعد دخوله دمشق:

ولما دخل السلطان دمشق في التاريخ المذكور وأقام أياما، برز منها في أول جمادى الآخرة في جحافله قاصداً نحو القدس الشريف، فانتهى إلى بيسان فنهبها وخربها، وشن الاغارات على تلك النواحي، ثم سار ونزل على عين جالوت، وأرسل بين يديه سريه هائلة فيها الامير جرديك النوري، وطائفة من النورية، وجاولي مملوك عمه أسد الدين شيركوه فوجدوا جيش الكرك من الفرنج قاصدين إلى أصحابهم نجدة لهم، فتواقفوا معهم فقتلوا من الافرنج خلقاً كثيراً، وأسروا مائة أسير، ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد، ثم عادوا في آخر ذلك اليوم، وبلغ السلطان، وأن الافرنج قد اجتمعوا للقتال، وتصدى لهم فنكلوا عنه، فقتل منهم خلقاً كثيراً من أطرافهم، وجرح مثلهم، فرجعوا ناكصين على أعقابهم خائفين منه غاية المخافة.

وفي تاريخ بيبرس: لما خرج السلطان من دمشق عبر نهر الاردن، ورأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصد بيسان فأخربها، وأغار على

ماهنـاك، فاجتمـع الفرنـج وجاءوا إلى قتـاله، فلما رأوا كثـرة من معـه من العسكر لم يقـدموا عليـه، فأقـام عليهم، وأحـاطت بهم عسـاكره تـرميهم بـالسهـام وتنـاوشهـم القتال، فلـم يخرجـوا، وأغـار المسلمـون على تلـك الاعمال، ونالوا منها مـالم يكونوا يطمعون فيه من الغنـائم والنهب وعادوا فأعطـاهم دستورا ليستريحوا، ودخل دمشـق فأقام بها إلى شهر رجـب من هذه السنة.

وفي المرآة: لما وصل السلطان من دمشق إلى بيسـان هرب أهلها، فقدم بين يديه جـرديك النوري وجاولي الاسـدي، وجماعة من النوريـة، فجاءوا الى عين جالوت والفـرنج على الفولة، فصـادفوا على عين جالوت طـائفة مـن الافـرنج، فقتلـوا منهـم مقتلـة عظيمـة، وأسروا مائة فـارس، ورحـل السلطان الى الفـولة يطلب المصاف فتحصـن الفرنج بالـراجل، ولم يخرج منهـم أحـد، فلما كـان في الليـل ساروا طـالبين عكـا. ورحـل السلطـان خلفهم يقاتـل الساقة، فقتل منهـم جماعة، فدخلوا عكـا، وعاد السلطان على جينين فنهب وأحرق وعاد الى دمشق.

ذكر مسير السلطان الى الكرك:

وفي رجـب من هـذه السنة سـار السلطان إلى الكـرك فحاصرهـا، وفي صحبته تقي الديـن عمر بن أخيه، وقد كتب إلى أخيـه الملك العادل أبي بكـرليحضر إليه ليـوليـه حلب وأعمالها، وفـق مـاكـان طلبه منـه، فحضر العادل إليه، واستمر الحصار على الكرك مدة شهر رجب، فلم يظفر منها بطلب، وبلغه ان الافـرنج كلهم اجتمعوا ليمنعوا منه الكـرك، فكر راجعاً الى دمشق في منتصف شعبان، وسار معه أخوه العادل، وأرسل ابن أخيه الملك المظفـر تقي الدين عمـر الى مصر نائباً عنه، وفي صحبتـه القاضي الفـاضل، ووصـل السلطان إلى دمشـق، وبعث أخـاه العادل على مملكـة حلب وأعمالها، واستقـدم ولده الملـك الظاهر إليـه، وكذلـك نوابـه ومن

يعز عليه، وإنما أعطى السلطان صلاح الـدين آخاه العادل حلب ليكون قريباً منه، فـإنه كان لايقطع أمراً دون مشورتـه، واقترض السلطان صلاح الدين من أخيـه العادل مائة ألف دينار، وتألم الظاهـر على مفارقة حلب، وكانـت إقامتـه في حلب ستـة أشهر، ولكنـه لايظهر مـا في نفسه، ولكـن يظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

وفي تاريـخ بيبرس: لما توجـه صلاح الـدين الى الكـرك استدعـى أخاه العادل أبـا بكر مـن مصر، وكان قد أرسـل إليه يطلب منـه مدينـة حلب وقلعتها، فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله فوافاه إلى الكرك في العسكر المصري، فكثـر جمعه، وحصر الحصـن من الـربض، ونصـب عليه المجـانيق، ثم رحل عنـه، وعاد إلى دمشق واستصحب أخـاه العادل معه، وسير ابن أخيه تقي الدين إلى مصر نـائبا عنه، وأعطى أخاه العادل حلب وقلعتها وأعمالها وسيره إليها، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن عـز الديـن مسعود صاحـب الموصل قبـض على نائبـه مجاهد الديـن قايماز، وكان إليـه الحكم في جميع البـلاد، وكان الذي أشـار عليه بـذلك عـز الـدين محمـود وشرف الـدين ابـن أبي الخير، وهما مـن أكابـر أمـرائه، لهوى بنفسيهما، ولما أراد القبـض لم يقدم على ذلـك لقـوة مجاهـد الدين، فـأظهر أنه مريـض، وانقطع عن الركـوب عدة أيام، فدخـل إليه مجاهد الـدين وحده، وكان لايمنـع من الدخول عليـه ولاعلى النساء، فلما دخل عليه قبض عليه وركب لـوقته إلى القلعة واحتوى على الاموال التي لمجـاهد الـديـن وخزائنـه، وولى عـز الـدين محمـود القلعـة، وجعل ابـن صاحـب الغراف أمير حـاجب، وكان تحت مجاهـد الديـن إربل وأعمالها ومعه فيهـا يوسـف بن زيـن الديـن علي وهو صبـي صغير ليس لـه من الحكـم شيء، والحكم والعسكـر إلى مجاهد الـديـن وتحت حكمه أيضـاً

جزيـرة ابن عمر، وهي لمعـز الدين سنجرشـاه بن غازي بن مـودود، وهو أيضاً صبي صغير، وبيـده أيضاً شهرزور وأعمالها ونوابه فيهـا، ودقوقا وبها نائبه، وقلعة عقر الحميدية، ونائبه فيهـا، ولم يكن بقي لعز الدين صاحب الموصل بعد أن أخذ صـلاح الدين البلاد الجزرية سوى الموصـل، وكانت قلعتها بيـد مجاهد الـدين، وهـو على الحقيقة الملـك، فلما قبض عليـه عز الدين امتنع صـاحب إربل والجزيرة من طاعته، وأرسـل الخليفة إلى دقوقا من حـاصرها وأخذهـا، ولم يحصل لعز الـدين مسعـود مماكان بيـد مجاهد الديـن قايماز غير شهـرزور، وصارت إربـل وجزيـرة ابن عمـر أضر شيء على صاحـب الموصل، وأرسـل صاحبهـا إلى صلاح الـدين بـالطاعـة له والكون في خدمته، وكـان الخليفة الناصر لدين الله قـد سير صدر الدين شيخ الشيـوخ،، ومعه بشير الخادم إلى صلاح الـدين في الصلح مـع عز الدين صاحـب الموصل، فأجاب صلاح الديـن إلى الصلح على أن تكون إربل والجزيـرة معه، ويقـرر الصلح، وإنما قـوى طمع صـلاح الديـن في الموصل لقبـض صاحبها على مجاهد الـدين، فلما تبين لعز الديـن مسعود الضرر الذي ترتب على امساك المجاهد قـايماز أمسك الذين أشاروا عليه باعتقـاله وأفرج عنـه في الاعتقال، ثم رحل صـلاح الدين عـن الموصل، ونازل سنجار على ماذكرناه عن قريب.

ومنها أنـه سار اسطول من مصر في البحـر فلقوا بطسة فيها نحـو من ثلاثمائة من الفرنـج، نجدة لفرنج الساحل فقاتلـوهم فظفر بهم المسلمون وأخذوهم أسرى، فقتلـوا بعضهم وأبقوا بعضهـم أسرى وغنمـوا ما معهم، وعادوا إلى مصر سالمين.

ومنهـا أنه سـارت جماعـة كبيرة مـن الفرنـج مـن نـواحي الـداروم إلى نواحـي مصر ليغيروا وينهبوا، فسمـع بهم المسلمون فخـرجوا إليهـم على طريق صدر وأيلة، فأفرج الفرنـج من بين أيديهم على ماء يقال له العبلة، وسبقـوا المسلمين إليه، فـأتاهـم المسلمـون وهم عطـاش قد أشرفـوا على

الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله سحابة عظيمة بلطفه، فمطروا منها حتى رووا، وكان الزمان قيظا والحر شديداً وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم، ولم يسلم منهم الا الشريد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله ورحمته.......

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير شاه أرمن:

اسمه سقمان بن ظهير الدين بن ابراهيم بن سقمان القطبي، صاحب اخلاط، توفي في هذه السنة، وعمره أربع وستون سنة، وكان ملكه لها في سنة احدى وعشرين وخمسمائة، وكان بكتمر مملوك أبيه بميا فارقين لما مات شاه أرمن، فلما سمع بموته سار من ميافارقين، ووصل الى أخلاط، وكان أكثر أهلها يريدونه، وكان مماليك شاه أرمن متفقين معه، فأول وصوله استولى على أخلاط وملكها، وجلس على كرسي شاه أرمن، واستقر في ملكه حتى قتل في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، كما سنذكره إن شاء اله تعالى.

تاج الملوك بوري بن أيوب:

أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكنيته أبو سعيد، ولد في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة، وكان الله تعالى قد جمع فيه مكارم الاخلاق، ولطف طباع، وكرماً وشجاعة وفضلا وفصاحة، وكان أديبا شاعراً مترسلاً، وله ديوان شعر، ذكره العماد في الخريدة وأثنى عليه...

وتوفي يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر من هذه السنة على مدينة حلب من جراحة أصابته لما حصرها أخوه السلطان صلاح الدين

يوسف كما ذكرناه، وعمره ثلاث وعشرون سنة ـ بوري بضم الباء الموحدة وسكون الواو، وكسر الراء، وفي آخره ياء ساكنة، وهو اسم للذئب بلغة الترك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، غير أن صاحب ماردين وصاحب الغرب ماتا في هذه السنة.

ذكر وفاه صاحب ماردين:

وهو قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين كان جوادا شجاعاً عادلا منصفا عاقلاً، توفي في جمادى الاخرة من هذه السنة، وكان والده ألبي قد ملك في سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وبقي في ملك ماردين الى مدة لم نقف على انتهائها، وملك بعده ابنه ايلغازي المذكور، واستمر فيها إلى أن مات في هذه السنة، وخلف أولاداً أطفالا، فأقيم في الملك بعده ولده حسام الدين بولق أرسلان، وقام بتدبير المملكة وترتيبها مملوك والده نظام الدين البقش حتى كبر بولق أرسلان وكان به هوج وخبط، فمات وأقام البقش بعده أخاه الأصغر ناصر الدين أرتق أرسلان بن ايلغازي، ولم يكن له حكم، بل الحكم إلى البقش وإلى مملوك للبقش اسمه لؤلؤ، وكان قد تغلب على استاذه البقش بحيث كان لايخرج البقش عن رأي لؤلؤ المذكور، ولم يكن لناصر الدين أرتق أرسلان صاحب ماردين من الحكم شيء، وبقي الامر كذلك الى سنة احدى وستمائة، فمرض البقش، وأتاه ناصر الدين يعوده، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه ناصر الدين بسكين فقتله، ثم عاد إلى البقش فقتله وهو مريض، واستقل ناصر الدين أرتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع.

وفي تـاريخ بيبرس: لما مـات قطب الـديـن ايلغازي، ملـك بعده ابنـه حسام الديـن بولق أرسلان، وهـو طفل وقام بتربيته وتـدبير ملكه نظام الديـن البقش مملوك أبيـه، وكان شاه أرمن صـاحب خلاط، خـال قطب الدين، فحكم في دولته وأحسن البقش تـربية الولد، وتزوج بأمه، فلما كبر الولد لم يمكنه البقش من المملكة لانـه كان أهوج، ولم يزل كذلك إلى أن مات الـولد المذكور، وكـان له أخ صغير أصغر منـه اسمه قطب الـدين، فرتبه البقش مكانه، والله أعلم.

ذكر غزوة صلاح الدين يوسف الكرك مرة أخرى ثانية:

وذلـك لانه رأى ان فتحهـا الآن أنفع للمسلمين فـإن الفرنـج الذيـن فيها يقطعـون الطريـق على الحجاج والتجـار في البراري والبحار، فـأرسل إلى العساكـر الحلبية والجزرية والمصرية، فقـدم تقي عمر مـن مصر، وكان بها كما ذكـرنا ومعـه القـاضي الفاضـل وجاء مـن حلـب الملك العـادل أبـوبكر أخـوه، وقدم ملـوك الجزيرة وسنجـار وتلك النـواحي والاقطـار، وأخذهم كلهم في جيشه، فسار بهم إلى الكـرك فأحدقوا بها في رابع عشر جمادى الاولى مـن هذه السنـة، وركب عليهـا المجـانيق، وكـانت تسعـة، وأخذ في حصـارها، وضيـق على أهلها، واشتـد القتال، فملـك المسلمون الـربـض، وبقي الحصـن ولـه خنـدق عمقـه ستـون ذراعاً، فـألقـى فيـه الأحجار والاخشاب والاتـربة، ورأى الفرنج شـدة القتال وعرفوا عجـزهم عن حفظ الحصن، فأرسلوا إلى ملكهـم وفرسانهم يستنجدونهم، فاجتمعوا من كل مكـان، فلما بلغ صلاح الدين خبر مسيرهم رحـل عن الكرك الى طريقهـم ليقاتلهـم، ويعود بعـد أن يهزمهم إلى الكـرك، فقرب منهـم ولم يمكنه الدنو منهـم لضيق الارض وصعوبتها، وانتظر خروجهـم من ذلك المكان، فلـم يخرجوا، فـرحل وسـار إلى مدينـة نابلـس، ونهب كل مـاعلى طـريقه مـن البـلاد، فلما وصل الى نـابلس أحـرقهـا وأخربها، وقتـل وأسر

وسبى وسار إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام، وكان فيها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم، وكان بها الاقساء والرهبان وعندهم الاسرى والودائع، فطلبوا الامان فأمنهم على أن يطلقوا من عندهم من الاسرى، ثم سلك الغور وطلع على عقبة فيق، وعاد إلى دمشق.

وفي بيبرس: لما فرغ من سبسطية رحل إلى جينين فنهبها، وعاد إلى دمشق وبث سراياه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون

وفي تاريخ ابن كثير: لما كان صلاح الدين على الكرك بلغه أن الافرنج قد اجتمعوا له كلهم فارسهم وراجلهم ليمنعوا منه الكرك، فانشمر عنها وقصدهم ونزل على حسبي تجاههم، ثم صار الى ماعين فانهزمت الفرنج قاصدين الى الكرك، فأرسل وراءهم من قتل منهم مقتلة عظيمة، وأمر السلطان الجيوش بالاغارة على السواحل لخلوها من المقاتلة فنهبوا نابلس وماحولها من القرايا والرساتيق، ثم عاد السلطان الى دمشق، وأذن للعساكر بالانصراف إلى بلدانهم، وأمر ابن أخيه تقي الدين عمر الملك المظفر أن يعود إلى مصر بعسكره، وكذلك امر لاخيه العادل ان يعود الي حلب، وأقام السلطان بدمشق ليؤدي فرض الصيام.

وقدمت على السلطان خلع الخليفة فلبسها وألبس أخاه الملك العادل وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وخرتبرت، وآمد، التي اطلقها له السلطان.

وفي المرآة: وكان عند صلاح الدين رسل الخليفة شيخ الشيوخ عبد الرحيم، وبشير الخادم، وكانا مريضين فطلبا العود الى بغداد فاذن لهما، فمات بشير بالسخنة وشيخ الشيوخ بالرحبة.

وذكـر في النـوادر السلطانيـة أن دخـول السلطـان صلاح الـديـن إلى دمشق كـان يوم السبت سـابع جمادى الا خرة مـن سنة ثمانين وخمسمائة، وفي هـذا الشهر وصـل رسل الخليفـة ومعهـم الخلع، وفيـه أيضاً وصلـت رسل ابن زيـن الدين مستصرخاً إلى السلطـان يخبرون ان عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهـد الدين قايماز، وأنهم نهبوا وأحرقوا، وأنه نصر عليهم وكسرهم.

ذكر بقية الحوادث:

منها انه وقع الصلح بين صلاح الديـن وصاحب طرابلس، وذلك قبل مسيره الى الكرك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والثمانين بعد المائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين مخيـم بظاهر حماة، وكان بلغـه في أواخر السنة الماضية أن صـاحب الموصل نازل إربل، فبعـث صاحبها يستصرخ بالسلطان، فركـب من فوره إليه في جنـوده وعساكره، فسار إلى بعلبـك، ثم حمص ثم حماة، فـأقام بها أيامـاً، ثم سار إلى حلـب، وتلقاه أخوه العـادل، واجتمعت اليه العسـاكر، فخرج منها في صفـر لقصد الموصل، فقطع الفـرات من البيرة، وجاء الى حران فقبض على صـاحبها مظفر الدين بـن زين الدين، وهـو أخو زين الـديـن صـاحـب إربـل، وكـان وصـول السلطـان الى حـران في الثـاني والعشريـن مـن صفر، وكـان أمـر لسيـف الديـن المشطـوب أن يسير في مقـدمـة العسكـر إلى رأس عين، وكـان قبضـه على صـاحـب حـران في السادس والعشرين مـن صفر وذلك لشيء كان جرى منـه، وحيث كان

بلغّه عنه رسوله، فأنكر عليه، وأخذ منه قلعة حران والرها ثم اعتقله تأديبا له إلى مستهل ربيع الاول، ثم أخرجه وخلع عليه وطيب قلبه، وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها.

وفي تاريخ ابن العميد: وكان صاحب حران مظفر الدين قد بذل خطه بخمسين ألف دينار يوم وصول السلطان إلى حران، فلم ير السلطان لذلك أثراً، فغضب عليه واعتقله، ثم سار السلطان من حران في ثاني ربيع الاول إلى رأس عين ووصل إليه في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان صاحب الروم يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك، فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصلها يوم السبت الثامن من ربيع الاول، وجاء إليه عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين، فالتقاهم السلطان وأكرمهم.

وقال ابن كثير: فتلقاه الملوك من كل ناحية، وجاء إليه عماد الدين أبوبكر بن قرا أرسلان صاحب بلاد بكر وآمد، ثم بلغه موت أخيه ابن قرا أرسلان، فطلب دستوراً ليأخذ مملكته فأعطاه، ثم سار السلطان فنزل على الاسماعيليات قريباً من الموصل، وذلك يوم الثلاثاء الحادي عشر من ربيع الاول، وكان يصل من العسكر كل يوم نوبة جزيلة تحاصر الموصل، وجاء إليه هناك صاحب إربل زين الدين، وأرسل السلطان ضياء الدين ابن كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة يعلمه بما عزم عليه من حصار الموصل، وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الامام ونصرة الاسلام.

ثم سار السلطان ونزل على الموصل، وهو نزوله الثاني عليها، فحاصرها، وكان القتال يعمل كل يوم ويخرج المواصلة اليه عراة يقاتلون،

وأرسل عز الدين مسعود صاحب الموصل والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء الاتابكيات وجماعة معهن يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم خائبين، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين، لاسيما وفيهن بنت نور الدين، وضيق على أهل الموصل، فأشاروا عليه بقصد أخلاط، لما رأوا أنه لاطمع لهم في الموصل، وقالوا: ماتفوت الموصل، فسار إلى أخلاط، وفي مقدمته ناصر الدين محمد وتقي الدين عمر، فوصلوا ميا فارقين وبها يرنقش مملوك صاحب آمد، فامتنع عليهم وقال: أنا وصي يتامى أستاذي قطب الدين، وبعد هذا فالأمر للخاتون والدتهم، فأرسل إليها صلاح الدين خادما ووعدها أن يتزوجها ويزوج ابنه احدى بناتها، فأجابت وسلمت إليه ميافارقين، وأعطاها الهتاخ، وأعطى يرنقش جبل جور، وكان الحاكم على خلاط الوزير مجد الدين ابن الموفق وهو الذي كاتب السلطان، فبعث إليه الفقيه عيسى ليكشف الحال، فغالط وقال: في القلعة سيف الدين بكتمر، وبها ابنة البهلوان زوجة شاه أرمن، وربما جاء البهلوان، فعاد الفقيه إلى السلطان بغير شيء، وجاء البهلوان بعساكر اذربيجان وهمذان، فنزل قريباً من اخلاط، وأرسل الى السلطان يقول: هذه البلاد لابنتي وهي في القلعة، والمصلحة ان تبقى المودة بيننا ودوام الصداقة، فرجع السلطان الى الجزيرة، ورجع البهلوان الى بلاده بعد ان حمل إليه سيف الدين بكتمر أموالا وهدايا، وولى السلطان على ميافارقين ودياربكر مملوكه سنقر الخلاطي، وعاد إلى الموصل، وهذه المرة الثالثة، وهي الاخيرة، فنزل الاسماعيليات، وقيل نزل على كفر زمار بدجلة، وكان الحر شديداً، فأقام مدة، وعزم على أن يشتي بذلك المكان، وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة، واستعد المواصلة للحصار، ومرض السلطان مرضاً شديداً خيف من غائلته، فرحل طالباً وهومريض، وكان يتجلد، ولم يركب في محفة، فوصل حران وهو شديد المرض، وبلغ غاية الضعف حتى أيس منه، وأرجف بموته، وكان رحيله من كفر زمار في مستهل شوال من هذه السنة فوصل إليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها.

وفي المرآة: ولما كان السلطان على كفر زمار أشار أمراء عز الدين مسعود عليه بأن يخرج إليه الاتابكيات يشفعن إليه فخرجن ومعهن والدة عز الدين مسعود فأكرمهن ووعدهن الاحسان وقرر عماد الدين الصلح، وخطب للسلطان بالموصل، وأعطى عز الدين شهرزور والبوازيج، ووقف عليها قرية تعرف بباقيلا، ورحل عن الموصل يريد الجزيرة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان قد لازم قراءة القرآن في شهر رمضان، واشتد الحر فمرض مرضاً شديداً فتناثر شعر رأسه ولحيته، وقيل إنه سقي، وضعف ضعفاً خيف عليه منه، وأرجف بموته، وأقام على نصيبين وقد أيسنا منه، ثم حمل في محفة إلى حران، فنزل في ظاهرها، وبنى داراً سماها دار العافية.

وفي تاريخ النويري: وجاءت رسل صاحب الموصل إلى السلطان وهو بحران بالاجابة إلى ماطلب. وهو أن يسلم صاحب الموصل الى السلطان شهرزور وأعمالها وولاية القرامبلي وجميع ماوراء الزاب، وأن يخطب للسلطان على جميع منابر الموصل ومابيده، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، ورضي السلطان بذلك، وتقرر الصلح، وأمنت البلاد، ثم رحل السلطان من حران وقد عوفي وعاد إلى دمشق في السنة الآتية.

وقال ابن كثير: ولما استقر الصلح بين صلاح الدين وبين المواصلة ـ كما ذكرنا ـ انقطعت خطبة السلاجقة والارتقية بتلك البلاد كلها.

قال: ولما جاء إليه أخوه العادل من حلب، ورآه في غاية الضعف أشار عليه بأن يوصي ويعهد، فقال: ماأبالي وأنا أترك من بعدي: أبا بكر، وعمراً وعليا وعثمانا، وأراد بأبي بكر أخاه العادل صاحب حلب، وأراد بعمر تقي الدين عمر صاحب حماة، وهو إذ ذاك صاحب مصر

وبها مقيم، وأراد بعثمان وعلي ابنيه الملك العزيز عثمان والملك الافضل علي، ونذر السلطان في ضعفه لئن شفاه الله تعالى من مرضه هذا ليصرفن همته كلها إلى قتال الكفار، ولايقاتل بعد ذلك مسلماً، وليجعلن اكبر همته فتح بيت المقدس ولو صرف في سبيل ذلك جميع مايملكه من الاموال والذخائر وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده، وذلك لانه نقض العهد الذي عاهد السلطان عليه، فغد بقافله تجار من مصر فأخذ أموالهم وضرب رقابهم بين يديه صبراً، وهو يقول: أين محمدكم ينصركم، وكان هذا النذر كله باشارة القاضي الفاضل، ثم إن الله عز وجل بكرمه وفضله عافاه مما كان ابتلاه به، فسارت البشائر بذلك في كل ناحية، ودقت البشائر وزينت.

قال ابن كثير: ثم ركب السلطان من حران بعد العافية، فدخل حلب، ثم اجتاز بحماه وحمص حتى دخل دمشق، وكان دخوله حلب يوم الاحد الرابع عشر من المحرم سنة اثنتين وثمانين، وكان يوماً مشهوداً لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشر نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بتل السلطان، ومعه أخته، ومعه خدمة عظيمة، ومنّ عليه بحمص موضع والده بحكم وفاته، ثم سار إلى دمشق فدخلها في الثاني من ربيع الاول من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، وكان يوماً مشهوداً وصباحاً محموداً.

وفيها كان المنجمون بدمشق قد حكموا بأن يهب هواء مزعج برمل يهلك الناس، فحفروا أسراباً واختفوا فيها، فظهر كذب المنجمين.

-١١٢٦٨-

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الامير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه

صاحب حمص والرحبة، وهو ابن عم السلطان صلاح الدين، وزوج أخته ست الشام بنت أيوب، توفي بحمص، ثم نقلته زوجته ست الشام الى تربتها بالمدرسة الشامية البرانية، فقبره هو الاوسط بينها وبين أخيها الملك المعظم تورانشاه، صاحب اليمن، وقد خلف ناصر الدين محمد من الاموال والذخائر شيئاً كثيراً ينيف على الف الف دينار، وكانت وفاته يوم عرفة فجأة.

وقال النويري: وفي هذه السنة، ليلة عيد الاضحى، شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي فأصبح ميتاً، قيل إن السلطان دس عليه من سقاه سماً لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أبقى السلطان حمص وماكان بيد محمد على ولده شيركوه بن محمد بن شيركوه، وعمره اثنتي عشرة سنة، وخلف ناصر الدين محمد شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عودته من حران، وأخذ أكثرها، ولم يترك الا مالا خير فيه.

وفي المرآة: وكان السلطان صلاح الدين يخافه، لانه كان يدعي أنه أحق بالملك منه، وكان بلغ السلطان عنه هذا، وكان قد فارق السلطان من حران وجاء إلى حمص، وتوفي يوم عرفة بقي يتناثر لحمه، وقيل انه سم، وقيل مات فجأة.

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود :

صاحب حصن كيفا وآمد، مات في هذه السنة، وملك بعده ولده

سقمان، ولقبه قطب الـدين، وكان صغيرا، فقام بتدبير دولتـه وزيره القوام ابن سماقا الاسعردي.

وفي تاريخ بيبرس: مات نور الدين محمـد المذكور، لماكان صلاح الدين محاصراً للموصل، وخلف ولديـن، ملك الاكبر منهما واسمه سقمان، ولقبه قطب الديـن، فلما بلغ أخاه وفاته سـار ليملك بلاده فتعذر عليـه أمرها، فسـار إلى خرتبرت فملكهـا، وهي بيـد أولاده، ورجع صـلاح الديـن الى ميافـارقين، فحضر إليه ولد نـور الدين فأقـره على ملك أبيه، ومـن جملته آمد، وكانوا خافوا أن يأخذهـا منهم فلم يفعل، وردهم الى بلادهم وشرط عليهم أن يكـونوا تحت أمره وطـاعته، وجعـل معهم من جهتـه أميراً لقبه صلاح الدين من أصحاب والده.

الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر

وكان من الامراء الكبـار ايام نور الدين محمود وصلاح الـدين يوسف، كما ذكرنـا، توفي في دمشـق في جمادى الاخرى من هـذه السنة، مـن جرح أصابه وهو في حصار ميافارقين.

الست خاتون عصمة الدين بنت معين أنر:

نائب دمشق وأتابك عساكرها قبل نور الدين محمود ــ كما تقدم ــ وقد كـانت زوجـة نور الـدين ــ كما تقدم ــ ثم خلـف عليها مـن بعده صـلاح الديـن في سنة ثـلاث وسبعين وخمسمائة، توفيـت في هذه السنـة، وكانت من أحسن النساء وأعفهن، وأكثرهـن صدقة، وهي واقفة الخاتونية الجوانية في محلة حجر الذهب، وخانقـاه خاتون ظاهر باب النصر في أول الشرف القبلي على بانيـاس، ودفنت بتربتهـا في سفح قـاسيون قـريبا مـن قبيبات الشركسية، ولها أوقـاف كثيرة، فأما الخاتونية البرانيـة التي هي على

القنوات محلة صنعاء الشام، ويعرف ذلك المكان الذي هي به بتل الثعالب، فهي من انشاء الست زمرد خاتون بنت جاولي، وهي أخت الملك دقاق لامه، وكانت زوجة زنكي ونور الدين صاحب حلب، وقد ماتت قبل هذا الحين كما تقدم.

وفي المرآة: ولها صدقات كثيرة وبر عظيم، بنت بدمشق مدرسة لاصحاب ابي حنيفة رضي الله عنه في حجر الذهب، قريبة من حمام ازكش، وتعرف بمدرسة خاتون، وكانت وفاتها في رجب، وبلغ السلطان صلاح الدين وفاتها، وهو مريض بحران، فتزايد مرضه وحزن عليها وتأسف، وكان يصدر عن رأيها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر والشام وغيرهما، وكان قد تعافى من مرضه، ووجد نشاطاً، ورحل من البلاد الفراتية ووصل الى حلب يوم الاحد الرابع عشر من محرم هذه السنة، وكان يوماً مشهود الشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام فيها أربعة أياما ثم رحل في ثامن عشر من محرم نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه بتل السلطان ومعه أخته، ومعه

هدية هائلة، ومن عليه بحمص، فأقام أياما يعتبر تركة أبيه، وكان قد خلف أموالا عظيمة وجواهر ومناطق الذهب والفضة، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار، وكان القاضي نجم الدين ابن عصرون حاضر القسمة . فقام يوماً فوقعت من تحت ذيله منطقة مجوهرة، فنسبه العادل إلى ما لايليق به، وكان نجم الدين منزها عن ذلك لانه كان غنياً جواداً، شريف النفس، فحلف للعادل انني ماعلمت بها وصدق، وإنما الحساد وجدوا طريقاً للقول، ثم سار يطلب جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الاول، وكان يوما لم ير مثله فرحاً وسروراً، ثم قرر في ملك دمشق ولده الافضل علياً، ونزل العادل أبو بكر عن حلب لصهره زوج ابنته، الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين، وأرسل السلطان أخاه العادل صحبة ولده عماد الدين عثمان، الملقب بالملك العزيز على ملك مصر، ويكون العادل أتابكه، وله اقطاعات عظيمة جدا، وعزل عن نيابتها تقي الدين عمر، فعزم عمر على الدخول إلى بلاد إفريقية، فلم يزل السلطان يكاتبه ويتلاطف به، ويترفق له حتى أقبل بجنوده نحوه، فأكرمه وأقطعه حماة وبلاداً كثيرة معها، وقد كانت له قبل ذلك بسنين، وزاده على ذلك مدينة ميافارقين.

وقال النـويري: ولما بعث السلطان ولـده الملك العزيز صحبـة العادل الى مصر، استدعى تقي الدبن من مصر بسبب أن السلطان تجنى عليه في البـاطـن، فإنـه ظـن أنـه أخـرج ولـده من مصر ليملـك مصر إذا مـات السلطان، وقيل إنه توقف عن الحضـور، وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد إفـريقية وبرقة من المغرب، وبلـغ السلطان ذلك فنهاه، وأرسـل يستدعيه ويـلاطفه، فحضر إليـه، ولما حضر إليه زاده على حماه منبج، ومعرة النعمان، وكفـر طاب، وميافارقين، وجبـل جور بجميع أعمالها، واستقر الملـك العادل أبو بكـر، والملك العـزيز عثمان بمصر، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها.

وفي تـاريخ بيبرس: سير السلطـان صـلاح الديـن الى ابـن أخيه تقـي الديـن عمر يستـدعيه مـن مصر إلى الشام والسبـب في ذلك أن صـلاح الدين لما استنابه بمصر ضم إليـه ولده الافضل، وكان أكبر ولده، فخاف صـلاح الديـن في مـرضه أن يتـولى تقـي الديـن البـلاد، ولايجلس ولـده الافضل، فأرسل في طلبه لهذا السبب، وأشـار عليه بعض أمرائه أن يعزل العادل من حلـب، فوقعت هذه الاشارة مـن نفسه موقعاً موافقـاً لغرضه، فلما حضر أخوه العادل إليه، أوصى صلاح الـدين ولده الظاهر غازي أن يلتمس من عمه حلب ليهبها له، فسأله ذلـك، فأجابه عمه العادل لوقته وكتب لـه بها، فتسلمها واستقـر بها وأولاده من بعـده، وكان تقـي الديـن يومئذ بمصر فبلغـه ان صلاح الدين يـريد عزله عنهـا، فأراد أن يهرب إلى المغرب، فإن قراقـوش فتح با لمغرب مدنا كثيرة فـأشار عليه أمراء مصر أن لايـروح إلى المغرب، وأن يمضي إلى عمـه ويستعطفه، فتجهـز وخرج مـن مصر، وسير صـلاح الديـن ولـده العزيـز صحبـة عمه العـادل الى مصر، ورتب ولده الظاهر غازي بحلب عـوضاً عن عمه العادل، ولما وصل تقي الدين الى صلاح الدين أنعم عليه بميافارقين.

وفي النوادر السلطانية: ولما تقرر الامر المذكور بين هؤلاء الملوك، قال العادل: اجتمعت بالملك العزيز والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للملك العزيز: اعلم يامولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم ان المفسدين كثير، ولاتخلو غدا ممن يقول عني مالايجوز، ويخوفك مني فإن كان لك عزم تسمع فقل إلي حتى لاأجيء، فقال: لاأسمع، وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: أنا أعرف أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا مالي الا أنت، وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدري من جانبه، فقال مبارك، وذكر كل خير.

وفي النوادر أيضاً أن الملك الظاهر سار إلى حلب حتى أتى إلى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشارة، وواليا عيسى بن بلاشو، فنزل في يوم الجمعة بعين المباركة، وخرج الناس الى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الاخرة من هذه السنة، وصعد القلعة المحروسة ضحوة النهار، وفرح الناس به فرحاً شديداً.

وأما تقي الدين فإنه لما وصل، سار السلطان الى لقائه، فلقيه بمرج الصفر في ثالث عشرين شعبان من هذه السنة وأعطاه حماة، وسار إليها.

وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتمم ذلك ودخل بها يوم الاربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من هذه السنة.

وفيها حضر القمص صاحب طرابلس الى الملك الناصر صلاح الدين، واتفق معه ان يفتح له جميع الساحل، وأطلق له الملك الناصر جميع الاسرى والذين كانوا عنده، وجرد معه عسكراً الى الساحل، وفتح

الطريق من مصر إلى الشام، وسار فيها التجار، ثم إن القمص(٢٠) المذكور نافق وأخذ قافلة من التجار، ودخل بلاد الفرنج، فحلف الملك الناصر لئن ظفر به ليقتلنه بيده، وكان ذلك سبب فتوح الساحل.

وفيها كانت فتنة بين التركمان والاكراد ببلاد الجزيرة، والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان، وقتل فيها من الخلق مالايحصى ودامت عدة سنين، وانقطعت الطرق، ونهبت الاموال واريقت الدماء، ثم إن مجاهد الدين قايماز نائب صاحب الموصل جمع عنده رؤساء الاكراد والتركمان وأصلح بينهم، وخلع عليهم، وانقطعت الفتنة العظيمة.

وفيها دخل سيف الاسلام الى مكة ومنع من الاذان بحي على خير العمل، وقتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس، وأغلق أمير مكة باب البيت، وصعد إلى أبي قبيس، فأرسل إليه وطلب المفتاح من صاحب مكة، فأبى من انفاذه فقال سيف الاسلام لرسوله: قل لصاحبك: إن الله نهانا عن أشياء فارتكبناها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لاتأخذوا المفتاح، من بيت شيبة، فنأخذه ونستغفر الله تعالى، فبعث إليه المفتاح.

وفيها قسم السلطان صلاح الدين البلاد بين أولاده وأهله برأي القاضي الفاضل، فإنه لما مرض أشاروا عليه بذلك.

وفيها ظهر الخلاف بين الافرنج، وتفرقت كلمتهم، وكان ذلك سببا لسعادة الاسلام.

وفيها غدر ابرنس الكرك واسمه ارناط، وكان أخبث الافرنج، وأشرهم، فقطع الطريق على قافلة جاءت من مصر إلى الشام، وفيها خلق عظيم ومال كثير، فاستولى على الجميع قتلا وأسراً ونهباً، فأرسل اليه

السلطان يوبخه على مافعل ويقول: أين العهود والمواثيق، رد ما أخذت، فلم يلتفت وشن الغارات على المسلمين وفتك فيهم، فنذر السلطان دمه، وأقام السلطان بدمشق يجهز للقاء العدو، واستدعى العساكر من المشرق والمغرب.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة وكان أولها يوم السبت، وكان يوم النيروز، وذلك أول سنة الفرس، واتفق أنه أول سنة الروم ايضاً، وهذا اليوم الذي نزلت فيه الشمس برج الحمل، وكذلك كان القمر في برج الحمل أيضاً.

قال ابن الاثير: وهذا شيء يبعد وقوع مثله.

ذكر غزوات السلطان صلاح الدين وفتوحاته:

كان السلطان رحمه الله قد جمع عساكره في آخر السنة الماضية، ولما استهلت هذه السنة التي أولها يوم السبت برز السلطان من دمشق في هذا اليوم، وقيل برز في أثناء الشهر، أعني محرم هذه السنة فسار إلى رأس الماء، فنزل ولده الافضل هناك في طائفة من الجيش، وتقدم السلطان ببقية الجيش الى بصرى، ثم خيم على قصر أبي سلامة ينتظر قدوم الحجاج وفيهم أخته ست الشام وابنها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ليسلموا من معرة ابرنس الكرك.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة تقدم أمر صلاح الدين إلى جميع البلاد بأن يحضروا للغزاة في سبيل الله، فحضر من الجند عسكر الموصل وعسكر ديار بكر، مقدمهم الامير زين الدين صاحب حران، وعسكر الشام مقدمهم ابن دلدرم، وعسكر مصر وحلب وغيره، وخرج من

دمشق وقصد الكرك، كما نذكر عن قريب، انشاء الله تعالى.

وفي المرآة: خرج السلطان من دمشق غرة المحرم بعساكر الشام، ونزل بصرى يرتقب وصول الحاج، وقد كان بلغه ان ابرنس الكرك يرتقب وصولهم، فخاف من غدره، ووصل الحاج في اواخر المحرم، وخلا سر السلطان منهم فسار الى الكرك على مانذكره.

وذكر صاحب النوادر السلطانية: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة عزم صلاح الدين على قصد الكرك، فسير الى حلب من يستحضر العسكر وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض بصرى منتظراً لاجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارة على مافي طريقهم من بلاد الساحلية ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر الشتوي، ووصل معهم بيت الملك المظفر، وماكان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالهم بالفرنج، بأرض انطاكية وبلاد ابن ليون، وذلك أنه كان قد مات ملك الافرنج الى لعنة الله ووصى لابن أخته بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان، فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد نائرته، وكان وصول تقي الدين الى حلب في السابع والعشرين من محرم هذه السنة، فنزل في دار عفيف الدين بن زريق، وأقام بها الى ثالث صفر، ثم انتقل الى دار طمان.

وفي تاسع صفر سار الملك المظفر بعسكر حلب الى حارم وأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل، وعاد السلطان الى الشام، وكان وصوله الى السواد في خامس عشر ربيع الاول من هذه السنة.

وفي يوم الخميس سابع عشر نزل بعشترا ولقيه ولده الملك الافضل، ومظفر الدين وجميع العساكر، ومن منتصف ربيع الآخر عرض السلطان

العسـاكـر على تل يعـرف بتـل تسيـل، وتقـدم الى ارباب الميمنـة بحفـظ موضعهـم والى اصحاب الميسرة كذلـك، والى اصحاب القلب بمثلـه، ثم ذكـر صاحـب هذا التـاريـخ وقعة حطين، ولم يـذكـر ماجـرى قبل هـذه الواقعة من الأمور، ونحن نذكرها مفصلة بعون الله ولطفه.

ذكر محاصرة الكرك:

لما قـدم الحاج في أواخـر صفـر، نـزل السلطـان على الكـرك، وقطـع مـاحولـه مـن الاشجار، ورعـى الـزروع، وأكلوا الثمار، وجـاءتـه العساكـر المصرية، فتلقاهـم بالقريتين، واجتمع عنده خلـق كثير من العرب والترك والكـرد وغيرهم، وكـذلك فعـل بشوبـك مـافعل بـالكرك مـن المضايقـة والمحاصرة واذهـاب ضياء تلـك الضياع، وازالة نقـاء تلك البقـاع، واقام على هـذه الحالة في ذلـك الجانب شهـريـن والملك الافضـل ولده مقيـم برأس الماء في جمع عظيم من العسكر.

وتوافت الجيوش الشرقية، فنزلـوا عند الافضل، وقعدوا ينتظرون الاشارة من السلطان.

ذكر بعث الافضل الى اعمال طبرية سريته:

ثم ان الملـك الافضل بعث سريته نحـو أعمال طبرية وأمرهم بـالغارة على حين غره، وجعل مقدمهم مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك، وجعـل على عسكر دمشـق قايماز النجمـي، وعلى عسكـر حلب دلـدرم الياروقـي، فساروا وصبحوا صفوريـة، فخرج إليهم الفرنـج في جمع عظيم من الـداوية والاسبتارية وغيرهما، فـوقع حرب عظيم، وكـاد المسلمون أن ينهزموا وينفلوا، فثبـت قايماز النجمي في صدورهم وكذلـك مظفر الدين وحمل عليهم مـن ناحيته ودلدرم مـن ناحيته، فقتلوا وغنمـوا وأسروا وسبوا

ورجعوا سالمين غانمين، وجاء الخبر، بالفتح والظفر للسلطان صلاح الدين وهو بالكرك، وكان هذا مقدمة الفتح.

وفي تاريخ بيبرس: ندب السلطان ولده الافضل للغارة على عكا والسواحل، وسير صحبته مظفر الدين كوكبري، فلما وصلوا صفورية التقوا الفرنج، ووقع القتال، فهزم الله عز وجل الافرنج، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، منهم مقدم الاسبتارية، وأسر الباقون وسيرت البشائر الى البلاد، ولما انتهى الخبر إلى السلطان رجع عن الكرك ولحق بالعسكر الذي مع ولده الافضل، وقد تلاحقت إليه العساكر والنجدات.

وفي المرآة: كان السلطان صلاح الدين قد أمر ولده الافضل عند مسيره الى الكرك أن ينزل على رأس الماء بطائفة من العسكر ينتظر باقي العساكر الشرقية، فأنهض الافضل منهم طائفة للغارة على طبرية، وجعل مقدم العساكر الشرقية مظفر الدين، وعلى عسكر الشام صارم الدين قايماز النجمي، فنزلوا طبرية وتقدم بدر الدين دلدرم مقدم عسكر حلب الى طبرية، فخرج إليه مقدم الداوية والاسبتارية ومعهم جماعة فقاتلوهم فقتلهم دلدرم وأسر بعضهم، وسار إلى صفورية ففعل كذلك، وعاد بالأسارى الى الافضل وهو على شعب الشهاب، وجاء السلطان الى تسيل - قرية غربي نوى - وصعد على تلها وعرض العساكر، وسر بها رأى، واندفع يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الاول نحو فيق، ورحل الافضل بالعساكر معه فالتقوا على الاقحوانة، وكان يقصد المسير الى العدو يوم الجمعة تبركاً بأدعية الخطباء، وخيم على ساحل البحيرة في اثني عشر الفاً من الفرسان، وأما الرجالة فيقال إنهم كانوا في ثمانين الفا مابين فارس وراجل، فنزلوا صفورية، وتقدم السلطان الى طبرية.

ذكر محاصرة طبرية وفتحها:

لما تقدم السلطان الى طبرية نصب عليها المجانيق، ونقب أسوارها، ففتحها يوم الخميس الرابع عشر من ربيع الآخر، وتمنعت القلعة عليه وبها زوجة القومص، وتقدم الفرنج فنزلوا لوبية يوم الجمعة عند طلوع الشمس، وملك المسلمون عليهم الماء، وكان يوماً حاراً، والتهب الغور عليهم، وأضرم مظفر الدين النار في الزرع، وباتوا طول الليل والمسلمون حولهم، فلما طلع الفجر يوم السبت قاتلوا الى الظهر، ثم صعدوا الى تل حطين على مانذكر الآن وقعة حطين.

وقال ابن كثير: لما سار السلطان الى طبرية فتحها، وقد كانت طبرية تقاسم بلاد حوران والبلقاء وماحولها من الجولان وتلك الاراضي كلها بالنصف، فاراح الله المسلمين من تلك المقاسم، وتوفرت عليهم.

وقال العماد: وكانت الست صاحبة طبرية قد حمتها ونقلت إليها كل ماملكته وحوته، فلما جاء إليها السلطان أمنها على أصحابها وأموالها، وخرجت بنسائها ورجالها وسارت الست إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها، وعادت طبرية آهلة آمنة بأهل الايمان، ثم عين السلطان لولايتها صارم الدين قايماز النجمي، وهو من أعيان الامراء.

وقال ابن كثير: ولما اجتمع السلطان بولده الافضل، خيم على عشترا، وسمع الفرنج بذلك فاجتمعوا كلهم وتصالحوا فيما بينهم، ودخل بينهم قومس صاحب طرابلس، ونقض العهد، وابرنس الكرك في جمع عظيم قيل كانوا خمسين ألفاً، وقيل ثلاثاً وستين ألفاً، وقد خوفهم القومص بأس المسلمين، فاعترض عليه برنس الكرك فقال له: لاشك أنك تحب المسلمين وتخوفنا من كثرتهم، والنار لاتخاف من كثرة الحطب، فقال القومص لهم: ما أنا إلا واحد منكم وسترون غب ماأقول لكم، وكانت

طبرية للقومص، وكان قد هادن السلطان، ودخل في طاعته كما ذكرنا، فأرسلت الفرنج إليه القسوس والبطريق ينهونه عن موافقة السلطان.

وأصل ملك القومص طبرية أنه كان لطبرية ملك يقال له أماري بن فلك، هلك في آخر سنة تسع وستين وخمسمائة وخلف ولداً مجذوماً قد سقطت أعضاؤه، فوضع الفرنج التاج على رأسه ورضوا به مع عيبه حتى لايخرج الملك من بينهم، فبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكاً مطاعاً، فلما حس بهلاكه أحضر البطريق والقسوس وأكابر دولته وكان له ابن أخت صغير، وقال لهم: يكون هذا ملكاً ، ولكن القومص أراد ان يستبد بالملك فلم يوافقه الداوية، وقالوا: يلزمك العمل بشروط الوصية وتكفل بالأمر وهو مغلوب في مقاومة السلطان ومحاربته ليتقوى بذلك على الملك، فاشتد امره الى أن مات الصغير، فانتقل الملك منه إلى أمه، وبطل ماكان في نية القومص من استبداده بالملك، فانتقل الملك إليها، واجتمع الفرنج عليها، فقالت لهم: زوجي أقدر على الملك وهو أحق به، وأخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه، ثم إن الملك الكبير طالب القومص بحساب ماتولاه، فاستنصر القومص عليه بالسلطان صلاح الدين فهادنه وتقرب منه، ثم لما اجتمعت العساكر الاسلامية من الشامية والمصرية والجزرية جاء الملك الى القومص بنفسه، وقبح له رأيه في مهادنته مع السلطان، ورجعه عن ذلك حتى اتفقت الافرنج كلهم على المسلمين.

ذكر وقعة حطين:

ولما اجتمع الفرنج لملتقى السلطان فارسهم وراجلهم وساروا الى السلطان ركب السلطان من عند طبرية، وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر والتقى الجمعان، واشتد القتال، ولما رأى القومص شدة الامر حمل على من قدامه من المسلمين، وكان هناك تقي الدين صاحب حماة، فأفرج له، وعطف عليهم، فنجا القومص ووصل الى

طرابلس، وبقي مدة، ومات غماً لعنه الله، وأخذ المسلمون الفرنج من كل ناحية، وأبادوهم قتلا وأسراً، وكان في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير، والبرنس أرناط صاحب الكرك، وصاحب جبيل، وابن الهنفري، ومقدم الداوية وجماعة من الاسبتارية، وما أصيب الفرنج من حين خرجوا الى الشام في سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن مصيبة مثل هذه الوقعة، وهي الوقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس.

وقال ابن الاثير: وكان في جملة الاسارى جميع ملوكهم سوى القومص صاحب طرابلس فإنه انهزم في أول الواقعة، وأخذ صليبهم الاعظم عندهم، وهو الذي يزعمون أنه هو الذي صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب، ورصعوه باللآلي والجواهر النفيسة ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾[الفرقان ٢٦].

وقال ابن واصل: ذكر العماد أن السلطان الملك الناصر خلص في هذه النوبة ثلاثين ألف أسير من المسلمين، وأسر من الكفار مائة ألف أسير، وكان يوماً عظيماً حتى أنه ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً بنعل لبسها في رجله.

وفي المرآة: ولما فتح الله للمسلمين ونصرهم على الافرنج، جيء الى السلطان بصليب الصلبوت وهو مرصع بالجواهر واليواقيت في غلاف من ذهب، وهو عند النصارى مثل المسيح، والذي أسر الملك درباس الكردي، والذي أسر ابرنس ابراهيم غلام المهراني، فلما رآهم السلطان نزل وسجد شكراً لله تعالى، وجاء إلى خيمته فاستدعاهم فجلس الملك عن يمينه، وابرنس الكرك الى جانب الملك، ونظر السلطان الى الملك وهو يلهث عطشاً، فأمر له بقدح من ثلج وماء فشربه وسقى الابرنس،

فقال السلطان: ماأذنت لك بسقيه فلم سقيته؟ وكان السلطان قد نذر أن يقتل الابرنس بيده، فقال له: ياملعون ياغدار، خلعت وغدرت ونكثت، وجعل يعدد عليه غدراته، ثم قام إليه فضربه بالسيف حل كتفه، وتقدم المماليك وقطعوا رأسه، وأطعموا جثته الكلاب، فلما رآه الملك قتيلاً خاف وطار عقله، فأمنه السلطان وقال: هذا غدار كذاب، غدر غير مرة.

وقال ابن كثير: ولما تمت الوقعة أمر السلطان بضرب مخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة، وعن يمينه أسرة وعن يساره مثلها، وجيء بالأسارى يسحبون في قيودهم، فضربت أعناقهم وفيهم جماعة من مقدمي الداوية والاسبتارية، بين يديه صبراً، ولم يترك فيهم من كان يذكر الناس عنه شرا، ثم جيء بالملوك فأجلسوا عن يمينه ويساره على مراتبهم، فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه وبجنبه أرناط برنس الكرك وبقية الملوك عن يساره، فجيء السلطان بشراب من الجلاب مثلوج فشرب ثم ناول الملك فشرب، ثم ناول ارناط فشرب، فغضب السلطان وقال: أنا سقيتك ولم آمرك أن تسقيه، هذا لاعهد له عندي، ثم تحول السلطان إلى خيمة داخل الخيمة، واستدعى أرناط، فلما وقف بين يديه قام إليه بالسيف، وقال: أنا أنوب عن رسول الله صلى الله عليه، ثم دعاه الى الاسلام فامتنع فقتله.

وقال العماد: قام السلطان فضرب عنقه بيده.

قلت: إنما فعل ذلك بيده، إقامة لنذره الذي نذر حين مرض[٢١] كما ذكرناه.

ثم قتل السلطان جميع من كان في الاسرى من الداوية والاسبتارية صبراً، وأراح الله المسلمين من هذين الجنسين النجسين، ولم يسلم ممن

عرض عليه الاسلام منهم الا القليل، فيقال إنه بلغ القتلى ثلاثين ألفاً وكذلك الاسرى كانوا ثلاثين ألفاً، وكان جيش الافرنج ثلاثة وستين ألفاً، ومن سلم منهم مع قتلهم أكثرهم جرحى، فماتوا ببلادهم بعد رجوعهم، ثم أرسل برؤوس الاسرى ورأس أعيان القتلى، وبصليب الصلبوت صحبة القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق ليودعوا في قلعتها، فدخل بالصليب منكوساً بين يدي القاضي إلى دمشق، وكان يوماً مشهوداً.

وذكر في النوادر ماملخصه أن صلاح الدين اندفع قاصداً نحو بلاد العدو في وسط نهار الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة، وكان بلغه أنهم اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا، فقصد نحو المصاف معهم، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل، وكان نزوله يوم الاربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخر، ولما رآهم لايتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الاطلاب على حالها قبالة وجه العدو، وزحف على طبرية فأخذها في ساعة من النهار، ثم التقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في آخر الخميس الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وحال الليل بين الفريقين فتبايتا على مصاف شاكين في السلاح إلى صبيحة الجمعة الثالث والعشرون منه، فركب العسكران وتصادما وذلك بأرض تسمى اللوبية، فحال الليل بينهما أيضاً، ولما كان صباح السبت الرابع والعشرين منه ووقع القتال، نصر الله المسلمين بعونه ولطفه، فلم ينج منهم واحد، واعتصمت طائفة أخرى بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عند قبر شعيب عليه السلام، ثم ذكر ماذكرنا، ثم قال: ولما كان يوم الاحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر نزل السلطان على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

- ١١٢٨٤ -

ذكر فتح عكا:

وفيها لغتان المدّ والنسبة إليها عكاوي، وعكة بالهاء، ولما فرغ السلطان من أمر طبرية سار إلى عكا، فنزل عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر، ففتحها صلحاً يوم الجمعة، وأخذ ماكان بها من حواصل وأموال وذخائر ومتاجر، واستنقذ من كان بها من المسلمين، فوجدوا بها أربعة آلاف أسير منهم، ففرج الله عنهم، وأمر بإقامة الجمعة بعكا، فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل بعد أن أخذه الفرنج من نحو تسعين سنة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان جعل للفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري كل مايتعلق بالداوية، من منازل وضياع فأخذها بما فيها من غلات ومتاع، ووهب عكا لولده الافضل، وقال: ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى فأقمنا بها الجمعة، وأعدنا الكنيسة العظمى جامعاً، وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب الشهرزوري، فإنه تولى بها القضاء والخطبة.

وفي المرآة: نازل السلطان صلاح الدين عكا يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر وليس بها من يحميها، لأن وقعة حطين أبادتهم، وكانوا ثلاثين ألفاً، فطلبوا منه الامان على نفوسهم ومايقدرون على حمله فأمنهم فدخلها يوم الجمعة غرة جمادى الاولى وغنم المسلمون أموالاً لاتحصى، ولما دخلوا عكا ركز كل واحد رمحه على دار فأخذها ومافيها، ولم يحضر بهذه الفتوح العادل سيف الدين أخو السلطان، وكان بمصر، فجاء ففتح في طريقه مجدل يابا، ويافا على مانذكره، وحضر الملك العزيزلانه قدم مع العسكر المصري، ومضى إلى مصر وماعاد اجتمع بأبيه وفارق أباه في شعبان والسلطان على صور.

وكتب العماد الكاتب إلى بغداد كتاباً أولـه: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الـذكر أن الارض يرثهـا عبادي الصالحون﴾ [الانبيـاء ١٠٥] والحمد لله على انجاز هـذا الوعد وعلى نصرته لهذا الـدين الحنيف من قبـل ومن بعد، وجعـل من ﴿بعـد عسر يسراً﴾[الطلاق ٧] وأحـدث بعد أمـر أمراً وهو الامـر الذي مـاكان الاسـلام يستطيع عليـه صبراً، وخوطـب الديـن بقولـه: ﴿ولقد مننـا عليك مرة أخـرى﴾ [طه ٣٧] فـأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحـابة، والاخرى في هذه الدولة التـي عتق فيها مـن رق الكآبـة، والـزمـان لهيبته قـد استـدار، والحق ببهجتـه قد استنـار، والكفـر قد ردّ مـاعنـده في استعـار، والخادم شرح في هذا الفتـح العظيـم والنصر الكريـم مايشرح صـدور المؤمنين ويسوء وجوه الكـافريـن ويورد من البشرى مـاأنعم اللـه من يوم الخميـس الثالـث والعشرين مـن ربيع الآخر سلخه، وتلك ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ [الحاقة ٧] عدموا فيها نفوسـاً وجسوما، فأصبحـوا قد هووا في الهاوية ﴿كـأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقـة ٦٩] وأصبحت البلاد إلى الاسلام ضاحكـة، كما كانت بالكفـر باكيـة، ففي يوم الخميـس فتحت طبريـة، ويوم الجمعـة والسبت كانت الكسرة التي ماأبقت منهم بقية لايقـوم لهم بعدها قائمة ﴿وكذلك أخـذ ربـك إذا أخذ القـرى وهـي ظـالمة﴾[هود ١٠٢] وهـي أم البـلاد، وأخت ﴿إرم ذات العماد﴾[الفجر٧] إلى غير ذلك من الكلمات.

ذكر فتح مجدل يابا:

ثم إن السلطـان رحمه الله أرسل أخاه الملـك العادل فنازل مجدل يـابا وفتحه عنوة بالسيف.

وقـال ابن كثير: وجـاء العادل إلى السلطـان بعـد وقعة حطين، وفتـح عكا، ففتح بنفسه حصوناً كثيرة.

وقال العماد الكاتب: ولما فتح السلطان مدينة عكا، أقام ببابها مخيما، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمماً، وقد كان كتب إلى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر، وهو بمصر، بما فتح الله له، فوصلت البشرى بوصول العادل باشراً، وللواء الحمد ناشراً، وأنه فتح حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، واغتنمها غزوة

ثم إن السلطان فرق أمراءه إلى فتح البلاد، ففتح كل واحد منهم حصناً أو قلعة على مانذكره الآن إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح الناصرة وصفورية:

أرسل السلطان مظفر الدين كوكبوري الى الناصرة وصفورية ومعه حسام الدين طمان، فاستباح حماهما واستبى دماءهما ففتحهما، وغنم مافيهما من الاموال والذخائر، وجاء الى السلطان والاسارى بين يديه مقرنين في الاصفاد ومقادين في الاقياد.

وفي تاريخ المؤيد: وفرق السطان عسكره ففتحوا الناصرة، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، ومعليا، والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا، بالسيف وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الاماكن.

ذكر فتح قيسارية:

أرسل السلطان بدر الدين دلدرم الياروقي، وغرس الدين قليج، وجماعة من الامراء إلى قيسارية، فافتتحوها بالسيف، وغنموا وأسروا وسبوا.

ذكر فتح نابلس:

أرسل السلطان حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس، ووصل الى سبسطية فتسلمها وتعجل مغنمها، ووجد مشهد

زكريا النبـي عليه السلام، قد اتخذه القسوس كنيسـة، وأعاده مشهداً ورده مسجداً ووضـع فيه منبراً، ثـم أناخ على نـابلس وحـاصرها، وطـال عليه حصارها، ولم يـزل عليها مقيماً ولقتالها مديماً إلى أن استأمنوا منـه فأمنهم، ففتحوا لـه القلعة، وملكهـا حسام الـدين، ثـم إن السلطان استنـابه على نابلس ومعاملتها.

ذكر فتح الفولة وغيرها من البلاد:

وكانـت الفولـة أحسن القـلاع وأحصنها، وأمـلأها بـالرجـال والعدد، وهـي للـداويــة حصـن حصين، ومكـان مكين، وكـان فيهــا مشتـاهـم ومصيفهم ، فلما اتفـق يوم المصاف، خـرجوا بأجمعهـم إلى مصرعهم، فلما كسروا أسروا وخسروا، وأسلموا الحصـن بما فيه إلى السلطـان، وكانـت فيه ذخائر عظيمة.

ثـم تسلم السلطـان جميع مـاكـان من تلـك النـاحية مـن البلاد مثـل دبوريـة، وجينين، وزرعين، والطور، واللجـون، وبيسان، والقيمـون، وجميع مالطبرية وعكا من الولايات، والزيب والبعنة ومنوات، وغير ذلك.

ذكر فتح تبنين:

ولما حصلت تلك الممالـك والأعمال للسلطان، رسم لابن أخيـه المظفر عمر بن شاهنشاه بقصد حصن تبنين، وأن يتوكل على الله ويستعين.

وقال العماد: فوصلنـا إلى تبنين في ثلاث مراحل، ونزلنا عليـه بالنوازل، وبسطنا من المجانيـق عليها أيدي الغوائل،فلما أيسوا من الحيـاة، وعاينوا الممات سألوا الامان مـن السلطان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلـوا بأموالهم، فـأمهلـوا، وأطلقـوا أسـارى المسلمين، فلما جلـوا البقعـة وأخلـوا القلعـة سيرهـم السلطان ومعهـم مـن العسكر المنصـور مـن أوصلهم إلى صـور،

ورتب في الموضع مملوكه سنقر، ووصاه بتأنيس النافر، وتعكيس الكافر، وأن يصلح خندقها وسورها.

وفي النوادر: نزل السلطان عليها يوم الاحد حادى عشر جمادى الاولى، وهي قلعة منيعة وكان بها رجال ابطال شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم، وتسلمها يوم الاحد ثامن عشر الشهر المذكور عنوة، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا متوكلا على الله.

ذكر فتح صيدا:

نزل عليها السلطان بعسكره يوم الاربعاء الحادي والعشرين من جمادى الاولى، فجاء رسل صاحبها بمفاتيحها وفتحت أبوابها، ودخل فيها المسلمون، وأقيمت بها الجمعة والجماعة.

ذكر فتح بيروت:

ثم رحل السلطان من صيدا إلى بيروت، فنزل عليها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الاولى وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه، وذلك بعد قتال عظيم، وحصار شديد، ونقب لاسوارها، وظهر من تلك الايام ضراب شديد من الداوية فأخر الامر، ولما اشتد بهم الحال خرج أحد المقدمين يستدعي الامان، فأمنهم السلطان فنزلوا على الطاعة، وسلموا البلد في التاريخ المذكور.

وفي النوادر: لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها في هذا الوقت، لأن العسكر كانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب، وكان اجتمع في صور كل فرنجي بقي من الساحل، فرأى قصد عسقلان لان

أمرها كان أيسر، وكـان السلطان فتح جبيل يوم الثلاثـاء السابع عشر من جمادى الاولى، وكان صـاحب جبيـل اسمه أوك، وهـو الذي سلـم جبيل الى السلطان وهو على بيروت.

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم:

ونـزل السلطان عليهـا يـوم الاحـد السادس عشر مـن جمادى الاخـرة، واجتمـع السلطان بـأخيـه العادل عليهـا، وامتنـع أهلهـا أشد الامتنـاع، وقـاتلوا قتـالاً عظيماً فضيـق السلطان عليهـا بالـرجـال والقتال، ونصـب المجانيـق ونقب الاسوار، فلما ضـاق عليهم الحال راسلهم الملـك المأسور وقال: قد بـان عذركم حين نقب السور، فترددت بينهم الـرسالات، فقال لهم الملـك المأسـور لاتخالفـوا لما أشير عليكـم مـن الامـر، فـاسمعـوني وأطيعوني واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، فإني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت أنقذت، وخرج المقدمـون وشاوروا الملك فسلموا عسقلان على خـروجهـم بـأمـوالهم سالمين، وذلـك يـوم السبـت لانسـلاخ جمادى الآخرة. وممن استشهد على عسقلان من الامـراء الكبار ابراهيم بن حسين الهذباني وهـو أول أمير افتتح بالشهادة، وختـم بالسعادة، وكـان السلطان قد أخـذ في طريقه الى عسقلان الـرملة ويبنى وبيت لحم، والخليـل وأقام بها حتى أنه إذا سلم معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة.

ثم اجتمـع بالسلطان ابنه الملـك العزيز صاحـب مصر على عسقلان، فقـرت عينه بـولـده، واعتضـد بعضده، وكـان قـد استـدعى الاسـاطيـل المنصورة فوافت والحاجب لؤلؤ المقـدم فيها، وغنم الجيش والمسلمون من هذه الاماكـن وسبوا شيئاً كثيراً لايحد ولايوصـف، واستبشر الاسلام وأهله شرقاً وغرباً بهذا النصر العظيم والفتوحـات الهائلة، وترك السلطان جيوشه تـرتع في هـذه الفتوحـات والغنائم الكثيرة مـدة شهور ليستريحوا ويجمـوا أنفسهم وخيولهم ليتأهبوا لفتح بيت المقدس الشريف.

واشتاع في الناس أن السلطان على عزم فتح بيت المقدس، فقصده العلماء والصلحاء والمتطوعة من كل فج عميق، فعند ذلك قصد السلطان بيت المقدس بمن معه على مانذكره ان شاء الله.

وفي تاريخ بيبرس: ولما فتح السلطان عكا فرق عساكره الى جميع الحصون الساحلية فتسلموها أولاً فأولاً، ولم يعد للفرنج قدرة على الدفاع، ولاسبيل الى الاجتماع فتسلموا نابلس وقيسارية وصفورية والناصرة، واستخلف في عكا ولده الافضل، ثم رحل على تبنين فحاصرها إلى أن تسلمها، ثم نزل على صيدا فتسلمها، ثم سار إلى بيروت فتسلمها، وتسلم أصحابه جبيل، ورحل إلى عسقلان فنازلها وتسلمها ، ثم تسلم الرملة: ثم الداروم، ووصل إليه ولده العزيز من مصر وهو على عسقلان مهنيا بالفتح، فأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة. وبيت جبريل، والنطرون بغير قتال، وكان بين فتوح عسقلان وبين أخذ الفرنج لها ثمان وأربعون سنة.

وفي المرآة: وكان بين أخذ الفرنج وبين خلاصها منهم خمسة وثلاثون سنة، لانهم ملكوها في جمادى الاخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وفوض السلطان القضاء والخطابة الى جمال الدين عبد الله بن عمر قاضي اليمن، وتسلم السلطان هذه الاماكن المذكورة في أربعين يوماً، أولها ثامن عشرين جمادى الاولى، وآخرها ثامن رجب.

وفي تاريخ المؤيد: وفيها حضر المركيس في سفينة إلى عكا، و[illegible] يعلم المركيس بذلك، واتفق هجوع الهواء فراسل المركيس الملك الافضل وهو بعكا يقترح أمراً بعد آخر، والملك الافضل يجيب المركيس إلى ذلك إلى أن هب الهواء، فأقلع المركيس إلى صور، واجتمع عليه الفرنج الذين بها، وملك صور، وكان وصول المركيس إلى صور واطلاق الفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالامان، وحملهم الى صور من أعظم أسباب الضرر التي حصلت، حتى راحت عكا، وقوي الفرنج بذلك.

ذكر فتح بيت المقدس شرفه الله واستعادته من أيدي النصارى بعد ثلاث وتسعين سنة:

ولما فتح السلطان صلاح الدين رضي الله عنه ماحول بيت المقدس من الاماكن المباركة، أمر العساكر فاجتمعت، والجيوش المتفرقة في البلدان للغنائم فائتلفت، وسارنحو البيت المقدس بتلك العساكر فنزل غربي بيت المقدس يوم الاحد الخامس عشر من شهر رجب من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وقد حصنت الفرنج لعنهم الله الاسوار بالمقاتلة، وكانوا ستين ألف مقاتل دون بيت المقدس أو يزيدون، وكان صاحب البلد يومئذ رجل يقال له باليان بن بارزان، وكان معه من سلم من وقعة حطين من الداوية والاسبتارية، فأقام السلطان بمنزله المذكور خمسة أيام، ثم سلم إلى كل طائفة من الجيش المنصور ناحية من أبرجة السور، ثم تحول إلى ناحية الشمال، لانه رآها أوسع وأنسب للمجال، وقاتل الفرنج دون البلد قتالا هائلا، واستشهد بعض أمراء المسلمين فحنق عند ذلك كثير من امراء الاسلام واجتهدوا في القتال وقد نصبت المجانيق والعرادات، فبادر السلطان رحمه الله بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها فسقط ذلك الجانب، وخر البرج برمته.

وفي المرآة: وكان المنجمون قد قالوا للسلطان: تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة، فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى، وكان قد نزل على غربيه أولاً، ثم انتقل الى شماليه من باب العمود الى برج الزاوية، ومن هذا المكان أخذه الفرنج، وكان مشحوناً بالبطارقة من الخيالة والرجالة على مايزيد على ستين الفاً غير النساء والذرية، وقاتلوا قتالا شديداً.

وفي تاريخ بيبرس: قتل في أول يوم عز الدين موسى بن مالك، صاحب قلعة جعبر، فحزن السلطان عليه.

وفي النوادر: وكان نزول السلطان على القـدس يوم الاحد الخامس عشر من رجـب، ونصب عليـه المنجنيقات، وضايقـه بالـزحف والقتـال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السـور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما شاهـد الفرنـج ذلك قصـد أكثرهـم السلطان وتشفعـوا إليه أن يعطيهـم الامـان فامتنـع وقـال: لاأفتحها إلا بـالسيف عنـوة كما فتحتمـوها عنـوة ولاأترك بها أحداً مـن النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتـم المسلمين، فطلب صاحبها باليـان بن بارزان من السلطان الامان ليحضره عنـده فأمنه، فلما حضر ترقق له، وتشفـع اليه بكل تمكن، فلم يجبه إلى الامـان لهم، فقالوا: لئـن لم نعط الامـان رجعنـا فقتلنا كـل أسير من المسلمين بـأيـدينا وهـم قـريب مـن أربعـة آلاف أسير، وقتلنا ذرارينـا وخربنـا الـدور والاماكـن الحسنة وأتلفنـا مابـأيدينـا من الامـوال والقينا قبـة الصخرة، وبعـد ذلك نقاتل قتال الموت فلا يقتل واحد منـا حتى يقتل أعداداً منكم، فما يرجى بعد هذا مـن الخير؟ فلما سمع السلطان ذلك أجـاب إلى الصلح على أن يبـذل كل رجـل منهم عـن نفسـه عشرة دنانير، وعـن المرأة خمسة دنـانير، وعن كل صغير وصغيرة دينـارين، وأن تكون الغلات والاسلحـة والدور للمسلمين، ويتحولوا منها إلى مأمنهم، وهـو مدينة صور، فكتب الصلح على ذلك، ومن لايبذل ماشرط عليه إلى أربعين يـوما فهو أسير، فكان من أسر بهذا الشرط ستـة عشر ألف انسـان من الـرجال والنسـاء والولـدان، ودخل السلطـان والمسلمون البلد يوم الجمعـة قبل وقت الصـلاة بقليل، وذلك يوم التاسع والعشرين من رجب.

قال العماد: وهـو ليلة الاسراء بـرسول الله صلى اللـه عليه وسلـم من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى إلى السموات العلى.

وقال الشيـخ شهاب الدين أبـو شامة: وهذا أحـد الاقوال في الاسراء والله أعلم.

وكان في القدس بعض نساء الملوك من الروم، قد ترهبت ومعها من الاموال والجواهر والعبيد والخدم شيء كثير، فطلبت الامان لنفسها ولمن معها فأمنها السلطان وسيرها إلى مأمنها، وخرجت زوجة الملك المأسور، وهي ابنة الملك ماري، وكانت الاخرى قد ترهبت وتزهدت، ومعها من الاموال والجواهر والخيول والخدم شيء كثير، فخرجت واستأذنت السلطان في اجتماعها بزوجها، وكان محبوساً في برج نابلس، فأذن لها وسارت وأقامت عند زوجها حتى تخلص.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من الذهب، فتسلق المسلمون وقلعوه والفرنج ينظرون إليهم، فصاح الناس كلهم صيحة كادت الارض أن تميد بهم، أما المسلمون فصاحوا سروراً بالتكبير والتهليل، وأما الفرنج فصاحوا تغبنا وتوجعاً.

وقال ابن كثير رحمة الله عليه: ولم يتفق صلاة الجمعة يومئذ، يعني يوم دخولهم خلافاً لبعضهم ممن زعم أنها أقيمت يومئذ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد يومئذ، والصحيح أن الجمعة لم يمكن إقامتها يومئذ لضيق الوقت وإنما أقيمت في الجمعة المقبلة، وكان الخطيب القاضي محيي الدين ابن علي القرشي، المعروف بابن الزكي، كما نذكره، ونظف المسجد الاقصى يومئذ مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وخربت دور للداوية كانوا قد ابتنوها غربي المحراب الكبير، وكانوا قد اتخذوا المحراب هرياً ومستراحاً، فنظف المسجد من ذلك كله، وأعيد الى ماكان عليه في الايام الاسلامية، والدولة المحمدية، وغسلت الصخرة بالماء الطاهر، وأعيد غسلها بماء الورد الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة محجوبة عن الزائرين.

وفي المرآة: ودخل السلطان الصخرة وغسلها بماء الورد، وقيل غسلها بلحيته وهو يبكي، ومحا الصور منها، وقد كان الملك العادل نور الدين

محمود بن زنكي رحمه الله قد عمل منبراً بحلب وتعب عليه مدة وقال: هذا لأجل القدس الشريف، فأرسل السلطان صلاح الدين وأحضره من حلب، وجعله في الجامع الاقصى، ولما كان في الجمعة الثانية وأرادوا أن يقيموا به الجمعة حضر المسلمون بالحرم الشريف من كل فج عميق، فاجتمع من الاعمال الاسلامية عدد لايحصى، فلما أذن الظهر حضر السلطان بقبة الصخرة، وكان جماعة من الكبار والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة في ذلك اليوم وألفوا خطباً يخطبون بها، فلما كان وقت الخطبة رسم السلطان للقاضي محيي الدين بن زكي الدين أن يخطب، فرقا المنبر بأهبة السواد العباسية، وخطب خطبة بديعة، ثم إن السلطان رحمه الله أقام حرمته فوق ماكانت.

وفي المرآة: وكان حضر مع السلطان هذا الفتح زهاء على عشرة آلاف عمامة من جميع الاجناس وتطاول جماعة من الأعيان إلى الخطابة، فتذكر السلطان قول ابن زكي الدين:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

قال القاضي الفاضل: فقد أنطق الله السلطان بالغيب، فأعطاه الخطابة، وابن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق.

وقال ابن القادسي في ذيله: إن صلاح الدين خطب بالبيت المقدس وهو وهم منه، ثم إن السلطان فرق الأموال التي أخذها من الافرنج، وكانت نيفاً وثلاثمائة ألف دينار على العلماء والفقهاء والصوفية.

ذكر مافعله السلطان صلاح الدين بعد فتحه القدس:

فمن ذلك تفرقته الأموال التي أخذها من الأفرنج - كما ذكرنا - ومن ذلك أنه جلس بعد صلاة الجمعة بعد أن خطب الخطيب، ودعا للخليفة

العباسي وللسلطان الملك الناصر صلاح الـدين، وسمع وعظ الشيخ زين الديـن أبو الحسن علي بـن نجا المصري، لأنـه بعد صلاة الجمعـة جلس على كـرسي للوعـظ باذن السلطـان، فوعـظ الناس، وكـان وقتاً مشهـوداً، واستمر القـاضي محيي الـدين بـن زكي الـدين الخطيـب بالنـاس في أيام الجمع أربـع جمع، ثم قـرر السلطان للقدس خطيبـاً مستقراً، وأمـر الفقيه ضياء الـدين عيسى الهكـاري يعمل حول الصخرة شبـابيك من حـديد، ورتـب لها امـامـا وراتبـاً، ووقـف عليه رزقـاً جيـداً، وكـذلـك على امـام المحـراب الاقصى، وعمـل للشـافعية المدرسـة الصـلاحيـة، ويقال فيهـا الناصرية أيضاً، وكان موضعها كنيسـة حنة أم مريم عليها السلام، ووقف على الصـوفيـة رباطـاً كـان دار البترك إلى جـانب القيامـة، وأجـرى على الفقهـاء والفقراء الجامكيـات والجرايـات، وأرصـد الختم والـربعـات في أرجـاء المسجد الاقصـى لمن يقـرأ أو ينظر فيهـا مـن المقيمين والزائريـن، وتنافـس بنو أيوب فيما يفعلونـه من الخيرات بالقدس الشريـف للقائمين والظـاعنين والقـاطنين، وعـزم السلطـان على هــدم قمامـة وجعلهـا دكـاً لتنحسم مادة النصارى عن بيـت المقدس، فقيل إن هؤلاء لايتركون الحج إلى هذه البقعة ولو تـركتها قاعاً صفصفا، وقد فتـح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللـه عنه القـدس وترك القيامـة على حالها، فتركهـا صلاح الدين أيضاً تأسيا بأمير المؤمنين، أحـد الخلفاء الراشدين، ولم يترك بها من النصارى سوى أربعة أنفس يخدمونها، وحال بين النصارى وبينها، وهدم المقابر التي كـانت لهم عند باب الرحمة وعفى آثارها، وهـدم ماكان هناك من القباب وعجل دمارها.

ومن ذلـك أن السلطان أمر للعماد الكاتـب أن يكتب كتابـاً إلى بغداد بـالفتح، وكـان القاضي الفـاضل بـدمشـق مريضـاً لم يحضر هذا الفتـح، فكتب في أوله: «﴿وعـد ا لله الذين آمنوا منكـم وعملوا الصالحات﴾ إلى قوله: ﴿من بعـد خوفهم أمنا﴾ [النور ٥٤ _ ٥٥] الحمـد لله الذي أنجز لعبـاده الصالحين وعـد الاستخـلاف، وقهر بـأهـل التـوحيد أهـل الشرك

والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، وبدل الامن به من المخافة، وادخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى لخادم المقام النبوي ومنحه أخلص أوليائه، وأخص أصفيائه بعد أن انقرض من الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه، وفوت ترجيه، وتقاصرت عنه الهمم، وتخاذلت عنه الامم، فله الحمد الذي حقق بفتحه ماكان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالانس، وجعل عز يومه ماحياً ذل أمسه، وأسكنه العالم والفقيه بعد البطرك والقس، وعباد الصليب والشمس، وأخرج أهل يوم الجمعة من أهل يوم الاحد، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل ﴿قل هو الله أحد﴾ وقد فتح الخادم بأمر الله من الداروم إلى طرابلس وجميع ماحوت مملكة الفرنج إلى نابلس، وغسلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين، ونزع لباس اليأس بافاضة ثواب المحسنين، ورجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وطلع قمر الهدى من سراره، وعادت الارض المقدسة إلى ماكانت عليه من التقديس، وأمنت المخاوف بها، وفيها فصاحة صباح السرى ومناخ التعريس، وأقصى المسجد الأقصى الأقصون من الله الابعدون، وتوافد إليه المصطفون المقربون وخرس الناقوس برحيل المسيحيين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لاهله: مرحباً وأهلا، وشمل جماعة المسلمين ماجمع الله لهم فيه شملاً، ورفعت الاعلام الاسلامية على منبره، فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بألسنة عزها: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ [الصف ١٣] وغسلت الصخرة بدموع المتقين من دنس الكافرين، وبعد أهل الالحاد من قربها بقرب الموحدين، وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه».

وذكر العماد فصولاً في هذا المعنى:

نكتة غريبة: قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين: وقد تكلم شيخنا أبو الحسن عن أبي محمد السنجاري في تفسير أبي الحكم

الاندلسي، يعني ابن حيان، في أول سورة الروم ـــ أخباراً عن فتح بيت المقدس، وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، قال السنجاري: ولم أره أخذ ذلك من علم الحروف، وإنما أخذه مما زعم من قوله: ﴿غلبت الروم* في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون* في بضع سنين﴾ [الروم ٢ـ٤] فبنى الامر على التاريخ كما يفعله المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا ويغلبون في سنة كذا على ماتقتضيه دوائر التقدير، ثم قال: وهذه الحالة وافقت اصابة إن صح أنه قاله قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه، قال: وليس هذا من قبيل علم الحروف، ولابد من باب الكرامات لانها لاتبان بحساب.

قال: وقد ذكر في تفسير سورة القدر أنه لو علم الوقت الذي نزل فيه القرآن، لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

ذكر رحيل السلطان من القدس طالباً صور:

لما قرر السلطان صلاح الدين أمور القدس الشريف انفصل عنه في الخامس والعشرين من شعبان وسار حتى أتى على عكا، ثم سار منها إلى صور، وكانت قد تأخرت من بين تلك النواحي، وقد استحوذ عليها من بعد وقعة حطين رجل من التجار ويقال مركيس، فحصنها وضبط أمرها وحفر حولها خندقاً من البحر إلى البحر، وجاء السلطان بجيشه فحاصرها مدة استدعى بالاسطول من الديار المصرية في البحر، فاحتاط بها براً وبحراً، فعدت الفرنج في بعض الليالي على خمس شواني من الاسطول فملكتها، فأصبح المسلمون واجمين، وقد دخل البرد وقلت الازواد وكثرت الجراحات وكل الامراء من الحصارات، فسألوا من السلطان أن ينصرف بهم إلى دمشق في هذا الوقت حتى يستريحوا، ثم يعود إليها بعد هذا الحين فأجابهم على تمنع منه، وذلك أن السور من صور كان قد هدم أكثره ولم يبق الا الفرج والنجح، فتوجه إلى دمشق.

وفي المرآة: وفي شعبان سـار السلطان إلى صـور فوصلهـا غرة رمضـان فوجدها مدينة حصينة وهـي في البحر مثل السفينة، والبحر محيط بها من جوانبهـا، وليس لها طريـق في البر إلا من مكـان واحد فيه سبعـة أبراج، وبها المركيس، وكان شجاعاً حازماً وقد انضـم إليه جميع من كان بالقدس والساحل من الفرنج.

وفي النـوادر: قدم الملـك الظاهـر غازي بـن السلطان صـلاح الديـن، صـاحـب حلب على أبيـه، وهـو على صـور في الثـامن عشر مـن شهـر رمضان، وسرّ بـوصولـه سروراً عظيماً، وكان قـد تركـه بحلب ليسـد ذلك الجانب لاشتغاله هـو بأمر الساحل، وكان السلطـان خلف أخاه العادل في القدس لتقرير قواعده فاستدعـاه، فوصل إليه في خامس شوال، وسير من حاصر هونين فسلمت بأمان في الثالث والعشرين من شوال.

وكان السلطـان قد قدم على الاسطول انسـانا يقال له الفـارس بدران، وكـان نـاهضـاً جلـداً في البحـر، وكان رئيـس البحـريين يقـال لـه عبـد المحسن، وكان قد أكد الوصيـة في أخذ الحذر منهم، فغفلوا عن أنفسهم في الليل، فخـرج اسطول الكفار مـن صور، فكبسهم، وأخـذوا المقدمين، وأخذوا منهم خمس قطع وقتلوا قتلاً كثيراً مـن الاسطول الاسلامي، وذلك في السابـع والعشرين من شـوال، فلما علم السلطان مـاتم على المسلمين ضاق صدره، وأشار بـالرحيل ليأخذ العسكر جزءاً مـن الراحة ويستعدوا لهذا الامر استعدادا جديدا، فرحـل عنها بعد أن رمى المنجنيقات وسيرها، وأحرق مـالم يمكن نقله، وكـان رحيله يـوم الاحد ثاني ذي القعـدة، ففرق العساكـر وأعطاهـم دستوراً، وسـار كل قـوم إلى بلادهـم، وأقام هـو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وقال ابن كثير: ولما وصل السلطان إلى عكـا نزل بقلعتها، وأسكن ولده الافضل برج الداوية، وولى نيابتها عز الـدين جرديك، وقد أشار بعضهم

على السلطان بتخريب عكا خوفاً من عود الفرنج إليها، فكاد أن يفعل ولم يفعل فليته فعل، بل وكل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش التقوي(٢٣)، ووقف دار الاسبتار نصفين على الفقراء والفقهاء، وجعل دار الاسقف مارستاناً، ووقف على ذلك كله اوقافاً دارة، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين بن الشيخ أبي النجيب، وعاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً رحمه الله.

ذكر ماجرى بعد دخول السلطان دمشق:

ولما انفصل السلطان عن عكا وتوجه إلى دمشق جاءته رسل الملوك بالتهاني من سائر الاقطار والامصار بالتحف والهدايا.

وفي المرآة: وصل إلى السلطان من بغداد تاج الدين أبو بكر، أخو العماد الكاتب، فالتقاه السلطان وأكرمه، وكان معه رسالة تذكرة مشحونة بالعتاب على أسباب منها أن الخليفة عتبه لاجل ابن البوشنجي، ويلقب بالرشيد، وكان صبياً ببغداد ولايؤبه إليه، فخرج الى الشام واتصل بصلاح الدين، وقيل له: هذا من بيت كبير، وكان أديباً فأعجب السلطان، فسأله أن يبعثه الى بغداد في رسالته فبعثه إلى الخليفة، فقال: ماكان عنده غير هذا؟ وقصر في حقه، فلما عاد إلى السلطان تكلم بكلمات، وقال: ماالتفت إلي، ومنها إن كل من هرب من بغداد لجأ إلى السلطان يقبل عليه مثل رئيس الرؤساء وابن هبيرة، وابن أبي النجيب وأمثالهم، ومنها مشاركته في لقب الخليفة بالناصر، وأشياء من هذا الجنس، ثم قال في آخره: يمن علينا بفتح القدس، وهل فتحها إلا بعساكر الديوان وتحت راياته، فاستشاط السلطان غضباً، وقد كان يرجو أن يأتيه كتاب الخليفة يشكره على مافعل، ثم قال السلطان لأخي العماد: أما ابن البوشنجي فمن عندكم جاء، وقيل لي إنه من بيت كبير وصحبني وسألني انفاذه إلى بغداد ليمن على أهله، ويتجمل بكم، فلما

أمكنني رد سؤاله، وأما الذين التجأوا إلي من أرباب البيوت، فإن الانسان قد يلتجىء إلى كوخ عجوز في البرية فتجيره من القتل، فأنا فعلت فعل العرب، وحفظت الذمام، وعرفت حق من قصدني ولجأ إليّ وصنتهم أيضاً عن ألسن الناس فيصير ذلك عاراً عليكم، وأما مشاركتي في اللقب فوالله إنني مااخترته ولااقترحته، ولكن لما أزلت دولة عدوه القائمة من مائتي سنة وكسر وفعلت مافعلت لقبني المستضىء بهذا اللقب، وكتب من بغداد إلى نور الدين بذلك، ولم يكن في زمانكم، ثم لو وقع هذا ففي عسكري عشرة آلاف تركماني وكردي لقب كل واحد صلاح الدين فلم أنكر عليه، وأما قوله إنني فتحت القدس تحت راياته وعسكره، فأين راياته وعسكره؟ والله مافتحت إلا بعسكري وتحت راياتي، وأرعد السلطان وأبرق، وتأكدت الوحشة بينه وبين الخليفة باطنيا، وأمسك السلطان نفسه ظاهريا، فكتب كتاباً إلى الخليفة يقول فيه: «المحاققة توجب المفارقة، واغلاق هذا الباب خير من فتحه، واندمال هذا الجرح خير وأولى من إتساعه وخرقة».

وقال السبط: وقد ذكر محمد بن القادسي قضية ابن البوشنجي، فقال: كان أمرداً في دروب بغداد، فطلعت لحيته فخرج إلى الشام، فخدم يوسف بن أيوب وسأله أن يرسل الى الديوان في رسالة فأرسله فقامت القيامة على الديوان، فلما عاد ابن البوشنجي الى الشام اكثر كلامه، فما مضى الا اسبوع حتى جاءته نشابة فذبحته، وكان ذلك عقوبة لما بسط به لسانه.

قلت: وهذه من هنات ابن القادسي، فإنه كان عالماً، يتعمد المثالب، وقد أساء الادب في مواضع منها قوله:

كان أمرداً في دروب بغداد، ومنها قوله على السلطان يوسف بن أيوب، وماذكره ببعض القابه، ومنها قوله: جاءته نشابة فذبحته، جعل

الشهادة في سبيل الله عقوبة، وهذه الواقعة في هذه السنة، وابن البوشنجي استشهد في سنة ست وثمانين وخمسمائة بعد أخذ الفرنج عكا من السلطان، ومن العجائب في هذه الواقعة أنني اجتمعت بشيخ دار الحديث المظفرية بالموصل في سنة خمس وستمائة، وجرت مذاكرة في غزوات صلاح الدين، فقال: حضرت معه في برج عكا، والفرنج قد أخذوا عكا، فبينما أنا قاعد في سوق العسكر، وإذا بشاب من أحسن الشباب قد جلس إلى جانبي، فذاكرته فوجدته فاضلاً فصيحاً من أهل بغداد من بيت البوشنجي، قلت فما اللقب؟ قال: يقبح بي أن ألقب نفسي، فأقسمت عليه فقال: يقال الرشيد، فقلت وماالذي جاء بك إلى هاهنا؟ فقال: سمعت أن السلطان يعرف مقدار اولاد الناس ويحسن إليهم، ورغبت أيضاً في الشهادة فأتيت إليه، فأحسن إليّ وأكرمني وأعطاني، ثم قال: أخاف ان تنقضي هذه الغزوات وماتحصل لي شهادة، فأسأل الله أن يرزقني الشهادة فقد تاقت نفسي إليها، قال: فدعوت الله أن يختار له مافيه الخيرة، ثم قلت: ياسيدي أنشدني شيئاً من شعرك فقال: نعم...... ثم قام من عندي باكياً وقصد الفرنج فاستشهد رحمه الله تعالى.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير محمود أخو جاولي:

استشهد في هذه السنة، وسبب ذلك أن السلطان وكله بحصن قلعة كوكب الذي على الغور وكانت فيها الاسبتارية، وقد كانوا تمنعوا لشدتهم ومنعتهم.

وكانت جبلة وأخذها في الثامن عشر من جمادى الاولى حال وصوله على مانذكره.

وقال العماد الكاتب: وأشرفنا على جبلة يوم الخميس الثامن عشر، وتسلمنا الحصن في ذلك اليوم، وأقام السلطان بها أياماً.

وفي النوادر: ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل السلطان على تل قبالة حصن الاكراد، ثم سير الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا على تيزين في هذا التاريخ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بالسلطان في هذه المنزلة، فأقام في منزلته هذه ربيع الآخر أجمع، وصعد في أثنائه إلى حصن الاكراد وحاصره يوما يجسه به، فما رأى الوقت يحتمل حصاره، واجتمعت العساكر من الجوانب، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر، وتقوية العساكر.

ولما كان يوم الجمعة الرابع من جمادى الاولى دخل على تعبئة للقاء العدو، ورتب الاطلاب، وسارت الميمنة اولا، وتقدمها عماد الدين زنكي، والقلب في الوسط، والميسرة في الاخير ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار الثقل في وسط القلب حتى أتى المنزل، ثم رحل في صبيحة السبت ونزل على العريمة فلم يقاتلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت، ورحل عنها يوم الاحد، ووصل إلى انطرطوس ضحوة نهار الاحد السادس من جمادى الاولى.

ذكر فتح انطرطوس:

ولما وصل انطرطوس في التاريخ المذكور، وقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاختيار، ثم اختار النزول، فأمر الميمنة والميسرة بالنزول على البحر من الجانبين، ونزل هو أيضاً في جانب آخر فأحدقت بها العساكر من البحر إلى البحر، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان حصينان كالقلعتين، ثم أمر الناس بالزحف والقتال، وشدوا عليها

جداً، ومـا استتم نصب الخيـم حتى صعد النـاس السور وأخذوهـا عنوة، وغنـم العسكر جميـع مافيهـا، وخـرج الناس والاسرى بـأيديهم وأمـوالهم، وتـرك الغلمان نصب الخيـم واشتغلـوا بـالنهب والكسـب ووفى السلطـان بقوله، فإنـه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بـأنطرطوس إن شاء الله، وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً، ثم أمـر بتخريب سور البلد، وتخريب بيعة عظيمـة عندهم كانـوا يحجون إليها من اقطـار بلادهم، وأمر بـوضع النـار في البلد فـأحـرق جميعـه، فأقـام عليـه إلى الـرابع عشر مـن جمادى الاولى، ثم سار يريد جبلة، وكان وصـوله إليها في الثامن عشر من جمادى الاولى يوم الجمعة.

ذكر فتح جبلة:

ولما وصـل السلطـان الى جبلة في التـاريـخ المذكـور أخذ البلـدة يـوم وصوله، وكان فيها مسلمون مقيمون فيها، وقاض يحكم بينهم.

وفي المرآة: وكان قـاضيها منصـور بن بليـل فأرسـل الى السلطان يشير عليه بقصدها، وقيـل إن القاضي والاعيان خرجوا إليه وهونـوا عليه أمرها، وأخذ القـاضي من السلطان امانـا لاهل جبلة، وكـان ابرنس انطاكيـة قد سلمها الى القاضي ووثق به في حفظها فنـازلها وفتحها في التاريخ المذكور، وامتنع الحصـن عليه يـوما ثم سلمـوه اليه يوم السبـت بالامـان بعون الله وفضلـه وأقام عليهـا إلى الثالـث والعشرين مـن الشهر المذكـور ثم سـار عنها يطلب اللاذقية.

ذكر فتح اللاذقية:

نزل السلطـان عليها يوم الخميـس الرابع والعشريـن من جمادى الاولى وهي بلدة لها ميناء وقلعتان متصلتـان على تل يشرف على البلد فنزل رحمه الله محدقاً بالبلـد، وأخذت العساكر منازلهم مستديـرين على القلعتين من

جميع نـواحيها الا من نـاحية البلد، واشتد القتـال وعظم الزحـف وأخذوا البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمـة، فإنه كان بلد التجار وفـرق بين النـاس الليـل، وأصبحـوا يوم الجمعـة مقـابلين مجتهـديـن في النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقـب حتى بلغ طوله ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع، واشتـد الزحف عليهم حتى صعدوا الجبـل وقاربوا السور، وتـواصل القتـال حتى صاروا يتحـاذفون بـالحجارة بـالايدي، فلما رأوا ذلك استغاثـوا وطلبوا الامان عشية الجمعة الخامـس عشر من الشهر المذكـور، وطلبوا قـاضي جبلـة فـدخل إليهـم ليقـرر لهم قـاعدة الامـان فـأجيبوا الى ذلـك، فدخـل القاضي وقـرر الحال معهم على أنهم يطلقـون بنفـوسهـم ونسـائهـم وذراريهم وأموالهم خـلا الغـلال والـذخـائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم السلطان دواب يركبـونها الى مأمنهم، ثم رقا عليهـا العلـم الاسلامـي المنصـور في بقيـة السبت السـادس عشر منـه، وأقاموا عليه إلى يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاولى.

وقـال العماد رحمه اللـه: ولما رحل السلطـان مـن جبلـة اتى الـلاذقيـة وفتحهـا في الـرابـع والعشريـن مـن جمادى الاولى، وهـي ثـلاث قـلاع متلاصقات على طـول التل، فلما عرفوا انهم مدركون طلبـوا الامان وذلك يوم الجمعة الخامس والعشرين عشية، ودخـل جماعة منهم في عقد الذمة، وانتقل الباقون إلى انطـاكية، ثم رتب السلطان جماعة مـن خواص مماليكه وأخـرج من القـلاع أهـل الكفر وأسكنهـا أهـل التـوحيد وولى بها سنقـر الخلاطي مملوكه، ثم ركب السلطان الى البلـد وطافه، وكانت قلعتهم هذه منيعة عـالية مـرتفعة، ولمالمـك صلاح الديـن الساحـل وهلك البـاطل، وافتتحت طبرية وأعمالها، تمنعـت من ذلك قلعتان: قلعة صفد بـالداوية، وقلعـة كوكـب بالاسبتـاريـة، وتعذر فتحهما، ورتـب السلطان على صفـد جماعة يعرفـون بالناصرية، ومقـدمهم مسعود الصلتي، ورتـب على كوكب هـذا محمود المذكـور، وكان دينـا صـالحاً مشكور السيرة، فـأقام بحصـن قريب مـن كوكب يقال له عفـر بلا، وكان يسهر اكثر ليلـه متهجداً، وقد

جعل منزله مسجداً، فلما كان آخر ليلة من شوال، وكانت ليلة مظلمة مدلهمة خرج أهل كوكب وقت السحر، ومضوا إليه، والناس رقود، والحراس هجود، فما أحس محمود إلا وقد هجم الفرنج عليهم، فجاءتهم الشهادة، وبقي الامير حتى استشهد محصوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ونقلوا إلى القلعة ماوجدوه من سلاح ومتاع وخيل وكراع، فلما عرف السلطان ماأصابهم ندب الى كوكب صارم الدين قايماز النجمي فضايقها وحصرها، ولم يزل عليها مقيماً إلى ان يسر الله فتحها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين مقيم على عكا.

ذكر غزوات صلاح الدين وفتوحاته في هذه السنة:

وسار السلطان من عكا في المحرم، وحاصر حصن كوكب، فرآه منيعاً صعباً، ووقته مشغول بغيره، فوكل به الامير قايماز النجمي في خمسمائة فارس يضيقون عليه المسالك، وكذلك بصفد، وكانت للداوية، خمسمائة فارس مع طغرل الجاندار، يمنعون وصول الميرة والتقاوي، وبعث إلى الكرك والشوبك جيشاً آخر يحاصرونهما ويضيقون على أهليهما ليفرغ من أموره لقتال هذه الاماكن وحصارها، وسار منها في ربيع الاول ودخل دمشق ففرح الناس به، وكتب إلى ملوك الاطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام ثم خرج على مانذكره.

وفي المرآة: وكان الذي أرسله صلاح الدين إلى الكرك والشوبك صهره يقال له لوجيا.

وفي النـوادر: ولما خرج السلطـان نـزل على بحيرة قدس غـربي حمص، ووافته العساكر بها وأولهم عماد الدين زنكي بـن مودود بن زنكي صاحب سنجـار ونصيبين، ولما تكمـل عسكـره رحل ونـزل تحت حصـن الاكـراد وشـن الغارات على بـلاد الافرنـج، وسـار من حصـن الاكراد فنـزل على انطرطوس سادس جمادى الاولى فوجد الفرنج قد أخلوا انطرطوس، فسار إلى مرقـب فوجـدهم قـد أخلوهـا أيضاً، فسـار الى صوب جبلـة وهز إلى احسانها أعطافه، ثم رحل نحو صهيون.

ذكر فتح صهيون:

ولما سار السلطـان راحلاً من الـلاذقية نـزل على صهيون يوم الثـلاثاء التـاسع والعشريـن مـن جمادى الاولى، واستـدار العسكر بها مـن سـائر نواحيهـا بكرة الاربعاء، ونصـب عليها ستة منـاجيق، وهي قلعـة حصينة منيعـة في طرف جبـل، خنـادقها أودـيـة هائلـة واسعـة عميقة، وليـس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقـدار طوله ستون ذراعا وهو نقر في صخر، ولها ثلاثة أسوار: سـوران دون ربضها، وسور دون القلة، وكان على قلتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الاسلامي وقع.

قال صـاحب النـوادر: شاهدت ذلـك حين وقع، فـاستبشر المسلمون بـذلـك، وعلمـوا أنـه النصر والفتـح، واشتـد القتـال عليهـا مـن سـائر الجوانب، فضربها منجنيق ولـده الملك الظاهر صاحب حلـب، وكان قد لحقه قبيـل فتح جبلـه بجحفله وعسكره، وحضر فتـوحها، ولما كـان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان على الـزحف، وركب وتقدم وأمر المنجنيقات بتـواتر الضربات، ومـا كان سـاعة الا وقد رقـا المسلمون على أسوار الـربض، واشتـد الزحف، وهجـم المسلمون الـربض، وانضـم من كـان فيه إلى القلعـة، واستدار المقـاتلة حـول أسوار القلعـة، فلما عاينـوا الهلاك طلبوا الامان، فبـذل لهم السلطان الامان على أن يسلموا بـأنفسهم

وأموالهم، ويـؤخذ من الرجـل منهم عشر دنانير، وعن المرأة خمسـة دنانير، وعن الصغير دينارين، وسلمت القلعة، وأقـام السلطان حتى تسلم قلاعا غيرها، وهي: بلاطنيس، وعيد، وقلعة الجماهير وغيـر ذلك .

وقال العماد: وكان تسلـم عيد يوم السبت، وقلعـة الجماهير يوم الاحد، وقلعة بـلاطنيس يوم الاثنين، وقـرر في كل حصـن من تسلمه، ومـامكنوا من الخروج حتى أحضروا ماقـرر عليهم، وتولى جباية ذلك شجـاع الدين طغرل الجاندار.

وقال العماد: ثم سلم حصن صهيون بجميـع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الامير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين.

ذكر فتح بكاس:

ولما رحل السلطـان من صهيـون ثالـث جمادى الآخرة وصـل الى قلعة بكـاس سادس جمادى الآخـرة وهي قلعـة حصينة على جـانب العـاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، ونزل السلطان على العاصي.

قال النويـري: تسلمها يوم الجمعة تـاسع الشهر المذكور، وكـان أهلها اخلوها قبل وصول السلطان وتحصنوا بقلعة شغر.

وفي النوادر: صعـد السلطان جريـدة الى القلعة، وهي على جبـل مطل على العـاصي، فـأحـدق بها مـن كـل جـانـب، وقـاتلهـا قتـالا شـديداً بالمنجنيقات والزحف الى يوم الجمعة، ثم يسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم، وغنم جميع ماكان فيها،

-١١٣٠٨-

ذكر فتح شغر

ولما تحصنت الفرنج بقلعة شغر، وهي قلعة شامخة منيفة، خيم السلطان بخيمة خفيفة الى الجبل لحصار.القلعة فحاصرها في الثالث عشر من جمادى الآخرة يوم الثلاثاء، ثم سلم السلطان حصن بكاس وحصن شغر الى غرس الدين قلج الساقي.

وفي النوادر: وكان لبكاس قليعة تسمى الشغر قريباً منها، يعبر اليها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب، ورأوا أنهم لاناصر لهم، فطلبوا الامان، وذلك في يوم الثلاثاء، وسألوا ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، فأذن السلطان في ذلك، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلتها يوم الجمعة السادس عشر منه، بعون الله تعالى وفضله.

ذكر فتح سرمانية:

ولما فتح السلطان حصن شغر، أرسل ولده الملك الظاهر صاحب حلب، فحاصر سرمانية وأخذها بالامان، وهدم الحصن وعفى أثره.

وفي النوادر: أرسل صلاح الدين ولده المذكور الى قلعة تسمى سرمانية، يوم السبت سابع عشر جمادى الآخرة فقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقة عظيمة، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر المذكور، فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة الى سرمانية في أيام الجمع، وهي علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان رحمة الله عليه حيث يسر له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية، ولم يتفق مثلها في تاريخ، وكان في هذه الحصون المذكورة من أسرى المسلمين عدد لايحصى، فأطلقوا وأعطوا النفقة والكسوة.

-١١٣٠٩-

ذكر فتح حصن برزية:

ثم سار السلطان من شغر إلى برزيـه، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعـة على سـن جبل شـاهـق يضرب بها المثـل في جميـع بلاد الأفـرنـج والمسلمين، يحيـط بها أوديـة من سـائر جـوانبهـا، وذرع علو تلها، فكـان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً.

وقال العماد: وكان وصول السلطان إليها يـوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، وملكها يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه.

قال: فأحدقنا بها وبالجبل ونصبنا عليها المجانيق في سفحها، ولما رأى السلطان أنـه لاوصول إليها بالمجـانيق، وأن الاشتغال بها يطيل الـزمان، مال إلى الـزحف، فقسم النـاس ثلاثـة أقسام، وجعل النـوبة الاولى لعماد الدين زنكـي صاحب سنجار، والملك العادل، وتقـدم السلطان بنفسه في النوبـة الثانيـة، واشتد القتـال، وضاق بها الحال، ولما أيقنـوا بأنهم ملكـوا طلبوا الأمـان، وكفوا عنهم، وكـانت زوجة صاحـب حصن برزيـة أخت زوجة الابـرنس صاحب أنطـاكية، وقد سبيت وخبيـت، فما زال السلطان يطلبها حتى أظهـروها وأحضروها فمنّ عليهـا بالاعتاق، وحل عنهـا وعن زوجها قيـد الوثاق، وأحضر أيضاً ابنـة لها وزوجها وعدة مـن أصحابهم، وأدخلهـم معها في الاطـلاق وسير معهـم إلى أنطاكيـة مـن أوفدهـم على أهلهم، فسرت زوجة البرنس بأختها.

وفي المرآة: وكـانت زوجـة صاحـب حصن بـرزيه عين للسلطـان على الفرنـج، والسلطان كان يـرى إليها ويـلاطفها، ولما فتحت القلعـة أسرها السلطان وزوجهـا وأولادها، فـأحسن إليهم وأطلقهـم، وبعث معهـم من أوصلهـم إلى أنطاكيـة، فزادت محبتهـا للسلطـان ومناصحتهـا له، وأنعـم السلطان بهذا الحصن على عز الدين المذكور عن قريب.

ذكر فتح قلعة دربساك:

ولما رحل السلطان من حصن برزية عبر من عند شقيف دركوش إلى شرقي العاصي، وجاء إلى جسر الحديد، وأقام هناك أياماً حتى تلاحق به العسكر، ثم سار إلى دربساك، ونزل عليها يوم الجمعة الثامن من شهر رجب وهي قلعة منيعة مرتفعة، وهي عش الداوية، وقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقة عظيمة، وأمر بالنقب تحت برج، وتمكن النقب منها حتى وقع، وحموه بالرجال المقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها.

قال صاحب النوادر: ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه، وهم قيام عرض الجدار مكشوفين إلى أن اشتد بهم الأمر حتى طلبوا الامان فأمنهم السلطان، وشرط عليهم أن ينزلوا بأنفسهم وبثياب أبدانهم لاغير، فعند ذلك رقا عليها العلم الاسلامي يوم الجمعة أيضاً الثاني والعشرين من رجب وأعطاها لعلم الدين سليمان بن جندر، ثم سار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين من رجب متوجهاً إلى بغراس.

ذكر فتح قلعة بغراس:

وهي قلعة منيعة على رأس جبل شامخ قريبة من أنطاكية، كثيرة العدة والرجال، فنزل العسكر في مرج لها وصعد السلطان في جريدة عسكره إلى الجبل، ووقف بازاء الحصن، فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته، وعين يزكاً لجانب انطاكية كيلا يحصل التشويش من جهة انطاكية، فضرب اليزك على باب انطاكية بحيث لايقدر أحد أن يخرج منها.

وقال صاحب النوادر: وأنا كنت في اليزك في بعض الايام، ولم يزل السلطان يقاتل أهل بغراس مقاتلة شديدة حتى ضاق بهم الحال، فخرج

مقـدم الداويـة يستـأذنه في الحضـور، فـأذن لـه، ولما حضر طلب الامـان فـأمنهم السلطـان على حكـم دربساك، ورقـا العلـم السلطاني عليهـا في الثاني مـن شعبان، ثم سلـم السلطان قلعـة بغراس لعلم الـدين سليمان المذكور آنفاً، فتسلـم الحصنين: دربساك وبغراس، وكان علم الـدين هذا صاحـب أعزاز وتسلمها بـذخائرها، ووجد في بغـراس خاصة مـن الغلة اثني عشر ألف غرارة، سوى مافيها من سائر الاقوات.

ذكر مهادنة صاحب انطاكية:

ولما فرغ السلطـان من أمر بغراس عـزم على التوجه إلى أنطاكيـة، وكان الابرنس صاحبهـا عجل بارسال أخي زوجته يسأل مـن السلطان المهادنة والصلح على أن يطلق كـل أسير عنده، وأجابه السلطـان إلى ذلك، ووقع الصلح إلى ثمانية أشهـر، وكان الابرنس هـذا من أعظم ملوك الافـرنج في هذه ا لبلاد، وكان أهـل اطرابلس سلموا إليه اطرابلـس أيضاً بعد موت القومص صاحبها، وجعل الابرنس ابنه في اطرابلس.

وقال صـاحب النـوادر: وكانـت هدنتهـم إلى سبعة أشهـر على أنه إن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلدان إلى السلطان رحمه الله.

ذكر رحيل السلطان متوجها إلى دمشق:

لما فـرغ السلطان مـن أمـر بغراس ومهـادنـة صاحـب أنطـاكية رحـل قاصـداً الشام، فـأتى حلـب ودخلها في حـادي عشر شعبان، ثـم أعطى دستوراً للعسكـر، وودع عماد الديـن زنكي بـن مودود بـن زنكي بعـد أن أنعم عليـه بأنواع التحف والامتعـة والدواب، ويقال إنما دخـل السلطان حلب لان ولـده الملك الظـاهر سألـه ذلك، فـأتاها وأقـام بقلعتها ثـلاثة أيام، وولده يقـوم بالضيافة حق القيـام، ولم يبق من العسكر إلا مـن ناله شيء من نعمته، وبالغ في ذلك حتى أشفق عليه والده، ثم سار السلطان

من حلب في رابع عشر من شعبان قاصداً دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين، وأصعده إلى قلعة حماة، واصطنع له طعاماً حسناً، وأحضر له سماع الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة، وأعطاه السلطان جبلة واللاذقية، ثم سار على طريق بعلبك حتى أتاها، وأقام بمرجها يوماً ودخل إلى حمامها، ثم سار منها حتى أتى دمشق قبل دخول رمضان بأيام يسيرة، فأقام بها حتى دخل رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكن، وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها: صفد وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال ابن كثير: ولما دخل السلطان دمشق أشاروا عليه بتفريق العسكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: إن العمر قصير، والاجل غير مأمون، فخرج من دمشق لغزوته في أوائل رمضان يريد صفد.

ذكر فتح صفد:

ولما خرج من دمشق أتى على صفد في أثناء شهر رمضان، وهي قلعة منيعة قد تقاطع حولها بالاودية، فأحدق العسكر بها، ونصب المجانيق، ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلموها بالامان في الرابع عشر من شوال من هذه السنة.

ذكر فتح قلعة كوكب

ولما فرغ السلطان من أمر صفد سار إلى كوكب وعليها الأمير قايماز النجمي وقد ذكرنا ان السلطان خلاه عليها يحصرها، ونزل السلطان على سطح الجبل، وجرد العسكر وأحدقوا بالقلعة وضايقوها بالكلية، وكانت الأمطار متوالية، والوحول كثيرة بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة كبيرة، وعانى السلطان شدائدا وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار،

وكون العدو متسلطا عليهم بعلو مكان، وجرح خلق من العسكر وقتل جماعة، ولم يزل السلطان راكبا مركب الجد حتى تمكن النقب على سورها، ولما أحسوا بالنقب وقد تمكن علموا أنهم مأخوذون فطلبوا الأمان إلى ذلك وأمنهم وتسلمها في منتصف ذي القعدة، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع كلها في صور.

وقال ابن كثير: وكان حصن كوكب معدن الاسبتارية، كما ان صفد معدن الداوية، وكانوا أبغض أجناس الافرنج إلى السلطان، لايكاد يترك منهم أحدا إذا وقع من المأسورين، ولما فتحت قلعة كوكب عرضها السلطان على جماعة فلم يقبلوها، وتولاها قايماز النجمي عن كراهة.

ذكر فتح الكرك:

لما كان السلطان سار إلى البلاد الشمالية جعل على الكرك وغيرها من حاصرها أخاه الملك العادل في تلك البلاد يباشر ذلك، فأرسل أهل الكرك يطلبون الامان، فأمر العادل المباشرين لحصارها بأن يتسلموها فتسلموا الكرك والشوبك وغيرهما مما في تلك الجهات.

وقال العماد: وكان الملك العادل مقيماً بتبنين بالعسكر تحرزاً على البلاد من غائلة الفرنج، مقوياً للامراء المرتبين على الحصون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلا وبأهله منكلاً، فتوسلوا بالملك العادل حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم. وكان فتح الكرك في أثناء شهر رمضان.

وفي تاريخ بيبرس: قد كان الملك الناصر صلاح الدين رتب على الكرك العساكر صحبة سعد الدين كمشبه، صهر الملك العادل فحصروها ليلاً ونهاراً مدة حتى فنيت منها الازواد، وأكل أهلها جميع

الحيوان الـذي عندهـم، فأذعنـوا للتسليم وسلمـوا، وكفى اللـه المسلمين شرهم.

ذكر مافعل صلاح الدين بعد هذه الفتوحات في هذه السنة:

قد ذكرنا أنه لما فرغ من أمر بغراس ومهادنة صاحب أنطاكية توجه إلى دمشق، وجعـل طريقه على حلب، وكـان معه الامير قاسم بـن مهنا أمير المدينة، وكنيتـه أبو فليتة الحسني، وكـان ميمون النقيبة، مبـارك الطلعة، وكان السلطان قـد تيمن بطلعته، فما حضر معه بلداً إلا فتحـه، ثم جعل السلطان طريقه على المعرة، فزار قبر عمر بـن عبد العزيز رضي الله عنه، والشيخ أبا زكريا المغربي.

وقـال العماد الكاتـب: ولما خرجنـا مـن حلب على قبر عمـر بن عبـد العزيز رضي اللـه عنه، قصد السلطان زيـارة الشيخ الفقيه الزاهـد التقي أبي زكريا المغربي، وكـان مقيمـا هناك، وكان من عباد اللـه الصالحين وله كرامـات ظاهرة، وكـان القاضي الفاضـل مع السلطان في هـذه المواقف المذكورة، فكتـب عن السلطـان الى أخيه سيف الاسـلام صاحـب اليمن يستدعيه إلى الشام لنصرة أهل الاسلام، فإنـه قد عزم على حصار أنطاكية بنفسه، ويكون تقي الدين حاصراً طـرابلس إذا نسلخ هذا العام، ثم عزم القاضي الفـاضل على الـدخول إلى الديـارالمصريـة،فسار السلطـان معه لتوديعه، ثم عدل السلطان إلى القـدس الشريـف، فصام فيه الجمعة وعَيد فيه عيـد الاضحى، ثم سـار ومعه أخـوه الملك العادل إلى عسقـلان، ثم أقطع أخـاه الكرك عـوضاً عن عسقـلان، وأمره بـالانصراف ليكون عـوناً لابنـه الملك العـزيز في الـديار المصريـة، على حـوادث الزمـان، ثم عـاد السلطان فأقام بمدينة عكا حتى انسلخت هذه السنة.

وفي النوادر: وكان دخول السلطان بيـت المقدس، وصحبه أخوه الملك

العادل في ثامن ذي الحجة من هـذه السنة وصليا الجمعة في قبة الصخرة الشريفـة، وصليـا صـلاة العيـد بها يوم الأحـد، ثـم عـاد السلطـان إلى خيمتـه، وأمضى بقيـة يـومه، ثـم سـار يوم الاثنين الحادي عشر مـن ذي الحجة طالبـاً عسقلان لينظر في أحوالها ويـودع أخاه، فأقام بها أيـاما يلم شعثها، ويصلـح أحوالها، وودع أخـاه العادل، وأعطـاه الكرك وأخـذ منه عسقلان، ثم عاد يطلب عكا على طريق الساحل، فأقام بها إلى أن مضى أكثر المحرم مـن السنة الآتية، ورتب بها بهاء الـدين قراقوش واليـاً، وأمره بعمارة السور والاطنـاب فيه، ومعـه حسام الـدين بشـارة، ثم سـار يريـد دمشق بعد وصول طائفة مـن عسكر مصر أودعهم في عكا مدد حفظها، ودخل دمشق في مستهل صفر من السنة الآتيـة على مانذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن طـائفة من الـرافضية بمصر خرجـت يريدون ان يعيـدوا دولة الفاطميين الـذين حكموا في الديـار المصرية والشاميـة وغيرهما، واغتنموا غيبة الملـك العادل عـن مصر، واستخفوا بـأمر الملـك العزيـز عثمان ابن السلطـان صلاح الـدين فبعثـوا اثنـي عشر رجلا ينـادون في الليل: يـاآل علي، على أن العامـة تجيبهم إلى ماعـزموا عليـه، فلم يلتفت إليهـم أحد، فلما رأوا ذلك انهزموا فـأدركوا وأخذوا وقيدوا وحبسوا، ولما بلـغ أمرهـم إلى السلطان ساءه ذلك، وكـان القاضي الفاضل عنده بعد، ولم يفـارقه لاجل سفره إلى مصر، فقال له: أيها الملك ينبغـي أن تفرح ولاتحزن، فإنه لم يصغ إلى دعوة هؤلاء الجهلة أحد من رعيتـك ولا التفتوا إليهم، ولو أنك بعثت من قبلك جـواسيس يختبرون رعيتك لسرك مابلغك عنهـم، فسري به عنه ذلك، ورجع إلى قوله، ولهذا أرسله إلى مصر ليكون له عيناً وعوناً ومعينا...

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

أسامة بن منقـذ: وهو أبو المظفر أسامة بن علي بـن مقلد بن نصر بن منقذ الكنـاني الكلبي الشيـزري، الملقب مؤيـد الدولـة، مجد الديـن، من أكابر بنـي منقذ أصحاب قلعة شيـزر وعلمائهم وشجعانهم، له تصـانيف عديـدة في فنون الادب، ولـه ديوان شعـر في جزئين، ذكـره ابن المستـوفي وأثنى عليه، وعده في جملة من ورد عليه، وأورد له مقاطيع من شعره.

وذكره العماد في الخريدة، وقال بعد الثناء عليـه: سكن دمشق، ثم رماه الزمـان إلى حصن كيفـا، فأقـام بها حتى ملـك السلطان صـلاح الديـن دمشق، فاستدعاه، وقد شيـخ، فجاوز الثمانين، وقال العماد: وكنت أتمنى أبداً لقيـاه حتى لقيته في صفـر سنة إحدى وسبعين، وسـألته عن مـولده فقال: يـوم الاحد السابـع والعشرين من جمادى الآخـرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بقلعة شيـزر، وتوفي ليلـة الثلاثـاء الثالـث والعشرين مـن شهر رمضـان سنـة أربـع وثمانين وخمسمائة بـدمشق، ودفـن مـن الغـد بجبـل قاسيون، وتوفي والده أبو أسامة مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

وقال ابن خلكان: فرأيت ديوانه بخطه ونقلت منه:

لا تستقـــرجلـــد أعلى هجــرانهم
فقـــواك تضعـــف عـــن صـــدود دائم

واعلـــم بـــأنـــك إن رجعـــت إليهـــم
طـــوعـــاً وإلا عـــدت عـــودة راغـــم

وقال: ونقلت مـن خطه لنفسه وقد قلع ضرسـه، وقال: عملتهما ونحن بظاهر أخلاط، وهو معنى غريب يصلح أن يكون لغزاً في الضرس:

وصـــاحـــب لا أمـــل الـــدهـــر صحبتـــه
ليشقـــى لنفعـــي ويسعـــى سعـــي مجتهـــد

لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد .

ويروى: فمذ وقعت عيني عليه افترقنا فرقة الابد......

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين يوسف مقيم على عكا، والامر مستقيم، فوصل إليه جماعة من مصر، فأمرهم بالاقامة فيها محافظة على الحماية، وأمر بهاء الدين قراقوش بإتمام بناء السور وولى الامير حسام الدين بشارة بعكا والياً، ثم خرج السلطان وسار على طبرية ودخل دمشق مستهل صفر من هذه السنة.

وفي تاريخ بيبرس أن السلطان قدم عكا في أول هذه السنة، والصحيح أن السنة دخلت وهو مقيم على عكا.

وذكر صاحب النوادر أنه كان مع السلطان، وأنه وصل إلى عكا في أواخر ذي الحجة من السنة الماضية، وأنه أقام بعكا معظم المحرم من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ثم سار حتى دخل دمشق في مستهل صفر منها، وأقام حتى دخل ربيع الاول.

وفيه جاء رسل الخليفة إليه كما نذكره إن شاء الله تعالى:

ذكر خروج السلطان صلاح الدين لأجل شقيف أرنون:

قال ابن كثير: أقام السلطان شهر صفر في دمشق، ثم خرج منها في ثالث ربيع الأول يوم الجمعة وأتى مرج برغوث، وأقام به إلى يوم السبت حادي عشر الشهر، ثم رحل على سمت بانياس، وأتى مرج عيون، وخيم

بقرب الشقيف وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الاول، وكان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، فنزل إلى خدمة السلطان، وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه، فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان فقال له في التسليم، فقال: لايوافقني عليه أهل الحصن، فأمسكه السلطان وبعث به إلى دمشق فحبس بها، ثم تحول السلطان من مخيمه إلى أعلى الجبل يوم الاربعاء الثامن من رجب لمحاصرة الحصن، ورتب له عدة من الامراء وأمرهم بملازمته في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه، وأجرى عليه حكم الحكيم.

وفي تاريخ بيبرس: لما نزل إلى السلطان صاحب الشقيف، وهو أرناط صاحب صيدا، أظهر الطاعة والمودة، وقال: أنا محب لك ومعترف باحسانك، وأخاف أن يعرف المركيس صاحب صور مابيني وبينك، فينال أولادي وأهلي منه أذى فانهم عنده، وأشتهي ان تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم، وحينئذ أحضر أنا وإياهم إلى خدمتك ونسلم الحصن، وأكون في خدمتك، ونقنع بما تعطينا من اقطاع، فظن صدقه، فأجابه إلى ماسأل، وأقام بمرج عيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر لقرب المدة، أعني مدة المهادنة التي بينه وبين صاحب أنطاكية، فأمر تقي الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره وعساكر الشرق ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء مدة الهدنة، وكان بلغه ان الفرنج اجتمعوا بمدينة صور، ومايتصل بهم من الامداد في البحر، وأن صاحب عسقلان الذي كان أسره ومن عليه اجتمع مع المركيس بصور وأنهم خرجوا في خلق لاتحصى، وكان يخشى أن يترك الشقيف وراء ظهره ويتقدم الى صور وفيها الجموع المتوفرة فتنقطع الميرة عنه، وكان أرناط صاحب الشقيف يجتهد في تحصينه وتحصيل مايقويه من الاقوات والسلاح، وبلغ ذلك الناصر فأحضره قبل انقضاء المدة فقال: تسلم الحصن، فاعتذر، وذكر ماذكرناه الآن.

وقال صاحب النوادر: نزل صاحب الشقيف بنفسه، فما حسسنا به الا وهو قائم على خيمة السلطان، فأذن له فدخل واحترمه وأكرمه، وكان من كبار الافرنج وعقلائها، وكان يعرف بالعربي، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده ثان، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وأنه يحب طاعته، وأنه يسلم المكان إليه من غير نقب، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لايقدر على مساكنة الافرنج، وكان قد تردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي أتى إليه، وكان كل وقت يناظرنا في دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه.

ذكر ماتجدد للسلطان مدة اقامته بمرج عيون من الاحوال:

وبلغه أنه اجتمع من كان سلم من الافرنج على ملكهم الذي خلص من الاسر، وقالوا: نحن في جمع خارج عن الحصر وقد تواصلت الينا امداد من البحر فانهض بنا إلى ازالة هؤلاء عنا، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، وجرت بين المركيس المقيم بها وبين الملك مراسلات، فلم يمكنه من دخول البلد، ثم احتج أنه من قبل الملوك الذين من وراء البحار، وأنه منتظر لما يبرمونه من الامر، ثم اتفقوا على أن يقيم المركيس بصور، وأنهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم، ويتساعدون على رم ماتشعث من أموالهم ويقصدون بلداً اسلاميا من الساحل والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد، وبجميع مايحتاجون إليه من الميرة والاسلحة والعدد، ووصل هذا الخبر يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاولى من اليزك، قالوا: إن جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر، وأنهم

على قصد صيدا للحصر، فركب السلطان في الحال، فقبل وصول السلطان التقت اليزكية بهم فكسرتهم، وأسروا منهم سبعة من سباعهم، واستشهد من المماليك الخواص أيبك الاخرس، وقد كان شجاعاً شهماً، وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان، وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليزك، وأقام الى يوم الاربعاء تاسع الشهر، وركب في ذلك اليوم ليطلع في الجبل على القوم، ولم يكن له نية القتال، فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال، وتبعه خلق كثير من غزاة البلاد بغير علمه وظنوا أن السلطان إنما ركب للقتال، وعلى عزمه، وكان الفرنج قد بصروا بالقوم فطمعوا فيهم، ونفذ السلطان بعض الامراء الى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا، وحمل عليهم العدو فأسروهم وقتلوهم وختم الله لهم بالشهادة، وحمل الحاضرون من الامراء والعسكر على الافرنج حملة واحدة، وتزاحموا على الجسر فغرق منهم زهاء ثمانين في النهر، والحرب سجال، فيوم لنا ويوم علينا، ولم يكن لاولئك الفرقاء بقتال الفرنج دربة، وممن لقي الله بالشهادة وختم له بالسعادة الامير غازي سعد الدولة بن مسعود ابن البصارو، وكان شاباً شجاعاً، فلم يصب الكفار، من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكرة.

وفي النوادر: لما كان يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاول بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا، وهي الارض التي نحن عليها، فركب السلطان وصاح الجاووش بالناس، فركب العسكر يريدون نحو اليزك، فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر جماعة منهم الجسر، فنهض لهم اليزك الاسلامي، وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلوا، ورموا جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الاخرس، وكان شجاعاً باسلاً مجرباً للحرب ممارساً، تقنظر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني، ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا

عليه فقاتلوه، ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته، وعاد السلطان من الوقعة إلى مخيم ضرب له قريب المكان، وأقام هناك إلى يوم الاربعاء تاسع عشر جمادى الاولى المذكور، وركب يتشوف على القوم على عادته فتبعه خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وأمر السلطان بردهم فلم يرتدوا، وذلك لأن المكان كان صعبا ليس للرجالة فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة على الجسر، وناوشوا العدو، وعبر منهم جماعة إليهم، وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع من الفرنج خلق كثير فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيدا عنهم، ولم يكن معه عساكر، وأسروا من المسلمين جماعة وقتلوا جماعة، وعدّ من كان قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكانوا مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفر نج أيضاً عدة عظيمة، وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدم الالمانية، وكان عندهم عظيماً.

ذكر مسير السلطان جريدة إلى عكا:

ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين في تلك الوقعة البادرة جمع أصحابه وشاورهم، وقرر معهم أنه يهجم على الفرنج ويعبر الجسر ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ أو أزيد منه بشيء يسير، فلما صمم العزم على ذلك أصبح في يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الاولى على ذلك، وركب وسار وتبعه الناس المقاتلة والعساكر، ولما وصل أواخر الناس إلى اوائلهم وجدوا اليزك عائداً، وخيامهم قد قلعت فسئلوا عن ذلك فذكروا ان الافرنج رحلوا راجعين الى صور ملتجئين الى سورها، معتصمين بقربها، ولما رأى السلطان ذلك منهم، رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ مابني من سورها ويحث على الباقي ويعود، فراح على تبنين، ولم يرجع على مرج عيون، فمضى الى عكا ورتب أحوالها، وأمر بتتمة عمارة سورها، وأمر بالاحتياط، ثم عاد إلى

العسكر المنصور الذي بمرج عيون، وأقام منتظراً مهلة صاحب الشقيف.

ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت السادس من جمادى الآخرة، بلغ السلطان أن جماعة من رجالة العدو يتبسطون ويصلون إلى تبنين يحتطبون، وفي قلبه مما جرى على رجالة المسلمين شيء عظيم، فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبة لهم ويأخذهم فيه، ثم بلغه أن ورائهم خيلاً يحفظونهم، فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين وتقدم إليهم أن يخرجوا في نفر يسير مغيرين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها، وأن يكون ذلك صبيحة يوم الاثنين الثامن من جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسيروا حتى يكونوا وراء عسكر العدو، حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكين في السلاح متجردين ليس معهم خيمة إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكرتبنين، وسار حتى قطع تبنين ورتب العسكر ثانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل، وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهر ويناوشوهم وينهزمون بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك، وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم، يقدمهم الملك، وكان قد بلغهم الخبر، فتعبوا تعبئة القتال، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد، والتزمت السرية القتال، وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الحرب بينهم إلى آخر النهار، ولم يرجع أحد منهم إلى المعسكر ليخبرهم بما جرى، واتصل الخبر بالسلطان في آخر الأمر، وقد هجم الليل، فبعث إليهم بعوثاً كثيرة، ولما علم الفرنج بأوائل المدد عادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم بعد أن جرت مقتلة عظيمة من الجانبين، وكان القتلى من الفرنج على ما ذكره من حضر زهاء عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة نفر: اثنان من اليزك، وأربعة من

العرب، منهم الأمير زامل، وكان شاباً حسناً مقدم عشيرته، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه، ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً فرسه، وأسرهو وثلاثة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ، وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة، وكان للسلطان مملوك يسمى أيبك أثخن بالجراح، حتى اندس بين القتلى وجراحاته تشخب دماً، وبات ليلته أجمع على تلك الحالة الى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقده أصحابه فلم يجدوه معرفوا السلطان، فأنفذ من يكشف خبره، فوجده بين القتلى فحملوه الى المخيم،وعافاه الله، وعاد السلطان الى المخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر المذكور، منصورا فرحاً مسروراً، جزاه الله خيراً

وقال ابن كثير: وقتل مع زامل أمير العرب، الأمير حجي بن منصور ابن ربيعة، والأمير مطرف بن رفيع بن مرى بن ربيعة، وآخر معهم.

ذكر ركوب الأفرنج إلى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان إلى قبالتهم:

ولما وصل الخبر إلى السلطان أن العدو قد ركب نحو عكا، وذلك يوم الأربعاء ثامن رجب ـ وكان قد اجتمع بصور من أهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان خلق عظيم حتى صاروا في عالم لايحصون كثرة وأرسلوا إلى البحر يبكون ويستنجدون، وصورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن، ووصل من الفرنج في البحر عالم لايحصون كثرة، وساروا إلى عكا من صور، ونازلوها في منتصف رجب، وضايقوا عكا، وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين اليها طريق، فسار إليهم السلطان ونزل قريباً من الأفرنج بمرج عكا على تل كيسان.

وقال صاحب النوادر: كتب السلطان إلى سائر أرباب الأطراف بأن يتقدموا إلى العساكر الاسلامية بالمسير إلى المخيم، وقال: سار السلطان بالليل، وأصبح صبيحة يوم الاثنتين الثالث عشر من رجب سائراً إلى عكا من طريق طبرية، إذ لم يكن ثمة طريق تسع العسكر إلاّ هو، وسير جماعة على طريق تبنين يستطلعون العدو ويواصلوه بأخبارهم.

قال: وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له منية صباح يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب، وفيه بلغنا أن الأفرنج نزلوا على عكا يوم الاثنين ثالث عشر رجب، وسار هو جريدة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذهم على طريق تبنين، بمرج صفورية، فإنه كان واعدهم إليه، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر فدخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث بعثاً بعد بعث حتى حصل فيه خلق كثير وعدد وافر، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً، وسار من الخروبة، وقد كان نزل عليها يوم الاربعاء خامس عشر الشهر، فسار منها حتى أتى تلاً يقال له تل كيسان في أوائل مرج عكا، وأمر الناس أن ينزلوا على هذه التعبئة، وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة يقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالعدو المخذول، وأخذوا عليهم الطرق من الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت، ورتب اليزك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو، وحصر العدو في خيامه من كل جانب بحيث لايقدر أن يخرج منها واحد إلاّ ويجرح أو يقتل، وكان معسكر العدو المخذول على شطر من عكا، وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، ومددهم من البحر لاينقطع، وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والبعوث تتواصل من المسلمين والملوك والأمراء من الأقطار متتابعة، فأول من نزل ووصل الأمير الأجل الكبير تقي الدين صاحب حماه في

جحفله، وتتابعت الامراء والعساكـر الاسلامية، وفي أثناء هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الخلاطي باسهال شديد، فأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً، فـإنه كان شجاعـاً دينا، ثم إن الفرنـج تكاثروا واستفحل أمـرهم واستـداروا بعكـا بحيث منعـوا مـن الـدخـول والخروج منها وذلـك يـوم الخميس سلخ رجـب، فلما رأى السلطان ذلك ضاق صـدره وثارت همته العـالية لفتـح الطريـق الى عكا لتستمـر السـابلة إليهـا بالميرة والنجـدة، فاستحضر أمـرائه وأصحاب الـرأي وشاورهم في مضـايقة القـوم، واتفقوا على أن يضايقوا بحيث ينفصل الامر بالكلية او يفتح الطريق إلى عكا.

ذكر قيام الحرب لاجل فتح الطريق:

ولما أصبـح نهار يوم الجمعـة مستهـل شعبان مـن هـذه السنة أصبـح السلطـان على عزم القتـال، فرتـب عسكره ميمنـة وميسرة وقلباً واتفقـوا على أن تكـون الملاقـاة وقت الصـلاة والخطبـاء تخطـب، وهووقـت قبـول الدعـوات، فحملوا حملات عظيمة وهـم كالسـور المحيط مافيـه متسلق، والمسلمـون كالبنيـان المرصوص مـافيه خلـل، وكالحلقـة المفرغـة ماإليهـا مدخـل، فلم يتحـرك الملاعين يوم من مـوضعهم، ودامـت الحرب بينهم وكلما قتـل واحد وقـف آخـر مكـانه حتـى دخـل الليـل وحجز بينهـم، فأصبحـوا يوم السبـت على الحرب كما أمسوا، واشتـدت الحرب أكثر ممـا كان، وأنفـذ السلطان طائفـة من شجعان المسلمين إلى البحـر من شمالي عكا، فلم يكن هنـاك خيم، لكن عساكرهم ممتده من كـل ناحية، فحمل المسلمون عليهم حملة صادقة فـانهزموا الى تل المصلبين نحو القبة، وأخلوا ذلك الجانـب، وأصبح الطـريق الى عكـا من بـاب القلعة المسماة بقلعـة الملـك الى باب قـراقوش الـذي جدده، وصـار الطـريق مهيعـا يمر فيـه السـوقـي ومعه الحوائج، ويمـر بـه الـرجـل الواحـد والمرأة واليـزك بين الطريق وبين العـدو، ودخل السلطان رحمه الله في ذلك اليـوم عكا، ورقا على السـور ونظر إلى عسكـر العدو، وفـرح المسلمـون بنصر الله، وخـرج

العسكر الذين كانوا بها الى خدمة السلطان، ثم استدار العسكر الاسلامي حول عسكر الافرنج وأحدقوا بهم من كل جانب.

ذكر الوقعة العظمى:

ولما كان يوم الاربعاء العشرين من شعبان من هذه السنة برزت الافرنج بأجمعهم وضربوا مع السلطان مصافاً، وحملوا على القلب فأزالوه، وأخذوا يقتلون في المسلمين الى ان بلغوا خيمة السلطان، فانحاز السلطان إلى جانب وانضاف إليه جماعة، وانقطع مدد الفرنج، واشتغلوا بقتال الميمنة، فصاح السلطان: ياللاسلام، فركبت الناس بأجمعهم، وحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا القلب، وانعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلاً، وكان كل واحد من المسلمين قتل أربعين أو خمسين من الفرنج، وكان قتلى الفرنج تقدير عشرة آلاف، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم الى طبرية، وبعضهم وصل الى دمشق، ولم يكن وقف من المسلمين ثابتين نحو ألف نفس، فردت مائة ألف، وجافت الارض بعد هذه الوقعة من قتلى الفرنج، فلحق السلطان مرض، وحدث له قولنج، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع، فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر رمضان الى الخروبة، فلما رحل السلطان تمكن الفرنج حينئذ من حصار عكار ، وانبسطوا في تلك الارض ، ولم يعلم السلطان أن ذلك كان من أكبر المصالح للعدو المخذول فإنهم اغتنموا هذه الفترة فحفروا حول مخيمهم خندقا يجمع جيشهم من البحر الى البحر محدقاً ، واتخذوا من ترابه سوراً شاهقاً ، وجعلوا له أبوابا يخرجون منها إذا أرادوا ، وتمكن الأمر وقوي الخطب .

وقال صاحب النوادر : واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة ، وفي القلب الملك ، وبين يديه الانجيل محمولا مستوراً بثوب أطلس مغطى ، يمسك أربعة أنفس أطرافه ، يسيرون بين يدي الملك ، وامتدت

الميمنة في مقابلـة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها الى اخـرها ، وكذا امتـدت ميسرتهم في مقابلـة ميمنـة المسلمين الى اخـرها ، وملكـوا رؤوس التـلال ، وكـان طـرف ميمنتهـم إلى النهـر وطـرف ميسرتهم إلى البحـر ، والسلطان رحمه الله رتـب عسكره في مقـابلتهم ، فـوقف هـو في القلب ، وفي الميمنة ولده المـلـك الافضل ، ثم ولده الظاهر ، ثـم عسكر المواصله يقدمهم ظهير الدين بن البلنكري ، ثـم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نـابلـس ، ثـم الطواشي قـايماز النجمـي وجموع عظيمـة متصلين بطـرف الميمنة وكان في طرفهـا الملك المظفر تقي الدين بجحفلـه وعسكره ، وهو مطل على البحـر ، واما أوائل الميسرة فكـان مما يلي القلـب سيف الـدين علي المشطوب وعلي بن أحمد من كبار ملـوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلي وجماعـة المهرانيـة والهكـارية ومجاهـد الـدين يـرنقـش مقدم عسكـر سنجار ، وجماعة من المماليـك ، ثم مظفر الدين بن زيـن الدين بجحفله وعسكره ، وأواخـر الميسرة كبار المماليـك الاسديـة كسيف الـدين يـازكج ورسـلان بغـا ، وجماعـة الاسـدية الـذيـن يضرب بهم المثـل ، وفي مقـدم القلب الفقيه عيسى وجمعه.

وهـذا والسلطـان يطـوف على الاطـلاب بنفسـه ، يحثهـم على القتـال ويدعوهـم إلى النوال ، ويرغبهم في نصرة دين الله ولم يزل القـوم يتقدمون والمسلمون يقـدمون حتى عـلا النهار ومضى منـه مقدار أربع سـاعات ، وعند ذلـك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، وأخـرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجـرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثـروا على الملك المظفر ، وكان في طرف الميمنـة على البحر ، فتراجع عنهم شيئـا اطماعا لهم لعلهم يبعدون عـن أصحابهم فينـال منهم غـرضا ، فلما رآه السلطـان قد تـأخر ظـن به ضعفـاً ، فأيـده بأطـلاب عـدة من القلـب حتى قـوى جانبـه ، وتـراجعـت ميسرة العـدو ، واجتمعت على تـل مشرف على البحـر ، ثـم جاءت منهم حملـة على عسكر ديار بكر ، وكانـت بهم غرة عن الحرب ،

فلـم يصبروا وانكسروا كسرة عظيمـة ، وسرى كسرهم إلى انكسـار معظـم الميمنة واتبـع العدو المنهزمين إلى العياضيـه ، وصعدت طائفـة منهم إلى خيـم السلطان فقتلـوا طشـت دار كان هنـاك ، وفي هـذا اليوم استشهـد اسماعيل المكبـس وابن رواحـة ، وأما الميسرة فـإنها ثبتت ، فـإن الحملة لم تصـادمها ، وأمـا السلطـان فإنـه أخـذ يطـوف على الأطلاب ينهضهـم ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم يالـلاسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطـوف على الاطلاب ويخرق الصفوف، ثم أوى الى تحت التـل الذي كان عليـه الخيام وأما المنهزمـون فإنهم بلغوا الى الاقحوانـة فقطعوا جسر طبرية، وقوم وصلـوا إلى دمشق، وأما المتبعون فـاتبعوهـم إلى العياضيـة ثم رجعوا عنهـم، وقتلوا في الطريـق جماعة مـن الغلمان والخربندية والسـاسة المنهزمين، ثـم جاءوا على رأس السـوق فقتلوا جماعـة، وقتل منهـم جماعة أيضاً، فإن السوق كان فيـه خلق عظيم ولهم سلاح، ثم لما رأوا أن الميسرة الاسـلامية ثـابتـة علمـوا أن الكسرة لم تتم فعـادوا منحـدريـن من التـل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان فإنـه كان واقفاً تحت التل ومعه نفريسير، وهـو يجمع النـاس ليعودوا إلى الحملـة على العدو، ولما رآهـم نازلين مـن التـل أرادوا لقـاءهم فصبرهـم السلطـان إلى أن ولـوا ظهورهـم، فحملـوا عليهم، وعـاد الملك المظفـر بجمعه من الميمنـة وتراجـع الناس مـن كل جـانب فنصر اللـه الاسـلام، وظـل الناس في قتـل وضرب وجـرح الى ان اتصل المنهـزمون الى عسكر العـدو، ثم رجـع الناس عنهم السـالمون بعد صلاة العصر يخوضـون في القتلي وهـم فـرحون ومسرورون، وعـاد السلطان إلى خيمته في ذلـك اليوم فـرحاً مسروراً، فـافتقدوا المسلمين فكـان مقدار مافقد مـن الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفراً، ومـن المعروفين استشهد ظهير الـدين أخـو الفقيه عيسـى، وكان قـد وقع مـن فرسـه وقتل عليـه جماعة من أقـاربه، وقتل أيضاً الامير مجلي، هذا الـذي قتل من المسلمين، وأما في العدو فحزر سبعة آلاف نفر.

قال الـراوي: ورأيتهم قد حملوا إلى شـاطىء النهر ليلقوا فيـه فحزرتهم

بـدون سبعـة آلاف، ثـم إن السلطـان سـارع في الكتـب والـرسـل في رد المنهزمين مـن المسلمين حتى ردوا البعـض من عقبـة فيق، وكـان الغلمان والحواشي نهبـوا أموال النـاس، فـأمر السلطـان بجمـع ذلـك كله، وأمـر بـالنداء بـالـوعيد والتهـديـد، فأحضروا شيئـاً كثيراً حتـى صار بين يـدي السلطان مثـل التل، ثم أمـر بردها على أصحـابها، وصار من عـرف شيئاً واعطى عـلامته أعطـاه، وكان ذلـك يوم الجمعـة الثالـث والعشرين مـن شعبـان، ثـم تحول السلطـان الى موضـع يقال لـه الخروبة، وهـو موضـع قريب من مكان الوقعة، ونزل هنـاك يوم السبت الرابع والعشرين منه، ثم في سلخ الشهـر استحضر أعيان عسكره وقـال: اعلموا أن هـؤلاء الكفار قد نزلـوا في بلادنا، ووطئوا أرض الاسلام، ولابد مـن الاهتمام بقلع هؤلاء، والله قد وجب علينا ذلك، وأنتم تعلمـون أن هذه عساكرنا، وليس وراءنا نجدة ننتظرهـا سوى الملك العادل، وهـو واصل انشاء الله، وهـذا العدو إن بقي وطـال أمره إلى أن ينفتح البحر، جـاءهم مدد عظيم، والـرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فليتكلم كل منكـم ماعنده في ذلك ، وكان ذلك في ثـالـث عشر تشريـن مـن الشهور الشمسيـة، فـامتحضت الآراء، ثـم اتفقـت على أن المصلحـة تـأخير العسكر إلى الخروبـة لتتراجـع أنفسهـم إليهـم، فقـد أخذ منهـم التعـب واستـولى على نفوسهـم الضجـر، ولهم خمسون يـومـاً تحت السـلاح وفوق الخيـل، والخيل قـد ضجرت مـن عرك اللجم وسئمت نفـوسها ذلك، ويصل الملك العادل ويشـاركنا في الرأي، فوافقهـم السلطان على ذلك لكـونه قد حصل لـه مرض من كثـرة ماحمل على قلبه، ومـاعاناه مـن التعب، وحمل السلاح، فـأقام هناك ينتظـر أخاه الملك العـادل إلى يوم الاثنين عـاشر رمضان، ثـم إن السلطان أرسـل الى مصر يطلب أخاه العـادل ويستعجل الاسطول، فوصـل إليه الاسطول في خمسين قطعة مـع الامير حسام الديـن لؤلؤ، وكـان مظفراً شجاعـاً، وظفر ببطسـة للفرنـج فأخـذها ودخـل بها إلى عكا، فقـويت قلـوب المسلمين لذلك، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر في منتصف شوال.

وقـال العماد: وكان وصـول الاسطول المنصـور من مصر يـوم الثلاثـاء عشر من ذي القعدة في المراكب المستعدة بالبـأس والشدة، وكانت عدته خمسين شينيـا، فأول مـاظفـر الاسطول المنصـور بشينـي للفـرنج عظيـم الشان، فقتـل مقاتلته، فـوقعت بطشته الكبرى ببطسـة كبيرة تشتمل على ميرة وذخيرة واسعـة، وتفـرقـت سفـن الفرنـج أيـدي سبـأ في مـدة هـذا الحصار، ووصل إلى الافرنج في مركـب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنات الوجوه، اجتمعن من الجزائر، وسبلن أنفسهن للـه تعالى بزعمهن، والتزمن أن لايمنعن أنفسهـن ممن أراد بطـانتهن من مقـاتلي الفرنـج، وزعمن أن هذه قـربة للمسيح مافـوقها قربة لاسيما إذا كـان ممن اجتمعت فيه عـزبة مع اقدام على القتال.

ذكر وصول خبر ملك الالمان لعنه الله:

وفي رمضـان من هـذه السنة وصـل من حلـب كتب مـن ولده الملـك الظـاهـر غـازي يخبر فيهـا أنه قـد صـح أن ملـك الالمان قـد خـرج إلى قسطنطينية في عـدة عظيمة، قيـل مائتـا ألف، وقيـل مائتـان وستون ألفـاً يريدون البلاد الاسلامية، وقيل إنهم في ثلاثمائة ألف مقاتل، وفيهـم ستون ألف فـارس مدرع مقنع، وجـاءت كتب أيضاً مـن صاحب قلعـة الروم، مقدم الارمن يبدي نصيحة واشفاقاً وتخوفاً على البلاد واحتراقاً، ويقطع ان الـواصلين في كثرة، وأن النـاهضين إلى طريقهـم في عشـرة، وأبرق في كتبـه وأرعد، وأبـدع بخطابـه وأبعد، ولاشك إلى دينـه النجس مـائل، وبملاءة أهـل ملته قـائل، ولما وصـل هذا الخبر كـاد النـاس يضطربـون على أنهم يصـدقـون ويكذبـون، واشتـد ذلـك على السلطان، وعظـم عليـه، ورأى استنفار الناس الجهاد واعلام الخليفة بذلك.

قال قاضي القضـاة بهاء الدين أبو المحاسـن يوسف بن رافـع بن تميم صاحب النـوادر: استندبني السلطان لـذلك وأمرني بالمسير إلى صـاحب

سنجار، وصاحب الجزيرة، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم ، وأمرني بالمسير إلى بغداد لاعلام الخليفة الناصر لدين الله.

قال: وكان مسيري في الحادي عشر من رمضان من هذه السنة ويسر الله الوصول إلى الجماعة المذكورين فأجابوا، وسار عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة، وسار ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة بنفسه يجر عسكره، وسير صاحب الموصل عز الدين ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره، وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره.

قال: وحضرت الديوان السعيد ببغداد، وأعلمت الخليفة بذلك، ووعد بكل جميل، ثم عدت إلى خدمة السلطان وكان وصولي إليه يوم الخميس خامس ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة، وكانت العساكر قد تجهزت فسبقتهم وعرفته باجابتهم بالسمع والطاعة، وتأهبهم للمسير، فسرّ بذلك وفرح فرحاً شديداً، وانسلخت هذه السنة والحال على ماهو عليه، ولاملجأ من الله إلا إليه.

ذكر بقية الحوادث:

منها أنه في محرم أمر الخليفة أن يعهد الى ولده أبي نصر، وأن أمير المؤمنين أنعم النظر للمسلمين بتفويض عهده والإمامة من بعده إلى ولده عدة الدنيا والدين أبي نصر محمد، لما علم من عقله الراجح وهديه الواضح، وبعث الخليفة مع ضياء الدين عبد الوهاب بن علي الصوفي، ويعرف بابن سكينة، نسخاً إلى صلاح الدين في الخطبة، وبعث إلى جميع الآفاق، فالتقاه السلطان وخطب له على المنابر، وكان الخطيب بدمشق عبد الملك بن زيد الدولعي، وبعث السلطان جواب الرسالة مع ضياء

الـديـن بـن الشهـرزوري، وبعث معـه بصليـب كـان على صخـرة بيـت المقدس، فجعل على باب النوبي تطأه الاقدام ويهان، وهو بحاله إلى هلم جرا.

وقال ابـن كثير: وفي صفر قدم من جهـة الخليفة رسل يعلمـون صلاح الديـن بولاية العهـد إلى عدة الديـن الملقب بالظـاهر ابن الامـام الناصر لديـن الله، فـأمر السلطـان لخطيب دمشـق أن يخطب لـه بعد الخليفـة، فخطب يوم الجمعـة ثالث صفر، ونثر عليـه الدنانير والدراهـم، ثم جهز السلطان مع الرسل تحفاً عظيمة وهدايا سنية، وأرسل بأسارى من الفرنج على هيئتهم في حال حـربهم، وأرسل بصليب الصلبوت ودفـن تحت عتبة باب النوبي من دار الخلافـة فكان يداس بعدما كان يقبـل ويباس، وصار يبصق عليـه بعدمـا كان يسجـد عليه، وكـان هذا الصليـب من نحـاس مطلياً بالذهب.

ومنها أن السلطـان صلاح الـدين ولى دمشـق بدر الـدين مـودود أخا العادل لأمه شحنكية دمشق.

ومنها أنه في جمادى الاولى ولـد للملك العزيز ولـد سماه محمداً، ولقبه ناصر الـدين، وهو الـذي اجتمع عليه أصحـاب العزيـز عند موتـه سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، من أصحاب أسد الدين شيركوه، دخل معه إلى مصر وحظي عنده، ثم كان مـلازما للسلطان صلاح الدين يـوسف حتـى تـوفي في ركابـه، وكـان ممن تفقـه على الشيـخ أبي القاسـم البزري الجزري، وكان الفقيه عيسى من الفضلاء والامراء الكبراء.

وقال العماد: توفي الفقيه عيسى بمنزلة الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة لسنة خمس وثمانين وخمسمائة، وحمل من يومه إلى القدس فدفن به، وكان من الاعيان، ومن مقربي السلطان.

وفي المرآة: وكان لقبه ضياء الدين، وحضر فتوح القدس والفرات، وكان صلاح الدين يحبه ويحسن الظن به ويستشيره، وكأن الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس، ويفرج عن المكروبين مع الورع والفقه...

الأمير موسك بن جلودا والد الامير عماد الدين داود بن موسك، ابن خال السلطان صلاح الدين، حفظ القرآن وسمع الحديث وكان محسناً إلى الناس يقضي حوائجهم ويتلطف بهم، وكان ملازماً للسلطان في غزواته لم يتخلف عنه في مشهد منها، وكان ديناً صالحاً جواداً مرض بمرج عكا مرضاً شديداً، فأمره السلطان أن يمضي إلى دمشق يتطبب، فجاء إلى دمشق فتوفي بها ودفن بقاسيون رحمه الله، وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة.

الأمير حسام الدين طمان - صاحب الرقة - كان شجاعاً جواداً محسناً محباً للخير، كثير الصدقات مائلاً إلى العلماء والفقهاء، بنى مدرسة بحلب لاصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان السلطان صلاح الدين يحبه، ويعتمد عليه، ولما احتضر والسلطان في مقابلة الافرنج، طلب حصانه وزرديته ليركب ويشهد من حرصه على الغزاة، فلم يقدر لضعفه، فجعل يبكي ويتأسف على موته على فراشه، وكان من شجعان المسلمين، توفي في ليلة النصف من شعبان، ودفن في تل العياضية، وحزن السلطان والمسلمون عليه.

الأمير سنقر الخلاطي: توفي في ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب من هذه السنة، وذلك أيضاً حين كان السلطان على عكا رحمه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسطان صلاح الدين مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة، وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر في خيمته المضروبة، وعكا محصورة، وجموع الفرنج على حصارها محشورة، وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع خلق كثير لان القتال لم ينقطع والتواقع لم يرتفع.

ذكر وقعة الرمل:

كان السلطان صلاح الدين رحمه الله يركب أحياناً للصيد، ولكن لايبعد من المخيم، وركب يوماً في صفر على عادته، فتصيد وطاب له الصيد فأبعد، واليزك على الرمل وساحل البحر من الميسرة على حذرهم واحتياطهم فإذا الفرنج خرجوا في عدد لايحصى وقت العصر فتسامع المسلمون، فزحفوا إليهم، وحملوا عليهم وطردوهم إلى خيامهم من خلفهم وأمامهم، ولم يزل بينهم حملة وردة ورمية حتى فني النشاب، فلما علم الفرنج بذلك حملوا حملة واحدة ردوا بها المسلمين إلى النهر، فثبت من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، فوقع بينهم قتا ل عظيم واستشهد جماعة من الشجعان وذلك لانهم ردوا الفرنج إليهم فلقوا فرساناً وصرعوا شجعاناً، ونزلوا واشتغلوا بالغنيمة، فحملت الفرنج عليهم حملة منكرة، فأشغلتهم عن الوثوب والانتهاض، وأظلم الليل، وافترق الفريقان عن قتلى، وكان ممن استشهد من المسلمين الحاجب ايدغمش المجدي رحمه الله ومملوك للسلطان كان يدعى أرغش، وكان خيراً صالحاً، ومن عجائب هذه الواقعة أن مملوكاً للسلطان يسمى قرا سنقر كان من الأبطال المشهورين عثر به جواده فصار راجلاً، فقبض

عليه مـن أسره وسحبه من شعره، وجـاء آخر وسل سيفه عليـه ليضربه، فضرب يد قـابض شعره فسيبه، واشتـد يعدو وهم يعـدون وراءه ليقتلوه، وفاتهم بعون الله تعالى.

ذكر فتح شقيف أرنون:

وفي يوم الاحـد خامس عشر ربيـع الاول تسلم صـلاح الدين بـالامان شقيف أرنـون، وكان الحصـار مستمراً عليـه من السنـة الماضية، وكـان السلطـان حبـس صاحبهـا أرنـاط في دمشـق على مافصلنـاه، فلما تسلـم السلطان شقيـف أرنون أفرج عن أرنـاط، وصار الى صور، وكان هـذا من أدهى الفـرنج وأخبرهـم بأيـام الناس، كما قـرأ في كتب الحديـث وتفسير القرآن، ومع هذا كان غليظ الجلد كما في القلب قبحه الله.

وفي النـوادر: لما كـان التـاريـخ المذكــور علـم الفـرنـج المستحفظـون بـالشقيف أنـه لاعـاصـم لهم من أمـر اللـه، وأنهم أخـذوا عنوه، فطلبـوا الامان، وكـانوا علموا مـن حال صاحبهم أنـه قد عذب أشـد العذاب، فاستقـرت القاعـدة على أن يطلق صاحبهـم وجميع من فيـه من الفـرنج، ويترك مـافيـه من أنـواع المال والـذخـائر، فـأمنهم السلطـان على ذلـك وسلموا الشقيف، وعاد صاحبهم والفرنج الذين كانوا به إلى صور.

ذكر حال عكا وكيفية الوصول إليها:

كان السلطـان قد قوى عكا بتسيير الغـلات والاقوات إليها، ومـلأها، بـالذخـائر والاسلحة، ثـم لما انقضى الشتـاء وانفتح البحـر، وحان زمـان القتال كتب السلطـان إلى العساكر يستدعيهم من الاطـراف، ولما تواصل أوائل العساكر، وقوي جيش الاسلام رحـل السلطان رحمه الله نحو العدو فنزل بتل كيسان، وذلك في الثامـن عشر من ربيع الاول من هذه السنة،

ورتب عساكره، وكان خبر البلد قد انقطع عن السلطان، وامتنع عليه دخول البلد والمدد، فعند ذلك اشتد العوامون بالسباحة، وكانوا يحملون نفقات الاجناد على أوساطهم ويخاطرون بأنفسهم، ويحملون كتباً وطيوراً ويعودون بكتب وطيور، وكان أهل عكا يكتبون إلى السلطان، ويكتب السلطان إليهم على أجنحة الحمام ويعرف الاحوال بذلك.

وقال ابن كثير: فلما انحسر الشتاء وانكسر البرد، وانتشر الربيع أمر السلطان باجتماع العساكر وكانوا قد تفرقوا فتوافوا، فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم، ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان وحشود من العرب والتركمان، ثم رحل السلطان ونزل على كيسان في التاريخ المذكور، وترتبوا في النزول ميمنة وميسرة وقلباً، وكان الملك الافضل في أول الميمنة وأخوه الملك الظاهر في أول الميسرة.

ذكر وصول رسول الخليفة: لما كان يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول من هذه السنة وصل رسول من بغداد من عند الخليفة الناصر، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، وذلك في جواب رسالته مع ضياء الدين الشهرزوري، وأرسل الخليفة معه أحمالا من النفط والرماح الخطية، ومعه نفاطة متقنون لهذه الصناعة غاية الاتقان، ومرسوم بعشرين ألف دينار، وذلك في رقعة من الديوان العزيز تتضمن الاذن للسلطان في أن يقترض عشرين ألف دينار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز، فقبل السلطان جميع ماوصل واستعفى عن الرقعة.

وفي المرآة: ومع الرسول توقيع بعشرين ألف دينار تقترض من التجار على الخليفة، فشق على السلطان، وقال: أنا في يوم واحد أخرج مثل هذا

وأضعافه، وما أنـا مضرور ، ورد عليه جميع ماجاء به، فـأشار عليه بعض أصحـابه بـأخذ النفـط للغزاة فـأخـذه، ورد التوقيـع، وقال: يـرحم اللـه. العاضـد وصل إليّ منـه في عشرين يومـا بمقام الفـرنج على دميـاط ألف ألف دينار ومعها عروض.

ذكر وصول الأمراء:

وفي يوم الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الآخـر قدم عماد الدين زنكي بن مودود بـن زنكي، صاحب سنجـار بمن استنهضه من العسـاكر، في جمع عظيم، ولقيه السلطان وأكـرمه غاية الاكرام، ورتب لـه العسكر في لقائه، فكان أول مـن لقيه من العسكـر المنصور قضاتـه وكتابه، ثـم لقيه أولاده بعد ذلـك، ثم لقيه السلطـان، ثم سار حتـى أوقفه على العدو، ثـم عاد معه إلى خيمتـه وأنزله عنـده، وكان صنع لـه سماطاً لائقاً بـه، فحضر هو وجميع أصحـابه، وكان قد بـالغ في اكرامه حتـى بسط له طراحـة مستقلة إلى جانبه، وبسط لــه ثوباً أطلس عند دخوله، ثم ضربت له خيمة على طـرف الميسرة عند جـانب النهـر، وقدم إليـه عشرة من الخيـول العربيـة، وخمس عشرة بقجة قماش.

ثم وصـل من بعـده ابن أخيـه معز الـدين سنجـرشاه بـن غازي بـن مـودود، صاحـب الجزيرة، بعسـاكره الكثيرة، وذلـك يوم الاربعـاء سابـع جمادى الاخرى، ولقيه السلطان وأكرمه وأنزله في خيمة ضربت إلى جانب عمه عماد الـدين، ثـم وصل الملـك السعيد عـلاء الديـن خسروشاه ابـن صاحـب الموصل عز الديـن مسعود بن مـودود، وذلك يوم الجمعة تـاسع جمادى الاولى، وكـان أبوه أرسلـه نـائباً عنـه مقـدمـاً على عسكره، ففـرح السلطان بقـدومه وتلقـاه من بعـد وأنزلـه عنده في خيمـة ضربت لـه بين خيام ولديه الملـك الافضل والملك الظاهر، وقدم له تحفـاً سنية، وكان ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب والملك مظفر الدين بن علي كوجك،

صاحب حران، قدما قبل احتراق الابراج التي صنعها الافرنج.

وقضيتها أن البحر لما انفتح تواترت الافرنج والنصارى من كل جزيرة ينصرون أصحابهم ويمدونهم بالقوة والميرة، وعملت الافرنج ثلاثة أبرجة خشب وحديد عليها جلود مسقاة بالخل والخمر لئلا يعمل فيها النفط والنار، وطموا خندق عكا، وسحبوا الابراج على العجل إلى السور، فأقبلت أمثال الجبال، فأشرفت على البلد، وفي كل برج خمسمائة مقاتل، فأيس المسلمون من البلد، وقد حيل بينهم وبين السلطان، وركب السلطان والعساكر واجتهدوا في الوصول إلى البلد، فلم يقدروا ورماهم الزراقون الذين في البلد بالنفط، فلم يحترق منها شيء، فأهم أمرها المسلمين وكانوا عليها خائفين، فأعمل السلطان حيله وفكره في احراقها واهلاكها، فاستحضر النفاطين ووعدهم الاموال الجزيلة، فانتدب شاب نحاس من دمشق يعرف بعلي، عريف النحاسين، والتزم باحراقها واهلاكها، فأخذ النفط الابيض، وخلط إليه أدوية عرفها، وغلاه في ثلاث قدور من النحاس حتى صار ناراً تتأجج، ورمى كل برج منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا، فأحرق الابراج الثلاثة باذن الله تعالى، حتى صارت ناراً لها ألسنة في الجو متصاعدة، فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل والتكبير واحترق في كل برج من مقاتلتهم سبعين كفوراً، ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ [الفرقان ٢٦] وذلك يوم الاثنين الثامن والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وكانت الفرنج قد تعبوا فيها سبعة أشهر فاحترقت في يوم واحد.

وفي المرآة: وكان هذا الشاب بعكا ليس له في الديوان اسم، وكان عارفاً بالنفط والحريق، وقال لقراقوش: انصب إليّ منجنيقاً أحرق هذه الأبراج، فقال له: قد عجز الصناع فمن أنت؟ فقال: قد عملت قدوراً لله تعالى، وأنا لاأريد منكم شيئاً، ومايضركم أن أرمي بها في سبيل الله فإن نفعت، وإلا فاحسبني واحداً منهم، فقال قراقوش: مايضرنا ذلك،

ثم نصب له المنجنيق، وكان قد هيأ تلك القدور، فرمى قدرة واحدة في برج فاحترق بمن فيه، ثم فعل ذلك بالثاني والثالث، فكبر المسلمون، وسمع السلطان فكبر والعساكر وفرح قراقوش والأمراء وطموه بالخلع والاموال، فلم يأخذ شيئاً، وقال: أنا فعلت هذا لله تعالى ولم يأخذ عليه شيئاً من الدنيا، وكان السلطان أيضاً قد عرض عليه العطية السنية فامتنع من قبولها، وقال: إنما عملت هذا ابتغاء وجه الله فلا أريد منكم جزاء ولاشكوراً.

ذكر وصول الاسطول من مصر:

وكان السلطان قد أمر بتعمير اسطول آخر من مصر، تصل فيه الميرة والذخير والعدد الكثيرة، فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول فركب السلطان في جحافله ليشغل الفرنج عن قتال الاسطول، وعمر الفرنج أيضاً اسطولاً، وصفوا شوانيه على البحر عرضاً وطولاً، وأرادوا أن يلاقوا الاسطول المنصور، فجاءت مراكب الموحدين ونطحت مراكبهم وطحنتها، وأخذ المسلمون لهم مركباً، وأخذ الافرنج للمسلمين مركباً وكان التقصير من الرؤساء، واتصل الحرب في البر إلى حين غروب الشمس، وعاد المسلمون مسرورين، وقتل من الافرنج عدد كبير لعنهم الله.

وقال القاضي بهاء الدين رحمه الله: التقى الاسطولان في البحر والعسكران في البر، واضطرمت نار الحرب، وباع كل فريق روحه براحته الاخروية، ورجح حياته الابدية على حياته الدنياوية، وجرى بين الاسطولين قتال شديد أفصح عن نصرة الاسطول الاسلامي، وأخذ منه شيني وقتل من فيه، ونهب جميع مافيه وظفر العدو أيضاً بمركب كان واصلاً من قسطنطينة، ورحل الاسطول المصري إلى عكا، واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن حجز بينهما الليل، وقد قتلوا من

الافرنج خلقاً كثيراً، إلا أنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع في البحر والبر، ومن داخل عكا.

ذكر قصة ملك الالمان:

صح الخبر أن ملك الالمان عبر من قسطنطينية الخليج، وأنه وصل بجمعه إلى مضايق صعب عليه العبور، فقيل إنهم أقاموا في قفار ومواضع صعبة شهراً عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلا ضراً، وكان التركمان الأوجية على طريقهم يمنعون.شريعتهم، فاضطروا إلى المقام بغير زاد، فصاروا يذبحون خيولهم ويأكلونها ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها، فترجلت منهم ألوف، وكان ذلك في البرد الشديد وزمان الثلج والجليد، وعدموا الدواب لحمل الاثقال، ونقلوا عدد الرجال فدفنوا من ذلك شيئاً كثيراً، وأحرقوا منها، وكان ظنهم أنهم إذا عادوا أخذوا مادفنوه، فأخذ المسلمون مادفنوه، وكانوا في عدد كثير، فما أثر فيهم ذلك ولاكسرهم عن مقصدهم ومازالوا يسيرون حتى بلغوا إلى بلاد صاحب الروم قونية وغيرها وهو قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن (سليمان بن) قتلمش بن سلجوق.

وفي المرآة: وكانوا في ستمائة ألف مقاتل جاءوا من فرنجة، فخاف منهم ملك القسطنطينية فقالوا له: لاتخف نحن ماجئنا إلا لنخلص القدس وصليب الصلبوت، ونملك بلاد المسلمين، وكان بين السلطان صلاح الدين وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسول إلى السلطان بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة وجواب رسول كان أنفذه السلطان إليه بعد تقرير القواعد، وإقامة قانون الخطبة في جامع في قسطنطينية، وكانت الخطبة أقيمت وأكرم الرسل اكراماً زائداً، وكان السلطان قد أنفذ مع الرسول خطيباً ومنبراً وجمعاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوماً عظيماً، ولما رقا

الخطيب المنبر حضر هناك جمع كثير من التجار والمسلمين مقيمين بها، وأقام الخطيب الدعوة العباسية وبعد ذلك كله جاء رسول صاحب القسطنطينية الذي ذكرناه ومعه ترجمان يترجم، وهو شيخ حسن الوجه وعليه زيهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب مختوم بالذهب دون عرض كتاب بغداد مترجم في ظاهره وباطنه بسطرين بينهما فرجه وضع فيها الختم من الذهب المطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع، وعلى الختم صورة الملك وصورة السطرين المذكورين:

«من ايتاكيوس الملك المؤمن بالمسيح الاله المتوج من الله، المنصور العالي أبداً، فقتوس المدبر من الله، القاهر الذي لايغلب، ضابط الروم بذاته انكليوس.

إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين».

وأما الذي في باطن الكتاب فإنه يتضمن اظهار المحبة والمودة، ثم ذكر خبر ملك الالمان، وقال: «لاتحمل على قلبك منهم، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم، وإنهم قد خسروا كثيراً من الاموال والدواب والرجال وبلغوا بالشدة، وقد تخلصوا من أجناد بلادي بالغصب، وقد ضعفوا بحيث أنهم لايصلون الى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً في شدة بعد شدة».

وأكرم السلطان رسوله وأقام بحقه كما هو العادة بين الملوك.

ووصل أيضاً كتاب إلى السلطان من مقدم الارمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على أطراف الفرات، وصورته: «كتاب الداعي المخلص الكاغيوس: مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين، سلطان

الاسلام والمسلمين أدام الله إقباله وضاعف جلاله وصان مهجته وكماله، وبلغه نهاية آماله بعظمته وجلاله.

وأما أمر ملك الالمان فإنه دخل بلاد الهنكر غصبا، وأذعن له ملك الهنكر ودخل تحت طاعته، وأخذ من ماله ورجاله ماااختار، ثم إنه دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها وأقام بها وأخلاها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه: ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً، وخمسين قنطاراً فضة، وثياباً طلساً، مبلغاً عظيماً، واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، ورد الرهائن، وبقي سائراً ثلاثة أيام وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والابقار والخيل والبضائع فداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع بينهم وبين التركمان، وضايقهم التركمان ثلاثة وثلاثين يوماً»، ثم ذكر ماوقع بينه وبين قليج أرسلان على مانذكره إنشاء الله تعالى.

ذكر ماجرى بينهم وبين قليج أرسلان:

ولما وصلوا إلى بلاد قليج أرسلان، وكان مملوكاً من ولده قطب الدين ملكشاه، وهويدبر أمره، عارضهم وتعرض لقتالهم وطاردهم ليضيق عليهم، ثم اندفع من بين أيديهم، ودخلوا قونية، واعتصم قليج أرسلان بقلعتها وتراسل هوومك الالمان واتفقا بالمواثيق والايمان على ان يوافقه على العبور إلى الاقاليم الشامية والبلاد الاسلامية، وعلى أن يسير في بلاده إلى بلاد لافون ملك الأرمن، وأعطاه عشرين مقدماً من أكابر أمرائه ليكونوا معه حتى يصل إلى الماء، وأمر الناس بمبايعتهم على مايسومونه، وأقام لهم الاسواق، فساروا في رفق ورفاهية، ولماوصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن وساقهم محمولين مع الظعائن، واحتج عليهم بأن التركمان سرقوا منهم في طريقه.

وفي تـاريخ بيبرس: ولما قـربـوا من قـونيـة خرج إليهـم قطـب الديـن ملكشاه بـن قليج أرسلان ليمنعهـم، فلم يمكنـه ذلك لكثرتهم، فـراسله ملـك الالمان، وأرسل إليـه هديـة وهادنـه، وطلب منـه من يسير معـه إلى بيت المقدس، ثم سار إلى بلاد الارمن.

وفي المرآة: ولما دخلوا بلاد قليـج أرسلان لم يكن له بهم طاقـة، فاحتاج إلى مسالمتهـم، وكتب إلى السلطان يعتذر بـالعجز عنهم، وسـاروا طالبين الشام، ووقع فيهم الوباء وبدوابهم.

وذكـر في النوادر: ولما قـربوا مـن قونيـه، جمع قطـب الديـن بن قليـج أرسـلان العساكـر، وقصده وضرب معـه مصـافاً عظيماً فظفـر به الملـك، وكسره كسرة عظيمة، وسـار حتى أشرف على قـونية، فخـرجت إليـه جموع كثيرة من المسلمين فردهم مكسورين، وهجم قـونية بالسيف، وقتل منهم عالماً عظيما من المسلمين، وأقـام بها خمسة أيام، فطلب منـه قليج أرسلان الامان، فأمنـه، واستمرت بينهم قاعـدة أكيدة، وأخذ منه رهـائن عشرين مـن أكـابـر دولتـه، وأشـار على الملك أن يجعـل طـريقـه على طـرسـوس والمصيصة، ففعل ذلك وقبل منه.

وفي المرآة: ووصلوا إلى نهر طرسوس فتحصن منـه ابن ليفون بقلعة من قلاعه لانه أرمني وهم روم.

قلت: التوفيـق بين الكلامين أنه تحصن أولا منـه خوفاً، ثم طلـب منه الامان فأمنه، ونزل إلى خدمته، وأقام بواجبه.

ذكر هلاك ملك الالمان:

لماوصل ملـك الالمان الى طرسـوس، اجتاز هنـاك بنهر شـديد الجريـة، فدعته نفسـه الخبيثة ان يسبح فيه، فنزل وصار فيـه، فحمله الماء إلى جذم

شجرة هناك ففشخت رأسه، وأخذت أنفـاسه، وراحت روحه إلى الهاوية، وأراح الله المسلمين منه، وكان شيخاً مسناً.

وفي تاريـخ بيبرس: ثم سار إلى أنطاكيـة، وكان في طريقهم نهر، فنـزلوا عنده، فعبر الملك النهر ليغتسل فمرض فمات، وكفى الله شره.

وفي المرآة: أراد الملـك أن يسبح في نهر طـرسـوس، وكـان ماؤه بـارداً، فنهوه، وقـالوا: لاتفعل فـأنت متعوب، فقال: لابـد من ذلك فسبـح فيه، فأخذته الحمـى، فأقاموا على النهر بسببه، فأوصـى إلى ولده الذي كان في صحبته ومات فسلقوه في خل وحملوا عظامه ليدفنوها في القدس.

وذكر صـاحب النوادر: نـزل على شط بعـض الانهار، فأكل خبـزاً ونام سـاعة، وانتبـه فتـاقت نفسـه الى الاستحمام في الماء البـارد، ففعل ذلـك، وخرج، وكـان من أمـر الله أنـه تحرك عليه مـرض عظيم مـن الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات.

ولما شاهـد لافون ملك الارمـن هذا هـرب وتحصن في بعض حصـونه، واحتمى هناك.

ذكر إقامة ابن الملك مقامة:

ولماهلك اللعين المذكـور أقيم ولده الاصغـر في الملك بعـده، وقد تمزق شملهم، وتفرق جمعهم.

وفي المرآة: ولما مـات اختلفوا على ولـده لانـه كـان له آخـر آكبر منـه، وكانوا يميلون إليه، فتأخر عنه أكثرهم، ودخل أنطاكية في جيش قليل.

وفي تـاريخ بيبرس: وكـان معه ولـده فصيروه ملكاً عليهـم، فاختلفـوا

عليه، ومـال بعضهم إلى أخيـه، فسار فيمـن بقي معـه، وعرض جماعتـه، فكانـوا نيفاً وأربعين ألفـاً، ووقع فيهـم الوبـاء، وتخطفهم عسكـر حلب وغيرهم، ثـم ساروا إلى طـرابلس، فلـم يبق منهـم سوى ألـف، ثم ركبـوا البحر وقصـدوا عكا، ثـم أجمعوا على العود إلى بـلادهم في البحـر، فغرق بهم المركـب، ولم ينج منهـم أحد، وأرسـل قليـج أرسلان صـاحب الـروم يعلم السلطان صلاح الـدين بذلك، وبلغ الفرنج هـلاكه فأشعلوا النيران حزناً عليه.

وفي تاريـخ ابن كثير: وأمـا ولد ملـك الالمان فإنـه مرض أيـاماً في بلـد الارمن، وهلك أصحابه جوعـاً، ووقع الموت في خيلهم، وحمل الملك وهو مريض، وساروا أمامه في ثلاث نـوب لكثرتهم، ومعظم رجالتهم حاملين العصي وركـاب حمير، وهـم غير عـارفين بـالطـريـق، والنـاس يلتقطـونهم ويتخطفونهم، ووصلـوا إلى أنطاكيـة وضاق بـالابرنـس صاحـب أنطاكيـة ذرعاً، ولم يجد عنـده مرتجى، وطلـب منه القلعة فـأخلاها لـه، ونقل مـاله إليها وسـأله أن يجعـل طريقه على حلـب، فخاف وأبـدى الخلاف، وقبل وصوله إلى انطاكية قلت جموعـه وجنوده، وبليت بحشد التركمان حشوده، واجتازت الفرقـة الاولى منهم على بغراس من تحت قلعتهـا، فخرج رجالها عليهم على قلتهم، فأسروا منهم أكثر مـن مائتي أسير، وقيل إنهم حسبوا أن بغـراس باقيـة على حالها بيـد الداويـة، فجاءوا إليهـم سحراً بـأحمالهم وأمـوالهم السنيه، فلـم يشعـر واليها إلا البغال على البـاب واقفة، فخـرج إليها وتسلمها بغير طعن ولاضرب، وتخلى عنهـا أصحابها لما عرفوا الحال، ولم يعـرجوا على حـرب، وهلك بـانطـاكية الكنـد الكبير مقدم العسكـر، وحصـل للابـرنس صـاحب انطـاكية أمـوال كثيرة من الـذخائر المودعـة وغيرها، ثـم سار هـؤلاء الملاعين على طريـق الساحـل، فخرجـت عليهم خيل الـلاذقية وجبلة وسقتهم أنـواع العذاب، فجدوا السير حتـى وصلوا إلى طرابلس وقـد نقص نصفهم، وخاف الملك مـن المسير على الطريق لما افترقت جموعه، فـركب البحر في عدديسير لايزيد على ألـف، واختلط مع

الافرنـج على عكا، فسقط اسمـه وبطل حكمه، وكـذلك شأن مـن يكفر بالله.

وقال ابن كثير: وصل ملك الالمان في خمسمائة ألـف مقاتل، وإن ملوك الافرنج كلهـم كرهوا قدومـه عليهم لما يخافون من سطـوته، وزوال دولتهم بدولتـه ولم يفرح بـه إلا المركيس صاحـب صور، الـذي حرك هـذه الفتنة وأثار هذه المحنـة لعنه الله، فانـه تقوى به وبكيده، وكـان خبيراً بالحروب والقتال، وقـد أحدث أشياء كثيرة، مـن آلات الحرب لم تخطر ببـال أحد، منها أنـه نصب دبـابات أمثال الجبـال تسير بعجل ولها زلـوم من حـديد ينطح السور فيكسر ويثلم جـوانبه، فمن الله العليم باحـراقها واتلافها، وأراح الله المسلمين من شـرهـا (٢٤)

ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد التي في طريق ملك الالمان:

لما تحقق السلطان صـلاح الدين رحمه الله وصـول ملك الالمان الى بلاد لافون، ملك الارمن، وقـربه من البلاد الاسلامية جمع أمـراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع، فاتفـق الرأي على أن بعض العسكر يسير إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العـدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدو ببـاقي العسكر المنصور، فكان أول من سـار صاحب منبج، وهو نـاصر الديـن بن تقـي الديـن، ثم عـز الديـن بن المقـدم صاحـب كفرطـاب وبعريـن وغيرهما، ثم مجد الديـن صاحب بعلبـك، ثم سـابق الديـن صاحب شيـزر، ثم الياروقيـة من جملـة عسكر حلب، ثـم عسكر حماه، وسـار ولـده الملك الافضـل إلى دمشـق لمرض عـرض له، ثـم بـدر الدين شحنـة دمشق لمرض عرض له أيضـاً، وسار بعد ذلك ولـده الملك الظاهـر إلى حلب لحفظ الطـرق وكشف الاخبـار، وسار بعد ذلـك الملك المظفر لحفظ مايليـه من البلاد، وكان آخر من سافر ليلـة السبت التاسع

عشر من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائة، ولما سارت هذه العساكر خفت ميمنة السلطان، فإن معظم من سار كانوا منها، فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن ينتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميمنة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن زين الدين صاحب حران وشفي، ومرض بعده الملك الظاهر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الا كابر وغيرهم، إلا أن المرض كان سليماً بحمد الله، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم، مع كونه مقروناً بموتان عظيم، وأقام السلطان رحمه الله مصابراً على ذلك، مرابطاً للعدو.

وفي تاريخ ابن كثير: عزم السلطان على استقبالهم بالرد، وصدهم عن القصد، ثم ثبت عزمه على أن يعود الذين لهم بلاد على طريق هؤلاء الملاعين، فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج، ثم فلان وفلان على ماذكرنا الآن، ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة، وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخرة، ورتب السلطان منازل العسكر الحاضره على ماذكرنا وتقدم، وهدم سور طبرية، وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت.

وفي المرآة: وانقطعت أخبار عكا عن السلطان، فندب أقواما للسباحة وأعطاهم المال في أوساطهم والطيور في أعناقهم ليرووا الاخبار، فعلم بذلك الافرنج فاحترزوا بشباك نصبوها في الميناء، فإذا جاء سابح وقع فيها، فامتنع الناس، وبعث قراقوش يشكو قله الميرة، فرتب لهم السلطان بطسة كبيرة، وجعل فيها نصارى من أهل بيروت كانوا قد أسلموا، فقال لهم: ارفعوا الصلبان على البطسة كأنكم قاصدين الفرنج، ففعلوا ذلك، فخرج إليهم الافرنج في الشواني، فقالوا: نراكم قاصدين البلد؟ فقالوا: أو ما أخذتموه بعد؟ قالوا: لا، فقالوا وراءنا بطسة أخرى ردوها عن

البلد، فذهبوا عنهم فردوا القلاع إلى البلد، ودخلوا إلى الميناء، وكبر المسلمون وامتاروا أياماً.

ذكر الوقعة العادلية:

ولماكان يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، علم عدو الله أن العساكر تفرقت في أطراف البلاد للعدو، وأن ميمنة السلطان قد خفت، أجمع رأيهم على أنهم يهجمون على طرف الميمنة بغتة، فخرجوا ظهيرة يوم الاربعاء، وامتدوا ميمنة وميسرة وقلباً، وانبثوا في الارض، وكانوا عدداً عظيماً، واستخفوا طرف الميمنة، وكان في طرفها مخيم الملك العادل، فلما بصر الناس بهم خرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها، وركب السلطان صلاح الدين رحمه الله ونادى مناديه: ياللاسلام، وركبت الجيوش وطلبت الاطلاب، وكان السلطان أول راكب.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولقد رأيته وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة ولدها الثاكلة، ثم ضرب الكوس فأجابته كوسات الامراء من أماكنها، وركب الناس، وأما الفرنج لعنهم الله، فإنهم سارعوا في القصد إلى الميمنة حتى وصلوا قبل استتمام العساكر حتى وصلوا إلى مخيم الملك العادل، ودخلوا في وطاقه، وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة، وقيل وصلوا إلى الخيمة الخاص، وأخذوا من شرابخاناته شيئاً، وأما الملك العادل لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي، ومن يجري مجراه من أسود الاسلام، ووقف وقوف مخادع حتى توغل بهم طمعهم في الخيم، واشتغلوا بالنهب من الاقمشة والفواكه والمطاعم، فعند ذلك صاح العادل بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، وهجموا على العدو

هجمة الاسـود على فرائسها وأمكنهـم الله منهم، ووقعـت الكسرة فعادوا يشتـدون نحـو خيـامهـم هاربين على أعقـابهم، وسيـف الاسـلام يلتقـط الارواح من الاشباح، ويفصل بين الاجسـاد والرؤوس، ويفرق بين الابدان والنفوس، ولما بصر السلطان بـذلك نادى في الناس يااللاسـلام، ياأبطال الموحدين، هـذا عدو الله قد أمكـن الله منه، وقد داخلهـم الطمع حتى غشيـوا خيامكـم، فكان مـن المبـادرين إلى إجـابتـه جماعة مـن مماليكـه وخاصته، ثم طلـب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولـد عز الدين، ثـم عسكر مصر يقـدمهـم سنفر الحلبـي، وتتابعـت العسـاكر وتجاوبـت الابطـال، ووقـف السلطـان في القلـب، فعنـد ذلـك قـامـت الحرب على سوقها.

قال الراوي: فلـم يك ساعة حتـى رأينا القوم ﴿صرعى كـأنهم أعجاز نخـل خـاويـة﴾ [الحاقـة٧] وامتـدوا مطـرحين، أولهم مـن خيـام الملـك العادل، وآخـرهـم عنـد خيامهم، وكـانت المسـافة بين المضربين فـرسخاً، وربما زاد على ذلك، وقتلى الافرنج مطرحين فيها ولم ينج منهم إلا النادر.

قال قـاضي القضاة بهاء الديـن: ولقد خضت في تلـك الدماء بـدابتي فاجتهـدت أن أعدهـم فما قدرت على ذلـك لكثرتهم، وشـاهدت فيهـم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهـد فيهم أ ربع نسوة يقاتلن، وأسرت منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلـك اليوم نفر يسير، فإن السلطان أمر أن لايستبقى أحـد، هذا كله في الميمنـة وبعض القلـب، وأما الميسرة، فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الامر، وكـانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر، وانفصلـت الحرب بعـد العصر، ولم يفقـد مـن المسلمين في هـذا اليـوم سـوى عشرة أنفـس غير معـروفين، وأما أهـل عكـا فـإنهم كـانـوا يشاهدون الوقعـة من أعالي السور، فخرجوا إلى مخيـم العدو، وجرى بينهم مقتلـه عظيمـة، وكانـت النصرة للمسلمين، فـأخـذوا جمعاً مـن النسـوان

والاقمشة حتى القدور فيها الطعـام، واختلف الناس في عدد القتلى منهم فقيل كانوا ثمانية آلاف وقيل سبعة آلاف.

وقال قـاضي القضاة بهاء الديـن: ولقد شـاهدت منهم خمسـة صفوف أولها عند خيـم العادل وآخرهـا عند خيامهـم، ولقد رأيـت انساناً عـاقلاً جنديا يسعـى بين الصفوف من القتلى ويعدهم، فقلت لـه: كم عددت؟ فقال إلى هنا أربعـة آلاف ونيفاً وستين قتيلاً، وكان قـد عدّ صفين وهو في الصف الثالث، لكن مامضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقي.

ولما كـان يـوم الخميـس الحادي والعشريـن مـن جمادى الآخـرة ورد في عصره نجـاب مـن حلب، ومعـه كتـاب يتضمـن أن جماعة عظيمـة مـن العدو الشمالي خرجوا لنهـب أطراف البـلاد الاسلاميـة، ونهض العسكر الاسلامي مـن حلب وأخذوا عليهم الطريق فلم ينج منهـم أحد إلا من شاء الله عزوجـل، فضربت البشائر، ولم ير يوم أحسن منـه، وجاء في بقية ذلك اليـوم من اليـزك قيماز الحراني، وذكر أن العـدو قد سـأل من يصـل إليهم ليسمـع منهم حديثاً في سـؤال الصلح، لضعف حـل بهم، ولم يزل أعـداء الله مـن ذلك الـوقت مكسـوري الجناح منهـاضي الجانب حتـى وصل إليهم كند يقال له كندهري.

ذكر وصول الكندهري:

هذا كـان ملكاً مـن ملوك الافـرنج ومـن أعيانهم، وصـل في البحر في مراكب عدة ومعـه من الاموال والذخائر والمير والاسلحة والـرجال عدد عظيـم، فقوي بـوصوله جأش الافرنـج وحدثتهم نفوسهـم بكبس العسكر الاسلامـي ليلاً، وكثـر هذا الحديـث على ألسنة المستـأمنين والجواسيس، فجمع السلطان الامـراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعـل، وكان آخر الرأي أنهم يوسعون الحلقة ويتأخـرون عن العدو رجاء أن يخرجوا ويبعدوا عن خيامهـم فيمكن الله منهم، ووافقهم السلطان على ذلـك، فرحل إلى

جبل الخروبة بـالعساكر بأسرهـا، وكان في يوم الاربعاء السـابع والعشرين من جمادى الآخرة من هـذه السنة، ونزل بقية من العسكر في تلـك المنزلة كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النوبة.

هذا والكتـب متواصلـة من عكا على أجنحـة الطيور، وأيـدي السباح والمراكـب اللطاف تخرج ليـلاً وتـدخل سرقـة منهـم، وكـان الكندهـري المذكور قد أنفـق على منجنيق كبير عظيم الشكل على مـانقل الجواسيس والمستـأمنـون ألفـاً وخمسمائة دينـار، وأعـده ليقـدمـه على البلـد، ولما رأى المسلمـون أنهم سلطوا على البلـد المنجنيقات مـن كـل جانـب وتناوبـوا عليها بحيـث لايتعطل رميهـا لا ليلاً ولانهارا، وذلـك في أثناء رجـب من هذه السنـة، وضيقوا على البلد، حركتهـم النخوة الاسلاميـة، واتفقوا على أنهم يخرجـون فـارسهـم وراجلهـم على غرة وغفلـة منهـم، وكـان مقـدم العسكـر الاسفهسلار الكبير حسـام الديـن أبو الهيجـاء المقدم في الكـرم والشجـاعـة، ووالي البلـد وحـارسه الامير الكبير بهاء الـديـن قـراقـوش، وفتحوا الابواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب، ولم يشعر الفرنج إلا والسيف فيهـم حاكـم، وسهم قضاء الـدين فيهم نـافذ، وتقـدموا إلى أن ولجوا في خيامهـم، ولما رأوهم كذلك ذهلـوا عن المنجنيقات وحـراستها، فـوصلت إليهـا شهب الـزراقين والنفـاطين حتى اضطـرمت فيهـا النيران واحترق منهـا ماشيـدتـه الاعداء في المدة الطـويلـة في أقرب أوان، وقتـل منهـم في ذلك اليـوم سبعـون فارسـاً، وأسر خلـق عظيـم، وكان في جملـة الاسرى رجل مـذكور فيهـم ظفر بـه شخص مـن آحاد النـاس، ولم يعلم بمكانته ولما انفصـل الحرب سأل الفرنج عنه هل هـو حي أم لا، فعرف الذي عنده أنه رجل كبير، وخاف أن يغلـب عليه ويؤخذ منه فسارع إلى قتله فقتله، وبذل الفرنج فيه أموالاً عظيمة، ولم يزالوا يسألون ذلك حتى رمـوا إليهـم رأسـه، فضربـوا بنفـوسهـم الارض، وحثـوا على رؤوسهـم ووجوههم التراب، ووقعـت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمـة واستخفهم المسلمـون بعد ذلـك فهجموا عليهـم مـن كل جـانب، ولاسيما العـرب،

فإنهم يدفون(٢٥) فيهم من كل ناحية يسرقون وينهبون ويأسرون ويقتلون، فانحلت عزيمتهم وضعفت قواهم، ولاسيما لما أحرق المسلمون ذلك المنجنيق العظيم الذي صنعه الكندهري، كما ذكرنا.

ذكر وصول البطس من مصر:

كتب الأمير بهاء الدين قراقوش متولي عكا إلى السلطان في العشر الأول من شعبان من هذه السنة أنه لم يبق عندهم من المؤن مايكفيهم إلى ليلة النصف، فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسره في نفسه ولم يبده لأحد، خوفاً من شيوع ذلك فيبلغ إلى العدو فيقوى على المسلمين، وتضعف القلوب، وكان قد كتب إلى أمير الاسطول بالديار المصرية ليتقدم بمسيره إلى عكا، فوصلت ثلاث بطس ليلة النصف فيها من الميرة مايكفي أهل البلد طول الشتاء، وهي في صحبة الأمير لؤلؤ الحاجب، فلما أشرفت على الناس، تقدم إليها اسطول الفرنج ليحاجز عن البلد، ويتلف البطس، فاقتتلوا في البحر قتالا عظيماً، والمسلمون في البر يبتهلون إلى الله تعالى عز وجل، والفرنج أيضاً يصرخون في البر والبحر، وقد ارتفع الضجيج، فنصر الله المسلمين، وسلمت مراكبهم وطابت الريح للبطس فسارت فأحرقت المراكب الافرنجية المحيطة بالميناء، ودخلت البلد سالمة، وفرح بها أهل البلد والجيش فرحاً عظيماً، وكان السلطان رحمه الله قد جهز قبل هذه الثلاث بطس المصريات بطسة عظيمة من بيروت فيها أربعمائة غرارة قمح وشيء من الجبن والبصل والشحم والقديد والنشاب والنفط، وكانت هذه البطسة من بطس الفرنج المغنومة، وأمر من فيها من التجار أن يتزيوا بزي الفرنج حتى أنهم حلقوا لحاهم وشدوا الزنانير، واستصحبوا معهم في البطسة شيئاً من الخنازير، وقدموا بها على مراكب الفرنج، فاعتقدوا أنهم منهم، وهي سائرة كأنها السهم إذا خرج من الرمية، فحذرهم الفرنج غائلة الميناء من ناحية المسلمين، فاعتذروا بأنهم مغلوبون معها والريح قوية

لايمكنهم أن يقفوا ولاينصرفوا، ومازالوا كذلك حتى ولجوا الميناء، وأفرغوا ماكان معهم من الميرة ، والحرب خدعة.

قال صاحب النوادر: وكان ذلك في العشر الاخير من رجب.

ذكر احتراق بطسه عظيمة للفرنج:

كان ميناء عكا يكتنفه برجان يقال لأحدهما برج الذبان، فاتخذ الفرنج بطسة عظيمة لها خرطوم وفيه حركات، إذا أرادوا أن يضعوه على كل شيء من الاسوار والابرجة كلبوه فيصل إلى ماأرادوه، فعظم أمر هذه البطسة على المسلمين، ولم يزالوا في أمرها محتارين حتى أرسل الله عليها شواظاً من نار فأحرقها وغرقها، وذلك أن الافرنج أعدوا فيها نفطاً كثيراً وحطباً جزلاً، وأخرى خلفها فيها حطب محض حتى إذا أراد المسلمون المحاققة عن الميناء بمراكبهم أرسلوا النفط على تلك البطسة الحطبية فاحترقت وهي سائرة بين بطس المسلمين فتحرقها، وبطسة أخرى لهم فيها مقاتلة تحت قبو قد أحكموه فيها، فلما أرسلوا النفط على برج الذبان انعكس الامر عليهم بقدرة الرحمن وذلك لشدة الهواء تلك الليلة، فما تعدت النار بطستهم فاحترقت، وتعدى الحريق إلى الاخرى فغرقت، ووصل الى بطسة المقاتلة فتلفت وهلك من فيها، فأشبهوا من سلف من الكفار كما قال تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ [الحشر٢].

ذكر قصة عيسى العوام رحمه الله:

وكان عواماً، قيم في العوم يقال له عيسى، وكان يدخل إلى عكا بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من الافرنج، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتب مشمعة للعسكر، فنزل في

البحر، فجرى عليه أمر أهلكه، وأبطأ خبره عن المسلمين، وذلك لان عادته أنه إذا دخل البلد أرسلوا طيراً يعرف بوصوله، فلم يجيء الطير فتحققوا أنه هلك، ولما كان بعد أيام بينما الناس على طريق البحر في البلد إذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريباً فتسارعوا إليه فأخرجوه، فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب والكتب المشمعة، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رؤي من أدى الامانة في حال حياته، وقدر الله له أداءها بعد وفاته الا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الاخير من رجب من هذه السنة.

ذكر اشتداد الحصار على عكا:

وفي ثالث رمضان من هذه السنة اشتد الحصار من الافرنج للبلد حتى نزلوا إلى الخندق، فبرز إليهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وتمكنوا من حريق الكبش الذي اتخذوه لحصار الاسوار، وسرى حريقة الى السفود، فارتفعت له لهبة عظيمة في عنان السماء، ثم اجتذبه المسلمون إليهم بكلاليب من حديد في سلاسل، فحصلوه عندهم وألقوا عليه الماء البارد، فبرد بعد أيام فكان فيه من الحديد مائة قنطار بالدمشقي.

وقال العماد الكاتب رحمه الله: وعمل الفرنج دبابة هائلة في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين العظيمين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فحاصل الكلام أبطل المسلمون سعيهم في ذلك وأحرقوها كما ذكرنا ولله الحمد.

وفي أثناء ذلك حصل للسلطان سوء مزاج من كثرة مايكابده من الامور التي هي أمر من الاجاج، فطمع العدو المخذول في الاسلام

فتجـرد منهم جماعـة للقتال، وثبـت آخرون على الحصـار، وأقبلوا في عـدد كثير، وعدد غزير.

وكانوا صوروا القدس في ورقة عظيمـة، وصوروا فيه صورة القمامة التي إليها يحجون ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه ـ على زعمهـم الفاسد ـ وذلـك القبر أصل حجهم، وهو الـذي يعتقدون نزول النور عليـه في كل سنة في عيد من أعيادهـم، فصوروا القبر، وصوروا عليه فرساً عليـه فارس مسلم راكب عليه، وقد وطـىء قبر المسيح، وقد بـال الفـرس، وأظهروا هـذه الصـورة وراء البحـر في الاسواق والمجـامـع والقسوس يحملـونها ورؤوسهـم مكشفة، وعليهم المسـوح وينادون بالـويل والثبـور، فهاج بـذلك خـلائق لايحصـون، ولما كثروا على المسلمين رتـب السلطـان الجيش ميمنـة وميسرة وقلباً وجنـاحين، فلما رأى الفـرنج ذلـك فـروا مـن موقـف الحرب، فقتـل منهـم خلق كثير وجـم غفير، ولما دخـل فصـل الشتاء وانشمـرت مراكـب الافرنـج عـن البلد خـوفاً مـن الهلاك، وبسبـب الزمـان سـأل من في البلـد مـن المسلمين السلطان أن يخرجهـم ويريحهـم مما هم فيـه من الحصر العظيم والمقـاتلة ليلاً ونهاراً، وأن يـرسل إلى عكـا بدلهم، فـرق لهم السلطان، وعـزم على ذلك، وكـانوا قـريباً مـن عشرين ألف مسلم: مائتي أمير ومأمور، فجهز جيشاً آخر غيرهم.

قالوا: ولم يكن ذلك برأي جيـد، ولكن ماقصد السلطان إلا خيراً، لان هؤلاء الذين يـدخلون البلد جدد الهمم، ولهم قوة العـزم، وكانوا في راحة بالنسبة لاولئك، ولكـن اولئك كانت لهم خبرة بالبلد والقتـال، وكانوا قد تمرنوا على مـاهم فيـه من المصـابرة لـلاعداء بـراً وبحراً، وجهـزت لهؤلاء الداخلين سبع بطـس فيها ميرة تكفيهم سنة كاملة، فقـدر الله تعالى أنها لما توسطـت البحر واقتربـت من مينائهـا هاجـت ريح عظيمـة في البحر فتلقت بتلـك البطس على عظمهـا، فاختبطـت واضطربـت وتصادمـت وغرقـت وغرق من فيهـا من البحارة جميعهم، ومـافيها من الميرة، فـدخل

بسبب ذلك وهن عظيم على المسلمين، واشتد مرض السلطان وازداد مرضاً إلى مرضه وكان ذلك عنواناً على أخذ البلد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة، وكان المقدم على الداخلين إلى عكا الامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب.

وذكر صاحب النوادر أن دخوله كان يوم الاربعاء السادس عشر من محرم سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الامراء، ودخل مع المشطوب خلق كثير من الامراء وأعيان الناس.

ذكر بقية الحوادث في هذه السنة:

منها أن في يوم الخميس السادس عشر من رمضان من هذه السنة وصل الكتاب على جناح طير من حماه، وكان قد جاء إليها من حلب يذكر فيه أن الابرنس صاحب أنطاكية خرج بعسكره نحو القرى الاسلامية لشن الغارة عليها فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر غازي، ولد السلطان، فكمنت الكمناء، وخرجوا عليهم، فلم يشعر الابرنس بهم الا والسيف قد وقع، فقتل من عسكره خمسة وسبعون نفراً، وأسر خلق كثير، واستعصم هو بنفسه في موضع يسمى شيحا حتى اندفعوا وساروا إلى بلدهم.

ومنها أن في أثناء العشر الاخير من رمضان ألقت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة، وكانوا قاصدين نحو العدو فغنمهما المسلمون، وكانوا قد ظفروا ببركوس للمسلمين فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول إلى البلد، فأخذوه، فوقع الظفر بهاتين جبراً عن ذلك.

ومنها أنه قوي عزم الافرنج على الخروج إلى جهة المسلمين، وتغير

مـزاج السلطان بحمـى صفـراوية، فـاقتضـى الحال أن انتقلوا في عشيـة الاثنين تـاسع رمضـان من هـذه السنة، فنـزلوا على أعلى جبـل كفر عـم ورؤوس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة عن الوحل.

وفي ذلك الـزمان مرض زيـن الدين يـوسف بن زيـن الدين صـاحب إربل مـرضاً شـديداً بحمتين مختلفتين، واستأذن في الـرواح فلم يـؤذن له، ثم استأذن في الانتقال إلى النـاصرة فأذن له في ذلك، وأقام بالنـاصرة أياماً وهو مـريض، فـاشتد بـه الأمر الى ليلـة الثلاثـاء الثامـن والعشرين مـن رمضان من هذه السنة، ثم توفي إلى رحمة اللـه، وعنده أخوه مظفر الدين، وحزن الناس عليه لشبابه وغربتـه، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده إربـل واستنزله عـن بلاده التي كـانت في يـده، وهي حران والـرها ومـايتبعهما مـن البلاد والاعمال، وضـم إليـه شهـرزور أيضاً، واستـدعـى الملك المظفـر تقي الديـن عمر ابن أخيـه شاهنشـاه ليكون نازلاً مكـانه، وأقام مظفـر الدين كـوكبري بن زين الـدين علي بالمعسكـر المنصور إلى قدوم تقي الدين، وقدم ضاحي النهـار الثالث من شوال من هذه السنة، وفي صحبته معز الديـن سنجرشاه ابن سيف الدين غـازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيـرة، إذ ذاك، ثم تكرر سؤال عز الديـن هذا في طلب الدستور، والسلطـان يعتذر إليه بأن رسل العدو متكـررة في معنى الصلح فلايجوز أن تنقص العسـاكر حتى يتبين على ماذا ينفصـل الحال من سلم أو حـرب، وهو لايـألوا جهـداً في طلب الـدستور، إلى أن كـان يوم عيـد الفطر مـن هذه السنة، وحضر سحـرة ذاك اليوم في باب خيمـة السلطان فـاستأذن في الـدخول فلـم يؤذن لـه، وكرر الاستئـذان فأذن لـه، فدخـل واستأذن في الـرواح شفاهـا، فذكر لـه السلطان وجوهـا تمنع مـن الرواح، فـانكـب على يده وقبلهـا كـالمودع لـه، ونهض مـن سـاعته وسـار وأمـر أصحـابـه أن اكفئوا القـدور وفيهـا الطعـام واقلعوا الخيـام، وتبعـوه على ذلك، فلما بلغ السلطـان إليه ذلك، كتب إليه: «إنـك قد قصدت الانتماء إليّ ابتداء وراجعتني في ذلـك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسـك وبلدك

من أهلـك، فقبلتك وآويتـك، ونصرتك، فبسطـت يدك في أمـوال الناس ودمائهـم وأعراضهـم،، فنفذت إليك ونهيتـك عن ذلـك مراراً فلـم تنته، فاتفـق وقوع هـذه الواقعة لـلاسلام فـدعونـاك فأتيت بعسكـر قد عـرفته وعرفـه الناس، وأقمت هذه المدة وقلقـت هذا القلق، وانصرفـت عن غير طيب نفس، وغير فصل حال مع العدو، فـانظر لنفسك وانظر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات».

وسلم الكتـاب إلى نجاب، فلحقـه قريباً مـن طبرية، فقـرأ الكتاب ولم يلتفـت إليـه، وسـار على وجهـه، وكـان الملك المظفـر تقـي الـديـن قـد استدعـي إلى الغزاة ـ كما ذكرنـا الآن ـ فلقيه في عقبة فيـق، وهو محث، وليست عليه امـارات حسنة، وسأله عن حـاله ففهم من كلامـه أنه سار والسلطـان غير راض عليـه، فقال لـه: المصلحـة أن تـرجع إلى خـدمتـه وتلازمها إلى أن يأذن لك السلطان، فأنـت صبي لاتعلم غائلة هذا الامر، فلم يلتفت إليـه، وأصر على الرواح، فخشن عليه الملك وقال: تـرجع من غير اختيار، وكان تقي الـدين شديد البأس مقدامـا على الامور، فلما علم معز الدين أنه قـابضه إن لم يرجع، فرجع باختياره، ورجـع معه حتى أتى العسكـر، وخـرج الملـك العـادل إلى لقـاء الملـك المظفـر، فـدخـلا على السلطان وسـألاه الصفح عنـه فعفا عنـه، وطلب أن يقيـم في جوار تقـي الديـن خشية على نفسه، فأذن في ذلـك، وأقام في جواره إلى حين ذهـابه، وكذلك عماد الـدين صاحب سنجـار، كان قد أصر على الرحيـل، ودخل على السلطان، فقبل يـده وسار من ساعته، فكتب السلطـان وراءه كتاباً، وكتب بيده في ظهره:

مـــن ضـــاع مثلي مـــن يـــديـــه
فليـــت شعـــري مـــا استفـــادا

فوقف عماد الدين عليه وانقطعت مراجعته بالكلية.

ومنها: أنه تـواصلت الاخبار بضعف العدو المخـذول، ووقع الغلاء في بلادهـم وعسكرهـم حتى أن الغرارة مـن القمح بلغـت في أنطاكيـة ستة وتسعين ديناراً صورية، ولايزيدهم ذلك إلا صبراً واصراراً وعناداً.

ومنهـا: أنهم ضـاق بهم الامـر وعظـم الغـلاء فخرج خلـق عظيـم مستأمنين لشـدة الجوع، وقد ذكرنـا أن السلطان كـان قد عرض لـه مرض فطمعوا بذلك وظنوا أنه لايستطيـع النهوض فخرجوا يوم الاثنين الحادي عشر من شـوال من هذه السنة بخيلهـم ورجلهم متحملين أزواداً وخيماً، وكان خروجهـم إلى الآبار التي استحدثها المسلمـون تحت تل العجـول لما كـانوا نـازلين عليـه، فأخـذوا معهم عليق أربعـة أيـام، فأخبر السلطـان بخروجهم على هذا الوجه، فأمـر اليزك أن ينزاحوا من بين أيديهم إلى تل كيسان، وكان اليـزك على تل العياضية، وكان نزول العـدو على الآبار بعد صلاة العصر مـن اليوم المذكور، وبـاتوا تلـك الليلة واليزك حـولهم جميع الليل، فلما طلع الصبح جاء من أخبر السلطان رحمه الله بأنهم قد تحركوا للـركـوب، وكـان رحمه اللـه قـد أمـر الثقـل في أول الليـل أن يسيروا إلى النـاصرة والقيمون، فـرحل الثقـل وبقي النـاس وأمر العسكـر أن يركبـوا ميمنـة وميسرة وقلبـاً تعبيـة القتـال، وركـب السلطـان، وصـاح الجاووش بالناس فركبوا، وسار حتى وقـف بتل من جبال الخروبة، وابتدأت الميمنة بالمسير، فساروا حتـى بلغ آخرها الجبـل، وسارت الميسرة حتى بلغ آخـرها إلى النهـر، وقـربـت مـن البحـر، وكـان في الميمنـة ولـده الملـك الافضـل صاحب دمشق وولده الملك الظاهـر غازي صاحب حلب، وولده الملك الظافـر صاحب بصرى، وولـد عز الديـن صاحـب الموصل علاء الـدين خرم شـاه، ثم الملـك العادل أخـوه في طرفهـا، ويليه قـريب منـه حسام الدين بـن لاجين والطواشي قايماز النجمي وعـز الدين جرديـك النوري، وحسام الـدين بشارة صاحـب نابلس، وبدر الـدين دلدرم صاحـب تل باشر الياروقـي وجمع كثير من الامراء، وكان في الميسرة عماد الـدين زنكي صاحـب سنجار، وابـن أخيه معـز الديـن صاحـب الجزيرة، وفي طـرفها

الملك المظفر تقي الـدين ابـن أخيه، وسيـف الديـن علي بن المشطـوب وجميـع المهرانيـة والهكـارية وخشتريـن وغيرهـم مـن الأمراء الاكـراد وفي القلب الحلقة السلطانية، وأمر السلطـان أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ليدور حـول العدو واليزك معهم، وأخفـى بعض الاطلاب وراء التلال، عسـاهم يجدون غـرة من العدو، ولم يـزل عدو اللـه يسير والناس يقاتلونهم من جميـع جوانبهم، ولم يزالوا سائرين حتى نـزلوا على تل هناك وضربوا خيـامهم ممتـدة منه إلى النهـر، وجرح منهـم في ذلك اليـوم خلق عظيم، وقتـل أيضاً خلق، وكانـوا إذا جرح واحد منهم حملـوه، وإذا قتل واحد منهم دفنوه وهـم سائرون حتى لايظهـر قتيل ولاجريح، وكان نزولهم يوم الثـلاثاء بعد الظهـر، وتراجعت العسـاكر عنهـم إلى مواطن المصـابرة ومواقف الحراسـة، وتقدم السلطان إلى الميسرة أن تستديـر بهم بحيث يقع آخرهم على البحر، والميمنة تستدير بـالنهر من الجانب الشرقي، والجاليش يقـاتلونهم ويـرمـونهم بالنشـاب بحيث لاينقطـع النشـاب عنهم أصـلاً، وبات الناس تلـك الليلة على هذا المثال، وسـار السلطان إلى رأس جبل الخروبـة الذي كـان نـازلاً عليه في العـام الماضي، فنـزل في خيمة لطيفـة والناس حوله في خيم بمرأى العدو، وأخبارهـم تتواصل إليه في كل ساعة إلى الصبح.

ولما كان الصبح يـوم الاربعاء وصل من خبر أنهم تحركوا للـركوب عند الصبح، فركـب السلطان وذلك في صبيحة يوم الأربعاء الثـالث عشر من شوال ورتب الاطلاب، وسار حتى أتـى قرب جبال الخروبة إليهم بحيث يشاهـد جميع أحـوالهم، وكان السلطـان رحمه الله ملتـاث المزاج، ضعيف القوة، قـوي القلب، ثـم بعث إلى العسـاكر وأمرهـم بالمقـاتلة والمضـايقة والحملة عليهم مـن كل جانب، وأمر الاطـلاب أن تحتاط بهم بحيث أن لاتكـون قريبـة ولابعيـدة ليكونـوا ردءاً للمقاتلـة الى ان تضـاحى النهـار، وسـاروا على شـاطىء النهـر مـن الجانـب الغـربي يطلبون جهـة خيمهـم والقتـال يشتد عليهـم مـن كـل جانـب، فـاشتـدوا في قتالهم مـن سـائر

الجوانب إلا من جـانب النهر، والتحم القتال، فصرع منهـم خلق عظيم وهم يـدفنون قتلاهـم ويحملون جرحاهـم، وقد جعلوا راجلهـم سوراً لهم تضرب النـاس بالـزنبورك والنشـاب حتـى لايتركون أحـداً يصل إليهـم، وخيالتهـم يسيرون في وسطهم بحيـث لم يظهر منهـم أحد في ذلـك اليوم أصلاً والكوسات تخفق والبوقـات تنفر والاصوات بالتهليل والتكبير، هذا والسطان يمد الجاليـش بالاطلاب والعساكر إلى عنده حتـى لم يبق معه إلا نفـر يسير، وعلم الفـرنـج مرتفـع على عجلة، وهـو مغـروس فيها، وهـي تسحب بالبغال، وهـم يذبون عن العلم، وهو عال جداً كـالمنارة، حرفيه بيـاض ملمع بحمـرة على شكل الصلبـان، ولم يـزالوا سـائرين على هـذا حتى وصلـوا وقت الظهـر إلى قبالة جسر دعـوق، وقد ألجمهـم العطش، وأخـذ منهـم التعـب، واثختتهـم الجراح، واشتد بهم الامـر، ولقـد قـاتـل المسلمـون في ذلك اليـوم قتـالاً شديـداً، وأعطـوا الجهـاد حقه، وهجمـوا عليهم هجوماً عظيماً واستداروا بهم كالحلقـة، وهم لايظهرون من رجالتهم ولايحملون، وجـرح في ذلك اليوم جماعة، منهـم: اياز الطويـل رحمه الله، وجرح جـراحات معدودة وهـو مستمر على القتـال، وجرح سيف الـدين يازكـوج جراحـات متعددة وهو مـن فرسان الاسـلام وشجعانـه، ولم يزل النـاس حولهم في ذلـك اليوم حتـى نـزلوا ظهيرة ذلـك النهار عنـد جسر دعـوق، وقطعوا الجسر وأخـربـوه خوفـاً من عبـور النـاس إليهم، ورجـع السلطان الى تـل الخروبة، وأقـام عليهم يـزكاً يحرسهـم، وبات وأخبـارهم تتواتر عليـه حتى الصباح، وعزم تلك الليلة على كبـس بقيتهم في الخيم، وكتب إلى البلد - أعني عكا - يعرفوا بـذلك حتى يخرجوا هم من جانب، وعسكر السلطان من جانب، فلم يصل مـن أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير الكتاب.

ولما كـان صباح الخميـس رابع عشر شهـر شـوال وصل مـن أخبر أن العدو في الحركة للرحيل، فركـب السلطان وطلب الاطلاب، وكف الناس عن القتـال خشية أن يغتـالوا، وأوقف الاطـلاب في الجانب الشرقـي من

النهر يسيرون قبالة العـدو، وكان ممن جرح من مقدميهـم في هذه السرية الكنـدهري والمركيـس، وتخلف ابـن ملـك الالمان في الخيم مـع جمع كبير منهم، ولما دخل العدو إلى خيمهم كان لهم بها أطلاب مستريحة فخرجت على اليزك الاسلامـي، وحملت عليهم، وانتشب القتـال بين اليزك وبينهم، وجرى فيه قتـال عظيم قتل فيه مـن العدو وجرح خلق عظيـم، وقتل سن المسلمين ثلاثة نفـر، وقتل منهم شخص كبير فيهم مقدم عنـدهم، وكان على حصان عظيم ملبـس بالزرد إلى حافـره، وكان عليه لبس لم يـر مثله، وطلبـوه من السلطـان بعد انفصـال الحرب، فـدفع إليهـم جثته، وطلـب رأسه فلم يوجـد، وعاد السلطان إلى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكـانه، وعاد كل قـوم الى منزلته، ولما كـان يوم الجمعة الثـاني والعشرين من شـوال من هذه السنـة رأى السلطان أن يضـع للعدو كميناً، فـأخرج جمعـاً من كماة العسكـر وشجعانهم وأبطـالهم، وأمرهـم أن يسيروا في الليل، ويكمنـوا في سفح تل شمالي عكا بعيداً عن عسكر العـدو، وأمرهم أن يظهر منهم نفر يسير ويقصدونهم في خيمهـم، حتى إذا خـرجوا انهزمـوا بين يديهم نحـو الكمين، ففعلوا ذلك، وسـاروا حتى أتوا التل المذكور ليـلاً، فكمنوا تحته، ولما علا نهار السبـت الثالث والعشرين مـن شوال خرج منهـم نفر يسير على خيـل جيـاد، وساروا حتـى أتـوا مخيـم العـدو، ورمـوهم بـالنشـاب فانتخـى منهم مقـدار مائتي فـارس، وخرجـوا إليهم شـاكين في السلاح على خيل جياد، وبعدة تامة، وليـس معهم راجل واحد، وداخلهم الطمع فيهم لقلتهـم، فانهزمـوا بين أيديهم وهـم يقاتلـونهم، حتى أتـوا موضـع الكمين، فخـرج عليهم أبطـال الموحديـن، وصـاحوا فيهـم صيحة رجـل واحد، وهجموا عليهـم هجوم الأسد على فرائسها، فثبتـوا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديـداً، ثم ولوا منهزمين، فمكن الله المسلمين منهـم، ووقعوا فيهم ضرباً بـالسيف حتـى هلك منهـم جمع عظيم، واستسلـم الباقـون للاسر، فأسروهم وأخـذوا خيلهم وعددهم، وجاء البشير إلى السلطـان، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير، وركب لملاقاتهم.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وكنت في خدمته حتى أتى تل كيسان واعتبر الاسارى، وكان فيهم مقدم عسكر الافرنسيس وخازن الملك أيضاً، ثم نزل السلطان في مخيمه فرحاً مسروراً، وأمر مناديا فنادى: ألا من كان عنده أسير فليحضر به، فأحضر الناس أسراهم، وأكرم المقدمين منهم، وألبس مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاصاً، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جرخية فإن البرد كان شديداً، وكانوا عرايا موتى من البرد، وأحضر لهم طعاماً فأكلوه، وأمر لهم بخيمة نصبت قريباً من خيمته، وكان يكارمهم في كل وقت، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات، ثم أمر بتقييدهم وحملهم إلى دمشق، وأذن لهم أن يراسلوا أصحابهم، وأن يحضروا لهم من عسكرهم مايحتاجون إليه من الثياب وغيرها، ففعلوا ذلك، وساروا إلى دمشق، وحبسوا هناك.

ومنها أن في اليوم التاسع من ذي الحجة من هذه السنة سقطت قطعة من سور عكا، وهي قطعة عظيمة.

وفي النوادر كان ذلك ليلة السبت السابع من ذي الحجة، فوقعت بثقلها على الباشورة فهدمت أيضاً منها قطعة عظيمة، فداخل العدو الطمع، وجاءوا إلى البلد كقطعة الليل المدلهم من كل جانب، فقام أهل البلد بهمم عالية، فقتلوا منهم جماعة، وجرحوا خلقاً عظيماً حتى أيسوا من أن ينالوا شيئاً من البلد، ووقف المسلمون موضع القطع كالسد، وجمعوا جميع من في البلد من البنائين والصناع، ووضعوهم في ذلك المكان وحموهم بالنشاب والجروخ والمناجيق، فما مرت ليال يسيرة حتى فرغوا من بنائها بأحسن مما كان.

ومنها أنه وقع وباء عظيم في الجيشين :المسلمين والكافرين ، وكان السلطان يقول في ذلك:

اقتلـــــوني ومـــــالكـــــاً
واقتلـــــوامـــــالكـــــامعـــــي

ومنها أن في شهر ذي الحجة قدم القاضي الفاضل من الديار المصرية على السلطان، وكـان قد طال شـوق كل منهما إلى صـاحبه، فأفضـى كل واحد منهما إلى الآخـر ماكـان يسره ويكتمه من الآراء التـي فيها مصـالح المسلمين، وقدم وزير الصدق على السلطان الموفق، قدس الله روحهما.

ومنهـا أن في يـوم الاثنين الثـاني والعشريـن مـن ذي الحجـة عـاد المستأمنـون من الفـرنج الـذين أنهضهـم السلطان في بـراكيس ليغـزوا في البحر، ويكونـوا أيضاً جواسيس للمسلمين ، فرجعوا وقـد غنموا ، وذكروا أنهم وقعـوا بحـراقــة كبيرة ومعهـا بـراكيـس، وفيهـا تجار معهـم أمـوال لاتحصى، فـأسروا التجار، وأخذوا الأمـوال وجذبوهـا إلى الساحل،فـأنعم السلطـان عليهـم بهذه الأكسـاب، فلما رأوا ذلـك مـن السلطـان أسلـم أكثرهم، وكانـوا قد أحضروا برسم الهدية مائدة فضـة عظيمة وعليها مكبة بقيمة عـالية، ومعها طبـق يماثلها في الوزن، وكـل فضتها قاربـت قنطاراً، فقال السلطان: خذوها فأنتم بها أولى.

وقـال صاحـب النوادر: وكـان قـد استأمـن مـن الفرنـج خلق عظيـم أخرجهـم الجوع إلينا، وقـالوا للسلطـان: نحن نخـوض البحر في بـراكيس ونكسب مـن العدو، فيكـون المكسب بيننـا وبين المسلمين ، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم براكيس، فساروا، ثم ذكر البقية مثلما ذكرنا.

قلت: البراكيس جمع بركوس، وهو المركب الصغير.

وفيها أن في الرابع والعشرين من ذي الحجة أخـذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسـون نفراً، وفي الخامس والعشرين منـه أخذ أيضاً بـركوس واحد فيـه من الفـرنج مقـدمون وروس وهـم نيف وعشرون، منهـم أربعة

خيالـة، ومعهم ملـوطة مكللـة باللؤلؤ بأزرار مـن الجواهر، قيـل إنها من ثياب ملـك الألمان، وأسر فيها رجـل كبير قيل إنـه ابن أخيـه، وهو كبير الشأن.

ومنها أنه لما هجـم الشتاء وهاج البحر أمنـت أهل عكا من أن يبـالغ العـدو في الحصار، وذلـك من شـدة الأمطار وتـواترهـا، فعند ذلـك أذن السلطـان رحمه الله للعسـاكـ الاسـلامية في العـود إلى بلادهـم ليستريحوا ويريحوا خيولهم إلى وقـت العمل،فكان أول من سار عماد الديـن صاحب سنجارلما كان عنده من القلق في طلـب الدستور، وكان مسيره يوم الاثنين الخامس عشر من شـوال، وسار عقيبه في ذلك اليوم ابن أخيـه سنجرشاه صـاحب الجزيـرة، وذلـك بعد أن أفيـض عليهما مـن التشريف والانعـام والتحـف بما لم ينعـم بها على غيرهما، وسار عـلاء الـديـن ابن صـاحـب الموصل في مستهل ذي القعدة من هذه السنـة مشرفاً مكرماً، معه التحف والطرائف، وتأخـر من العساكر الملـك المظفر تقي الديـن إلى أن دخلت سنـة سبع وثمانين، وتـأخـر أيضـاً ولد السلطـان الملـك الظـاهر غـازي صاحب حلـب إلى أن سار إلى حلب ضاحي نهار الاربعاء تـاسع المحرم من السنة الآتية.

وسار الملـك المظفر في ثـالث صفـر من السنـةالآتية وهـي سنة سبـع وثمانين ، ثم اشتغـل السلطان بـادخال البدن في البلـد، وأخرج مـن كان بها من الأمـراء الذيـن طالت شكـواهم إلى السلطـان من طـول الحصار ومـلازمـة القتـال ليـلاً ونهاراً، وأمـر السلطـان بـإدخـال المير والـذخـائر والنفقات والعـدد إليها، وكـان مقدم بها يـومئذ الأمير حسـام الديـن أبو الهيجـاء، فخرج هـو وأصحابـه ومن كـان بها من الأمـراء ، وكان مقـدم الداخلين من الأمـراء الأمير سيف الدين أحمـد بن علي المشطوب ، وكـان دخولهم فـي يوم الاربعـاء السـادس عشر من المحـرم من السنـة الآتيـة، وأخـذ كل أميـر معه ميـرة سنـة كـاملة، وانتقـل الملك العـادل بعسكـــــــره الـــــى حيفــــــــا علــــــى

شاطىء النهر، وهـو الموضع الذي تحمل منه المراكب، وتـدخل إلى البلد، وإذا خـرجت تخرج إليـه، وأقام ثمـة يحث النـاس على الدخـول، ويحرس المير والذخائر لئلا يتطـرق إليها من العدومن يتعرض لها، وكـان مما دخل إليها سبـع بطس ملـوءة ميرة وذخائر ونفقـات كانـت وصلت مـن مصر، وكان السلطان قد عينهـا من مدة مديدة، وكان دخـولها يوم الاثنين الثاني مـن ذي الحجـة من هـذه السنـة، أعنـي ست وثمانين، ولما علـم العـدو بذلك، وهم القـائلون من جانب البحر اجتمعـوا في خلق عظيم وزحفوا على البلد من جـانب البر زحفة عظيمة وقاربوا الأسـوار وصعدوا في سلم واحد، فانـدق بهم السلم، فتداركهم أهل البلد فقتلـوا منهم خلقاً عظيماً، وعادت بقيتهـم خائبين خـاسرين، وأما البطـس فإن البحـر هاج هيـاجاً عظيماً فضرب بعضها ببعـض على الصخر، فهلكت وهلـك جميع مـا كان فيها، وهلك فيهـا خلق كثير، قيل كانـت عدتهم ستين نفراً، وكانـت فيها ميرة عظيمـة لو سلمـت لكـانت كفـت البلد سنـة كـاملة، ودخـل على المسلمين بذلـك وهن عظيم، وحـزن السلطان حزنـاً شديداً، وكـان ذلك أول علامة أخذ البلد، والظفر به......

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الأمير زين الـدين يـوسف بـن زين الـدين علي كـوجك بـن بكتكين صاحب إربل، وهو أخو مظفر الديـن بن زين الدين، كان عند السلطان صلاح الديـن في هذه السنة على الخروبة، فمـرض في رمضان، وارتحل من الخروبة إلى الناصرة، فـأقام يمرض نفسه، وكـان عنده أخوه مظفر الـدين يمرضه، فيقـال إنه سقـاه سماً فمات، وظهرت على مظفـر الديـن أمارات ذلك، فـإنه لم يكترث لموته ولا تـأسف عليـه، وبلغ السلطان فحـزن عليه وبكى لأنه كان صـاحبه ومصافيه وشاكره وداعيـه، وحزن المسلمون عليه لمكان عفتـه وشبابـه وغربتـه، ظنا منـا أنه قـد حزن عليـه حزن الأخ على أخيـه، [وقصدنـاه معزيـن]فكأنـا جئنـا نهنيه، واذا بـه مشغول عنـه

بحيازة أمواله وأسبابه، والقبض على عماله وكتابه، ثم أرسل مظفر الدين الى السلطان يطلب منه إربل، وينزل عن حران والرها، فأجابه الى ذلك وسأله كتابا الى صاحب إربل في هذا المعنى، وأضاف اليه شهرزور واعمالها.

وقال ابن كثير: وارتجع ما كان بيد مظفر الدين وهو : حران والرها وسميساط، وأعطاها الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على مابيده ، وهو ميافارقين، وفي الشام حماه ومعرة النعمان وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطنس وديار بكر(٢٦).

الأمير سوار: استشهد على عكا في هذه السنة، وكان من مماليك السلطان الخواص.

وقال العماد: استشهد على عكا سبعة من الأمراء من جملتهم سوار المذكور، وكذلك استشهد عدة من الاكراد وقال: استشهد في اليوم التاسع من جمادى الأولى من هذه السنة....

ملك الألمان: الذي أقبل في مائتي ألف مقاتل ، وقيل في ثلاثمائة ألف مقاتل كما ذكرنا، وقد أهلكه الله بالغرق كفرعون، كما ذكرنا.

ابن ملك الألمان: الذي تولى بعد هلاك أبيه على طرسوس، هلك في آخر السنة، لعنه الله.

وقال العماد: وهلك ابن ملك الألمان بعلة الجوف ولعله من مرض الخوف في ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة، وأدرك أباه في الدرك الأسفل من النار وأبصر في جهنم مصائر أمثاله من الكفار، وزاد لهلاكه ألم الألمانية، وانسد بموته فرج الأفرنجية، وتبعه في السفر إلى سقر كند كبير يقال له كند أرناط دافع القدر فما قدر، وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير، لعنهم الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والثمانين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب مقيم على عكا والحصار مستمر على حاله من الجانبين، وقد استكمل دخول البدل إلى البلد، والملك العادل أخو السلطان مخيم إلى جانب البحر ليتكامل دخولهم ودخول ميرتهم.

ذكر وقعات متعددة في هذه السنة بين المسلمين والأفرنج

الأولى: وقعت في مستهل ربيع الأول منها، خرج المسلمون من عكا فهجموا على مخيم الأفرنج، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ونهبوا شيئاً كثيراً، وسبوا اثني عشر امرأة.

الثانية : وقعت في ثالث ربيع الأول بينهم وبين يزك السلطان ، وذلك أنه خرج إليهم من الأفرنج خلق عظيم وجرى بينهم وقعة شنيعة قتل فيها من الأفرنج جماعة ، وقتل منهم رجل كبير على ما قيل، ولم يفقد من المسلمين إلا خادم كان للسلطان يسمى قراقوش، وكان شجاعاً عظيماً له وقعات كثيرة عظيمة استشهد في ذلك اليوم.

وفي بعض التواريخ: ولم يقتل من المسلمين في هذه الوقعة سوى طواشي صغير عثر به فرسه.

الثالثة: وقعة أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير صاحب حمص، وكان من حديثه أن السلطان رحمه الله كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الفرنج بطرابلس، ويأخذ بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية، وأنه قيل له إن أهل طرابلس قد أخرجوا جشارهم وخيلهم وأبقارهم إلى مرج هناك، فخرج أسد الدين

على غرة منهم، وهجم على جشارهم فـأخذ منه أربعمائة رأس من الخيل، ومائة رأس مـن البقر، فهلك مـن الخيل أربعـون وسلم الباقـي، وعاد إلى البلد ولم يفقد مـن أصحابه أحد، ولكـن قتل منهم جماعة، ووصـل كتابة بذلك إلى السلطان في الرابع من صفر من هذه السنة.

وفي ليلة هذا اليوم ألقت الريح مـركباً لهم على الساحل فكسرته، وكان فيـه خلق كثير منهـم، فبصر به المسلمـون فوثبـوا عليهم وأخـذوهم عـن آخرهم.

وقـال القـاضي بهاء الـديـن: ولقـد حضرت وقـد عـرض منهـم على السلطان خمسة عشر نفراً.

الرابعة: وقعةالملك العادل أخي السلطان: وذلك أنه بلغ السلطان يوم السبـت تاسـع ربيـع الأول منها أن العـدو يخرجـون طائفـة بعـد طائفـة وينفسحـون لبعد المسلمين عنهـم، فـاقتضى رأيـه أن أنفـذ أخاه الملـك العادل، وفي خـدمته خلـق كثير من العساكـر، وأمره أن يكمـن وراء التل الذي كـانت فيه الوقعـة المعروفة به، وسـار هوفكمن وراء تل العيـاضية، وكان معه من كبار أهله الملك المظفر تقـي الدين وابنه ناصر الدين محمد والملـك الأفضـل ولـده، ومعه مـن صغـار أولاد ه الملـك الأشرف محمـد والملك المعظم تـورانشاه والملك الصالح اسماعيـل ، وكان من المتعممين القاضي الفاضل والـديوان وقاضي القضاة بهاء الدين، وركـب جماعة من الشجعـان على الخيول الجيـاد، ونـاوشوا العـدو وبـاسطوه، فلـم يخرج في ذلك اليوم أحد، وكأنه كان قـد وشي إليهم بجلية الأمر، إلا أنه حصل في ذلك اليـوم نوع نصرة للمسلمين، فـإنه وصـل في أثناء ذلـك اليوم خمسـة وأربعون نفـراً من أسارى الفرنـج، فإنهم كانـوا قد أسروا في بيروت وسيروا إلى السلطان رحمه الله.

قال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: ولقد شاهدت من السلطان في ذلك اليوم رقة قلب ورحمة لم ير أعظم منها، وذلك أنه كان في الأسرى شيخ كبير طاعن في السن، لم يبق في فمه ضرس ولا له قوة إلا مقدار ما يتحرك بها لاغير، فقال للترجمان: سله ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السن، وكم من ها هناإلى بلادك؟ فقال: أما بلادي فبيني وبينها مسيرة عدة أشهر،وأما مجيئي فإنه كان للحج إلى القمامة، فرق له السلطان ومن عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو.

ولقد سأل من السلطان أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل الأسرى، فلم يأذن لهم، قال القاضي بهاء الدين: فسألته عن سبب المنع وكنت حاجبهم فيما طلبوه، فقال: لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء.

ولقد جرت وقعات أخرى في هذه الأيام إلى أن أخذوا عكا من المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذكر وصول ملك الافرنسيس

واسمه فيليب، وكان وصوله في الثاني عشر من ربيع الأول، يوم السبت في ست بطس ملعونة مشحونه بعبدة الصليب، وحين وصل إليهم لم يبق لأحد من ملوكهم حكم، وذلك لعظمته عندهم، وكان الأفرنج كل وقت يتواعدون المسلمين بقدومه ولاسيما لليزك ومن يقاربهم من المسلمين، وكان هذا الملعون من كبار ملوكهم، لايتقدم عليه أحد، ولما قدم كان معه من الميرة ما يحتاج إليه هو وأصحابه، وكذلك من الخيل والسلاح ، وكان قد صحب معه من بلاده باز عظيم عنده ، هائل الخلق،أبيض اللون، نادر الجنس، وكان يعزه ويحبه حباً عظيماً فانفلت من يده وطار وهو يدعوه فلا يجيب حتى سقط على سور عكا، فأمسكه أهلها وأرسلوه إلى السلطان رحمه الله، وكان لقدومه استبشار عظيم بالظفر به، وتعالوا بذلك، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

-١١٣٧١-

ذكر قدوم كند فرند

قدم هذا اللعين بعد ملك الافرنسيس، وهو أيضاً من أكابر ملوكهم، وكان مقدماً عظيماً عندهم، مذكوراً، وكان حاصر حماه وحارم في عام الرملة.

ثم وصلت سفن عن ملك الانكتار - لعنه الله - واسمه جبلرت ، ولم يجيء هو لا نشغاله بجزيرة قبرس.

وقال العماد الكاتب: وصل الخبر أن ملك الانكتار وصل إلى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر في جمع عظيم ، وتقدمته إلى الجزيرة مراكب وشواني على قصد الجزيرة، فخرج صاحب قبرس إليها واستولى عليها وغنم اموالها، وصدم رجالها، فلما وصل مكث متحيراً، واشتغل بالقتال وأنفذ إلى الأفرنج الذين على عكا يطلب منهم نجدة فأنفذوا له جفري أخا الملك العتيق في جموع كثيرة، وامتدت الحروب بينهم، ثم تراسلوا في الصلح، واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتار، وحمل له هدايا وتحفاً، ووسع له الأزواد، وبذل له الأمداد.

وقال صاحب النوادر: وكان ملك الانكتار هذا شديد البأس بينهم، عظيم الشجاعة، قوي الهمة له وقعات عظيمة وجسارة على الحرب، ولكنه دون ملك الافرنسيس في الملك والمرتبة، ولكنه أكثر مالاً منه وأشهر في الحرب والشجاعة، وكان الأفرنج على عكا منتظرين ما يكون بين الطائفتين منهم. ولما كان يوم الأحد سلخ ربيع الآخر من هذه السنة وصلت كتب من بيروت تخبر أنه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب وطرادة فيها خلق كثير من الرجال والنساء والميرة والأخشاب والآلات وغير ذلك، وفيها أربعون فرساً، وكان ذلك فتحاً عظيماً استبشر به المسلمون.

-١١٣٧٢-

ذكر وصول العساكر الاسلامية

لما انفتح البحر وطاب الزمان، وجـاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين قدم من العساكر الاسلاميـة خلق كثير، وكان أول من قدم علم الديـن سليمان بن جنـدر من أمراء الملـك الظاهـر غازي، ولـد السلطان صـاحـب حلب، وكـان شيخـاً كبيراً مـذكـوراً، له وقـائع ورأي حسـن، والسلطان يحترمه ويكرمـه لقدم صحبته، ثم قدم بعده مجد الـدين بن عز الـدين فـروخشاه بـن شاهنشـاه صـاحب بعلبـك، وتتابعـت بعد ذلـك العساكر الاسلامية من كل صوب.

ذكر زحف العدو إلى عكا

لما كان يـوم الخميس الـرابع مـن جمادى الأولى من هـذه السنة زحـف العـدو إلى البلـد ونصبـوا عليـه منـاجيـق سبعـاً ، ووصلـت كتـب عكـا بالاستنفار العظيم، والتماس شغل العدو عنهم، فأعلم السلطان العساكر بـالعزم على الـرحيل إلى مضـايقة العـدو، فسار حتـى وقف على الخروبـة ورتب العسـاكر ميمنـة وميسرة وقلباً، ثـم بعث مـن كشف حـال العدو، وحال خنـادقهم، هـل فيها كمين لهم أم لا، فعـادوا وأخبروا بخلوهـا عن الكمين، فسار بنفسـه ومعه نفـر يسير من ممـاليكه حتـى أتى خنـادقهم، وصعـد تلاً كـان يعرف بتـل الفضـول ، وهو قـريب العـدو ومشرف على خيامهم ، وشاهـد المنجنيقات وما يعمل منها، وهو بطـال، ثم عاد سائراً إلى مخيمه.

قال قاضي القضاةبهاء الدين: وأنـا في خدمته، وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر، قد أخذوه من أمه وسرقوه.

ذكر قضية الرضيع

وذلك أنه كـان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيـام العدو فيسرقون منهم مـا قدروا عليـه ، وكان مـن قضيتهم أنهم أخـذوا ذات ليلة طفـلاً رضيعاً لـه ثلاثة أشهـر، وكانوا سرقوه مـن مهده، وعرضـوه على السلطان، وكان كل ما يـأخذونه يعرضون عليه فيخلع عليهـم ويعطيهم ما أخذوه، ولما علمت أمـه بذلك وجـدت عليه وجداً شديـداً،، وباتت تلـك الليلة مستغيثة بـالويـل والثبور حتـى وصل خبرهـا إلى ملوكهـم، فقالـوا لها:إن سلطـان المسلمين رحيم القلـب، وقد أذنـا لك بـالخروج إليه، فـاخرجـي واطلبيه منه فإنه يرده عليـك، فخرجت وهي تستغيث إلى يزك المسلمين ، فـأخبرتهم بواقعتهـا بترجمان كـان يترجـم عنها فـأطلقـوهـا وأنفذوهـا إلى السلطان، فأتته وهو راكب على تل الخروبة.

وقـال قاضي القضـاة بهاء الديـن: وأنا في خـدمته، وفي خـدمته خلـق عظيم، فبكت بكاء شديداً، ومرغت وجهها في التراب، فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها، ودمعـت عينه، وأمر باحضـار الرضيع، فمضوا فـوجدوه قد بيع في السوق، فـأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منـه، ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلم إليهـا فأخذته وبكت بكاء شـديداً وضمته إلى صـدرها والنـاس ينظرون إليهـا ويبكون ، فـأرضعتـه ساعـة، ثم أمـر بها السلطان فحملـت على فرس وألحقـت بعسكرهـم، فـانظر إلى هـذه الرحمة الشاملـة والشفقة الكـاملة، وانظـر إلى شهادة الأعـداء له بـالرقـة والكرم والرأفة والرحمة:

ومليحـــــــة شهـــــــــدت لها ضراتها
والحســـن ليـس لحقــــه مـــن نــاكـــــر

قال قاضي القضـاة بهاء الدين: وفي ذلك اليوم وصل ظهير الـدين بن البلنكري، وكان مقـدماً عظيماً من أمراء الموصـل، وصل مفارقاً لهم طـالباً

خدمة السلطان، ولما عاد السلطان إلى مخيمه لم يمكث إلاساعة حتى وصل إليه الخبر بتجديد الزحف على عكا، فعاد وركب من ساعته، وسار نحو البلد فوصل وقد انفصل الحرب بدخول الليل بين الطائفتين.

ذكر كيفية أخذ العدو مدينة عكا من يد السلطان قسراً

لما كان صبيحة يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الأولى بلغ السلطان أن الأفرنج قد ضايقوا البلد وركبوا عليه المناجيق، فأمر الجاووش أن يصيح بالناس ، وركب وركب لركوبه العسكر فارسهم وراجلهم وسار حتى أتى الخروبة ، وقوى اليزك بتسيير جماعة من العسكر إليهم، فلم يخرج العدو، واشتد زحفهم على البلد، فضايقهم السلطان مضايقة عظيمة حتى قاتلهم قتالاً شديداً، وهجم عليهم في خنادقهم، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور، وعاد السلطان إلى خيمة لطيفة ضربت له هناك يستظل بها من الشمس، فنزل لصلاة الظهر والاستراحة ساعة، وقوى اليزك، وأمر الناس بالعود إلى المخيم لأخذ شيء من الراحة ، فبينما هو كذلك إذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عادوا إلى الزحف، لما أحسوا بانصراف السلطان عنهم، أشد مما كانوا أولاً، فأمر العسكر بالعود إلى جهة العدو أطلاباً أطلابا، وبات هو رحمه الله وجميع العسكر على تعبية القتال، ثم سار العسكر في أواخر ليلة الأربعاء عاشر جمادى ا لأولى، إلى تل العياضية قبالة العدو، وضربت له خيمة لطيفة، وأمر الناس أن ينزلوا على التل حوله على العادة في منازلهم العام الماضي، لكن جرائد مع بقاء الثقل على الخروبة، ونازل العدو في ذلك اليوم مجمعين على القتال الشديد على البلد من جميع جوانبه، والسلطان يدور بين الأطلاب، ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه، ولما رأى العدو تلك المنازلة خافوا من الهجوم على خيمهم فتراجعوا عن الزحف، وعاد السلطان إلى خيمته في تل العياضية، ورتب على خنادقهم من يخبر بحالهم ساعة فساعة، ثم إنهم بالغوا في مضايقة البلد،

ومبالغتهم في طم خندقه بالأتربة وغير ذلك حتى بموتى دوابهم، ونصبوا المجانيق والدبابات والسلالم، وجل همهم في طم خندق البلد،وألقوا فيه كل شيء، حتى آل أمرهم أنهم كانوا يلقون فيه موتاهم، وكانوا إذا جرح منهم واحد جراحة مميتة مؤيسة ألقوه فيه، وأما أهل البلد فإنهم انقسموا أقساماً، فقسم ينزلون إلى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه، وقسم ينقلون ما يقطعون إلى البحر ويلقونه فيه، وقسم يذبون عنهم، ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك، وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار، ومع هذا قد أخذهم التعب والنصب ، وتكاثرت شكايتهم من ذلك، وقد ابتلوا ببلية لم يبتل بمثلها أحد، هذا والسلطان رحمه الله لايقطع الزحف عنهم، والمضايقة لخنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً، فحصلت هذه الأمور الشديدة ليلاً ونهاراً إلى أن وصل ملك الانكتار.

ذكر وصول ملك الانكتار

وقد وصل هذا اللعين يوم السبت الثالث عشر من جمادى الأولى بعد مصالحته لصاحب قبرس كما ذكرنا، وكان في جمع عظيم في خمس وعشرين شينيا ملوءة بالرجال والسلاح والعدد، وأظهر الأفرنج بقدومه سروراً عظيماً وفرحوا فرحاً شديدا، حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة في خيامهم، وبلي الثغر منه بلاء لا يشبه ما قبله ، فعند ذلك حركت الكوسات في البلد، وكانت علامة بينهم وبين السلطان أيضاً كرسالة ، واقترب من البلد ليشغلهم عنه، وقد أحاطوا به من كل مكان، ونصبوا عليه سبعة مجانيق، وهي تضرب البلد ليلاً ونهاراً، ولا سيما على برج من جهة البر حتى أثر فيه أثراً بين وشرعوا في ردم الخندق بما أمكنهم من دواب ميتة ومن قتل منهم ومن مات أيضاً، وقاتلهم أهل البلد وهم ينقلون ما ألقوا فيه إلى البحر.

-١١٣٧٦-

ذكر ما جرى على البطسة الاسلامية

ولما كان السادس عشر من جمادى الأولى من هذه السنة وصلت بطسة عظيمة للمسلمين من بيروت مشحونة بالآلات والمير والرجال والأبطال المقاتلة، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها في بيروت وتسييرها، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدو، وكانت عدة رجالها ستمائة وخمسين رجلاً، فاعترضها ملك الانكتار اللعين في عدة شواني، وكان واقفا في البحر في أربعين مركباً لايترك شيئاً يصل إلى البلد بالكلية، فاحتاطوا بتلك البطسة من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها، وجرى القضاء والقدر بأن وقف الهواء، فقاتلوا قتالاً شديداً، وقتل من العدو خلق عظيم، وأحرقوا من شوانيهم شينيا كبيرا فيه كبير، فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرباً في الحرب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم، ورأى أنهم لابد أن يقتلوا، قال: والله لا نقتل في أيديهم ولا نموت إلا عن عز ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول، ولم يزالوا كذالك حتى فتحوا فيها من كل جانب مثل الأبواب ، فامتلأت ماء وغرق كل من فيها، وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك، ولم يظفر العدو بشيء منها أبداً، وكان اسم المقدم يعقوب، من أهل حلب، وتلقف العدو بعض من كان فيها وخلصوه من الغرق، ومثلوا به، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالوقعة، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذكر حريق الدبابة الكفرية

وكان من لطف الله تعالى أن جبر المسلمين بأن مكنهم في اليوم الذي جرى على البطسة الاسلامية ما ذكرناه على حريق دبابة كان الفرنج قد اصطنعوها، وكانت هائلة عظيمة أربع طبقات: الأولى من الخشب،

والثانية من الرصاص، والثالثة مـن الحديد، والرابعة من النحاس، وكانت مشرفة على السور، وفيها المقـاتلة، وقد قلق أهل البلد منها، وخـافوا خوفاً شـديداً بحيـث أن أنفسهم حـدثتهم مـن خـوفهم مـن شرها أن يطلبـوا الأمان من الأفرنج، ويسلموا البلد، وكان قـد قربوها من السور بحيث لم يبق بينهـا وبين السور إلا مقدار خمسـة أذرع على ما يشاهـد برأي العين، وأخذ أهل البلـد بتواتر ضربها بالنفـط ليلاً ونهاراً حتى قدر اللـه حريقها واشتعـال النـار فيهـا، وظهـرت لها ذؤابـة نـار نحـو السماء ، وارتفعـت الأصوات بـالتكبير والتهليل ، ورأى المسلمون ذلـك جبراً لذلك الـوهن، ونعمة بعد نقمـة.

ذكر عدة وقعات بينهم وبين المسلمين من داخل وخارج

الأولى : كـانت يـوم الجمعة التـاسـع عشر من جمادى الأولى ، فـإنهم زحفوا على البلد زحفاً عظيماً ، وضايقوه مضايقـة شديدة، وكان قد استقر بينهـم وبين المسلمين أنـه متـى زحـف العـدو عليهـم دقـوا كـؤوسهـم، فضربوا كؤوسهـم فأجابت كـؤوس السلطان رحمه الله، وركبت العسـاكر وضـايقهم السلطـان مـن خارج وزحـف عليهـم حتـى هجم المسلمـون عليهـم في خيـامهم، وتجاوزوا خنـادقهـم، وأخـذوا القـدور من أثـافيهـا، وحضر من الغنيمـة المأخوذة عنـد السلطان شيء، ولم يـزل القتال يعمـل حتى أيقن العدو أنهم قد هجم عليهـم وأخذوا فتراجعوا عن قتال البلد، وشرعوا في قتال العسكر، وانتشبت الحرب بينهـم ، ولم تزل حتى قام قائم الظهيرة وغشي النـاس مـن الحر أمـر عظيـم مـن الجانبين، فتراجعـت الطائفتان إلى خيـامهم، وقد أخذ منهم التعـب والحر. وانقضى القتال في ذلك اليوم.

الثانية: كانت يوم الاثنين الثـالث والعشرين من جمادى الأولى ، فدقوا الكـؤوس على عـادتهم فجـاوبـت كـؤوس السلطـان ، وثـار القتـال بين

الطائفتين، ولج العدو في مضايقة البلد ثقة منهم أن المسلمين لايهجمون على خيامهم وأنهم يهابونهم، فأكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضاً، ونهبوا منها فتراجعوا إلى قتال المسلمين ولحق من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم وجرت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين ، وجرحت جماعة من الأفرنج.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: أعجب ما في هذه الواقعة أنه كان وصل في ذلك اليوم رجل كبير من أهل مازندران يريد الغزاة، فوصل والحرب قائمة، فلقي السلطان واستأذنه في الجهاد، وحمل حملة عظيمة استشهد فيها في تلك الساعة ، ولما رأى الأفرنج دخول المسلمين إلى خنادقهم وتوغلهم إلى داخل أسوارهم حركتهم الحمية وبعثتهم النخوة فخرجوا إلى ظاهر أسوارهم، وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فثبت المسلمون لهم ثباتاً عظيماً لم يتحركوا عن أماكنهم، والتحم القتال من الجانبين ، وصبر المسلمون صبر الكرام، ودخلوا في الحرب بالاقتحام، ولما رأى الأفرنج صبرهم وثباتهم أنفذوا رسولاً في غضون ذلك، فبلغ الرسول أولاً إلى الملك العادل، وأخذه وأتى به إلى خدمة السلطان، ومعه الملك الأفضل أيضاً، مضمون رسالته أن ملك الانكتار يطلب الاجتماع بالسلطان، فأجاب السلطان في الحال بأن الملوك لايجتمعون إلا عن قاعدة، ولا يحسن الحرب بعد الاجتماع والمواكلة، وإذا أراد ذلك فلابد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة بترجمان يوثق به في الوسط، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى وينتظم.

الثالثة : كانت يوم السبت الثامن والعشرين من جمادى الأولى ، فخرج فارسهم وراجلهم على المسلمين من جانب البحر شمالي البلد، ولما علم السلطان ذلك، ركب وركب العسكر وانتشب القتال بينهم، وقتل من المسلمين بدوي وكردي، وقتل من العدو جماعة وأسر آخرون

منهم واحد بلبسه وفرسه، ومثـل بين يدي السلطان، ولم يزل القتال يعمل إلى أن حجز الليل بينهم.

الرابعة: كانت يوم الأحـد التاسع والعشرين من جمادى الأولى ، فخرج منهم رجـالة كثيرة على شاطـىء النهر الحلو، فلقيتهـم طائفة مـن اليزك، وجـرى بينهم قتـال عظيم، ووصلـت رجـالة المسلمين، والتحـم الحرب، فأسروا مسلماً وقتلوه وحرقوه، وأسر المسلمون منهم واحداً، فقتلوه وحرقوه.

قال القاضي بهاء الدين: ولقد رأيـت النارين تشتعلان في زمان واحد، ثـم مرض ملـك الانكتار مـرضاً شـديداً أشفـى منه على الهلاك، وخـرج الأفرنسيس، وفارقهم المركيس، وسار إلى بلده صور خوفاً منهم أن يخرجوا ملكها من يـده ، وبعث ملك الأنكتار إلى السلطان رحمه اللـه، فذكر أن عنده جوارح قد جـاء بها من البحر، وهو على نية ارسالها إليـه، ولكنها قد ضعفت ، وهـو يطلب لها دجاجاً وطيراً لتتقـوى بذلك، فعـرف السلطان أنه إنما يطلب ذلك لنفسه بتلطف وحيلة، وحمل إليه بشيء كبير من ذلك كرمـاً منه وسجية وحشمـة، ثم أرسل يطلـب فاكهـة وثلجاً، فأرسـل إليه أيضاً، فلـم يفد معـه الاحسان، بـل لما عوفي عـاد إلى أشر مما كـان عليه، واشتد الحصار ليـلا ونهاراً، وأرسل من بالبلد يقولـون : إن لم تعملوا معنا شيئاً غدا وإلا طلبنـا من الأفرنج أمـانا، فشق ذلك على السلطـان، وكان أمـراً عظيماً، وذلك لأنـه قـد سير إليها أسلحـة الشـام والـديار المصريـة وسائر السـواحل، ومـا كان مـن غنيمة وقعـة حطين، ومن بيـت المقدس وهـي مشحونـة بذلـك، فعـزم السلطان على مهـاجمة العدو، فلما أصبـح ركب في جيشه، وهذه هي الواقعة:

الخامسة: ورأى السلطان أن الأفرنج ركبوا مـن وراء خندقهم والرجالة منهم قد ضربوا سـوراً حول الفرسان، وهم قطعة مـن حديد لا ينفذ بها

شيء، فأحجم عنهم لما يعلم من نكول جيشه، ولكنه ما رجع إلا عن قتال إلى أن حجز الليل.

ذكر قدوم بقية عسكر المسلمين

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى قدم فيه عسكر سنجار مقدمهم مجاهد الدين يرنقش، فلقيه السلطان فاحترمه وأكرمه، وكان دينا عاقلا محبا للغزو، وأنزله السلطان في الميسرة، وذلك بعد أن أنزله في خيمته، وفرح بقدومه فرحا شديدا، ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر وفيهم علم الدين كرجي، وسيف الدين سنقر الدوادار، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل في عسكره فلقيه السلطان بالخروبة، ونزل هناك إلى بكرة الغد من اليوم الثاني من شهر جمادى الآخرة، ثم أصبح سائرا حتى أتى بجحفله قبالة العدو، فعرض عسكره هناك وأنزله السلطان في خيمته وحمل له من التحف ما يليق بكرمه،وأنزله في الميمنة، وفي يوم الجمعة ثالث جمادى الآخرة قدمت طائفة من عسكر مصر أيضا، واشتد مرض ملك الانكتار بحيث شغل الفرنج مرضه، وكان ذلك جبرا عظيما ولطفا جسيما من الله تعالى،فإن البلد ضعف من كان فيه ضعفاعظيما،واشتد الخناق شدةعظيمة،وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل، ومع هذا فاللصوص يدخلون عليهم في خيامهم ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم ويأخذون الرجال بأن يجيء جماعة إلى واحد منهم وهو نائم، ويضعون على حلقه السكين ثم يوقظونه ويقولون له بالاشارة إن تكلمت ذبحناك ويحملوه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين، وجرى ذلك مرارا عديدة.

ذكر قوة زحفهم على البلد لعنهم الله

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب بتثقيل

أحجارها حتى خلخلوا أسوار البلد وأضعفوا بنيانها، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم، وكثرة الأعمال عليهم حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلا لا ليلاً ولا نهارا، والخلق الذين عليهم عدد كثيرة يتناوبون على القتال، ولما أحسوا بضعف المسلمين شرعوا في الزحف من كل جانب وانقسموا أقساما ، وتناوبوا فرقا كلما تعبت طائفة استراحت وقام غيرهم مقامهم ، وشرعوا في ذلك شروعا عظيما براجلهم وفارسهم، وذلك في اليوم السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلا ونهارا، فلما علم السلطان بذلك ركب وركب العسكر بأسرهم وجمع الراجل والفارس ووعدهم ورغبهم ، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر عليهم، وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين، والسلطان رحمه الله كالوالدة الثكلى يتحرك بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد والملك العادل رحمه الله حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين، والسلطان يطوف بين الأطلاب وينادي باسمه يا للاسلام وعيناه تذرفان بالدمع، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وإنما شرب بعض أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: وتأخرت عن حضور هذه الزحوف لما عراني مرض مشوش لمزاجي وكنت في الخيمة المضروبة في تل العياضية، وأنا أشاهد الجميع، ولما هجم الليل عاد السلطان إلى الخيمة بعد عشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والحزن فنام إلا من غفو، ولما كان وقت السحر أمر بدق الكوسات ، فركب وركبت العساكر من كل جانب، وأصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي هذا اليوم وصلت بطاقة من البلد يقولون فيها : إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية، فما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد ـ يعني يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة ـ إن لم

تعملوا معنا شيئا نطلب الأمان، ونسلم البلد، ونشتري مجرد رقابنا، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على سلاح جميع الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الاسلامية، واحتوت على كبار من أمراء الاسلام وشجعانهم كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما، وكان قراقوش ملازما لحراستها منذ نزل العدو المخذول عليها ، وحصل للسلطان من ذلك أمر عظيم وخيف على مزاجه التشوش، وهولا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك ، وهو صابرمحتسب ملازم مجتهد، ثم صاح في العسكر منادي من جهته، فركبت الأطلاب، واجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف في ذلك اليوم، ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم في الهجوم عليهم ، فإن الرجالة من الأفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعضهم من بعض الأطراف فثبت المسلمون وذبوا غاية الذب، ولم يزل الحرب يعمل بينهم بقتل وجرح حتى حجز الليل بين الطائفتين.

ومن الغرائب أن امرأة منهم واقفة داخل سورهم عليها ملوطة خضراء، ولم تزل ترمي المسلمين بقوس من خشب حتى جرحت جماعة منهم، فتكاثر عليها المسلمون الذين دخلوا أسوارهم فقتلوها وأخذوا قوسها وحملوه إلى السلطان فتعجب من ذلك عجبا عظيما.

وكذلك كان هناك أفرنجي راجل صعد سور خندقهم، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور خندقهم، ولقد حكى من كان من الداخلين سورهم أنه وقع فيه زهاء خمسين حجرا وهو يتلقاها ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه مسلم زراق بقارورة نفط فأحرقه.

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليه من كل جانب، وقلت

رجال البلد ضعفت نفوسهم لما رأو الهلاك حقيقة، واستشعروا الضعف والخذلان، وتمكن العدو من الخنادق فملأوها، وتمكنوا من سور البلد والباشورة فنقبوا وأشعلوا فيه النار، ووقعت بدنة من الباشورة ، ودخلوا فيها ، وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا ، وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الباقية، وفي غد ذلك اليوم نادى الفرنج: احفظوا هؤلاء الستة فإنا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: قد قتلناهم، فحزنوا لذلك حزنا عظيما، وبطلوا عن الزحف بعد ذلك ثلاثة أيام

ذكر خروج سيف الدين المشطوب إليهم

ولما قتل المسلمون الستة المذكورين حنق الفرنجة عليهم جدا، وجاء الليل فحال بين الفريقين، ولما أصبح الصباح خرج أمير المسلمين بالبلد سيف الدين أحمد بن علي المشطوب، فاجتمع بملك الافرنسيس وطلب منه الأمان على أنفسهم ويتسلمون منه البلد، فلم يجبه إلى ذلك وقال له: بعد ما سقط السور جئت تطلب الأمان ؟، فأغلظ له الأمير سيف الدين في الكلام، ورجع إلى البلد في حال الله بها عليم، ولما أخبر أهل البلد بذلك خافوا خوفا شديداً،وأرسلوا إلى السلطان يعلمونه بذلك.

وقال صاحب النوادر:ولما جرى ذلك أخذ جماعة من أهل البلد بركوساً ـ وهو مركب صغير ـ وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الاسلامي، وذلك في ليلة الخميس التاسع من جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان فيهم من المعروفين: أرسك وابن الجاولي الكبير وسنقر الوشاقي، فأما أرسك وسنقر فإنهما لما وصلا العسكر تغيبا ولم يعرف لهما مكان خشية من نقمة السلطان رحمه الله، وأما ابن الجاولي فإنه ظفر به ورمي في الزردخاناه.

وفي سحرة تلـك الليلة ركـب السلطان مشعـراً أنه يـريد كبسـة القوم ومعه المسـاحي وآلات طـم الخنادق، فما سـاعده العسكـر، وتخاذلوا عـن ذلك، وقالوا: نخاطر بأهـل الاسلام كلهم ولا مصلحة في ذلك،وفي ذلك اليوم خرج مـن ملك الانكتار ثلاثـة رسل، فطلبوا فاكهـة وثلجاً وذكر وا أن مقدم الاسبتارية يخرج من الغد ـ يعنـي يوم الجمعة ـ فيتحدث معكم في الصلـح، فأكـرمهـم السلطان، ودخلـوا سوق العسكـر وتفـرجوا فيـه، وعـادوا تلك الليلـة إلى عسكـرهم، وفي ذلـك اليوم تقـدم صـارم الديـن قايماز النجمـي حتى يدخـل هو وأصحابه إلى أسـوارهم عليهم، وتـرجل جماعة من أمراء الأكـراد كالجناح وأصحابه، وهو أخـو المشطوب، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفـرنج، ونصب قايماز علمه بنفسه على سـورهم وقاتل قطعة من النهار، وفي ذلك اليوم وصل عـز الدين جرديك النوري، وسوق الزحف قـائم ، فترجل هو وجماعته وقـاتل قتالاً شديـداً ، واجتهد الناس في ذلـك اليوم اجتهـاداً عظيماً، ولما كان يـوم الجمعـة العاشر مـن جمادى الآخرة، خـرج منهم ثـلاثة رسـل واجتمعوا بـا لملك العـادل وتحدثوا معـه ساعة زمـانية وعادوا إلى أصحابهم، ولم ينفصـل الحال في ذلك اليوم، ولما كان يـوم السبت الحادي عشر من جمادى الآخرة لبسـت الأفرنج بـأسرهـم لبـاس الحرب،وتحركوا حـركة عظيمـة واصطفـوا ، وتصرم هذا النهـار ولم ينفصل الحال، ولما كـان يوم الأحـد الثاني عشر مـن جمادى الآخرة وصـل من البلد كتب يقولون فيها: إنا قـد بايعنا على الموت، فلا نزال نقاتل ولا نسلم هكـذا البلد ونحن أحيـاء ، فانظـروا أنتم كيف تصنعـون في شغل العـدو عنـا، ولا تخضعـوا لهؤلاء الملاعين، وبـاللـه المستعـان، فلما سمـع السلطان هذا الخبر حط منديله على عينيه، وبكـى بكاء شديداً وقال: إنا لله وإنـا إليه راجعـون، وفي يوم الثـلاثاء الـرابع عشر مـن جمادى الآخرة قدم الأمير سـابق الديـن صاحب شيـزر، وفي يوم الأربعاء خـامس عشر قدم بدر الدين دلدرم ومعه تـركمان كثير، وكان السلطان قد نفذ إليه ذهباً كثيراً أنفق فيهم، وقدم في يوم الخميس سـادس عشر أسد الدين شيركوه،

ومع هـذا اشتد الحال على أهل البلد، فـأرسل السلطان إليهـم أن يخرجوا من البلـد في البحر ولا يتأخـروا عن هـذه الليلة، فتشاغـل كثير منهم في جمع الأمتعـة والأسلحة، وتـأخـروا عـن المسير في تلك الليلـة، فما أصبـح الخبر إلا عند الأفرنـج من مملوكين صغيرين سمعا بما رسـم به السلطان، فهربا إليهم فـأخبراهم بذلك، فاحتفظوا على البحـر احتفاظاً عظيماً، فلم يتمكـن أحـد من أهـل البلـد أن يتحـرك بحـركه، ولا خـرج منهـا شيء بالكلية، فلما أصبح السلطان بعث إلى ملـوك الأفرنج يطلب منهم الأمان لأهـل البلـد على أن يطلـق عـدتهم مـن الأسرى الـذيـن تحت يـده مـن النصارى، ويزيـدهم على ذلك صليب الصلبوت، فأبـوا إلا أن يطلق كل أسير تحت يده ويعيـد إليهم جميـع البلاد السـاحلية التـي أخذت منهـم وبيت المقـدس، فأبى السلطان مـن ذلك، وترددت المراسـلات في ذلك، والحصار يتـزايد على أسوار البلـد، وقد تهدم شيء كبير منهـا وكلما ينهدم شيء يعيد المسلمـون عوضه، وصبروا على ذلك صبراً عظيماً، ولما كـان يوم الجمعـة السـابع عشر مـن جمادى الآخـرة صـالحهم أهـل البلـد على أن يسلموا البلـد وجميع ما فيـه من العـدد والآلات والمراكـب، ومائتـي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحـوال، ومائة أسير معينين وصليب الصلبـوت، على أن يخرجـوا بـأنفسهـم سالمين ومـا معهـم مـن الأمـوال والأقمشـة المختصة بهم وذراريهم ونسـائهـم، وضمنـوا للمركيـس اللعين بعشرة آلاف دينـار لأنـه كـان واسطـة، ولأصحــابـه أربعـة آلاف دينـار، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج.

ولما وقف السلطـان على ذلك أنكر انكاراً عظيماً وجمع أربـاب المشورة من أرباب دولتـه وعرفهم بذلـك، وعزم على أن يكتب في تلك الليلـة مع العوام، وينكر عليهم المصالحة على هذا الـوجه، فما أحسوا بذلك إلا وقد ارتفعـت أعلام الكفـر وصلبـانه على أسـوار البلـد، وذلك في ظهيرة يـوم الجمعة المذكـور الآن، وصاح الأفـرنج صيحـة واحدة، وعظمـت المصيبة على المسلمين، واشتـد حـزن الموحـديـن، ووقــع مـن العسكـر الصيـاح

والعويل والبكاء والنحيب، ودخل المركيس اللعين البلد ومعه أربعة أعلام للملوك، فنصب علماً على القلعة، وعلما على برج الداوية، وعلماً على برج القتال عوضاً عن علم الاسلام، وتحيز المسلمون الذين بها إلى ناحية من البلد معتقلين مضيقاً عليهم، وقد أسرت النساء والأبناء، وغنمت منهم الأموال ، وقيدت الأبطال، وأهينت الرجال.

ولما رأى السلطان ذلك، رأى التأخر عن تلك المنزلة التي هو فيها مصلحة، فإنه لم يبق وجه من المضايقة، وأمر بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفرعم، وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدووحال أهل البلد، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، وفي ذلك اليوم خرج ثلاثة نفر ومعهم أقوش حاجب بهاء الدين قراقوش، وكان بشأن محتوى ما وقع عليه الصلح من المال والأسرى، فأقاموا ليلة ثم ساروا إلى دمشق يبصرون الأسرى، وكان مسيرهم يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الآخرة.

ولما كان يوم الخميس سلخ جمادى الآخرة خرج الأفرنج من جانب البحر شمالي البلد ومن جانب القنة وانتشروا انتشاراً عظيماً راجلهم وفارسهم، وضربوا أطلاباً للقتال، فأخبر اليزك بذلك السلطان، فدقوا الكوسات وركب السلطان وأنفذ إلى اليزك وقواهم برجال كثيرة، وتوقف هو حتى تركب العساكر الاسلامية واجتمعوا فوقع بين اليزك وبين الأفرنج وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العساكر باليزك، فقتل اليزك منهم زهاء خمسين نفراً، وجرح خلق عظيم،وفي ذلك اليوم وصل رسل الفرنج الذين مضوا إلى دمشق لتفقد حال أسراهم، ووصل معهم من أعيان أسراهم أربعة نفر، ثم لم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب من هذه السنة، وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ومعه اثنان من أصحاب ملك الانكتار، فأخبر أن ملك الفرنسيس سار إلى صور، وطلبوا أن يشاهدوا صليب

الصلبوت وأنـه هل هـو في العسكر أو حمل إلى بغـداد، فأحضر صليـب الصلبـوت، فلما رأوه سجـدوا لـه وألقـوا أنفسهـم إلى الأرض ومـرغـوا وجـوههم في التراب، وبعثـوا يطلبون مـن السلطـان ما أحضر مـن المال والأسرى والصليب فـامتنع السلطان إلاّ أن يـرسلوا إليـه من بأيـديهم من الأسارى أو يبعثوا إليـه برهائن عنده على ذلـك، فقالوا : لا ولكن تـرسل ذلك وترضـى بأمانتنا فيهم فعـرف أنهم يريدون الغدر والمكر، فلـم يرسل ذلك إليهـم، وأمر برد الأسارى إلى دمشـق وبالصليب معهم مهـانا ، ولما رأوا ذلك أخـرجوا خيامهـم إلى ظاهـر خنادقهم مبرزيـن في نهار الأربعاء الحادي والعشريـن مـن رجب مـن هـذه السنـة، وكـان الذي بـرز ملـك الانكتار ومعه خلق عظيم من الخيالـة والرجالة، وأحضروا ثلاثة آلاف من المسلمين في صعيـد واحد فـأوقفـوهم وهـم موثـوقـون في الحبال، وحملـوا عليهـم حملة الـرجـل الواحـد فقتلـوهم صبراً ضربـاً وطعنـاً، وذلك يـوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب.

قال صاحب النوادر: وكانوا قدموا خيامهم حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وتل العياضية، وكان اليزك الاسـلامي قد تأخر إلى تل كيسان،ولما كان يـوم الخميس التـاسع والعشرين مـن رجب ركبت الأفـرنج بـأسرهم وقلعـوا خيـامهـم وحملـوها على دوابهم، وسـاروا حتـى قطعـوا النهـر إلى الجانب الغـربي وضربوا الخيـام على طريـق عسقلان، وأظهـروا العزم على المسير على شاطـىء البحر، ولم يستبقوا من المسلمين إلاّ مـن كان أميراً أو شريفاً أو مـن كان لـه صنعة هـم محتاجـون إليها أو امـرأة أو صبياً، ثـم رحلوا نحو عسقلان.

ذكر رحيل الأفرنج صوب عسقلان

لما كـان يـوم الأحـد مستهـل شعبان مـن هـذه السنـة اشتعلـت نيران الأفـرنج في سحـرة ذلك اليـوم، وكـانت عـادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيـل

أشعلوا النيران، ولما أخبر السلطان بـذلـك أمـر أن لايبقى أحـد إلا على ظهـر مركبـه، فهلـك من النـاس في ذلـك اليوم قماش كثير، ولاسيما مـن السوقة لقلـة الظهر، ثم سار الأفرنـج في ذلك اليوم قاصـدين عسقلان، وركب السلطان أيضـاً بعساكره وهم يسايـرونهم ويعارضونهم منزلـة منزلة ومرحلة مرحلة، وكانت مدة إقامـة السلطان على عكا صابراً مرابطاً سبعة وثلاثين شهراً، وجملة من قتل من الفـرنج في هذه المدة خمسون ألفاً، وسار السلطان حتى أتـى القيمون عصر ذلك النهار فنزل وقـد ضرب له دهليز وشقة دائرة حوله لا غير، واستحضر الجماعة وأكلوا شيئاً، واستشارهم فيما يفعل فـاتفقوا على أنهم يرحلـون بكرة غد، وقـد رتب حـول الفرنج يـزكاً يـــبيتـون حولهم ويرقبون أمـرهم ، ولما كان صباح الاثنين الثـاني من شعبان أرسـل السلطان الثقل، وأقـام هو يترصـد أخبار العدو فلـم يصل اليـه شيء من خبـرهم حتى علا النهار، ثم سار فـي إثر الثقل حتى أتى قريـة يقال لها صبـاغين ، فجلس ساعـة يترقب أخبـارهم فلم يأت خبـر، فسار حتى أتـى منزلـة يقال لهـا عيون الأسـاود.

قـال قـاضي القضـاة بهاء الـديـن رحمه اللـه: ولما بلغنـا المنـزلـة رأى السلطان خيماً فسأل عنها، فقيل إنها خيم الملك العادل، فعدل إليه فأقام عنـده ساعـة ثم أتـى خيمتـه، وفقد الخبـز في هـذا المنزل بـالكلية وغـلا الشعير حتى بلغ الـربع بدرهم، وبلـغ الرطل من البقسماط بـدرهمين، ثم ركب السلطـان وسار إلى مـوضع يسمـى الملاحة يكـون منزلاً للعـدو إذا رحلوا من حيفـا، وكان السلطان قد سبـق ليتفقد المكان وأنه هـل يصلح للمصـاف أم لا، وتفقد أراضي قيسـاريـة بـأسرها إلى الشعـراء، وعـاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وكنت في خـدمته، وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال: وصل إلينـا من أخبرنا من أصحابنا أنهم مـا رحلوا من حيفـا إلى عصر يومنـا هـذا يعني يـوم الاثنين ثـاني شعبـان، وبات تلـك

الليلة وأصبح مقيماً بتل الزلزلة ينتظر العدو، ونادى بالعرض، فركب الناس على ترتيب المصاف ميمنة وميسرة وقلباً، ثم عاد إلى الخيمة، وعاد الناس وقد علا النهار، ثم صلى السلطان الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى عشاء الآخرة من مائة دينار إلى مائة وخمسين وزائداً وناقصاً، ثم اتفق الرأي على رحيل الثقل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل يابا، ونزل الثقل بالمجدل بكرة النهار، وأقام هو باليزك جريدة إلى الصباح، ثم رحلوا إلى جهة العدو، فرحل الثقل من وقت العشاء، ولم يبق مع السلطان إلاّ خف من الأقمشة، وبات في منزله إلى الصباح يوم الأربعاء الرابع من شعبان، ثم ركب وسار إلى رأس النهر الجاري إلى قيسارية، ونزل جريدة هناك، وبلغ الرطل من البقسماط إلى أربعة دراهم، والربع من الشعير إلى درهمين ونصف، ولم يوجد الخبز أصلاً، ونزل في خيمته قريب صلاة الظهر وأكل شيئاً وصلى الظهر وركب إلى طريق العدو، فلم يعد إلى أن دخل وقت العصر، فجلس ساعة ثم ركب في آخر نهار الأربعاء المذكور، ولما نزل أتى باثنين من الفرنج قد أخذهما اليزك فأمر بضرب رقابهما، وأصبح مقيماً بتلك المنزلة، ثم ركب في وقت عادته وأشرف على قيسارية وقد وصله الخبر بأن العدو لم يرحل من الملاحة، وأحضر عنده اثنان أيضاً فقتلا أشر قتلة، ثم أحضر بين يديه منهم فارس مذكور، وسأله عن أحوال القوم وعن السعر ، فأخبر الترجمان: إن أول يوم من رحيلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس، فلم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس، وسأله عن سبب تأخرهم في المنازل، فقال: لانتظارهم وصول المراكب بالرجال والميرة، وسأله عن القتلى والجرحى في يوم رحيلهم فقال: كثير، وسأل عن الخيل التي هلكت في ذلك، فقال: مقدار أربعمائة فرس، ثم أمر بضرب عنقه، ثم ركب السلطان بعد صلاة العصر يوم الخميس خامس شعبان إلى أن نزل ، واتى باثنين فأمر بقتلهما، وذكر له في وقت السحر أن العدو تحركوا نحو قيسارية وقارب أوائلهم البلد، فرحل إلى تل قريب من التل الذي كانوا عليه، وضربت الخيام، ومضى السلطان يرتاد الأراضي

الكائنة في طـريق العدو لينظر أيها تصلـح للمصاف، ونزل قريـب الظهر واستدعى أخاه الملك العادل وعلم الدين سليمان بن جندر، وأخذرأيهما ، ثم صلى الظهر وركـب للتشوف على العدو، وتنسم أخبارهـم، وأتاه اثنان منهم قـد أخذا فـأمر بقتلهما، ثـم باثنين آخـرين كـذلك في يـوم الجمعة سادس شعبـان، وجيء باثنين آخـرين في آخـر النهار فقتلا أيضـاً، ثم لما أصبح نادى الجاووش لعرض أجناد الحلقـة لاغير، فركب إلى جهة العدو، ووقف على تلول مشرفة على قيسـارية، وكان الأفرنج قد وصلـوا إليها يوم الجمعة ، ولم يزل يعـرض هناك إلى أن علا النهار، ثم نزل وأكـل شيئاً، ثم ركب إلى أخيـه، وعاد بعـد صلاة الظهر فصلى الظهـر، فأتي بـأربعة عشر من الأفرنـج وامرأة فرنجية بينهـم أسيرة، وهي بنت فارس مشهـور، ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فأطلقت المسلمة، ورفـع الباقون إلى الزرد خاناه، وهؤلاء أتي بهم من بيروت، أخذوا في مركب من جملة عدد كثير، فقتلوا في نهار السبت سابع شعبان، ولما كان صبيحة يـوم الأحد الثامن من شعبان ركب السلطان على عـادته، ثم نزل فجاء من أخبر أن العـدو على حركة، وأتى ثان آخر وأخبرهم أنهم ساروا فأمـر بالكؤوس فدقت، وركب الناس معه وساروا.

قال القـاضي بهاء الديـن: وكنت في خـدمته حتـى أتى بمـن معه إلى عسكر العـدو، فصف الأطـلاب حولـه وأمر بقتـالهم، وأخرج الجاليـش، وكان النشاب بينهـم كالمطر، وكان على الفـرنج اللبود الثخينة والـزرديات السابغـة المحكمة بحيـث يقع النشـاب ولا يؤثر وهـم يرمـون بالـزنبورك فتجرح خيول المسلمين.

قـال القـاضي: ولقد شـاهـدتهم يتغـرز نشـابـة في ظهر واحـد منهـم ونشابتـان وثلاثة إلى عشرة وأكثر وهـو يسير على هيئته من غير انـزعاج ، وكانوا قـد أنقسموا ثلاثة أقسـام: الأول الملك العتيق كي وأهـل السـاحل معه في المقـدمة، والانكتار والفـرنسية معـه في الوسط، وأصحـاب طبرية

وطائفة أخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة كالمنارة عليها علمهم، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين، وهم يسيرون سيراً رفيقاً، ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل ونزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل رجالتهم، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم على ظهورهم لقلة الظهر بينهم فانظر إلى هؤلاء الأشقياء وإلى صبرهم على هذه الأعمال من غير أجر ومن غير دنيا ودين، وكان منزلهم ذلك قاطع نهر قيسارية، ولما كانت صبيحة الاثنين التاسع من شعبان وصل من أخبر أنهم ركبوا سائرين وركب السلطان أول الصبح ، وسار يطلب القوم، وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أطلاب، ثم لم يزل المسلمون يكرون عليهم ويحملون عليهم إلى أن أتوا إلى نهر يقال له نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام وشجعانهم إياز الطويل من مماليك السلطان، ودفن على تل مشرف على البركة، ونزل السلطان بالثقل على البركة، وهو موضع تجتمع فيه مياه كثيرة، وأقام هناك إلى بعد صلاة العصر، ثم رحل وأتى نهر القصب فنزل عليه، وكان المسلمون يشربون من أعلاه والأفرنج من أسفله، وليس بينهم إلا مسافة يسيرة، وبلغ الربع من الشعير في هذه المنزلة إلى أربعة دراهم، والخبز كثير موجود، والرطل منه بنصف درهم، وأقام السلطان ينتظر رحيل الفرنج حتى يرحل في مقابلتهم، وباتوا تلك الليلة هناك ووقع حرب بين طائفتين منهم ومن المسلمين، فقتل من الفرنج جماعة ومن المسلمين اثنان وأسر منهم ثلاثة، فسأل السلطان عنهم فأخبروا أن ملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان فأخبرا بقلة عدد العسكر الاسلامي، ولما جرى بالأمس ما جرى طلب البدويين فضرب أعناقهما، وأخبروا أن المجروحين منهم كانوا زهاء ألف نفس، والمقتولين جماعة ، ولما كان ظهر يوم الثلاثاء العاشر من شعبان رأى السلطان التقدم على العدو فدق الكؤوس ورحل ودخل في شعراء أرسوف حتى توسطها إلى تل عند قرية تسمى دير الراهب، فنزل هناك وأقام ينتظر بقية العساكر إلى صباح الأربعاء الحادي عشر من شعبان،

-١١٣٩٢-

وجاء من أخبار العدو أنهم مقيمون على نهر القصب، وأنه لحقهم نجدة من عكا في ثماني بطس كبار، ويزك الاسلام حولهم يواصلون بالأخبار التي تتجدد، وجرى بين اليزك وحشاشة الأفرنج قتال، وجرحت جماعة من الطائفتين، وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان بن جندر، فأرسلوا إليه من يسمع كلامه، وحاصل سؤالهم الاستئذان بالاجتماع بالملك العادل، فأذن له السلطان في المضي إليهم، فجاء إلى اليزك وبلغ الخبر إلى ملك الانكتار، فاجتمعا بحده من أصحابهما، وكان يترجم بينهما ابن الهنفري، وهو من فرنج الساحل من كبارهم.

قال قاضي القضاة: ورأيته يوم الصلح وهو شاب حسن، إلا أنه محلوق اللحية على شعارهم، وكان كلام الرسول في الصلح طلب عود البلاد إليهم كما كانت، وأن المسلمين ينصرفون إلى بلادهم، فلما سمع العادل هذا الكلام أغلظ في الجواب وجرت منافرة واقتضت أنهم رحلوا، وأما الأفرنج فانهم نزلوا على موضع يسمى البركة مشرف على البحر ، وأصبح السلطان في صبيحة يوم الجمعة الثالث عشر من شعبان في قرية تسمى بركة وأقام مطلب الاطلاب متطلعاً إلى أخبار الافرنج، وأحضر عنده اثنان منهم قد مسكهما اليزك فأمر بضرب أعناقهما.

ذكر وقعة أرسوف

ولما كان يوم السبت الرابع عشر من شعبان بلغ السلطان أنهم قد تحركوا للرحيل نحو أرسوف، فركب ورتب الأطلاب للقتال، وعزم في ذلك اليوم على مصافة القوم، وأخرج من كل طلب جاليشاً وسار الأفرنج حتى قاربوا شعراء أرسوف وبساتينها، وأطلق عليهم الجاليش النشاب ولزتهم الأ طلاب من كل جانب ، والتحم القتال واضطربت نارها من الجانبين، وقتل منهم طائفة وجرح آخرون، واشتدوا في السير

لعلهم يبلغون المنـزلة فينزلون، واشتد بهم والسلطان رحمه اللـه يطوف من الميمنة إلى الميسرة، ويحث الناس على الجهاد.

وقـال قاضي القضـاة بهاء الديـن: لقيتـه مراراً وليـس معه إلاّ صبيـان بجنبيه لا غير، ولقيت أخاه وهو على مثـل حاله، والنشاب يتجاوزهما، ولم يزل الأمر يشتد بـالفرنج، وطمع فيهم المسلمون طمعـاً عظيماً حتى وصل أوائل راجلهم إلى بسـاتين أرسوف، ثـم اجتمعت الخيـالة وتـواضعوا على الحملـة فحملوا حملـة واحـدة من الجوانـب كلهـا، فحملـت طائفـة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب، فاندفع الناس بين أيديهم.

قـال قاضي القضـاة: واتفـق أني كنت في القلـب ، ففـر القلب فـراراً عظيماً، فنويت التحيز إلى الميسرة وكانت أقرب إليّ فوصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة، ثـم نويت التحيـز إلى الميمنة فرأيتهـا وقد فرت أشـد فراراً من الكـل، ثم نـويت التحيز إلى السلطـان، وكان ردأ الاطـلاب كلها كما جرت عـادته بـذلك، فأتيتـه ولم يبق معـه إلا سبعة عشر مقـاتلاً لا غير، لكن الأعلام كلها بـاقية، والكوسات تدق لاتفتر، ثم وقف الأفـرنج خوفاً من الكمين، وقاتلوا وهم واقفون ،ثم حملوا حملـة ثانية، ففروا وهـم يقاتلون في فـرارهم، ثـم وقفـوا وحملوا ثـالثـة حتـى بلغوا إلى رؤوس رواب هنـاك وأعالي تلول، وقفوا هنـاك، وأما المسلمون بعد أن فروا فقالـوا كل من رأى طلب السلطان واقفاً والكوسات تـدق يستحي أن يتجاوزه، ويخاف غائلة ذلـك، ويعود إلى الطلـب، فـاجتمع عنـد الطلـب خلـق عظيم، ووقـف الأفرنج قبالتهم على رؤوس التـلال والروابي والسلطان رحمه الله واقف في طلبه لايتحرك حتـى رجعت الناس بأسرهم، وخاف الأفـرنج أن يكون في الشعراء كمين فتراجعـوا يطلبون المنزلـة ، وعاد السلطـان إلى تل في أوائل الشعراء ونزل عليه بلا خيمة، وقال قـاضي القضاة: ولقد كنت في خدمته وأسليـه وهو لايقبـل ، وظلـل عليـه بشيء ، وأحضر بين يديـه شيء مـن الطعام فتنـاول شيئاً يسيراً، وبعث النـاس خيولهم للسقي، فـإن الماء كان

بعيداً، وجلس ينتظر حتى يعودوا مـن السقي، والجرحى يحضرون بين يديه وهو يـداويهم ويحملهم وقتل في ذلك اليـوم رجالة كثيرة وجرحـت جماعة من الطـائفتين، وكان ممـن ثبت في هـذه الوقعـة الملك العـادل والطواشي قـايماز النجمـي والملـك الأفضـل ولد السلطـان، صـدم في ذلـك اليـوم وانفتح دمـل كان في وجهـه، وسال منه دم كثير على وجهـه، وهو صـابر محتسب، وثبت أيضاً في ذلـك اليوم طلب الموصل، ومقدمه عـلاء الدين، وشكـره السلطان على ذلـك، وتفقد النـاس بعضهـم بعضاً، فـوجدوا قـد استشهد جماعة مـن العسكر عرف منهم أمير شكار موسـك، وكان رجلاً شجاعاً معـروفاً، وقايماز العادلي، وكـان مذكوراً، وأبقوش، وكـان شجاعاً أسـف السلطان عليـه وجـرح خلق كثير وخيـول كثيرة وقتـل من العـدو جماعة وأسر واحـد فأحضر، فـأمر السلطـان بضرب عنقه، وأخـذت منهم خيـول أربعـة، ثم أمـر السلطـان أن يتقـدم الثقـل إلى العوجـاء ، وكـان الأفرنج نزلوا على قبلي أرسوف، ونزل الثقل قـاطع النهر المعروف بالعوجاء في منـزلـة خضرة على جـانـب النهر، ووصـل السلطـان في آخـر النهـار، وازدحم الناس على القنطرة، ونـزل السلطان على تل مشرف على النهر، ولم يعبر الخيمـة، وأقام السلطـان إلى سحـرة ليلـة الأحد الخامـس عشر مـن شعبـان من هـذه السنة، ثـم دق الكـؤوس وركب وركـب الناس وسـار راجعاً إلى جهة العـدو حتى وصل إلى أرسوف ، وصـف الأطلاب للقتال وجاء خـروج الأفرنج ومسيرهـم حتى يصـادمهم، فلم يـرحل الملاعين في ذلك اليـوم لما نالهم من التعـب والجراحات، فـأقام السلطان قبـالتهم إلى آخرَ النهـار، ثم عـاد إلى منـزلتـه التـي بات بها، فبـات بها ليلـة الاثنين السـادس عشر ، ولما كـان يـوم الاثنين دق الكـؤوس، وركـب وركـب الناس، وسار نحـوهم ، وبلغ إليه خبرهـم أنهم رحلوا طالبين جهة يـافا، وسار حتى قاربهم جداً ورتب الأطـلاب ترتيب القتال، وأخرج الجاليش، وأحدق العسكـر الاسلامـي بالقوم وألقـوا عليهم مـن النشاب مـاكاد أن يسد الأفق، وقـاتلهم قتالاً عظيماً والملاعين لم يحملوا بل حفظـوا نفوسهم،

وساروا مصطفين على عادتهم حتى أتوا نهر العوجاء، وهو النهر الذي كان منزل المسلمين أعلاه، فنزلوا في أسفله، وعبر بعضهم النهر وأقام الباقون من الجانب الشرقي، وعاد السلطان أيضاً إلى الثقل، ونزل في خيمته وأكل الطعام ثم أتي بأربعة من الأفرنج وقد أخذتهم العرب، ومعهم امرأة، فرفعوا إلى الزردخاناه، وأقام السلطان بقية اليوم في تلك المنزلةوكتب الكتب إلى الأطراف باستحضار بقية العساكر، وحضر من أخبره أنه قتل من الفرنج يوم أرسوف خيول كثيرة وأن العرب يتبعونها فعدوها فزادت على مائة، وجرح أيضاً من خيل المسلمين شيء كثير، ثم أمر السلطان برحيل الجمال إلى الرملة، وبات في تلك المنزلة، ولما كان يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان صلى الصبح ورحل ورحل معه الثقل الصغير، وسار يريد الرملة، وأتي باثنين من الأفرنج فأمر بضرب أعناقهما، وجاء خبر من اليزك بأن الفرنج رحلوا قاصدين يافا، وسار السلطان إلى الرملة ونزل في الثقل الكبير وأتي باثنين من الأفرنج أيضاً فسألهما عن أحوال القوم فذكرا أنهم ربما يقيمون في يافا أياماً وفي أنفسهم عمارتها واشحانها بالرجال والعدد، فأحضر السلطان أرباب المشورة وشاورهم في أمر عسقلان هل تخرب أم تبقى، واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر قريباً من العدو لأجل الأخبار ، وأن يسير السلطان إلى عسقلان ويخربها خشية من أن يتولاها الأفرنج فيأخذوا من بها من المسلمين، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا طريق مصر، فعند ذلك أمر السلطان برحيل الثقل الجمالي من أول الليل، وأمر ولده الملك الأفضل أن يسير عقيب الثقل في نصف الليل، ثم سار السلطان في سحرة يوم الاربعاء الثامن عشر من شعبان، ووصل إلى يبنى فنزل بها، وأخذ الناس راحة، ثم رحل وسار حتى أتى أرض عسقلان بعد صلاة العصر، وقد ضربت خيمته بعيداً منها شمالي البلد في أرض طيبة، فبات هنا مهموماً بسبب تخريب عسقلان ، وما نام تلك الليلة إلاّ قليلاً.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: فطلبني في تلك الليلة وقت السحر، وشرع في حديث عسقلان وتخريبها وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره في ذلك، وقال: والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إليّ من أن أهدم منها حجرا واحدا، ولكن إذا قضى الله بذلك، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين فكيف أصنع ؟!

ذكر تخريب عسقلان

ثم استخار السلطان فأوقع الله في قلبه أن المصلحة في تخريبها لعجز المسلمين عن حفظها عن الافرنج، فاستحضر الوالي بها يدعى قيصر، من كبار مماليكه وذوي الآراء منهم، فأمره أن يضع فيها المعاول، وذلك في سحرة ليلة الخميس التاسع عشر من شعبان، وقسم السور على الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجا معلوما يخربونه، ودخل الناس البلد، ووقع فيه الضجيج والبكاء، وكانت بلدة نضرة حسنة خفيفة على القلب محكمة الأسوار عظيمة البناء، مرغوبا في سكنها، فلحق الناس حزن عظيم، وعظم عويل أهلها وبكاؤهم على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا في بيع ما لا يمكن حمله، وبيع ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد، ورمى الناس أقمشتهم بالثمن البخس حتى بيع اثني عشر طيرا من الدجاج بدرهم واحد، واختبط البلد، وخرج أهله إلى العسكر بذراريهم ونسائهم خشية أن يهجم الافرنج البلد، وبذلوا في الكرى أضعاف ما يساوي، فقوم إلى مصر و قوم إلى الشام، وقوم يمشون لم يقع لهم كراء، وجرت أمور كثيرة وبلية عظيمة لعلها لم يكن مثلها ، وكان السلطان وولده الملك الأفضل يستعملان الناس في التخريب والحث عليه خشية أن يسمع الافرنج فيحضرون ولا يمكن تخريبها، وبات الناس على أشد حال من التعب والنصب، وفي تلك الليلة حضر من الملك العادل من أخبر أن الافرنج تحدثوا معه في الصلح، وأن ابن الهنفري جاء إليه وتحدث معه في ذلك، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة

لما رأى في أنفس الناس من الضجر والملالة من القتال والمصابرة وكثرة ما علاهم من الديون، وكتب إليه يسمح له في الحديث في ذلك، وفوض أمر ذلك إليه، وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان على الاصرار على التخريب واستعمال الناس فيه، وأباح لهم الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من لحوق الأفرنج ، وأمر بتحريق البلد، وأضرمت النار في البيوت والآدر فاضطرمت النيران فيها ، ورمى الناس غالب أقمشتهم للعجز عن نقلها، وفي أثناء ذلك الأخبار تتواتر من جانب الافرنج بعمارة يافا، وأن كل وقت يجري بينهم وبين اليزك وقعات.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولم يزل التخريب والتحريق يعملان في عسقلان وأسوارها إلى سلخ شعبان من هذه السنة، وكانت عظيمة البناء بحيث أن بعض سورها كان عرضه تسعة أذرع وفي مواضع عشرة أذرع، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر ـ أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح.

قال القاضي: ووصل في أثناء ذلك جرديك بكتاب فيه أن الفرنج قد تفسحوا وصاروا يخرجون من يافا ويغيرون على البلاد القريبة منها، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ غرضه منهم في غرتهم، فعزم السلطان على الرحيل ، وعلى أن يخلف حجارين في عسقلان ومعهم من يحميهم حتى يستقصوا في التخريب، ثم رأى أن يتأخرالى أن يحرق البرج المعروف بالاسبتار، وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة، ثم أصبح السلطان يوم الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة، وأمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه.

قال القاضي: ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لتحريق البرج، ولم يزل الناس ينقلون الأعشاب ويحشونها في البرج حتى امتلأ، ثم

اطلقت فيها النار، وبقيت النار تشتعل فيها يومين وليلتين، ثم رحل السلطان ليلة الثلاثاء الثاني من رمضان من نصف الليل، ووصل إلى يبنى ضحوة نهار الثلاثاء، ونزل في خيمة أخيه الملك العادل ، واستعلم منه الأخبار، ثم قام ونزل في خيمته، وبات تلك الليلة في تلك المنزلة .

ذكر رحيل السلطان إلى الرملة

ولما أصبح السلطان يوم الأربعاء الثالث من رمضان رحل إلى جهة الرملة، فسار حتى أتاها ضحوة النهار ونزل بالثقل الكبير هناك نزول اقامة، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا، ومد السماط للناس، ثم أخذ بعض راحة ثم ركب بين الصلاتين وسار إلى لد فرآها ورأى بيعتها وعظم بنائها ، فأمر بتخريبها وتخريب قلعة الرملة أيضا، ووقع الخراب في الموضعين في ذلك اليوم، وفرق الناس لتخريب المكانين وأباح ما فيهما من التبن والشعير في الاهراء السلطانية، وأمر من كان بهما من المقيمين بالانتقال إلى المواضع العامرة ، وما كان بقي من المكانيين إلا نفر يسير، ثم عاد السلطان إلى خيمته، ولما أصبح يوم الخميس الرابع من رمضان أقام الحجارين في المكانيين، ورتب عندهم من يستخدمهم في ذلك وهو يتردد إليهم في الأصايل، ثم وقع له أن يسير خفية في نفر يسير ليشاهد أحوال القدس الشريف، وخلف أخاه العادل في العسكر يحث الناس على الخراب فسار من أول الليل حتى أتى القدس الشريف في يوم الجمعة خامس رمضان المذكور، وصلى الجمعة وأقام ذلك اليوم يتفقد أحوال الناس وأحوال القدس في عمارته وميرته وعدته وغير ذلك، وظفر بنفر من النصارى معهم كتب إلى الافرنج، فضرب أعناقهم، ولم يزل مقيما في القدس إلى يوم الاثنين الثامن من رمضان، ولما كان يوم الاثنين خرج قاصدا العسكر بعد صلاة الظهر فبات في بيت نوبة.

-١١٣٩٩-

ذكر مجيء معز الدين صاحب ملطية

وفي يوم الاثنين المذكور وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه ابن قليج أرسلان وافدا على السلطان مستنصرا على أخوته وأبيه لأنهم كانوا قاصدين أخذ بلده منه، فلقيه الملك العادل عند لد واحترمه وأكرمه، ثم لقيه بعده الملك الأفضل ولد السلطان، وضرب خيمته قريبا من لد.

وفي تاريخ النويري: وسبب قدومه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك، فسار إلى السلطان ملتجئا إليه، فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة وقد انقطع طمع أخيه منه.

وقال ابن الأثير: ولما ركب السلطان صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه المذكور ترجل معز الدين فترجل السلطان صلاح الدين، ولما ركب عضده قيصر شاه وركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك، فسوى ثياب السلطان، فقال بعض الحاضرين في نفسه: ما بقيت تبالي يابن أيوب بأي موتة تموت: يركبك ملك سلجوقي ويصلح قماشك ملك أتابكي زنكي، وفي يوم قدوم معز الدين وصل الخبر إلى العسكر أن جماعة من الحشاشين من الأفرنج خرجوا يحشون، فحمل عليهم اليزك الاسلامي، ووصل الخبر إلى عسكرهم، فخرجت في نصرتهم جماعة وجرى بينهم وبين اليزك قتال، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم ملك الانكتار، وأن شخصا من المسلمين قصد طعنه، فحال بينه وبينه فرنجي، فقتل الفرنجي وجرح هو.

-١١٤٠٠-

ذكر عودة السلطان إلى المعسكر

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع رمضان المذكور وصل السلطان إلى العسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدومه وأقام يحث على الخراب، ولم تزل أخبار العدو عنده، ولم يزل يقع بين اليزك وبين الأفرنج وقعات وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

وفي أثناء ذلك اليوم وصل رسول من المركيس يذكر أنه يصالحهم بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذ ها منهم، فأجاب السلطان وسير إليه العدل النجيب، وكان المركيس هذا خشنا ملعونا، وكان لما استشعر من الافرنج أخذ بلده صور منه استعصم بها، وانحاز عن الفرنج، ولذلك أجاب السلطان إلى كلامه، وسير العدل النجيب مع رسوله يوم الجمعة ثاني عشر رمضان، واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة عداوة القوم وحصار عكا وأخذها واطلاق من بها من الأسرى، وكذلك من كان بصور من الأسرى، فإذا فعل ذلك يسلم إليه صيدا وبيروت.

ولما كان يوم السبت الثالث عشر من رمضان تأخر السلطان بالعسكر إلى الجبل ليتمكن الناس من انفاذ دوابهم إلى العلوفة، فإنهم كانوا على الرملة قريبين من الأفرنج، فنزل السلطان على تل بجبل النطرون بالثقل الكبير وجميع العسكر ما عدا اليزك وذلك بعد خراب الرملة ولدّ، ويوم نزوله هناك أمر بتخريب النطرون، وكانت قلعة منيعة.

وفي السابع عشر من رمضان جاء الخبر من اليزك بأخبار طيبة منها خبر هلاك الأفرنسيس، وكان موته في أنطاكية عن مرض عرض له، ومنها أن ملك الانكتار عاد إلى عكا، وذلك لما صح عنده مراسلة المركيس إلى السلطان فيما ذكرنا.

-١١٤٠١-

ذكر سير الملك العادل إلى القدس

وفي يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان اقتضى الحال تفقد أحوال القدس، والنظر في عمائره، فتعين لذلك الملك العادل، فسار إليه وعاد منه إلى العسكر يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان، وفي أثناء هذه الأيام وصل كتاب من الملك المظفر تقي الدين يخبر أن قزل أرسلان صاحب ديار العجم قفز عليه أصحابه فقتلوه، وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة.

وفي هذا التاريخ وصلت مراكب العدو، وقيل إنها وصلت من عكا وأن ملك الانكتار فيها بجماعة عظيمة وقصده عمارة عسقلان، وقيل قصده أخذ القدس، ووصلت جماعة من الأسرى كانوا من عكا أخذهم اليزك من موضع يقال له الزيب، ووصل رسول قزل أرسلان، كان قد سيره قبل موته، ورسول ابن أخيه اينانج، ورسول ملك الانكتار ومعه حصانه إلى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها إليه، ووصل خبر وفاة حسام الدين بن لاجين بدمشق بسبب مرض عرض له، فحزن عليه السلطان، ووصل كتاب من سامة يذكر فيه أن الأبرنس صاحب أنطاكية - لعنه الله- أغار على جبلة واللاذقية، وأنه كسر كسرة عظيمة وقتل منه جماعة وعاد إلى أنطاكية مخذولا، ووصل رسول من ملك الانكتار يقول: خربت البلاد وهلك المسلمون والافرنج وتلفت الأموال، وقد بلغ الأمر غايته، وما ثم شيء في الوسط سوى القدس والصليب والبلاد وأما القدس فإنه متعبدنا ما نفرغ عنه ولو لم يبق منا أحد، وأما البلاد فتعاد إلينا من حد الأردن، وأما الصليب فإنه خشبة لا مقدار لها عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن السلطان بهذه الأشياء علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم، ولما وقف السلطان على هذا أجاب بأن القدس لنا كما هو لكم، بل هو أعظم عندنا مما هو عندكم فإنه مسرى نبينا صلى الله عليه وسلم ومجمع الملائكة فلا يتصور أن نتركه ولا نقدر

على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي لنا في الأصل واستيلاؤكم عليها صار لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وأما الصليب فحرقه عندنا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام .

ذكر هروب شيركوه بن ما خل الكردي من عكا

وكان أسيرا فيها ووصل إلى عسكر الاسلام في أواخر يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان وكان من الأمراء الأكراد الزرزاريين، وأخبر أنه هرب ليلة الأحد الحادي والعشرين من رمضان، وكان ادخر له حبلا في مخدة، وكان الأمير حسين بن باريك ادخر له حبلا في بيت الطهارة، فاتفقا على الهروب، ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة، وانحدرا من السور الأول، وعبر شيركوه من الباشورة، وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل، ونزل شيركوه سليما، وأنه أتى إليه وحركه فلم يتحرك، فخاف إن مكث أخذ، فتركه وانصرف واشتد هربا في قيوده حتى أتى إلى تل العياضية، وقد طلع الصبح، فكمن في الجبل حتى علا النهار، وكسر قيوده وسار، فستر الله عليه حتى أتى العسكر في الوقت المذكور، وأخبر أن سيف الدين بن المشطوب ضيقوا عليه وقطعوا عليه قطيعة عظيمة من خيل وبغال وأموال ،وأن ملك الانكتار أتى عكا وأخذ كل من كان بها من خدمه ومماليكه وأقمشته، ولم يخل له فيها شيئا، وأن فلاحي الجبل يمدونه بالميرة مدا عظيما، وأن طغرل السلاحدار أخذ خواص مماليك السلطان فهربوا قبل هروب شيركوه.

ذكر بقية الأخبار

منها أن في يوم الاثنين التاسع والعشرين من رمضان استدعى الملك العادل قاضي القضاة بهاء الدين، وأحضر جماعة من الأمراء: علم

الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم، وحسام الدين بشارة وقال لهم: إن ملك الانكتار أرسل إليه يقول له: إن العادل يتزوج بأخته، وكان قد استصحبها معه من صقلية، وكانت زوجة صاحبها ومات عنها، وأن يكون مستقرها بالقدس وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى يافا وعسقلان، وغير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، وأن السلطان يعطي الملك العادل جميع ما في يده من بلاد الساحل ويجعله ملك الساحل، ويكون ذلك مضافا إلى ما في يده من البلاد والاقطاعات، وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت وتكون القرى للداوية والاسبتار وأنا أفك أسراكم، وأنتم تفكون أسرانا، فإذا استقر الصلح على هذا يرحل ملك الانكتار إلى بلاده في البحر وينفصل الأمر

قال القاضي: فلما حضرنا عند السلطان عرضت عليه هذا الحديث فبادر إلى الرضى بهذه القاعدة معتقدا أن ملك الانكتار لا يوافق على ذلك أصلا، وأن هذا منه هزو ومكر.

قال: ثم عدنا إلى الملك العادل وعرفناه بذلك، ولما كان يوم الأربعاء الثاني من شوال سار ابن النحال رسولا من جانب العادل والسلطان أيضا إلى ملك الانكتار، فلما عرف بقدومه أنفذ إليه من قال له: إن الملكة أخت الملك عرض عليها أخوها حديث النكاح فسخطت من ذلك وغضبت وأنكرت أن يكون ذلك انكارا شديدا، وحلفت أنه لا يكون أصلا، ثم قال أخوها: إن الملك العادل يتنصر فأنا أتمم ذلك، فعاد الرسول بذلك وأخبر العادل والسلطان به، وتحقق ما قاله السلطان.

ومنها أن في يوم السبت خامس شوال وصل الخبر من الاسطول الاسلامي أنه استولى على مراكب للأفرنج، وفيها مركب يعرف بالمسطح، قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وأكثر، وأنه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة أنفس وهم كبار مذكورون، فسر المسلمون بذلك وضربت البشائر.

ومنهـا أن في يـوم الأحد سـادس شـوال جمع السلطـان أكابـر الأمـراء وأرباب الآراء من دولته وشاورهـم في أن الأفرنج قد أجمعوا على الخروج، وأنه كيف يصنـع في ذلك، فاتفقت آراؤهـم على الاقامة في منزلتهـم بعد تخفيف الأثقال، فـإن خرجوا لاقوهـم، وفي عشية هذا اليوم استـأمن من الأفرنـج اثنان فـارسان وأخبرا أنهم على عـزم الخروج يوم الثـلاثاء، وأنهم زهاء عشرة آلاف فـارس، ولكن لا يعرف قصـدهم، ثم جـاء أسير مسلم هـرب منهم وأخبر أنهم قـد أظهروا الخروج إلى الـرملة ، ثـم يتفقون فيهـا على مـوضع يقصـدونه، ولما تحقـق السلطـان ذلك أمـر بتجهيز العسكـر، وشد الرايات وأن يقـف قبالتهم إن خرجوا، وسار يـوم الاثنين حتى أتى قبلي كنيسـة الرملـة فخيـم هنـاك وبات ليلتـه، ولما كـانـت صبيحة يـوم الثلاثـاء الثامـن من شوال رتـب الأطلاب للقتـال، وسلم اليـزك للملك العادل، وتبعه من يريدون الغزاة ، فخـرجوا في جملة من خرج، فلما وصلوا إلى خيام الأفرنج هجم عليهم المماليك السلطانية ورموا عليهم بالنشاب، وقام الأفرنـج وركبوا وصاحوا صيحـة الرجل الواحـد وحملوا في جمع كثير، فنجا مـن سبق بـه جواده، وظفروا بجماعـة قتلوا منهم ثـلاثة نفـر على ما قيل، ونقلوا خيـامهم إلى يازور وأقام السلطان بلقـاء منازلهم إلى الصباح، ولما كـان يوم الجمعـة الحادي عشر مـن شوال ركـب السلطـان نحوهـم فأشرف عليهم ثم عاد.

قال القاضي: ثـم استدعاني وجماعة مـن الأمراء،وأمر الناس بـإبعادهم عن الخيمة، فـأخرج كتابا من قبـائه وفضه ووقف عليه، وبـدرت دموعه، وغلبه البكـاء والنحيب حتـى وافقه الحاضرون على ذلـك من دون علـم، السبب، ثم ذكـر أن الملك المظفر قد توفي إلى رحمة الله، وأمـر بكتم ذلك عـن الناس لئـلا يصـل الخبر إلى العـدو، وكانـت وفـاتـه في تاسـع عشر رمضان يوم الجمعة على ما نذكره انشاء الله.

ومنها: أن في يوم السبت الثاني عشر من شوال وصل من دمشق كتاب من النواب بها، وفي طيه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي يتضمن فصولا ثلاثة:

الأول: الانكار على الملك المظفر في مسيره إلى بكتمر.

والثاني في الانكار على مظفر الدين في مسك حسن بن قفجاق والأمر بإعادته إلى الكرخاني.

الثالث: فيه الأمر بإحضار القاضي الفاضل إليهم ليقال له أشياء: فأجاب السلطان عن الأول بأنا لم نأمره بذلك، وعن الثاني بأن ابن قفجاق لا يخفى ما تصدى له من الفساد في الأرض، وعن الثالث بأنه كبير الأمراض وقوته تضعف عن الحركة.

ومنها أن في السادس عشر من شوال أمر السلطان للحلقة بالكمين للعدو في بطون أودية هناك واستصحبوا جمعا من العرب، فلما استقر الكمين في موضعه ظهرت العرب في مناوشتهم، وكانت منهم جماعة تخرج للاحتشاش والاحتطاب، فنزل عليهم العرب ووقع الحرب وقام الصياح، فركبت جماعة من خيالة الأفرنج، وانهزمت العرب بين أيديهم إلى جهة الكمين ، فخرج الكمين ووقع الصياح وانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم، ثم ركب منهم خلق عظيم فالتحم القتال، وقتل جمع من الطائفتين ، وأسرت جماعة من العدو، وأخذت منهم خيول كثيرة ، وانفصل الحرب قبيل الظهر من نهار الأربعاء السادس عشر من شوال، واستشهد في هذه الوقعة اياس المهراني، وكان شجاعا معروفا، وجاولي غلام الفيدي، وصرع إياز المعظمي، وجرح جماعة عدة، وقتل من العدو زهاء ستين نفرا، وأسر فارسان معروفان، واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما.

ومنها أنه وصل في بقية هذا اليوم رسول من عند ملك الانكتار إلى

الملك العادل يعتب عليه من جهة الكمين وأنه يطلب الاجتماع به، فأذن له، ولما كان يوم الجمعة الثاني عشر من شوال سار الملك العادل، ومعه من الأطعمة والتجملات والتحف ما يحمل من ملك إلى ملك، وجاء إليه ملك الانكتار في خيمته فأكرمه العادل واحترمه، ووصل معه أيضا من طعامهم الذي يختصون به، فأتحف به الملك العادل على وجه مطايبته، فتناول منه العادل وتناول هو وأصحابه من طعام العادل، وقدم إليه ما كان حمله معه، وتحادثا معظم ذلك النهار وتفاصلاعن تواد ومطايبة.

ومنها: أن في يوم السبت التاسع عشر من شوال حضر صاحب صيدا بين يدي السلطان ومعه جماعة وأكرمه السلطان اكراما عظيما، وقدم بين يديه طعاما، ولما رفع الطعام خلا بهم، وكان من حديثه أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور، وقد انضم إليه جماعة من أكابر الافرنج، وكان من شرط الصلح معه اظهار عداوته للأفرنج البحرية، وبذل له السلطان موافقة على ذلك.

ومنها أن في عشية ذلك اليوم وصل رسول ملك الانكتار وهو ابن الهنفري، وكان من أكابرهم وملوكهم، ومن أولاد ملوكهم، وفي صحبته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة، فأحضره السلطان، وكانت رسالته: إن الملك يقول إني أحب صداقتك ومودتك، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكما بيني وبينه، ونقسم البلاد بيني وبينه، ولابد أن يكون لنا علقة بالقدس، ومقصودي أن نقسم البلاد بحيث لا يكون عليك لوم من المسلمين، ولا علي لوم من الأفرنج، فأجابه في الحال بوعد جميل، ثم أذن لهم بالعود في الحال.

قال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: ثم التفت السلطان في

المجلس وقال لي: متى صالحناهم لم نأمن من غائلتهم، فإني لو حدث بي حادث الموت لا تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الأفرنج، والمصلحة الثبات على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل، أو يأتينا الموت، هذا كان رأيه وغرضه رحمه الله.

ولما كان يوم الاثنين الحادي والعشرين من شوال جمع السلطان الأمراء الكبار وأرباب المشورة من الدولة،وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس، واستقر الأمر من جانبه عليها وهي أخذ صيدا، وأن يكون معنا على الفرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعداوة، وذكر لهم القاعدة التي التمسها ملك الانكتار، وهي أن يكون له من القرايا الساحلية مواضع معينة، وتكون لنا الجبليات بأسرها، وتكون القرايا كلها مناصفة، وعلى هذين القسمين يكون لهم أقساء في بيع القدس الشريف وكنائسه،وشرح لهم السلطان هاتين القاعدتين وأخذ رأيهم في ترجيح أحد القسمين.وهما من جانب ملك الانكتار ومن جانب المركيس، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن ملك الانكتار فإن مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة، وصحبتهم غير مأمونه، وانفض الناس وبقي الأمر مترددا في الصلح والرسل تتواصل في تقرير قواعد الصلح، وهي أن ملك الانكتار كان قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج، وأن تكون البلاد الساحلية والفرنجية لهما، أما الفرنجية فلها من جانب الملك وأما الاسلامية فللملك العاد ل من جانب السلطان، وكان آخر رسائلهم من الملك أن قال:إن معاشر دين النصرانية أنكروا علي كون أختي تحت مسلم بدون مشاورة الباب، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وها أنا أسير إليه رسولاً يعود في ستة أشهر، فإن أذن في ذلك فبها ونعمت، وإلاّ زوجتك ابنة أختي، وما أحتاج في ذلك إلى إذن الباب، هذا كله وسوق الحرب قائم، والقتال عمال، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ويشرف على الأفرنج وقتال المسلمين لهم، وكلما رآه ا لأفرنج مع الملك العادل تحركوا للصلح خوفا من

انكسـار الشـوكـة لهم، ولم يـزل الحال كذلـك إلى يـوم الجمعـة الخامـس والعشرين من شوال، ففي يوم الجمعة أصبح السلطان عازما على الرحيل وسار إلى تل الجزر لارتيـاد المنزل، فنزلت الناس كلهـم مع السلطان، ولما عرف الأفـرنج بعود السلطان رحلـوا عائدين، وأقام السلطـان بتل الجزر، ثم رحـل إلى جهة القـدس الشريف، ورحـل الأفرنـج إلى بلادهـم واشتد الشتـاء وعظمـت الأمطـار، وأعطـى السلطـان دستـورا للعسـاكـر وأقـام بالقدس في هـذا الشتاء أجمع، ونزل السلطان في دار القساقس قـريبا من القمامـة، وكان نـزولـه في ذي القعدة مـن هـذه السنة، وشرع في تحصينـه وتعميق خنادقه، وعمل فيـه بنفسه وأولاده وأمرائه، وعمل القضاة والعلماء والصوفيـة بأنفسهـم، وكان وقتـا مشهودا، واليـزك حول البلـد من نـاحية الأفرنج، وفي كل وقت يستظهرون على الأفـرنج ويقتلون ويغنمون منهم، وانقضت السنـة والأمر على ذلك، وأرصد ملـك الانكتار في يافا عسـاكر، ثم عاد إلى عكا لينظر في أحوالها وأقام مدة.

ذكر بقية الحوادث في هذه السنة

منها أنـه استقر الحال مع الملـك المظفر تقـي الدين صـاحب حماه أن يـأخذ الـرها وحـران وسمسياط وينـزل عـن كل الـذي بالشـام: بصرى، وعمان، والبلقاء، ومـن حلب: المعـرة ومنبج، والمستقـر بيده حماه وسلميـة واللاذقية وجبلـة وبلاطنس وبكسرائيل، ثم لم يلبث أن أدركتـه الوفاة على ماانذكره في الوفيات إن شاء الله تعالى.

ومنهـا أن السلطان صـلاح الـدين أرسـل إلى ولـده الظاهـر أن يخرب حصن بغراس، فبلغ ذلـك ابن ليفون صاحب سيس فسار إليهـا فأخذها بغير قتال.

ومنها أن السلطـان أخرب عسقلان كما ذكـرنا ، وأخرب غـزة والداروم أيضا، واهتم بعمارة القدس الشريف.

ومنها أن السلطان عزل أبا حامد محمد بن عبدالله بن أبي عصرون عن قضاء دمشق، وولى محيي الدين بن زنكي الدين، قالوا: وسبب عزل ابن أبي عصرون مداخلته الجند واشتغاله بما يشتغل به الأمراء من اتخاذ الخيول والمماليك والنزل ومباشرة الحروب، ومعاملة الأمراء ومداينتهم فتبرم السلطان منه وعزله...

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الأمير سليمان بن جندر: من أكابر أمراء حلب ومشايخ الدولتين النورية والصلاحية، وهو والد علم الدين بن سليمان، وشهد سليمان مع صلاح الدين حروبه، وهو الذي أشار بخراب عسقلان لتتوفر العناية على حفظ القدس، ولما صعد السلطان إلى القدس مرض سليمان، فطلب المسير إلى حلب فأذن له السلطان فسار فتوفي بغباغب في أواخر ذي الحجة وحمل إلى حلب فدفن بها.

الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين: صاحب نابلس، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين، واقفة الشاميتين بدمشق، توفي ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان، ففجع السلطان به وبابن أخيه تقي الدين عمر، لأنهما ماتا في ليلة واحدة، وقد كانا من أكبر الأعوان، وأعز الأخوان، ودفن حسام الدين في التربة الحسامية، وهي التي أنشأتها له بمحلة العوينة، وهي الشامية البرانية، وكانت وفاته بدمشق، وكان شجاعا مقداما

الأمير الكبير الصفي بن القابض: نائب دمشق، وكان من أكبر أصحاب السطان صلاح الدين قبل الملك، ثم استنابه على دمشق

وفي المرآة: الصفي بن القابض: وزير صلاح الدين، واسمه نصر

الله، وكان خدم السلطان لما كان شحنة دمشق، وأمده بالمال، فرأى له ذلك، فلما ملك استوزه وكان شجاعا ثقةدينا أمينا، ولما نزل الفرنج داريا والسلطان في الشرق، جمع من أهل دمشق سوادا عظيما، وخرج إلى ظاهر البلد، فظنوهم عسكرا ، فرحلوا، وكان كبير المعروف، وكتب أملاكه لمماليكه لأنه لم يكن له ولد، وبنى بالعقيبة مسجدا ودفن به في رجب، ويعرف اليوم بمسجد الصفي، وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب رحمه الله...

الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب: كان عزيزا عند عمه السلطان صلاح الدين، استنابه بمصر وغيرها من البلاد، ثم أقطعه حماه ومدنا كثيرة معها حولها، ومن بلاد الجزيرة، وكان سع عمه على عكا، ثم استأذنه في الاشراف على بلاده المجاورة للفرات، فلما صار إليها اشتغل وامتدت عينيه إلى أخذ غيرها من أيدي الملوك الذين يجاورونه، فقاتلهم، فاتفق موته وهو على ذلك، والسلطان متغضب عليه بسبب اشتغاله بذلك عنه.

وقال العماد الكاتب: توفي الملك المظفر تقي الدين عمر يوم الجمعة التاسع عشر من شهر رمضان، وهو على محاصرة ملازكرد من عمل أرمينية، وكتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته إلى أن أخرج من ذلك الاقليم سالما، وبعث إلى السلطان يسأله في ابقاء بلاد أبيه بيده، فلم يجب السلطان إليه.

وقال النويري: قد سار الملك المظفر تقي الدين عمر إلى البلاد المرتجعة من كوكبوري التي زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات وهي حران وغيرها، فامتدت عين الملك المظفر إلى البلاد المجاورة، واستولى على سويداء وحاني ، وتواقع مع بكتمر صاحب أخلاط فكسره

وحصره في أخلاط، وتملك معظم البلاد، ثم رحل عنها ونزل ملازكرد وهي لبكتمر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد به حتى توفي يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان، فأخفى الملك المنصور وفاته ورحل عن ملازكرد، ووصل به إلى حماه فدفنه بها بظاهرها، وبنى إلى جانب التربة مدرسة مشهورة هناك، وكان الملك المظفر شجاعا شديد البأس، ركنا عظيما من أركان البيت الأيوبي، وكان عنده فضل أدب وله شعر حسن.

ثم أرسل الملك المنصور إلى السلطان صلاح الدين، واشترط عليه شروطا، نسبه السلطان فيها إلى العصيان، وكاد أمره يضطرب بالكلية، فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان، فما برح العادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان، وقرر للملك المنصور حماه، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها، وأقطعها أخاه الملك العادل بعد أن شرط السلطان أن الملك العادل ينزل عماله من الاقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء الى القدس شرفه الله، ولما استقر ذلك، سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها، فقررها وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة، ولما قدم العادل على السلطان صلاح الدين كان الملك المنصور صاحب حماه صحبته، فلما رأى السلطان الملك المنصور ابن تقي الدين عمر نهض واعتنقه وبكى وأكرمه وأنزله في مقدمة عسكره.

وقال بيبرس في تاريخه: توفي الملك المظفر تقي الدين بأرض أخلاط في حصار منازكرد، ودفن بميافارقين، ثم نقل إلى حماه رحمه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسي، وصاحب مصر والشام وغيرهما من البلاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو مقيم في القدس الشريف في دار الأقساء بجوار قمامة، وقد قسم السور بين أولاده وأجناده، وهو يعمل فيه بنفسه، ويحمل الحجر بينه وبين قربوس سرجه، والناس يقتدون به والعلماء والفقراء ويعملون بأنفسهم والأفرنج لعنهم الله حول البلد من ناحية عسقلان وما ماوالاها لا يتجاسرون أن يتقدموا من اليزك والحرس الذين للسلطان حول القدس، إلاّ أنهم على نية محاصرة القدس مصممون، ولكيد الاسلام مجمعون، وهم والحرس تارة يغلبون وتارة ينهبون وتارة يُنهبون.

ذكر رحيل الفرنج إلى عسقلان

قال العماد الكاتب رحمه الله : رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة إلى عسقلان، ونزلوا يوم الأربعاء بظاهرها، وتشاوروا في اعادة عمائرها، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والأسدية نازلين في بعض أعمالها مجدين في نقل غلالها، وركب ملك الانكتار عصر يوم الخميس ومعه حزبه من جند ابليس، فشاهد دخانا على البعد، فساق متوجها إلى تلك الجهة، وتبعه عسكره، فما شعر أصحابنا إلا بالكبسة بغتة، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار، وكانوا نازلين في موضعين، فلم ير العدو إلاّ أحد القسمين ، فقصده بحزبه، فعرف القسم الآخر بهجوم العدو، فركبوا إلى العدو فدفعوه من بين أيديهم، وساقوا أثقالهم قدامهم، وما فقد من المسلين إلاّ أربعة أنفس، ونجا الباقون وكانت نوبة عظيمة رفع الله خطرها.

ذكر السرايا الثلاث

بتاريخ يوم الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان صلاح الدين في

القدس على عـادته في نقل الحجارة والجد في العمارة، ومعـه أولاده الملوك والأمـراء والقضاة والعلماء والصـوفيـة والزهـاد والأوليـاء، ولما دخل وقـت الظهر نـزل في خيمة ضربها ولده الملك الظـاهر بالصحـراء، وأحضر فيها السماط ودعـا ناسـا من الأمـراء فحضروا وأكلـوا، وصلى السلطان الظهـر هناك وركب عائدا إلى داره وأمر بتجهيز السرايا، فنـزل عز الدين جرديك في سرية، فـأغار بهم يوم الأربعـاء الحادي عشر من من المحـرم على يبنى وفيها الأفرنج بنية السكن، فغنموا اثني عشر أسيرا وخيلا ودوابا كثيرة.

وفي يوم الثـلاثاء ثـاني صفر أغارت السريـة وفيها عز الـدين جـرديك وعسكر القدس وجماعـة من المماليك على ظاهر عسقـلان، وغنموا ثلاثين أسيرا وخيولا وبغالا.

وفي ليلة الأحد رابع عشر صفر باتت سريـة فيها فارس الدين ميمون القصري بتل الجزر، وساروا حتى أصبحـوا على يبنى وكمنوا وصبروا إلى أن استرسلـت الأفرنـج إلى الطـريق وأمنـت، ثم ظهـرت السريـة على قافلـة الأفرنج فكبسوها وأخذوها بـأسرها مع رجالها وأحمالها وبغالها وأثقالها، ثم أغاروا على يافا فقتلـوا وهتكوا وغنموا وعادوا بالغنيمة والسبـايا وعجزت جماعة من المشي فضربوا أعناقهم صبرا.

ذكر خروج سيف الدين بن أحمد المعروف بالمشطوب من الأسر

وفي ربيع الآخـر دخل الأمير سيـف الديـن علي المذكور إلى السلطـان بالقـدس الشريف وقد خلص مـن الأسر، وكان أسر حين كان نـائبا على عكا فـافتدى نفسه منهم بخمسين ألـف دينار، فأعطاه شيئـا كثيرا منهم، ثم استنابه على نابلس فتوفي بها في شوال منها.

وقـال العماد الكاتـب: قرر سيـف الديـن علي المذكور قطيعـة خمسين ألـف دينار، فـأدى منها ثـلاثين وأعطى رهـائن على عشرين، ووصـل إلى

القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر، فقام إليه واعتنقه وأقطعه نابلس وأعمالها، ثم عين السلطان ثلث نابلس لمصالح البيت المقدس وتشييد سوره.

ذكر عصيان الملك المنصور بن الملك المظفر تقي الدين وماجرى له وعليه في ذلك:

وفي النوادر: ويوم وصول المشطوب كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل بأن يسير إلى الفرات ويتسلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر تقي الدين، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف على نفسه من السلطان، وأظهر ذلك، وكتب إلى الملك الظاهر بحلب، وكان قد سافر إليها: إنه إن احتاج أخوك إلى معاونة أعنه، وجهز السلطان صلاح الدين ولده الأفضل بجملة كثيرة، وسار باحترام عظيم حتى وصل إلى حلب وأكرمه أخوه الملك الظاهر إكراماً عظيماً،وعمل له ضيافة تامة وقدم بين يديه تقدمة سنية.

وأما الملك المنصور فإنه لما بلغه موجدة السلطان عليه أرسل إلى الملك العادل رسولاً يستشفع به ليطيب قلب السلطان ويعطيه إما حران والرها وسميساط، وإما حماه ومنبج وسلمية والمعرة، فراجع الملك العادل السلطان مراراً بسببه فلم يفعل ذلك، ثم كثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء، وهزت له شجرة الكرم، فرجع إلى خلقه الحسن، وحلف له على حران والرها وسميساط، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع المذكورة ويتخلى عن البلاد التي في يده، ودخل في هذا الضمان الملك العادل، ثم التمس العادل خط السلطان، فأبى وألح عليه، فخرق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر، وانفصل الحال، وانقطع الحديث.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: كنت المتردد بينهما في ذلك، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب بعض أولاد أولاده.

قال القاضي: ثم أرسلني السلطان إلى العادل والأمراء بأن يتشاوروا في أمر الملك المنصور، فاجتمعوا في خدمة ا لعادل، فانتدب الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وقال: نحن عبيد ا لسلطان ومماليكه، وذلك صبي وربما حمله خوفه حتى انضاف إلى جانب آخر، ونحن ما نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار، فإن أراد السلطان قتال المسلمين يصالح الكفار، ونسير نحن إلى ذلك الجانب ونقاتل بين يديه، وإن أراد ملازمة الغزاة يصالح المسلمين ويسامحهم، فاتفق الجميع على هذا الكلام، فعند ذلك رق قلب السلطان، وجددت نسخة يمين لابن تقي الدين، وحلف له بها، وأعطى خطه بما استقر من الأمر، ثم إن العادل طلب من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين وتكررت مراجعات العادل في ذلك.

قال القاضي: وكنت الرسول بينهما، وكان آخر ما استقر عليه أنه يتسلم تلك البلاد وينزل عن كل ماهو شامي الفرات، ماعدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وخاصته بمصر، وذلك بعدأن قرر على نفسه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس، وأخذ خط السلطان بذلك، ثم سار بنفسه ليصلح ابن تقي الدين ويطيب قلبه، وكان مسيره في الثامن من جمادى الأولى من هذه السنة.

ثم إن السلطان سير إلى الملك الأفضل يأمره بالعود من قصد تلك البلاد، وكان قد وصل إلى حلب كما ذكرناه، فعاد مع انكسار في قلبه وتشوش في باطنه، فوصل إلى دمشق معتباً ولم يحضر إلى خدمة السلطان، فلما اشتد خبر الأفرنج سير إليه وطلبه، فما وسعه التأخر، فسار مع من

وصل من العساكـر الشرقية إلى دمشق، وكان وصوله يـوم الخميس التاسع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة.

ثم ان السلطـان سير إلى الملك الأفضل يـأمره بـالعود من قصـد تلك البلاد، وكـان قد وصـل إلى حلب كما ذكـرناه، فعـاد مع انكسـار في قلبه وتشوش في باطنـه، فوصل إلى دمشق معتبا ولم يحضر إلى خـدمة السلطان فلما اشتد خبر الأفـرنج سير إليه وطلبـه، فما وسعه التـأخر، فسار مـع من وصل من العساكـر الشرقية إلى دمشق وكان وصوله يـوم الخميس التاسع عشر من جمادى الآخـرة، فلقيه السلطـان قريـب العازريـة، وترجـل جبراً لقلبه وتعظيماً لأمـره، وساروا في خدمتـه وكان فيهـم أخواه الملك الظـافر وقطب الدين إلى ظاهر القدس من جهة العدو.

وأما الملـك المنصور فـإنه قـد تسلم البـلاد التي عينهـا له السلطـان، ووصـل إلى خدمـة السلطان الملـك العادل يـوم السبت الحادي عشرمـن شعبان، فنزل عنده، ثم كتب العادل إلى السلطـان يخبره بوصوله وسأله في احترامه واكرامه، وطـلاقة الوجه له، ثم إن المنصـور لما قرب من السلطان استأذن ولده الظاهر في لقائه فأذن لـه في ذلك، فتلقاه في بيت نوبة، فنزل عنده وفـرح بلقائه وأقام عنده إلى العصر، وذلـك في يوم الأحد، ثـم أخذه وسار به جريـدة حتى أتى خيمة السلطان، فدخـل عليه واحترمه واعتنقه وضمه إلى صـدره، ثم غشيـه البكاء فبكى بكـاء كثيراً حتى بكـى الناس لبكائه ثم باسطـه وسأله عن الطريق، ثم قام وبـات في خيمة ولده الملك الظـاهـر إلى صبيحـة يـوم الاثنين، ثـم ركـب وعـاد إلى عسكـره، ونشروا الأعلام والبيـارق، وكان معه عسكر جميـل، فقرت عين السلطان بـذلك، وكـان ذلك في صبيحـة يـوم الاثنين الثالـث عشر مـن شعبان، ونـزل في مقدمة العسكر ممـا يلي الرملة، وكان قدوم الملك الظاهـر إلى خدمة والده السلطان يـوم السبت الخامـس من رجب مـن هذه السنـة، ونزل في دار الاسبتار، وفرح السلطان به.

-١١٤١٧-

ذكر هلاك المركيس صاحب صور لعنه الله:

وفي ثالث عشر ربيع الآخر يوم الثلاثاء، قتل المركيس لعنه الله، أرسل إليه ملك الانكتار اثنين من الداوية، فأظهرا التنصر ولزما الكنيسة حتى ظفرا بالمركيس فقتلاه.

وقال العماد الكاتب فمسكهما الفرنج فوجدوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما: من وضعكما على هذا التدبير؟ فقالا: ملك الانكتار، وذكرا أنهما تنصرا منذ ستة أشهر، وكان خدم أحدهما ابن بارزان والآخر صاحب صيدا لقربهما من المركيس، فبهذا الطريق وصلا إلى المركيس فقتلاه، ثم قتلهما الأفرنج أشر قتلة.

ثم لما قتل المركيس وذهبت روحه إلى الهاوية، استناب ملك ا لانكتار على صور ابن أخته الكندهري، وهو ابن أخت ملك الأفرنسيس لأبيه، فهما خالاه، ولما سار إلى صور ابتنى بزوجة المركيس بعد موته بليلة واحدة وهي حبلة أيضاً، وذلك لشدة العداوة التي كانت بين ملك ا لانكتار وبينه.

وفي النوادر: وكان المركيس تغدى يوم الثلاثاء المذكور عند الأسقف، ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين، وكان خفيفاً من الرجال، فمازالا يضربان حتى عجل الله بروحه إلى النار، وقام بالأمر اثنان، فحفظا القلعة إلى أن اتصل الخبر بالملوك، واعتمدوا الأمر وتدبروا المكان.

وفي تاريخ ابن كثير: وكان ملك الانكتار يراسل السلطان صلاح الدين في المصالحة والمسالمة كلما كان يرى أن المركيس يراسله ويهادنه، ثم لما هلك المركيس—لعنه الله— طاب قلب ملك الانكتار، وذهب خوفه، وقوي عزمه، وأرسل إلى السلطان في طلب المناصفة على البلاد سوى

القدس، فإنه للمسلمين، سوى القمامة، فلم يجب السلطان إلى ذلك.

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة داروم:

وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج لعنهم الله على قلعة الداروم فخربوها وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها، وأسروا طائفة من الداوية بها.

وقال العماد: وكانت قلعة داروم ضرراً عظيماً لما كانت مع الافرنج، فلما فتحها المسلمون تركوها وأملوها بالذخائر والرجال، وخربوا عسقلان وغزة دون داروم، وتسلمها علم الدين قيصر على أن يحفظها، فلما شرع الافرنج في اعادة عمارة عسقلان ترددوا إليها مراراً وأشرفوا عليها، وأنفق السلطان على جماعة وقواها بهم، ثم نزل الفرنج عليها بقضهم وقضيضهم واشتد زحفهم عليها عشية السبت تاسع جمادى الأولى بعد أن أحدثوا فيها نقباً، فطلب أهلها الأمان فلم يجابوا، وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا، ولما عرف الوالي أنهم مأخوذون عمد إلى الخيل والجمال والدواب فعقرها، وإلى الذخائر فأحرقها وفتحوها بالسيف وأسروا منها عدة يسيرة، ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها، ورحلوا عنها ونزلوا على منزل يقال له الحسي وهو قريب من جبل الخليل عليه السلام، وذلك في يوم الخميس رابع عشر الشهر المذكور، ثم تركوا خيامهم وساروا قصدهم قلعة هناك يقال لها مجدل جناب، فخرجت عليهم أسد اليزكية المكمنة في الغاب فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتل منهم في جملة من قتل كند كبير، وعادوا مفلولين مخذولين، ثم رحل الافرنج من الحسي يوم الأحد سابع عشر الشهر المذكور، وتفرقوا فرقتين: بعضهم عاد إلى عسقلان، وبعضهم جاءوا إلى بيت جبرين.

ذكر قصد الافرنج بيت المقدس شرفه الله:

وفي يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور نزلت الافرنج

بجموعهـم الوافرة بتل الصـافية، ونزلـوا يوم الثلاثاء السـادس والعشرين بالنطرون، فأرجفت الألسن على أنهم على قصـد بيت المقدس، ثم ضربوا خيامهـم يوم الأربعاء على بيـت نوبة، وأمـر السلطان صلاح الـدين رحمه الله بنقل الأزواد، وفـرق الأبراج على الأمـراء والأجناد، وكـان قد سـار من عـرب الاسلام جماعـة للغارة على يـافا، فـوصلـوا عائديـن من غير علـم بحركـة العدو، فنـزلوا في بعض الطـريق يقتسمون فـوقف عليهـم عسكر للعدو وأخـذوهم، وهرب منهم ستـة نفر، فوصلـوا إلى السلطان وأخبروه بالخبر، ووصلت الجواسيس وأصحاب ا لأخبـار من جانب العدو أنهم مقيمـون بـالنطـرون لنقـل الأزواد والآلات التي تـدعـو الحاجـة إليهـا في الحرب، فـإذا حصل عنـدهـم مـايحتاجـون إليـه قصـدوا القدس، وكـان السلطان رحمه الله قـد سير إلى العساكـر من سـائر الأطراف يسـابقون إلى الحضـور، وكـان أول مـن قـدم بـدر الديـن دلـدرم مـع خلـق كثير مـن التركـمان، ولقيه السلطـان وأكرمه، ثـم وصل بعده عـز الدين ابـن المقدم بعسكـر حسن وأطـلاب جيـدة، ثم أمـر السلطـان بخروج العسكـر إلى البدو، فخرجوا إلى خيامهم يتخطفونهم وجـرت وقعة بعد وقعة، وكبسوهم كبسة بعـد كبسة، وكـان الأمير دلدرم صـاحب تـل باشر في اليـزك ليلة الجمعـة التاسـع والعشرين، فبعـث من أصحـابه إلى طـريقهم مـن يافـا، فجازت بهم فـرسان من الفـرنج، فخـرجوا عليهم وقتلـوا وأسروا، وفي يوم السبت سلـخ الشهر نـزلت الناس إليهـم وقاتلوهـم في خيامهـم، وركب العدو وساق إلى قلونية، وهي ضيعـة من ضياع القدس على فرسخين، ثم عادوا بـائدي الشأن باديـن الشين وعساكر الموحديـن قد ركبوا أكتـافهم ورجعوا سا لمين.

وفي النوادر: وكـان طريق يـافا سابلـة لمن ينقل الميرة إلى العدو، فـأمر السلطـان مـن في اليـزك أن يعملـوا معهم مـايمكنهـم، وكـان في اليـزك بدرالديـن دلدرم، فكمن حول الطـريق كمينا فيه جماعـة جيدة، فمر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة، فحمل عليهم وجرى قتال

عظيم فقتلوا منهم ثلاثين نفراً، وأسروا جماعة، ووصلت الأسرى يوم السبت تاسع وعشرين جمادى الآخرة، وخرجت الأتراك على جماعة منهم فأخذوا منهم وقتلوا، وجرحت من الأتراك جماعة.

ذكر كبسة الأفرنج على عسكر مصر الواصلين

كان السلطان صلاح الدين رحمه الله يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله يدعوهم نجده لأهل القدس على أهل الكفر، فضرب العسكر خيامهم على بلبيس مدة حتى اجتمع الرفاق، وانضم إليهم التجار، وللفرنج جواسيس يجسون الأخبار ويعرفون ملكهم بذلك، وجاء الخبر من اليزكية إلى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة أن العدو ملك الانكتار ركب في سبعمائة فارس مردفين بألف راجل، وسار عصر يوم الأحد، ولايدري أي جانب قصدوا، فجرد السلطان أميراً وعدة من العادلية، وأمرهم أن يأخذوا في طريق البرية فعبروا على ماء الحسي قبل وصول العدو إليه، وكان مقدم العسكر المصري فلك الدين أخو العادل لأمه، ولم يسأل عن المنازل والمراحل، وقصد أقرب الطرق، وترك الجمال على طريق أخرى سائرة، وجاء ونزل على ماء يعرف بالخويلفة، ونادى تلك الليلة: إنا جزنا مظان المخافة فلا رحيل إلى الصباح، فاغتر الناس بذلك وناموا مغفلين فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح بالصدمة التامة وبغتوهم بغتة، فركب كل منهم الى وجهة، ومنهم من ركب فرسه عريانا، فتفرقوا في البرية وعاد معظمهم إلى مصر، وفيهم من عاج إلى طريق الكرك، فأخذ الكفار جمالاً لاتعد وأحمالاً لاتحد.

وقال ابن كثير: فكبسوهم ليلا وقتلوا منهم خلقا كثيراً، وأسروا منهم خمسمائة أسير، وغنموا شيئاً كثيرا من الأموال والجمال والبغال والخيل، وكانت جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير، والتجار الذين معهم نهبوا كلهم فتقوى الفرنج بذلك شيئاً كثيراً.

وفي النـوادر: وكان السلطـان قـد أوصـى عسكر مصر بـالاحتراز عنـد مقاربة العـدو، وكانت معهم قـوافل كثـرة، واتصل خبرهم إلى العـدو من العرب المفسـودين، وركب اللعين ملـك الانكتار في ألف راكـب مردفين بألف راجل، وسـار حتى أتى تل الصافية فبات وعلـق على خيله فيه ثم سـار حتى أتـى ماء يقـال له الحسي، وكـان السلطان قـد أرسل جماعـة وصلـوا إلى الماء المذكور قبـل العدو، لكـن لم يقيموا عليـه، وساروا حتـى اتصلوا بالعسكـر المصري والقوافل، ثم قصدوا قرب الطـريق، فساروا إلى أن وصلوا إلى ماء يقـال له ا لخويلفة، وتفرق النـاس لأجل الماء، فأخبرت العرب العدو بذلك، وهـم نازلـون برأس الحسي، فقاموا من وقتهم وسروا حتى أتـوهم قبيـل الصبح فكبسـوا عليهم، وكـان الشجاع القـوي الذي ركـب فرسـه ونجا بنفسـه، وانقسم القفـل ثـلاثة أقسـام: قسم قصـدوا الكرك مـع جماعة مـن العرب، وعسكـر الملك العـادل، وقسم أوغلـوا في البرية مع جماعة من المذكوريـن كحسين ا لجرا حي، وفلك الدين وبني الجاولي وآخريـن، وقتل من العدو زهـاء مائة فارس، وقيل لم يقتـل سوى عشرة أنفـس، ولم يقتل مـن المسلمين المعـروفين سـوى الحاجب يـوسـف وابن الجاولي الصغير، وتفـرق الناس في البرية ورموا أمـوالهم، وجمع العدو مـا أمكنهـم جمعـه مـن الخيل والبغـال والجمال والأقمشـة، وسـائر أنـواع الأموال، وكلف ملك الانكتار الجمالين بخدمـة الجمال والخربندية بخدمة البغـال والساسـة بخـدمة الخيـل، وسار في جحفـل مـن الغنيمة يطلـب عسكره، فنزل على الخويلفـة وسقى منها دوابه، ثم سـار حتى أتى الحسي وكانت هـذه الوقعة صبيحة يوم ا لثلاثـاء الحادي عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة.

ووصـل الخبر إلى السلطان في عشيـة ذلـك اليـوم بعد عشـاء الآخـرة، وكنت جالسـاً في خدمته، فما مرّ بالسلطان خبر أ نكـى منه في قلبه، ولا أكثر تشويشـاً منه لباطنه، وأخـذت في تسكينه وهو لايقبل ذلـك، ولكن يقول: الأمر كله لله ويكرر ذلك.

قال: وكان وصول العدو إلى مخيمهم في سادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوماً عظيماً عندهم أظهروا فيه من السرور والفرح مالايمكن وصفه، وأعادوا خيامهم إلى الوطأة على بيت نوبة، وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصل لهم من الغنائم والأشياء الواصلة من مصر، ورتبوا جماعة على لدّ يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من ا لمقاتلة ليصعدوا إلى القدس.

وفي المرآة: وكانوا قد قصدوا أن يسيروا إلى مصر، ثم عادوا عن ذلك وقووا عزمهم على القدس، واستدعوا الفارس والراجل فاجتمع عندهم خلق عظيم، فساروا إلى بيت نوبة.

ذكر تصميم الأفرنج على محاصرة القدس:

ولما جرى ماذكرنا شاور السلطان الأمراء في القدس وقال لهم: أنتم جند الاسلام ومنعته، ودماء المسلمين وأموالهم وأهاليهم متعلقة بكم، فإن جبنتم طووا البلاد طياً وكنتم المطالبين بذاك، فقالوا: نحن مماليكك ومانطير رؤوسنا إلاّ بين يديك، وافترقوا على هذا، ثم تهيأ السلطان لذلك، وأكمل السور، وعمق الخنادق، ونصب الآلات والمجانيق، وأمر بتغويرماحول القدس من المياه، ثم أحضر الأمراء ليلة الجمعة التاسع عشر من جمادى الآخرة وفيهم أبو الهيجاء السمين والمشطوب والأسدية بكمالهم فاستشارهم السلطان فيما قد دهم من الأمر الفظيع، فأفاضوا في الكلام، وأشار كل برأي، وأشار العماد الكاتب بأن يتحالفوا على الموت عند الصخرة كما كانت الصحابة رضي الله عنهم يفعلون، فأجابوا إلى ذلك كلهم، هذا كله والسلطان ساكت واجم مفكر، فسكت القوم حتى كأن على رؤوسهم الطير، ثم قال:«الحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جند الاسلام اليوم، وليس لهذا العدو من يلقاه غيركم، فإن

طويتم أعنتكم— والعياذ بالله— طووا البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم، وأكلتم بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم»، فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: ياмولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وأعطيتنا وأعتنا، وليس لنا إلاّ رقابنا، وهي بين يديك، والله مايرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت بين يديك، فقال بقية القوم مثلما قال: ففرح السلطان وطاب قلبه، ومدّ لهم سماطاً حافلاً، وانصرفوا من بين يديه على ذلك، ثم بلغه بعد ذلك عن بعض الأمراء أنه قال: إنا نخاف أن يجري علينا في هذه البلدة كما جرى في عكا، ثم يأخذون بلاد الاسلام بلداً بلداً، والمصلحة أن نلقاهم بظاهر البلد، فإن هزمناهم أخذنا بقية بلادهم وإن تكن الأخرى سلم الله العسكر ومضى القدس وقد انحفظت بلاد الاسلام بدون القدس مدة طويلة، وكان مما بعثوا إلى السلطان يقولون: إن كنت تريدنا نقيم بالقدس تحت حصر الأفرنج فتكون أنت معنا أو بعض أهلك حتى يكون الجيش تحت أمره، فإن الأكراد لايطيعون الترك، والترك لايطيعون الأكراد، فلما بلغه ذلك شق عليه مشقة عظيمة وبات ليلة ذلك أجمع مهموماً كئيباً يفكر فيما قالوا: ثم انجلى الأمر واتفق الحال على أن يكون الملك الأمجد صاحب بعلبك مقيماً عندهم نائباً عنه بالقدس الشريف، وكان ذلك نهار الجمعة، فلما حضرت صلاة الجمعة وأذن المؤذنون قام فصلى ركعتين بين الأذانين وسجد وابتهل إلى الله تعالى ابتهالاً عظيماً، وتضرع لديه وتمسكن وسأله فيما بينه وبينه في كشف هذه الضائقة العظيمة.

وفي المرآة: وبعد افتراق الأمراء من عند السلطان بعد المشاورة اختلف الأمراء في الليل، فقال بعضهم: مانقيم حتى يكون السلطان معنا، نخاف أن يجري علينا ماجرى على أهل عكا.

وبلغ السلطان ذلك فبعث إليهم يقول: هذا مجد الدين بن فرخشاه

ابن أخي يكون عندكم، وأكون أنا من برا أذب عنكم، فقالوا: ماهذا برأي، وإنما نخرج ونصدقهم الحملة فان قهرناهم وإلاّ سلم العسكر ونمضي إلى دمشق، فعزّ عليه ذلك خوفاً على القدس ومن فيه من المسلمين، وبات ليلة الجمعة ساجداً باكياً متضرعاً، وبعث بالصدقات إلى الفقراء، وطلع الفجر فجلس إلى الضحى يدعو، ومضى إلى المسجد الأقصى فدخل المقصورة وسجد وبكى وتضرع إلى الله تعالى.

وكان جرديك في اليزك فجاءت منه رقعة يقول: قد ركبوا بأسرهم، وبات السلطان ليلة السبت قلقاً ماعرف المنام، فلما طلع الصباح جاء جرديك مسرعاً فقال للسلطان: يهنيك رحلوا خلف الرملة، فسجد السلطان وانكشفت أخبارهم وسبب رحيلهم أن السلطان كان قد أمر بطم الصهاريج والآبار التي كانت حول القدس، فقال لهم ملك الانكتار: من أين نشرب؟ قالوا: من العيون التي حول القدس قالوا: يتخطفوننا.

وقال صاحب النوادر: قالوا: نشرب من نهر تقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ، فقال الملك: كيف نذهب إلى السقي؟ فقالوا: ننقسم قسمين: قسم يركب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في المنزلة، ويكون الشرب في اليوم مرة، فقال الملك: إذا يأخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب، ويخرج عسكر البلد على الباقين، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم، وحكم الثلاثمائة اثني عشر منهم، وحكم الاثني عشر ثلاثة على عادتهم في النوازل، فباتوا يتشاورون، فرجح عندهم الرحيل، وقالوا: السلطان حاضر ومعه العساكر فارحلوا فرحلوا.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما كان يوم السبت الحادي والعشرين من جمادى الآخرة جاءت الكتب من الحرس حول البلدان بأن الفرنج

اختلفوا فيما بينهم في محاصرة القدس، فقال ملك الافرنسيس: إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال العديدة في تخليص بيت المقدس وقد بقي بيننا وبينه مرحلة، وقال ملك الانكتار: إن هذا البلد يشق علينا حصاره لأن المياه قد عدمت، ومتى بعثنا من يأتينا بالماء تعطل أمر الحصار، ثم اتفق الحال بينهم على أن حكموا (٢٧)، إلى آخر ماذكرناه، فرحلوا صوب الرملة.

وقال في النوادر: وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة، وعلى أعقابهم ناكصين، ووقف عسكرهم شاكين في السلاح إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار، ثم نزلوا بالرملة، وتواتر الخبر بذلك، وركب السلطان والناس، وكان يوم سرور وفرح.

ذكر بروز السلطان بجيشه إلى خارج البلد

وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس، وسارنحوهم خوفاً من أن يسيروا إلى الديار المصرية لكثرة مامعهم من الظهر والأموال، وكان ملك الانكتار لعنه الله يلهج بذلك كثيراً فخذلهم عن ذلك، وترددت الرسل من ملك الانكتار إلى السلطان في طلب الصلح، ووضع الحرب بينهم ثلاث سنين وستة أشهر، وأن يعيد إليهم السلطان عسقلان، ويهب لهم أكبر كنيسة ببيت المقدس، وهي القمامة، وأن يمكن الزوار من النصارى والحجاج إليها بلا شيء، فامتنع السلطان من اعادة عسقلان، وأطلق لهم قمامة، ولكن فرض على الزوار مالاً يؤخذ من كل منهم، فامتنع ملك الانكتار إلاّ أن تعاد إليهم عسقلان ويعمر سورها كما كان، وصمم السلطان على عدم الاجابة.

وقال صاحب النوادر: ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو، حضر رسول الكندهري فقال: إن ملك ا لانكتار قد أعطاني البلاد الساحلية،

وهـي الآن لي فأعـد عليّ بـلادي حتـى أصالحك، و أكـون أحـد أولادك، فغضـب السلطـان لـذلـك غضباً شـديـد بحيـث أنـه أراد أن يبطـش بالرسول، فـأقيم من بين يديه، ولما كان يوم الثـالث والعشرين من جمادى الآخرة استحضر الـرسول، وكان جوابـه بأن يكون الحديث بيننـا في صور وعكا على ماكان من المركيس.

ذكر فتح السلطان مدينة يافا

ثم ركب السلطان في جيشـه العزيز حتى وافى يافا، فحـاصرها حصاراً شديداً فافتتحهـا وغنم جيشه منها شيئا كثيراً، وامتنعت القلعـة، فبالغ في أمـرها حتـى هـانت ولانـت ودانت، وكـادوا أن يبعثـوا إليه بـأقـاليدهـا ويأخذوا الأمان لكبيرها ووليدهـا، إذ أشرفت عايهم مراكب الانكتار على و جه البحر، فقويت رؤوسهم واستصعبـت نفوسهم، وهجم اللعين ملك الانكتار فـاستعاد البلـد إليه وقتل مـن تأخـر بها من المسلمين صبراً بين يديه، وتقهقـر السلطان من منزلـة الحصار إلى ماورائها خـوفاً على الجيش من معرة الفرنج، فجعل ملك الانكتـار يتعجب من شدة سطوة السلطان كيـف فتـح مثـل هـذا البلد العظيـم في يـومين وغيره لايمكنـه فتحـه في عـامين، ثـم ألـح في طلـب الصلـح على أن يكـون عسقـلان داخـلاً في الصلح فامتنع السلطان من ذلك أشد الامتناع.

وفي المرآة: أقـام السلطـان بـالقدس حتـى يتيقـن وصـولهم إلى عكـا، وخرج فنزل على يـافا وحصرها وتعلق النقابون في الأسـوار، وملك المدينة، وأشرفوا على أخـذ القلعة، فصـاح أهلها الأمـان، ونهب المسلمون البلـد، فوقف ممـاليك السلطان على الأبواب، كل من خـرج ومعه شيء أخذوه، وعز ذلـك على الأمراء والأكـراد، وسلموا القلعـة، وبعث السلطـان إليها جماعة مـن أصحابـه، وبقي فيهـا من الفـرنج أربعـون رجلاً، وبينما هـم كذلك إذ لاحت مـراكب كثيرة فتوقفوا، وقويت نفوس الافـرنج الذين في

القلعة، وعلموا أنها مراكب الانكتار، فرمى واحد نفسه في الماء وسبح إليهم وقال: تقدموا، فأرسوا إلى الميناء، وكانت خمسة وثلاثين مركباً، فهرب المسلمون من البلد، وتأخر السلطان إلى يازور، وجاء الانكتار فنزل في منزلة السلطان، ولم يكن معه سوى عشرين فارساً وثلاثمائة راجل، وعشرين خيمة، والسلطان في ألوف، فبعث إلى السلطان يقول: أنت سلطان عظيم ومعك هذا الجيش الكثير، ومعظم عساكر المسلمين فكيف رحلت عن منزلتك عند وصولي وليس معي أحد، فغضب السلطان، وبات على غضب، فلما أصبح ركب وركبت العساكر وملك الانكتار نازل على حاله لم يصل إليه من الافرنج أحد، فحمل عليه المسلمون، وهو في عشرين فارساً وثلاثمائة راجل فلم يتحرك، فعظم على السلطان وصاح بالأطلاب: ويحكم وكم معه وأنتم عشرة آلاف وزيادة؟! فلم يجبه أحد، وقال له الجناح: قل لعلوقك الذين ضربوا الناس بالأمس، وأخذوا كسبهم، ويقال إن ملك الانكتار أخذ رمحه وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة، فلم يعترض أحد، وساق السلطان من حينه إلى النطرون ونزل في خيمة صغيرة وحده وانفرد، فلم يتجاسر أحد أن يكلمه وجاءت رسل الملك في طلب الصلح.

وفي تاريخ ابن كثير: لما كان ملك الانكتار نازلاً في منزلة السلطان على ماذكرنا، كبس في بعض الليالي ملك الانكتار وهو في سبعة عشر فارساً، وقليل من الرجالة، فأركب السلطان بجيشه حوله وحصره حصراً لم يبق له منه نجاة لو صمم معه الجيش، ولكنهم نكلوا عن الحملة، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله، وجعل السلطان يحرضهم غاية التحريض فكلهم يمتنع كما يمتنع المريض عن شرب الدواء، هذا وملك الانكتار لعنه الله قد ركب في أصحابه، وأخذ عدة قتاله وحرابه، واستعرض الميمنة من أولها إلى آخر الميسرة فلا يتقدم إليه منهم أحد من الفرسان، ولايهش في وجهه بطل من الشجعان، فعند ذلك كر السلطان راجعاً، ثم حصل لملك الانكتار بعد ذلك مرض شديد، وبعث إلى السلطان يطلب منه

فاكهـة وثلجاً، فـأمده السلطـان بذلـك فتوة وكـرماً، ثـم عوفي لعنـه الله، وتكررت رسلـه إلى السلطان لأجل الصلح، وذلـك لكثرة شوقـه إلى بلاده (٢٨).

وعن قريب نذكر المراسلات واستقرار الصح إن شاء الله تعالى.

وذكر في النوادر: في فتح يافـا ماملخصه: أن السلطان رحمه الله بلغه في العـاشر من رجـب أن الافرنـج قـد رحلوا طـالبين نحو بيروت، فبرز مـن القـدس إلى منزلـة يقـال لها الجيـب، وكان ولـده الملـك الظـاهر غـازي صاحـب حلب قـد قدم إليه يـوم السبت الخامس مـن رجب، ثـم رحل السلطان من الجيبب إلى بيت نوبة، ثـم رحل يوم الأحد ثالث عشر رجب إلى الرملـة، فنزل بها ضحـوة النهار على تلال بين الـرملة ولـدّ، وأقام بها بقيـة يوم الأحـد، ولما كانـت صبيحة يـوم الاثنين الرابـع عشر من رجـب ركب جـريدة حتى أتـى يازور وبيت دجـن وأشرف على يافا، ثـم عاد إلى منزلته وأقـام بها بقية يوم، ولما كان صبـاح يوم الثلاثاء الخامـس عشر رحل إلى نحـو يافـا فخيم عليهـا ورتـب العسكر ميمنـة وميسرة وقلباً، وكـان صاحب الميمنة ولده الملك الظاهر، وصاحب الميسرة أخوه الملك العادل، والعساكـر فيها بينهما، وزحفوا يـوم السادس عشر وأخـذ النقابـون النقب من شمالي الباب الشرقي في الزاوية طول البـدنة، وكان المسلمون قد هدوا ذلك المكان في الحصـار الأول، وبناه الأفرنج، ودخل النقابـون فيه، وكان الملك في عكـا قد توجـه إلى نحو بيروت، وهذا الـذي حمل السلطان على نزوله على يـافا، وأقام السلطان تلـك الليلة هناك إلى أن مضى مـن الليل مقـدار ثلثـه، وعـاد إلى المنـزلـة، ولما أصبـح السلطـان عـزم على القتـال فقاتلوه، وجرح من المسلمين جماعة بالنشـاب والزنبورك من البلد، فمنهم الحاجب أبو بكر وختلج والي بعلبك، وأصيـب بعينه، وطغرل التاجر وقد استقـر في وجهه، وهما مـن خواص المماليـك ، وإيـاز جركـس وهو مـن كبارهم، ولما رأى العدو المخذول ماحل بـه أرسل رسولين نصرانياً وفرنجياً

يطلبان الصلح، فطلب السلطان منهم قاعـدة القدس قطيعة، فأجابوا إلى ذلك، ولكـن اشترطوا أن ينظـروا إلى يوم السبت التـاسع عشر مـن رجب فـإن جـاءتهم نجدة وإلاّ تمت القـاعـدة على مـاـاستقـر، فأبـى السلطـان الانتظار وصمـم على القتال والمضايقة، ولم يـزالوا يقاتلون في ذلـك اليوم إلى أن فصل الليل بينهم، ولم يقدر السلطـان على البلد في ذلك اليوم بعد حرق النقوب في البدنة، وضاق صـدره وندم على عدم اجابته للصلح، ولما كـان يوم الجمعـة الثامـن عشر من رجـب زحف السلطـان وزحف ولـده الظـاهر زحفـاً شـديـداً، وزحف العـادل في الميسرة فـإنـه كان مـريضـاً، وارتفعـت الأصـوات وضربـت الكـوسـات، وخفقـت البـوقـات ورمـت المنجنيقات، ووقعت تلـك البدنة، وانفتح الطريـق، ولما رأى العدو ذلك أرسلوا رسولين إلى السلطـان يطلبان الأمان، فقال: قـولا لهم يتجاوزوا إلى القلعـة ويتركوا البلـد، فـدخـل الناس البلـد ونهبـوا منـه أقمشة عظيمـة وغلالاً كثيرة وأثاثاً وبقايا قماش من نهبهم من القافلة المصرية.

ولما كان عصر يوم الجمعة جاء إلى السلطان كتاب من قايماز النجمي، وكان في طرف الغـور لحمايته من العدو الذي في عكـا، يخبر فيه أن ملك الانكتار لماسمـع خبر يافا أعـرض عن قصـد بيروت وعاد إلى قصد يـافا، ولما كان سحر تلك الليلـة سمع المسلمون بوق الفرنج وقـد نعق، فعلموا بوصول النجدة، وكانوا نيفاً وخمسين مـركبا منها خمسة عشر شيني، فوهب رجل مـن أهل القلعـة نفسه للمسيـح، وقفز مـن القلعة إلى المينـاء وكان رمـلاً، فلم يصبـه شيء، واشتـد عدواً حتـى أتى البحـر فجـاء له شينـي فأخذه الملك فـأخبره بالخبر، ولما تيقن الملك أن القلعة ماأخـذت، اندفع يطلب الساحل، وان أول شيء ألقى مـن فيه إلى البر شينى الملك، وكان أحمر وقبته حمراء وبيرقه أ حمر وكـان رنكه، ثم نزل كـل من في الشواني إلى الميناء .

قال القاضي بهاء الـدين: هذا كله وأنـاشاهد ذلك، وكـان تحتي فرس

فسقت حتى أتيت إلى السلطان، وبين يديه الرسولان وقد أخذ القلم حتى يكتب لهما الأمان، فعرفته في أذنه ماجرى فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث فما كان إلاّ ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان، فصاح في الناس فركبوا، وقبض على الرسل وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور، وبقي السلطان جريدة إلى الليل، وبات في ليلته هناك، وخرج ملك الانكتار إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلي وأيبك العزيزي، وسنقر المشطوب، وبدر الدين دلدرم وغيرهم، وكان قد صادقهم، فقال لهم: إن هذا السلطان عظيم، ومافي الأرض في الاسلام أكبر منه ولا أعظم، كيف رحل عن مكانه بمجرد وصولي، والله مالبست لأمة حربي، وليس في رجلي إلا زربول البحر؟! ثم قال لأبي بكر: بالله عليك سلم على السلطان، وقل له يجيب إلى صلحي، فهذا أمر لابد منه في الأخير، وقد هلكت بلادي وراء البحر، ومادوام هذا مصلحة لالنا ولالكم، وجاء أبو بكر وعرف السلطان بذلك، وكان ذلك في أواخر يوم السبت التاسع عشر من رجب، فلما سمع السلطان أحضر أرباب المشورة وانفصل الحال على كون الجواب: انك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة، وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت عسقلان، وهذه يافا خربت أيضاً، فيكون لك من قيسارية إلى صور، فمضى إليه وعرفه ماقال فرده إليه ومعه رسول فرنجي، وان يقول الملك:إن قاعدة الفرنج إنه إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تابعا له وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين: يافا وعسقلان، وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي، وكان جواب السلطان رحمه الله: حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك إلى أن تجعل البلد قسمين: أحدهما لك وهو يافا وماوراءها، والثاني لي وهو عسقلان وماوراءها، ثم سار الرسولان ورحل السلطان وكان بيازور، ورتب اليزك بها والنقابين وأمر بخرابها وخرب بيت دجن، وسار حتى أتى الرملة

فخيم بها يوم الأحد العشرين من رجب، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبي بكر، فأمر باكرامه، وكانت الرسالة الشكر من الملك على إعطائه يافا، وتجديد السؤال في عسقلان، ويقول له: إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي هاهنا، فأجابه السلطان: أما النزول عن عسقلان فلاسبيل إليه، وأما تشتيته فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت منه بالضرورة، وإذا سهل عليه أن يشتي هاهنا وهو بعيد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين، وهوشاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، أما يسهل عليّ أشتي وأصيف وأنا في وسط بلادي، وعندي أهلي وأولادي ويحضر إلي ماأريده ومن أريده، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي عندي في الشتاء يكون غير العسكر الذي يكون في الصيف، ومع هذا أنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولاأزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء، فلما سمع الرسول ذلك طلب ان يجتمع بالملك العادل، فأذن له في ذلك، فسار إلى خيمته، وكان قد تأخر بسبب مرض اعتراه على موضع يقال له مارخوان.

ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصداً يافا للانجاد، فجمع أرباب الرأي للمشورة، فوقع الاتفاق على قصدهم جريدة، ويرحل الثقل إلى الجبل، فأمر الثقل بالرحيل في عشية يوم الاثنين الحادي والعشرين من رجب، وسار هو رحمه الله جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على العوجاء، ووصل إليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل إليها، وأن الملك فد نزل خارج يافا بنفر يسير وخيم قليلة، فوقع له أن يكبس عليه، وسار من أول الليل والأدلة من العرب تقدمه إلى أن أتى وقت الصباح إلى خيام العدو، فوجدها يسيرة مقدار عشر خيم، فداخله الطمع، وحمل عليهم فلم يتحركوا من أماكنهم ودار السلطان على الأطلاب بنفسه يحثهم فلم يجب أحد إليه سوى ولده الملك الظاهر فإنه تأهب للحملة فمنعه، فلما رأى

السلطان ذلـك رأى أن وقوفه وحده خسـارة، فأعرض عن القتـال، وسار حتـى أتـى يازور وهـو مغضـب، فنـزل بها ذلـك يـوم الأربعاء الثـالـث والعشرين مـن رجب، ثم أصبح يـوم الخميس فسار إلى النطرون فنـزل به فـأرسل إلى العسكـر فحضروا عنده يـوم الخميـس الرابـع والعشرين مـن رجب فبـات به، ثم أصبح يـوم الجمعة، وسار إلى الملك العـادل يفتقده، ودخل القدس وصلى الجمعة به، ونظر إلى العمائر ورتبها ثم عاد من يومه إلى الثقل وبات فيه على النطرون.

وقدمت إليه العساكر، فأول من وصل عـلاء الدين ابن أتابك صاحب الموصـل فتلقاه السلطـان ضحـوة نهار السبـت السادس والعشريـن مـن رجب، فأكرمه وأنزله عنده في الخيمـة، وقدم له تقدمة جليلة، ثم سار إلى خيمته وأقام السلطان بالنطرون، ولما كان يـوم الخميس التاسع من شعبان قدم عسكـر مصر وكان فيهـم مجد الدين هلـدري وسيف الـدين يـازكج وجماعة مـن الأسديـة، وكان في خدمـة ولده الملـك المؤيد مسعـود، وكان يوما مشهودا، ثم أنزلهم عنده ومـد الخوان، ثم ساروا إلى منازلهم، ثم قدم الملك المنصور بـن تقي الدين في صبيحة يوم الاثنين ثـالث عشر شعبان، ونزل في مقدمة العسكر، ولما رأى السلطـان أن العساكر قد تجمعت، جمع أرباب الرأي وقـال: إن ملك الانكتار مرض مـرضاً شديداً والافـرنسيسية قد رجعوا إلى بلادهم، ونفقاتهم قـد قلت، وأصبح يوم الخميس راحلاً إلى جهة الرملة.

ذكر كتاب الصلح

لما رضي ملك الانكتار بمارسـم به السلطان صلاح الديـن كتب كتاب الصلح في الثـامن عشر مـن شعبان، وأكـدت العهود والمواثيـق من كـل ملك من ملـوكهم وأسقف وجاثليق، وحلف الأمـراء من المسلمين وكتبوا خطـوطهـم، واكتفي مـن السلطـان بـالقـول المجـرد كما جرت بـه عـادة السلاطين، وفرح كل من الفريقين فرحاً عظيماً.

وفي تاريخ النويري:واستقر أمر الهدنة يوم السبت الثامن عشر من شعبان، وتحالفوا على ذلك يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الانكتار، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذروا بأن الملوك لايحلفون، وقنع السلطان بذلك، وحلف الكندهري ابن أخته وخليفته على الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الأفرنج، ووصل ابن الهنفري وباليان إلى خدمة السلطان، ومعهما جماعة من المقدمين،وأخذوا يد السلطان على الصلح، واستحلفوا الملك العادل والملكين: الأفضل والظاهر ابني السلطان صلاح الدين، والملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين ـلدرم الياروقي صاحب تل باشر، والأمير سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والأمير سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها ايلول الموافق لحادي عشرين شعبان، وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الأفرنج: يافا وعملها وقيسارية وعملها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وأن تكون عسقلان خراباً، واشترط السلطان دخول الاسماعيلية في عقد هدنته، واشترط الافرنج دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم وأن تكون لدّ والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، واستقرت القاعدة على ذلك، وأرسل السلطان مائة ألف نقاب صحبة أمير لتخريب سور عسقلان واخراج من بها من الأفرنج والألمان.

ذكر توجه السلطان إلى القدس

ثم لما تمّ هذا الأمر رحل السلطان إلى القدس في اليوم الرابع من شهر رمضان، وأمر بتشييد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل كنيسة تعرف بصندحنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام، ثم صارت في الاسلام دار علم قبل

أن يملك الأفرنج القدس ثم لما ملك الفرنج القدس سنة اثنتين وتسعين وأربعائة أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين ابن شداد رحمه الله، وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمامة مارستانا للمرضى، ووقف عليها مواضع، وسير أدوية وعقاقير عزيزة، وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المذكور.

ثم عزم السلطان رحمه الله على أن يحج عامه هذا من القدس فكتب إلى الحجاز واليمن والديار المصرية والشامية ليعلموا ذلك وليتأهبوا له، وكان أخوه سيف الاسلام في اليمن، وكتب إليه أيضاً بذلك، ثم فنده الأمراء، وكتب إليه القاضي الفاضل ينهاه عن ذلك خوفاً على البلاد من استيلاء الأفرنج عليها، ومن كثرة المظالم بها والفساد، وذكر أن النظر في أحوال المسلمين واصلاح أمرهم ومصابرة عدوهم أفضل مما نوى والعدو المخذول مخيم بعد في الشام، فسمع السلطان منه وشكره على نصحه وعزم على ترك الحج عامه ذلك وكتب به إلى سائر الممالك، واستمر السلطان مقيما بالقدس جميع شهر رمضان، وكلما وفد أحد رؤساء النصارى للزيارة أولاه غاية الاكرام والاحسان تأليفاً لقلوبهم وتأكيداً لما حلفوه من الأيمان، ورغبة أن يدخل في قلوبهم شيء من الايمان، ولم يبق أحد من ملوكهم إلا جاء لزيارة قمامة متنكراً، ويحضر سماط السلطان فيمن يحضر من جمهورهم بحيث لايرى، والسلطان يعلم ذلك جملة وتفصيلا، لهذا يعاملهم بالاكرام والاحسان.

ذكر خروج السلطان من القدس على عزم دمشق

ثم إن السلطان رحمه الله فوض ولاية القدس الشريف إلى عز الدين

جرديك ووصاه بتهذيب الأمور، والأخذ بالحزم في كل شيء، وكان فيه كفاية وشهامة وديانة، وكان الوالي قبله حسام الدين سياروخ وكان فيه دين ولين، وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وماوالاها، وأمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين، وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى أعمال عسقلان ليعيد إليها الزراعة والعمران، وكان السلطان قد أعطى دستوراً للعسكر حين تم أمر الصلح، فكان أول من سار عسكر إربل فانهم ساروا في مستهل شهر رمضان، ثم سار بعده في ثانيه عسكر الموصل وسنجار والحصن، وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر رمضان صلى الملك العادل الجمعة ثم انصرف عائداً إلى الكرك لينظر في أحواله ثم يعود إلى بلاده الشرقية ليدبرها، فإنه كان أخذها من السلطان، وودع السلطان، فلما وصل إلى العازرية ونزل بها، أتى إليه من أخبره أن رسولاً من بغداد واصل إليه، فانفذ إلى السلطان وعرفه، وذكر أن يجتمع به، ثم جاء إليه يوم السبت الرابع والعشرين منه، وذكر أن الرسول وصل إليه من جانب ابن الناقد بعد أن ولي نيابة وزارة بغداد، ومضمون كتابه أنه يستعطف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة، والانكار عليه في تأخر رسله عن العتبة الشريفة، وأن يسير القاضي الفاضل إلى الديوان في تقرير قواعد بينه وبين السلطان، ووعد العادل شيئاً كثيراً إذا قرر ذلك، ولما سمع السلطان ذلك كره انفاذ رسول يسمع كلام الديوان، ووقع كلام كبير بين السلطان والعادل ثم قوي عزم السلطان على انفاذ الضياء الشهرزوري، وعاد العادل إلى مخيمه بالعازرية، وعرف الرسول بما وقع عند السلطان، ومن اجابته إلى انفاذ الرسول، ثم سار العادل يوم الاثنين طالباً جهة الكرك، وسار الضياء متوجهاً إلى بغداد يوم الثلاثاء سادس عشرين رمضان، وفي يوم الأربعاء السابع والعشرين منه توجه الملك الظاهر بن السلطان إلى جهة حلب بعد أن أوصاه السلطان بالتقوى فانها رأس كل خير، وبالبعد عن سفك الدماء ومظالم الناس.

وفي الليلة الخامسة من شوال من هذه السنة سار الملك الأفضل بن السلطان متوجهاً إلى دمشق، ثم إن السلطان رحمة الله عليه لم يزل ينظر في أحوال الناس، ويعطي اقطاعات لأناس ودستوراً لآخرين، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب ملك الانكتار متوجهاً إلى بلاده مستهل شوال، فعند ذلك حرر عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس، ثم يدخل دمشق ويقيم بها أياماً قلائل، ثم يعود إلى القدس ويزوره، ثم يسير إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها، وينظر مصالحها.

قال القاضي بهاء الدين: وأمرني بالمقام بالقدس لعمارة مارستان أنشأه فيه، وادارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، ثم خرج السلطان من القدس ضحوة نهار الخميس السادس من شوال من هذه السنة.

قال القاضي: وودعته إلى البيرة، وهي قرية بين القدس ونابلس، ونزل بها وأكل فيها الطعام، ثم رحل منها وبات على بركة الداوية، ثم نزل على نابلس ضحوة نهار الجمعة السابع من شوال، وكثرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها، وأنه زاد في رسومها ونوائبها، فأقام بها السلطان إلى ظهر يوم السبت الثامن من شوال حتى كشف مظالمها، وأسقط رسومها الجائرة، ثم رحل بعد الظهر ونزل بسبسطية وتفقد أحوالها.

قال ابن كثير: وبات ليلة الأحد عند عقبة ظهرحمار بموضع يعرف بالفرنديسة، وأصبح راحلاً ونزل ضحوة نهار الأحد على جينين وهناك ودعه المشطوب وداع الأبد، فإنه توفي بعد أيام، ثم رحل يوم الاثنين وجاء ضحوة إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية، فقال: الصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب، ولم يزل حتى بين كيفية بنائها، ثم رحل الظهر وبات على قلعة كوكب، ورحل عنها ضحوة الثلاثاء

ونزل بطبرية وقت العشاء وهناك جاء إليه بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر، وكان قد أسر فيمن أسر بعكا، وكان انفكاكه من الأسر يوم الثلاثاء الحادي عشر من شوال، ففرح السلطان به فرحاً شديداً لأنه كان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام، وأقام السلطان بطبرية يوم الأربعاء، ونزل بكرة الخميس، ونزل بقرب صفد تحت الجبل، وصعد السلطان إليها وأمر بتشييد مافيها من الخلل، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة، ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الحش وهي عامرة، وسار منها وخيم على مرج تبنين ووصى الوالي بعمارة قلعتها، ثم رحل بكرة السبت وجاء على قلعة هونين، ونزل من الجبل وبات على عين الذهب، ورحل يوم الأحد وخيم بمرج عيون، ورحل عصر يوم الاثنين وعبر من عمل صيدا ميسرة وعمل وادي تيم يمنة، على الضياع والقرى وعرس على مرج تلفياثا مقابل مرج القنعبة، ثم أصبح يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تلفياثا فخيم على جسر كامد، ثم غدا يوم الأربعاء وخيم بناحية قب الياس، ثم رحل يوم الخميس إلى بيروت ونزلت الأثقال على مرج قلميطية بالبقاع، وأقام خمسة أيام على الاستراحة، ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليها عز الدين سامة بكل ماتوفرت به الكرامة، وأحضر للسلطان ولكل من كان معه من أنواع التحف وأقسام الطرف (٢٩) .

ولما أراد السلطان أن يرحل من بيروت وذلك في يوم السبت الحادي والعشرين من شوال قيل له إن الابرنس والأنطاكية قد وصل إلى الخدمة، متمسكاً بحبل العصمة، داخلاً في حكم الذمة، فثنى السلطان عنانه ونزل وأقام، وأذن للابرنس في الدخول عليه، فدخل عليه وقربه ورفع مجلسه، وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونياً، ووهب السلطان كلا منهم تشريفاً سرياً، وكتب له من مناصفات أنطاكية بمبلغ عشرين ألف دينار، ثم ودعه يوم الأحد وفارقه.

وفي النـوادر: وأنعم عليـه بـالعمـق وزرعان ومـزارع تغـل عشرة آلاف دينار، ثم خرج السلطان يوم الأحد وبـات بالمخيم على البقاع، ورحل يوم الاثنين وعبر عين الجر، وبات على مـرج يبوس، ووصـل هناك مـن أعيان دمشق مـن تلقاه بأنواع التحـف من الفواكـه وغيرها، ورحل يوم الثـلاثاء وبـات بالعـرادة، وأصبح يـوم الأربعـاء السادس والعشريـن من شـوال، ودخل دمشق، وخرج كـل من بالمدينة، وحشر الناس ضحى، وكـان يوماً مشهوداً، وكـانت غيبتة عن دمشـق أربع سنين وهو في الجهـاد، وكان في دمشق أولاده: الملـك الأفضل، والملـك الظاهـر، والملك الظـافر، وأولاده الصغار، وكـان يحب البلد ويؤثـر الاقامـة فيه على سائر البـلاد، وجلس للناس بكـرة يوم الخميـس السابـع والعشرين منـه، وحضر الناس عنـده وتملـوا برؤيتـه وطلعتـه المبـاركة، وأنشـده الشعـراء، وعـم ذلك المجلـس الخاص والعام، وقـام بنشر جناح عـدله وبهطل سحـاب انعامـه وفضله، وبكشف مظالم الرعايا.

وفي يوم الاثنين مستهل ذي القعدة اتخذ الملـك الأفضل دعوة للملك الظاهر، وأظهـر فيها من بديع التجمـل وغريبه مايليق بهمتـه، وكأنه أراد بذلك مجازاته عما كـان خدمه به حين وصوله إلى حلـب، وسأل السلطان الحضور في دعوته فحضر، وكان يوماً مشهوداً.

وفي يوم الأربعاء السـابع والعشرين من ذي القعدة قـدم الملك العادل مـن الكرك، وخـرج السلطان إلى لقـائه، وقـام يتصيد حـول غباغـب إلى الكسوة حتى لقيـه، وسارا جميعاً يتصيدان، وكان دخـولهما إلى دمشق آخر نهار الأحد مستهـل ذي الحجة مـن هذه السنة، وأقـام السلطان بـدمشق يتصيد هـو وأخوه وأولاده ويتفرجـون في أراضي دمشق، وماكـان ذلك إلا للوداع لأولاده وهو لايشعـر، ثم أذن السلطان لولده الملك الظـاهر لسفره إلى حلب محل ولايته، فودعه وداعاً لالقـاء بعده، وسار إلى حلب، وبقي

عند السلطان ولده الملك الأفضل وأخوه وبقية أهله، وخرجت السنة والأمر على هذا.

ذكر بقية الحوادث

.... ومنها أنه اتهم أمير الحجيج ببغداد من مدة عشرين سنة في غاية حسن السيرة، بأنه يكاتب السلطان صلاح الدين بن أيوب بالقدوم إلى العراق ليأخذها فإنه ليس يمنعه أحد، وقدكان مكذوباً عليه في ذلك، ومع هذا حبس وأهين وصودر.

وفي المرآة: اعتقله تحت التاج وأخفى أخباره بحيث أقام سنين لم يطلع له على خبر...... .

ومنها أنه هربت جماعة من العرب ودخلوا مع الفرنج، ثم أرسلوا يطلبون الأمان من السلطان على أن يسرقوا ماقدروا عليه من خيل الفرنج فساقوا خمسمائة فرس.

ومنها أن ملك الانكتار جهز من عدد المسلمين وأسلحتهم التي نهبوها شيئاً كثيراً في مركب، وسفرها في البحر، فأرسل الله تعالى عليها ريحاً عاصفاً فغرق المركب، بما فيه ومن فيه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان.....

ابن الفراش القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، كان قاضي العساكر بدمشق، ويرسله السلطان في الرسالات إلى ملوك الآفاق، وتوفي بملطية عائداً من عند ابن قليج أرسلان.

وقال العماد الكاتب: أرسله السلطان إلى قليج أرسلان وأولاده ليصلح

بينهم، فتردد سنة وعاد ووصل إلى ملطية وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من هذه السنة.

الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب: كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، حضر معه الوقعات الثلاث بديار مصر، ثم صار من أكابر أمراء السلطان صلاح الدين، وهو الذي كان على نيابة عكا حين أخذها الفرنج، فافتدي منهم بخمسين ألف دينار، وتخلص إلى أن خلص إلى السلطان وهو بالقدس الشريف كما ذكرناه، فولاه نيابة نابلس، وكانت وفاته يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال بالقدس الشريف، ودفن في داره.

وقال العماد: وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال.

وقال المؤيد: وكانت نابلس اقطاعه وتوفي فيها، ووقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين وأميرين معه.

وفي المرآة: سيف الدين المشطوب، ملك الهكارية، واسمه علي بن أحمد الهكاري، كان شجاعاً صابراً في الحرب مطاعاً في قبيلته، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر في المرات الثلاث، وشهد فتح مصر، ولزم خدمة السلطان، واتفق أن السلطان اجتاز بنابلس في عوده إلى دمشق، فاجتمع أهلها وشكوا إلى السلطان واستغاثوا، فقال: ماهؤلاء؟ قالوا: يتظلمون من المشطوب، وهو راكب بين يديه، فقال: ياعلي لو كان هؤلاء يدعون لك هيهات يسمع الله، فكيف وهم يدعون عليك، واختلفوا في وفاته، فقال العماد: ومات المشطوب في نابلس في آخر شوال، وقال القاضي ابن شداد: مات بالقدس، وصلي عليه في المسجد الأقصى، ودفن بداره.

راشد الدين سنان بن سليمان بن محمد، وكنيته أبو الحسن، صاحب دعوة الاسماعيلية بقلاع الشام، أصله من البصرة، توفي في هذه السنة.

قال بيبرس في تاريخه: كان عالماً فاضلاً أديباً، وكانت له معرفة وسياسة وحذق في اقامة الدعوة، واستجلاب للقلوب، ولم يقم أحد بعد مقامه.

وفي المرآة: وكان في حصن أَلَموت، فرأى منه الآمر في تلك البلاد نجابة وشهامة ويقظة، فسيره إلى حصون الشام، وكان مجيئه إلى الشام في أيام نور الدين محمود، فأقام والياً ثلاثين سنة، وجرت له مع السلطان قصص، وبعث إليه جماعة وثبوا عليه، وكان في عزم السلطان قصده، ولم يعطه طاعة قط، ولما صالح السلطان الأفرنج وعزم على قصده توفي، وتحكى عنه العجائب والغرائب.

السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قلطمش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، صاحب بلاد الروم، توفي في يوم السبت منتصف شعبان من هذه السنة، وكان ملكه في سنة احدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة حسنة وهيئة عظيمة وعدل وافر، وغزوات كثيرة، وكان له عشر بنين، قد ولى كل واحد منهم قطراً من بلاد الروم، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور، وكان أبوه قد أعطاه سيواس، فسولت له نفسه القبض على أبيه وأخوته والانفراد بالسلطنة، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان، فسار قطب الدين ملكشاه، وهجم على والده قليج الدين أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه وقال لوالده وهو في قبضته: أنا بين يديك أنفذ أمرك، ثم إنه أشهد على والده بأنه قد جعله ولي عهده، ثم مضى ملكشاه المذكور إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية، ووالده في القبضة معه، وهو يظهر أن ما يفعله بأمر والده، وخرج عسكر قيسارية

لحربه، فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة، فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية، فأكرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة، وبقي أبوه قليج أرسلان يتردد في بلاده بين أولاده، كلما ضجر واحد منهم انتقل إلى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو، فقوى أباه قليج أرسلان وأعطاه وجمع معه وحشد وسار معه إلى قونية وملكها وأخذها من ابنه ملكشاه، ثم سار إلى أقصرا فاتفق أن عز الدين قليج أرسلان مرض ومات في التاريخ المذكور، فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونيه فدفنه بها، واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه قليج أرسلان بقليل، فاستقر كيخسرو في ملك قونية، وأثبت أنه ولي عهد أبيه قليج أرسلان، ثم إن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية، فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيراً بالملك الظاهر صاحب حلب، ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج أرسلان بن سليمان، فرجع غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان إلى بلاد الروم، وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان، وملك بلاد الروم جميعاً، واستقرت له السلطنة ببلاد الروم كذلك إلى أن قتل، وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، ثم توفي كيكاوس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو، ثم توفي علاء الدين كيقباذ سنة أربع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو، وكسره التتار سنة إحدى وأربعين وستمائة، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم، ثم مات غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق، وانقضى بموت كيخسرو المذكور سلاطين بلاد الروم في الحقيقة، لأن من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم، وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين وعز الدين فملكا

معا مـديدة، ثم انفرد ركـن الدين بالسلطنـة، وهرب أخوه عز الـدين إلى قسطنطينية، وتغلب على ركن الدين المذكور معين الدين البرواناه، والبلاد في الحقيقة للتتر، ثـم إن البرواناه قتل ركـن الدين وأقـام ابن ركن الـدين يخطب لـه بالسلطنـة، والحكم للبرواناه، وهـو نائب التتر، كما سنـذكره إن شاء الله تعالى.

وفي تاريـخ بيبرس: والذي كان قليج أرسـلان فرقة لأولاده مـن بلاده: ركـن الـديـن سليمان دوقـات وأعمالها، غيـاث الـديـن كيخسرو قـونيـة وأعمالها، قطـب الـديـن سيـواس وأعمالها، وأقصرا وأعمالها، فلما مـات اختلفت الأخوة وتحاربوا، واتفقت وفاة ولـده قطب الدين على إثره، فقوي ركن الدين على أخوته وملك هذه الممالك جميعها منهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في هذه السنة التاسعة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هـذه السنة والخليفـة هو النـاصر لديـن الله، ويقال لها سنـة الملوك، لأنـه مات فيهـا ملوك كثيرة، وأعظمهـم وأجلهم السلطـان الملك الناصر صـلاح الديـن يوسـف بن أيـوب، والأتابـك عز الـدين مسعـود صاحب الموصل، وسيف الدين بكتمـر صاحب خلاط، وسلطانشـاه بن ألـب أرسلان صـاحـب خراسـان، وقيطرمـش المسجـدي شحنة بغـداد، والأمير داود صاحب مكـة، وسنذكر تراجمهم واحداً بعـد واحد بعون الله، ونذكر أولاً ترجمة السلطان صلاح الدين قدس الله روحه.

ذكر وفاة السلطان صلاح الدين:

الأول في ترجمته: هويوسف بن أيوب بن شادي بن مروان.

وقال ابن خلكـان: ولقد تتبعت نسبهم كثيراً، فلم أجد أحـداً ذكر بعد

شادي أباً آخر حتى أني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب فلم أر فيها سوى شيركوه وأيوب ابني شادي لاغير، ويقال شادي بن مروان.

قال: ورأيت مدرجاً رتبه الحسن بن عرنب بن عمران الجرشي يتضمن أن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن عنتر بن أسامة بن بيهس ابن الحارث صاحب الحمالة بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ابن سعد بن قيس عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم رفع بعد هذا في النسب إلى أن انتهى إلى آدم عليه السلام، ثم ذكر بعد ذلك أن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز يقال أنه ممدوح المتنبي وفيه يقول من جملة قصيدته:

شرق الجو بالغبار إذا سار علي بن أحمد القمقام

وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة فهو الذي حمل ماء بين عبس وذبيان، وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان، وكان مه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل، صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم، وكتب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة.

ورأيت في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي، بعد أن ذكر الاختلاف في نسبهم فقال: وقد كان المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ابن أيوب ملك اليمن ادعى نسباً في بني أمية، وادعى الخلافة.

وقال ابن خلكان:سمعت شيخنا قاضي القضاة ابن شداد يحكي عن

السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك، وقال ليس هذا أصلي.

وذكر ابن القادسي وقال: كان شادي مملوك بهروز الخادم.

وقال السبط في المرآة: وهذه من هنات ابن القادسي، ماكان مملوكاً قط ولاجرى على أحد من بني أيوب رق، وإنما شادي خدم بهروز الخادم في قلعة تكريت استنابه فيها.

وكان صلاح الدين يوسف المذكور يقال له السلطان الأعظم أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب، صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمنية.

الثاني: في بيان ميلاده، وبلده وأصله، ولد صلاح الدين بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها في اثنتين وثلاثين وخمسمائة، واتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من دوين—بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء، آخر الحروف، وفي آخرها نون— وهي بلدة في آخر أعمال أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج وأنهم أكراد روادية—بفتح الراء والواو، بعد الألف دال مهملة ثم ياء آخر الحروف مشددة وبعدها هاء— والروادية بطن من الهدبانيه— بفتح الهاء والدال المهملة والباء المؤحدة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء آخر الحروف مشددة، وبعدها هاء— وهي قبيلة من الأكراد.

وقال ابن خلكان: قال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين: إن على باب دوين قرية يقال لها أجد انقان—بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف مفتوحة، وبعد الألف الثانية نون أخرى— وجميع أهلها أكراد روادية، ومولد شادي والد أيوب والد صلاح الدين بها، أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شادي بها

وعلى قبره قبة داخل البلد، وكان شيركوه وأيوب لما كانا في بغداد خدما مجاهد الدين بهروز شحنة العراق، ورأى مجاهد الدين في نجم الدين عقلاً ورأياً حسناً، وحسن سيرة، فجعله دز دار تكريت—ودز دار بضم الدال المهملة وسكون الزاي المعجمة وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء— وهو لفظ أعجمي، ومعناه حافظ القلعة، وهو الوالي، ودز بالعجمي القلعة، ودار الحافظ للقلعة، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين، ثم إن أسد الدين قتل انساناً بتكريت لكلام جرى بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليهما، فأخرجهما من تكريت، ثم إنهما قصدا عماد الدين زنكي، وكان اذ ذاك صاحب الموصل، فأحسن إليهما وأقطعهما اقطاعاً حسناً، وصارا من جملة جنده، ولما فتح عماد الدين بعلبك جعل نجم الدين دز دارها، وقد ذكرنا ذلك كله مفصلاً، فيقال إن الأخوين خرجا من تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فتشاءموا به، وتطيروا منه، فقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وماتعلمون، فكان كما قال. ويقال ماخرجا من تكريت إلاّ بعد ولادة صلاح الدين مدة يسيرة، أو في بقية السنة التي ولد فيها صلاح الدين، أو في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة والله أعلم.

الثالث في بيان منشأه: ولم يزل صلاح الدين في كنف أبيه حتى ترعرع، ولما ملك نور الدين محمود الشهيد ابن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ الذي ذكرناه، لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين يوسف وكانت مخايل السعادة عليه لاتحد والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة، ونور الدين الشهيد يرعاه ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف، والاجتهاد في أمر الجهاد، حتى تجهز مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية كما ذكرنا مفصلاً.

الرابع:في سيرته.

قال العماد وغيره: قد كان السلطان صلاح الدين متشرعاً في ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه، فلايلبس إلاّ الكتان والقطن والصوف، ولايعرف أنه فعل مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر ومقصوده الأعظم نصر الاسلام وكسر الأعداء اللئام، ويعمل فكره في ذلك وآرائه وحده ومع من يثق برأيه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، هذا مع مالديه من الفضائل والفواضل، والفوائد والفرائد في اللغة والأدب وأيام الناس حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها، وكان مواظباً على الصلوات الخمسة في أوقاتها في الجماعة، ويقال إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى في مرض موته، كان يدخل الامام فيصلي به، ويتجشم القيام مع ضعفه، وكان يفهم مايقال بين يديه من البحث والمناظرة، وشارك في ذلك مشاركة قريبة حسنة، وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها.

قال العماد: ورأى يوماً دواتي محلاة بالفضة فأنكر علي وقال: هذا حرام، فقلت له على سبيل المداعبة: أوليس تحل حلية السلاح واستصحابه في الكفاح، ودواتي هذه أنجع ومدادها أنفع، ويراعي بذراعي القصير أطول، وسنان قناتي أحد وأقتل، فقال: ليس هذا دليل صالح، قلت: ماجمعت هذه العساكر الاسلامية إلا بقلمي ولاتفرقت جموع الكفر إلاّ بكلامي، فقال: والله إن هذا مايعجبني ، فلم أعد أكتب بتلك الدواة بين يديه، وكان طاهر المجلس لايذكر أحد في مجلسه إلاّ بالخيرّ وكان طاهر اللسان لايذكر أحداً بسوء ولاشتم أحداً قط، وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف، قريباً من الناس رحيم القلب، كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم، وكانت مجالسه منزهة عن الهزء والهراء، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل، وماسمع منه كلمة فحش

قط، وكان يلين للمؤمنين ويغلظ على الكافرين، ومن جالسه لايعلم أنه جالس سلطاناً، بل يعتقد انه أخ من الاخوان، وكان شديد الحياء، خاشع الطرف، رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة في سماع الحديث، وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية، وكان ممن يعرض عند الناس استحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه وأمرهم بالقعود عند سماع الحديث جلالاً له، وإن لم يكن ممن يحضر عند الناس ولايطرق أبواب الملوك سعى إليه وسمع منه، وروى عنه وتردد إليه، ولم يكن في عمره كتب بيده مافيه أذى مسلم، وماحضر بين يديه يتيم إلاّ وترحم على مخلفه وجبر قلبه، وأعطاه مايكفيه، فإن كان له كافل والاّ كفله وأعطاه مايكفيه، وإنه مات ولم تجب عليه الزكاة.

الخامس: في حسن عقيدته.

كان متوكلاً على الله في كل أمره ولايلتفت إلى قول منجم، وكان حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى، وكان قد قرأ عقيدة القطب النيسابوري، وعلمها أولاده الصغار لترسخ في أذهانهم من الصغر، وكان يأخذها عليهم.

وقال ابن كثير: وكان القطب النيسابوري جمع هذه العقيدة لأجله، وكان يحفظها ويحفظها من عقل من أولاده، وكان يحب سماع القرآن العظيم، ويواظب على سماع الحديث، حتى أنه سمع في بعض مصافه جزءاً و هو بين الصفين، وكان يتبجح بذلك، ويقول: هذا موقف لم يسمع به أحدا حديثاً، وكان ذلك باشارة العماد، وكان رقيق القلب، سريع الدمعة عند سماع الحديث، كثير التعظيم لشعائر الدين.

وكان قد لجأ إلى ولده الظاهر وهو بحلب شاب يقال له السهروردي، وكان يعرف الكيمياء والسيمياء وشيئاً من الشعبذة والأبواب النيرنجيات، فافتتن به ولده وقربه وأحبه، وخالف فيه حملة الشرع، وبلغ ذلك أباه

السلطان، فكتب إليه أن يقتله لامحالة، فصلبه ولده عن أمر والده كما ذكرنا في سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

ومن شدة محبته لسماع الحديث مضى إلى الاسكندرية وسمع من الحافظ السلفي ومن ابن عوف الضياء، وكان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة.

وقال ابن كثير: وكان رحمه الله قرأ مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي (٣٠).

السادس: في حلمه وأخلاقه الحسنة.

وكان حليما كثيراً يعفو عن أصحاب الذنوب، حسن الخلق صبوراً على مايكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم مايكره ولايعلمه بذلك ولايتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسر موزه فأخطأته ووصلت إلى السلطان ووقعت بالقرب منه فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها.

وقال القاضي شهاب الدين: نفرت بغلتي يوما من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت ركبته حتى أقلقته من الوجع، وهو يبتسم، وكذلك سرق من خزانته كيسان من الذهب المصري وأبدلا بكيسين من الفلوس فلم يعمل للمباشرين شيئا سوى صرفهم.

وقال القاضي بهاء الدين: كنت يوماً عند مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل رجل حسن الهيئة ومعه مكتوب حكمي وقال لي: ياأيها القاضي خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، فقال له القاضي: بأي سبب؟ قال: إن سنقر الخلاطي مملوكي ولم يزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي، فاستولى عليها السلطان، وأخرج

الكـلاسة التـي هي شمـالي جـامع دمشـق، ولهـا بابـان أحـدهما إلى الكلاسة، والآخر في زقاق غير نافذ، وهو مجاور المدرسة العزيزية.

قال ابـن خلكان رحمه اللـه: ولقد دخلت إلـى هذه القبة مـن الباب الذي فـي الكلاسـة، وقرأت عنده وتـرحمت عليـه، وأحضرني قيـم القبة ومتولي أمرها بقجة فيها ملبوس بـدنه، وكان في جملته قباء أصفر قصير ورأس كميه بأسود فتبركت به.

قـال ابن القادسـي: ودفن معـه سيفه، وقـال القاضـي الفاضل: هـذا يتؤكأ عليه في الجنة.

وقال السبط في المرآة: هذا وهم مـن ابن القادسي لأن سيفه بعث به ولده الأفضل إلى بغداد.

وقال ابن كثير: ثم إن الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت داراً لـرجـل صـالح، ونقلـه إليهـا يـوم عـاشـوراء سنـة اثنتين وتسعيـن وخمسمائة بعدمـا أدخله الجامع وصلى عليه صلاة ثـانية،وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً عظيمة.

الثالـث عشر: في مـدة سلطنته ، ومـدة عمره، وكان عمـره قريبـاً من سبع وخمسين سنة، وقـد ذكرنـا أن مولـده كان في سنـة اثنتين وثـلاثين وخمسمائة.

وفي تـاريـخ ابن العميـد:وكـان عمـره ستـاً وخمسين سنـة وشهـوراً، وكانـت مدة مملكته للـديار المصـرية نحو أربـع وعشرين سنـة وللشام قريباً من تسع عشرة سنة، قاله ابن كثير.

وفي تاريـخ ابن العميد: وكانت مملكتـه اثنتين وعشرين سنـة وسبعة

المكتوب فتفحصته فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي، وأنه اشتراه من فلان التاجر في الوقت الفلاني، ولم يزل على ملكه إلى أن شذّ عنه في سنة كذا. قلت له: فما أخرك إلى هذا الوقت؟ فقال: الحقوق لاتبطل بالتأخير، قال القاضي: فأعلمت السلطان فأحضره، واستوى معه في المجلس حتى ساواه، وادعى الرجل وأظهر كتابه، فقال السلطان: عندي من يشهد أن سنقر في هذا التاريخ كان ملكي بمصر وأني اشتريته مع ثمانية أنفس، ولم يزل في ملكي حتى أعتقته، ثم أحضر السلطان جماعة من أعيان الأمراء فشهدوا بذلك، فانكسر الرجل، فقلت للسلطان: يامولانا مافعل هذا إلا ليطلب صدقة السلطان فما يحسن أن يرجع خائب الأمل، فقال: هذا باب آخر، وأمر له بخلعة ونفقة جيدة وبغلة.

قال: وكان الحجاب يزدحمون على طراحته فجاء سنقر الخلاطي ومعه قصص، فقدم له قصة، وكان السلطان قد مدّ يده اليمنى على الأرض ليستريح فداسها سنقر الخلاطي، ولم يعلم، وقال له: علم عليها فلم يجبه، فكرر عليه القول، فقال له: ياطواشي أعلم بيدي أو برجلي؟ فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل وتعجب الحاضرون من هذا الحلم، ثم قال السلطان: هات القصة فعلم عليها، ومازال السلطان على هذه الأحوال دوماً حتى توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته ورضوانه.

وقدم إليه مملوك له قصة، فقال: أنا الساعة ضجر، فأخرها ساعة، فلم يؤخرها وقدمها إلى وجهه، فلما قرأ اسم صاحبها قال: أي والله رجل مستحق، قال: فوقع له، قال: ماثم دواة، ثم نظر فإذا الدواة بعيدة عنه، فامتد على يده اليسرى حتى أخذ الدواة ووقع له.

وقال القاضي: ولقد واجهه الجناح على يافا بالكلام القبيح فما قال له كلمة، واستدعاه فأيقن بالهلاك وارتقب الناس أن يضرب رقبته، فأطعمه فاكهة جاءته من دمشق، وسقاه ماء وثلجاً.

السابع: في شجاعته.

وكـان رحمه الله أشجع النـاس وأقواهـم بدنـاً وقلباً مـع ماكـان يعتري جسمه مـن الأمراض والأسقـام و لاسيما وهو مرابـط مصابـر مثاغـر عند عكا، فإنهم كـانوا كلما كثرت جموعهم وتـراكمت أمدادهم لايـزيده ذلك إلاّ قوة وشهامة، وقد بلغت جموعهم خمسمائة ألـف مقاتل، وكان جملة من قتـل منهم مـائة ألف مقـاتل، وكـان يوم المصـاف يدور على الأطـلاب، ويقول: وهل أنا إلاّ واحد منكم، وكـان في الشتاء يعطي العساكر دستوراً وهونازل على مرج عكا، ويقيم طول الشتاء في نفر يسير.

وفي المرآة: وكان شجـاعاً شهماً جـواداً مجاهداً في سبيـل الله، وأقام على عكا مجاهداً مرابطاً قريباً من أربع سنين.

الثامن: في كرمه وجوده.

وفي المرآة: كان يجود بـالمال قبل الوصول إليـه. ويحيل به، ومتـى عرف وصول حمل وقع عليـه بأضعافه ومـاخيب أحداً بالـرد، وإن لم يكن عنده شيء لطف به كـأنه غريم يستمهلـه، وكان مغرماً بـالانفاق في سبيل الله، ووهب مدة مقامـه على عكا مرابطاً للفرنج، مـن رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة إلى يوم انفصاله عنهـا في شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة مدة ثـلاث سنين وكسر، فكـان اثنـي عشر ألــف رأس مـن الخيـل العـراب والأكاديـش الجياد للحاضرين معـه في الجهاد والقادمين عليه مـن البلاد غير ماأطلقه من الأموال في أثامن الخيل المصابة في القتال.

قال العماد: ولم يكن لـه فرس يركبه إلاّ وهو موهـوب، ولاجاءه قود إلاّ وهو مطلوب، ولارد سائلاً بلا، ولاأخجل ماثلاً، ولاخيب آملاً.

قال: وشكا إليه أيوب بن كنعان ديناً مبلغه اثنا عشر ألف دينار فقضاه عنه.

قال: وكتب إليه سيف الدولة ابن منقذ نائبه بمصر أن بعض الضمّان انكسر عليه مال كثير، وربما وصل إلى الباب وتمحل، فلما كان بعد أيام وصل ذلك الرجل إلى الباب وتمحل وبلغ السلطان، فأرسل إليه يقول: احذر احذر أن تقع في عين ابن منقذ.

قال: وفتح آمد ووهبها لابن قرا أرسلان، واجتمع عنده وفود بالقدس، ولم يكن عنده مال فباع ضيعة من بيت المال، وفرق ثمنها فيهم، وأنه رحمه الله لم يخلف في خزانته إلاّ سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً صورياً، ولم يخلف عقار، ولابستاناً ولاقرية ولاشيئاً من الأملاك، وحوسب صاحب ديوانه فخرج عليه تسعون ألف دينار باقراره، وماطلبها ولاأراه أنه عرفها، ولم يرض له بعد هذا بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

وكان إذا فتح بلداً أو أخذ اقليماً وهبه لبعض أقاربه وأمرائه وأتباعه.

التاسع: في معروفه.

قال ابن خلكان: ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإن الدولة كان مذهبها الامامية، فلم يكونوا بهذه الأشياء، فعمر بالقرافة الصغيرة المدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي رحمه الله، وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين رضي الله عنه، وجعل عليه وقفاً كثيراً طائلاً، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظافر العبيدي والعادل بن السلار مدرسة للحنفية وعليها وقف جيد أيضاً، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار جعلها وقفاً على الشافعية، ووقفها جيد أيضاً، وبنى بالقاهرة داخل

القصر مارستاناً وله وقف جيد، وله بالقدس أيضاً مدرسة وقفها كثير، وخانقاه بها أيضاً، وله بمصر مدرسة للمالكية.

وقد أفكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوب إليه في الظاهر، فإن المدرسة التي في القرافة مايسميها الناس إلاّ للشافعي رحمه الله، والمجاورة للمشهد لايقولون إلاّ للمشهد، والخانقاه التي بالقاهرة لايقولون إلاّ خانقاه سعيد السعداء، والمدرسة التي للحنفية لايقولون إلا مدرسة السيوفية، والتي بمصر لايقولون إلاّ مدرسة زين التجار، والتي بمصر أيضاً مدرسة المالكية، وهذه صدقة السرعلى مذهب الحنفية، والعجب أنه له بدمشق في جوار المارستان النوري مدرسة يقال لها الصلاحية، فهي منسوبة إليه، وليس لها وقف، وله بها مدرسة أيضاً للمالكية ولاتعرف به، وهذه النعم من ألطاف الله تعالى.

العاشر: في فتوحاته وهي على أنواع:

الأول: في البلاد الاسلامية وهي: الديار المصرية والحجاز ومكة والمدينة واليمن من زبيد إلى حضرموت متصلاً بالهند، ودمشق وبعلبك، وحمص، وحماه، وحلب، وأعمال هذه البلاد.

الثاني: في البلاد الاسلامية الفراتية وهي: حران، والرها، الرقة، ورأس العين، وسنجار ونصيبين، وجملين، وسروج، وديار بكر، وميافارقين، وآمد وحصونها، وشهرزور، والبوازيج، وخطب له على المنابر من باب همذان إلى الفرات، ومن الفرات إلى حضرموت، ومن الغرب إلى إفريقية.

وفي المرآة: أول مافتح الديار المصرية.

الثالـث: في البلاد التـي أخذهـا من الأفـرنج وغيرهـم وهي: طبريـة، وعكـا، أما طبريـة فهي على نهر الأردن فتحهـا بـالسيف وأمـا عكا فهـي مـدينـة على البحـر الملـح فتحهـا بـالصلـح والـزيـب ومعليـا (٣١)، واسكنـدرونة بين صـور وعكا، وقلعـة أبي الحسن بـأرض صيدا، وحصـن يحمـور بالأمـان، وتبنين بجبل عـاملة بـالتسليـم، وهونين غـربي بانيـاس بـالأمان، والنـاصرة التـي ينسب إليهـا النصـارى، والغـور قبلي صفوريـة بـالتسليـم، والصفـوريـة غـربي طبريـة بـالسيـف والفـولـة قبلي النـاصرة بـالتسليـم، وجينين قبلي عفـربـلا بـالتسليـم، وزرعين ودبـوريـة متـاخمة صفـورية بـالسيـف، وعفر بلا قبلي الطـور بـالتسليـم، وبيسان والغـور، وسبسطية من عمـل نابلس بالتسليـم، ونابلس مدينـة مشهورة، واللجون وريحا وسنجل والبيرة بـأرض القدس، ويافا بـالسيف، وأرسوف بـالأمان، وقيسـاريـة بالسيـف وحيفـا وصرفنـد بأرض بيروت، وصيـدا على البحـر، وقلعـة أبي الحسـن بـأرض صيـدا، وجبـل الجليـل، وبيروت على البحـر وجبيـل، ومجدل يـابـا بـأرض الـرملـة، ومجدل جـاب، والـداروم، وغـزة وعسقلان بـالأمان، وتل الصـافية، والبرج الأحمر بسـاحل عكا بـالسيف، وحصـن النطرون غـربي القدس بـالأمـان، وبيت جبريـل بأرض الخليـل بالتسليم، وجبل الخليـل بالأمان، وبيت لحم مولد المسيـح عليه السلام، واللدّ بـأرض الرملـة بالسيـف، والرملـة بالسيـف، وقلعة السلـع والوفيرة وقلعة الجمـع وقلعة الطفيلة، وقلعـة القريـن. جميع ذلك في وادي مـوسى عليـه السلام، وقلعـة الكرك بعـد حصار سنـة ونصف، وقلعـة الشوبـك بـالأمان، وقلعـة صفـد بعد حصـار مـدة، وحصن يـازور غـربي الرملـة بالتسليم، وحصن عفرى شمالي القدس بـالأمان، وحصن العازرية شرقي القدس بالتسليـم، وحصن قرية يـابا بأرض قلنسوة شمالي لـدّ بغير قتال، وحصن قـاقون بغير قتال، وحصن قيمـون شرقي حيفا بالسيـف، وحصن يبنى قريـب الرملة بالأمان، وحصـن يازور غربي الرملة بـالتسليم، وقلعة الفولـة قبلي الناصرة بالتسليم، وشقيـف بالأمان وحصن جلـدك، وحصن بلنيـاس بين جبلـة والمرقـب، وحصـن صهيون وريفـة بـالسيـف، وقلعـة

بلاطنس من عمل صهيون، وحصـن الجماهرية شمالي صهيون، وقلعة عيد غربي جبل البرزين، وقلعة بكاس وقلعـة الشغر من أنطاكية وبكسرائيل، وقلعـة المروانيـة، وقلعة البـزريـن ودربساك وبغـراس، وحصن الـدامـور وأنطرسـوس، وجبلة، واللاذقيـة بالسيف، وقلعـة برزية والبيـت المقدس، وغير ذلك من القرى والمعاقل التي لم تذكر.

وفي المرآة: ويقـال إنه فتـح ستين حصنـاً وزاد على نـور الديـن: مصر والحجـاز والمغرب واليمـن والقدس والسـاحل وبـلاد الفرنـج وديارهـم، ولوعـاش لفتح الدنيـا شرقاً وغرباً وبعـداً وقرباً، وإن كـان مبدأ فتوحـاته بمصر بهمة نور الدين وأمواله وعسـاكره ورجاله، وبينهما مقاربة في السيرة والعدل والأيام، واجتناب الآثام، وكلاهما لم يبلغ ستين سنة، والله أعلم.

الحادي عشر: في مرضه.

استهلـت هذه السنـة، وهـو في غايـة الصحة والسـلامـة، وخرج هـو وأخوه الملك العادل أبو بكر إلى الصيـد في شرقي دمشق،ولقداتفق الحال بينه وبين أخيـه أنه بعـدما يفرغ مـن أمر الفـرنج هـذه المدة يسير هو إلى بلاد الروم، ويبعـث أ خاه العادل إلى خلاط، فـإذا فرغا من شـأنهما سارا جميعاً إلى أذربيجان وبلاد ا لعجم.

ولما قدم الحجيـج من الحجاز الشريـف يوم الاثنين حـادي عشر صفر خـرج لتلقيهم، وقـدم معهـم ولد أخيـه سيف الاسـلام صـاحب اليمـن فأكـرمه واحترمه، وعـاد إلى القلعة فدخلها مـن باب الحديد، فكـان ذلك آخر ماركب في هـذه الدنيا، وذلك أنه اعتراه حمى صفراويـة ليلة السبت السادس عشر مـن صفر، فلما أصبح دخل عليـه القاضي الفاضـل وابن شداد وابنه الأفضل، فأ خذ يشكو إليهـم قلقه البارحة، وأ طال الحديث، وطال مجلسهم عنده، ثم تزايـد به المرض واستمر، وفصده الأطباء في اليوم

الرابع فاعتراه يبس، وحصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض، فقوي اليبس أيضا، فأحضر الأمراء والأكابر والرؤساء، فبويع لولده الأفضل نور الدين علي نائباً على ملك دمشق، وكان الذين يدخلون عليه في هذه الحال القاضي الفاضل وابن شداد، وقاضي البلد ابن الزكي، وتفاقم به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر، واستدعى الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة إذا جدّ جديد بالأمر، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو في الغمرات، فقرأ:(هوالله الذي لاإله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة) (الحشر٢٢) فقال: هو كذلك صحيح، فلما أذن للصبح جاء القاضي الفاضل يدخل عليه وهو بآخر رمق، فلما قرأ القارىء:(لاإله إلاّ هو عليه توكلت) (التوبة١٢٩) تبسم وتهلل وجهه إلى رحمة الله تعالى.

وقال العماد: وجلس السلطان ليلة السبت السادس من صفر في مجلس عادته ومحل سعادته ونحن عنده في أتم انبساط، وأتم نشاط، حتى مضى من الليل ثلثه، وهو يحدثنا ونحن نحدثه، ثم صلى به وبنا إمامه، وحال قيامه انفصلنا بإحسانه مغتبطين وبإنسانه مرتبطين، وأصبحنا يوم السبت وجلسنا في الايوان ننتظر خروجه لوضع الخوان، فخرج بعض الخدم، وأمر الملك الأفضل أن يجلس موضعه على الطعام، فجاء وتربع في دسته، وجلس بسيمته وسمته، وتطيرنا بتلك الحال، وتفللنا بحد ذلك الفال، ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في الزيادة، وتوفي إلى رحمة الله تعالى.

وقال النويزي: خرج السلطان إلى شرقي دمشق متصيداً، فغاب خمسة عشر يوما وصحبته أخوه الملك العادل، ثم عاد إلى دمشق، وودعه أخوه العادل وداعاً لالقاء بعده، ومضى إلى الكرك، وأقام السلطان بدمشق، ثم ركب يوم الجمعة الخامس عشر صفر، ولقي الحجاج وبكى كيف فاته الحج معهم، ثم عاد إلى القلعة فلحقه تلك الليلة كسل عظيم وغشيته

حمى وأخذ المرض في التـزايد، ثـم حدث بـه رعشة وغـاب ذهنه، واشتـد الارجاف بموته، وحزن أهل دمشق حزنا عظيماً لذلك.

وقال القاضي بهاء الدين: لما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده، فسألني عمن في الايوان، فقلـت: الملك الأفضل جالس في الخدمـة والأمراء والنـاس في خدمتـه، فاعتـذر إليهم على لسـان جمال الدولة إقبال.

ولما كان بكـرة يوم الخميـس استحضرني فحضرت عنده وهـو في صفة البستان وعنـده أولاده الصغار وقال لي: أكلت شيئـاً اليوم؟وكانت عـادته المباسطة، ثم قال: أحضروا لنا مايتيسر، فأحضروا رزاً بلبن ومايشبه ذلك، فأكل ومـاكنت أظن أن عنده شهوة لأن بـدنه كان ملتاثاً ممتلئـاً فلما فرغنا قال: ماالـذي عندك من خبر الحاج؟ فقلت: قد اجتمعـت بجماعة منهم في الطريـق، ولولا كثـرة الوحـل لدخلـوا اليوم، ولكنهـم في غد يـدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم فقمـت من عنده ولم أجد من النشاط ماأعرفه منه، ثـم بكر يوم الجمعة فركب للقاء الحجاج، وكـان فيهم سابق الـدين اليـاروقـي، وكان كبير الاحترام للمشـايخ، ثـم لحقـه ولده الملـك الأفضل، ثم رجع إلى القلعة وكان آخر ركوبه.

ولما كـانت ليلـة السبـت وجد كسـلاً عظيماً،فلما انتصـف الليل حـى غشيته حمى صفـراوية، وأصبـح في يوم السبـت السادس عشر مـن صفر وعليه أثر الحمى، ولم يظهـر ذلك للناس، فدخلت أنا والقـاضي الفاضل وولده الأفضل عنده، وطـال الحديث بيننا، وأخذ يشكو من قلقـه بالليل، وطـاب له الحديـث إلى قريـب الظهر، ثـم انصرفنا والقلـوب عنده، ومـد الطعام في الايوان وجلـس الأفضل في موضعه خـالياً وولده فيه، ثـم أخذ مـرضه يتـزايد ونحـن نلازم التردد في طـرفي النهار، وأدخـل أنا والقـاضي الفاضل في النهار مـراراً، وكان طبيبه الذي ألف مزاجـه غائباً، وحضرت

الأطبـاء ففصدوه فـاشتـد مرضـه وقلـت رطوبـات بـدنه، ولم يـزل المرض يتزايد، فـاشتد في السادس والسابع والثـامن، ولما كان التاسع حـدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب، واشتد الـرجيف في البلد وخاف الناس، ونقلـوا الأقمشـة مـن الأسـواق، وغشي النـاس مـن الكـآبـة والحزن مالايـوصف، ولما كـان العاشر مـن مرضـه حقن دفعتين وتنـاول من مـاء الشعير مقـداراً صالحاً، وفـرح النـاس فرحـاً شـديـداً، وأقمنا على العـادة نتردد، ثم أ صبحنا في الحادي عشر من مرضه وهـو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا الباب، وسألنـا عن حاله، فأخبر جمال الدولة اقبال أنه عرق حتى نفذ عـرقه إلى الفراش، ثم إلى الحصر ثم إلى الأرض، وأن اليبس قد تـزايد تزايداً عظيماً وضعفت قوتـه، ولما رأى ولده الأفضل مـاحـل به وتحقـق اليـأس منـه شرع في تحليف النـاس، فجلـس في دار رضـوان المعروفـة بسكنـه واستحضر القضـاة فعملوا نسخـة يمين مختصرة تتضمن الحلف للسلطـان مدة حياته، ثم لـلأفضل بعد وفاتـه، فأول من استحضر للحلف سعـد الدين مسعود الشحنـة أخو بدر الديـن مودود، ثم ناصر الـدين صاحب صهيون فحلف وزاد أن الحصـن الذي في يده له، ثم سابق الدين صاحب شيـزر فحلف ولم يذكر الطلاق، واعتذر بأنه مـاحلـف بـه، ثـم خشترين الهكـاري، ثـم أنـوشروان الـزرزاري فحلـف واشترط أن يكـون له خبـز يرضيـه، ثم حلـف علكان ومنكـلان، ثم مـد الخوان فأنهوا.

ولما كـان العصر أعيـد مجلس التخليف فـأحضر ميمـون القصري، وشمس الـدين سنقر الكبيـر، وقالا: نحـن نحلف بشرط أن لانسـل سيفاً في وجه أحـد من أخوتك، وحضر سـامة وقال: ليس لـي خبز فعلى أي شيء أحلف، فروجع فحلف بشرط أن يعطى خبـزاً يرضيه، وحضر سنقر المشطوب وأيبك الفـارس وأيبك الأفطس ولم يحلف بالطـلاق، وحضر سيـاروخ وحلف واشتـرط رضاه، وحضـر حسـام الـدين بشـارة وحلف،

وكان مقدماً على هؤلاء، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين، ونسخة اليمين:

« إنني من وقتي هذا قد أصفيت نيتي، وأخلصت طويتي للملك الناصر مدة حياته، وإني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، ممتثلاً أمره، واقفاً عند مراضيه، ثم من بعده لولده الملك الأفضل علي، ووالله انني في طاعته، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي وأمتثل أمره ونهيه، وباطني وظاهري في ذلك سواء، والله على ما أقول وكيل».

ثم لما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر، وهي ليلة الثاني عشر من مرضه، اشتد مرضه وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل وابن الزكي في تلك الليلة، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده ، فلم ير الفاضل ذلك، وقال: المصلحة نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة، فإنه رجل صالح يبيت بالقلعة حتى إذا استحضر السلطان بالليل يحضر عنده ويحول بينه وبين النساء، ويذكره بالشهادة، ففعلوا ذلك، وكان ذهن السلطان غائباً من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلاّ في الأحيان، وبات في تلك الليلة على الانتقال والشيخ أبو جعفر عنده يقرأ القرآن ويذكره بالله إلى أن توفي رحمه الله.

الثاني عشر: في تاريخ وفاته.

قال القاضي بهاء الدين: كانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفي تاريخ بيبرس: وقيل توفي في الخامس والعشرين من صفر.

وفي المـرآة وكـانت وفـاته يـوم الأربعـاء بعـد صلاة الفجـر السـابع والعشرين من صفر.

وفي تـاريخ ابن العميد: وكـانت وفاته بكـرة يوم الأربعاء لثـلاث بقي من صفر، وكلام الكل قريب بعضه من بعض.

وفي المـرآة: وغسله الخطيب الـدولعي وصلى عليـه القاضـي محيي الدين بن الـزكي، وبعث له القاضي الفاضل الأكفـان والحنوط من أحل الجهات ، ودفن بدار البستان موضع جلوسه في قلعة دمشق.

وقال ابن خلكـان: كان يوم موتـه يوماً لم يصـب الاسلام والمسلمين مثله منذ فقد الخلفـاء الراشدون، وغسله الدولعي، وهو ضيـاء الدين أبو القـاسم عبـد الملـك بن زيـد بن يـاسين بـن قـائد بن جميـل التغلبي الأرقمي الدولعـي الشافعي، خطيب جامـع دمشق، توفي في ثـاني عشر ربيع الأول مـن سنة ثمـان وتسعين وخمسمـائة، ودفن بمقـابر الشهـداء بباب الصغير.

قال: ثم أخرج تابوت السلطـان بعد صلاة الظهر مسجى بثوب فقط، فارتفعـت الأصوات عنـد مشاهـدته وعظم الضجيـج، وأخذ النـاس في البكـاء والعـويل، وصلـوا عليـه أرسـالاً، ثـم أعيـد إلى الـدار التـي في البستـان، وهي التي كـان متمرضـاً بها، ودفـن في الصفة الغـربية منهـا، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

ثم إنـه بقي مـدفونـاً بقلعـة دمشق إلى أن بنيـت له قبـة في شمـالي

وأربعين يـومـا، أولها يـوم الاثنين وآخـرها يـوم الأربعـاء تتمة خمسمـائة وثمـانين سنـة وسبعة وخمسيـن يومـاً للهجـرة ، ولتمـام ستة آلاف سنـة وستمائة وأربعة وثمانين سنة وستة أشهر وسبعة أيام للعالم شمسية.

الرابع عشر: فيما جرى يوم وفاته.

قـال ابـن كثيـر: وجلس الملـك الأفضـل للعـزاء في القلعـة وأرسـل الكتب بوفاة والـده إلى أخيه الملك العزيز عثمـان بمصر، وإلى الملك الظاهر غازي بحلـب، وإلى عمه الملك العادل بالكرك، وقـد ذكرنا أنه كان سافر إلى الكرك قبل موت أخيه السلطان لينظر في أمرها.

قال المؤيد في تاريخه: ولمـا نقل الأفضل والده السلطان من القلعة حين بنى لهتـربة مشى بينيدي تـابوته وأخرج من بـاب القلعة على دار الحديـث إلى باب البـريد، وأدخـل الجامع ووضـع قدام النسر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين، ثم دفن وجلس ابنه للعزاء ثلاثة أيـام في الجامع،وأنفقت ست الشام في هـذه النوبة أموالاً عظيمة.

وفي المـرآة : وكتب الفاضل إلـى الظاهر وهـو بحلب كتاب التعـزية يقول فيه: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ الآية: (الأحزاب ٢١) .

كتبت إلـى الملك الظـاهـر، أحسن اللـه عـزاءه في مصـابـه، وجعل الخلف فيـه لمماليـك المرحـوم وأصحابـه، كتبت والدمـوع قد حفـرت النواظر، والقلـوب قد بلغت الحناجر،وإني ودعت أبـاك مخدومي وداعاً لانلتقي بعـده، وأسلمتـه إلى اللـه طالبـاً فضله ورفـده، ولم يـدفع عنـه جنوده المجندة القضاء ، ولاردت عنه الأسلحـة والخزائن البلاء، فالعين

تدمع والقلب يخشع، ولا نقول ما يسخط الرب - وإنا عليك يايوسف لمحزونون».

وفي آخر الكتاب: « فإن اتفقتم فما عدمتم إلاّ شخصه الكريم، وإن اختلفتم فالمصائب المستقبلة هولها عظيم».

قال السبط في المرآة: وقد فات الفاضل شيئان: أحدهما عند قوله: ودعته وداعاً لانلتقي بعده، وكان الأولى أن يقول: إلى جنات النعيم، والثاني: عند قوله: وهولها عظيم، وكان ينبغي أن يقول: (ذلك تقدير العزيز العليم) (يس : ٣٨).

وفي المرآة: وكان أخوه العادل لما توفي السلطان بالكرك، فقدم دمشق معزياً للأفضل، فأقام أياماً، ثم رحل إلى الجزيرة التي أعطاها إياه السلطان، وهي: حران، والرها، وسميساط، والرقة، وقلعة جعبر، وميافارقين، وديار بكر، وكان له بالشام : الكرك ، والشوبك.

وبعث الأفضل القاضي ضياء الدين الشهرزوري رسولاً إلى الخليفة ومعه زردية السلطان، وسيفه، وحصانه،وكزاغنده، ودبوسه، وتحفاً كثيرة ، وعاب الناس عليه حيث بعث بعدة السلطان إلى بغداد، وكتب كتاباً فمنه :« أصدر العبد خدمته هذه، وصدره معمور عليه بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء»، وذكر كلاماً طويلاً.

وأما العادل فإن المشارقة ثاروا عليه، واستشاروا عز الدين صاحب الموصل، واستشار هو أصحابه، فأشار عليه المجد ابن الأثير بالخروج، وأشار عليه مجاهد الدين قيماز بالمقام لتظهر حقائق الأمور، وتراسل جيرانه: ابن زين الدين صاحب إربل، وسنجر شاه صاحب الجزيرة وعماد الدين صاحب سنجار، وخرج عز الدين من الموصل واجتمعا على حران، واستنجد العادل بأولاد أخيه فجاءته عساكر الشام

ومصر، ومرض عز الدين على نصيبين بالاسهال ، وترك العساكر مع أخيه عماد الدين ورجع إلى الموصل جريدة، فمات بها على ما نذكره عن قريب إن شاء الله تعالى.

ثم إن الملك العزيز قدم إلى الشام، وقدمت معه العساكر على الأفضل، وبعث إليه العادل: ارحل إلى مرج الصفر، فرحل وهو مريض، وكان قصد العادل أن يبعده عن البلد، لتصل العساكر، فوصل الظاهر من حلب، والمنصور من حماة، وشيركوه من حمص، والأمجد من بعلبك في نجدة الأفضل، فقال العادل: قد تقرر أنه يرجع إلى مصر، ويقع الاتفاق وتعود الأمور إلى ما كانت عليه.

واشتد مرض العزيز، ولولا مرضه لما صالح، فأرسل العزيز كبراء دولته: فخر الدين شركس وغيره فحلف الملوك، وطلب مصاهرة العادل فزوجه ابنته خاتون، ورجع كل واحد إلى بلده، وذلك في شعبان، وتمام هذه في السنة التالية انشاء الله تعالى.

قال العماد الكاتب: ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل في اللهو واللعب، واحتجب عن الرعية ، وانقطع إلى لذاته، وفوض الأمر إلى وزيره الجزري، وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي، فأفسدا عليه الأحوال، وكانا سببا لزوال دولته، واستبدلا بكبراء الأمراء الأجناد وأرذال الناس، ففسدت أمور العباد.

الخامس عشر: فيمن خلفه من الأولاد.

قال العماد الكاتب: خلف السلطان سبعة عشر ولداً ذكراً، وابنة صغيرة.

الأول: الملك الأفضل نور الدين علي، وهـو أكبرهم، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة ليلة عيد الفطر.

الثـاني: الملك العـزيز عمـاد الديـن عثمان، أبـو الفتح، ولد بمصـر أيضاً، في جمادى الأولى سنة سبع وستين.

الثالث: الملك الظافر أبو العباس مظفر الدين خضر، ولد بمصر في شعبان سنة ثمان وستين، وهو شقيق الأفضل.

قـال ابن خلكـان وكنيتـه أبـو الكـرام وأبو العبـاس الخضـر، ويقـال المشمـر لأن أباه لمـا قسم البـلاد بين أولاده الكبـار قـال: أنا مشمـر ، فغلب عليه هذا اللقب، وكان مولده فـي القاهرة في خامس شعبان سنة ثمان وستين وخمسمـائة، وتوفي في جمـادى الأولى سنة سبع وعشـرين وستمائة بحران عند ابن عمه الملك الأشرف بن الملك العادل.

الرابع: الملك الظاهر أبو منصور غيـاث الدين غازي، ولد بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين.

الخامس: الملك المعـز فتح الدين أبو يعقوب اسحق، ولـد بدمشق في ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة

السادس: الملك المؤيـد نجم الدين أبو الفتح مسعـود: ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين، وهو شقيق العزيز.

السابـع: الملك الأعز شـرف الدين أبـو يوسـف يعقوب، ولـد بمصر سنة اثنتين وسبعين، وهو شقيق العزيز أيضاً.

الثامن: الملك الزاهر محيي الديـن أبو سليمان داود، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين، وهو شقيق الظاهر.

التاسع : الملك المفضل قطب الدين مـوسى، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين، وهو شقيق الأفضل.

العاشر: الملـك الأشرف أبو عبد الله عـز الدين محمد، ولـد بالشام سنة خمس وسبعين.

الحادي عشر : الملك المحسن ظهير الـدين أبو العباس أحمد، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وهو شقيق الأشرف المذكور.

الثاني عشر: الملـك المعظم فخر الدين أبو منصور تـوران شاه، ولد بمصر في ربيع الأول سنـة سبع وسبعين، وتأخرت وفاته إلـى سنة ثمان وخمسين وستمائة، وهي السنـة التي أخرب فيها العدو من التتـار مدينة حلب وغيرها.

الثالـث عشر: الملك الجـواد ركن الـدين أبو سعيـد أيوب، ولـد في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين، وهو شقيق المعز .

الرابع عشر: الملـك الغالب نصير الدين أبو الفتـح ملكشاه، ولد في رجب سنة ثمان وسبعين ، وهو شقيق المعظم.

الخامس عشـر: الملك المنصور أبو بكـر أخو المعظم لأبويـه ، ولد بحران بعد وفاة السلطان.

السادس عشر: عماد الدين شادي لأم ولد.

السابع عشر: نصرة الدين مروان لأم ولد أيضاً.

وأما البنت مؤنسة خاتون، تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن درج في حياته، كالملك المنصور حسن، والأمير أحمد، وهو الذي رثاه العرقلة بقوله:

أي هلال كسفا ... وأي غصن قصفا

كان سراجاً قد طفا ... على الورى ثم انطفى

لم يركب الخيل ولم ... يقلدوه مرهفا

قل للنحاة: ويحكم ... أحمدكم قد صرفا

صبراً صلاح الدين يا ... رب السماح والوفا(٣٢)

السادس عشر: فيما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان.

ولما توفي السلطان رحمه الله استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها: ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية: الملك العزيز عثمان، وبحلب وبلادها: الملك الظاهر غازي، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية والفراتية: الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، أخو السلطان، وبحماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر، وببعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن

فرخشـاه بن شـاهناه بن أيـوب ، وبحمص والرحبـة وتدمـر: شيركـوه بن محمد بن شيـركوه بن شادي، وبيـد الملك خضر بن السلطـان صلاح الدين بصـرى، وهو في خدمـة اخيه الملك الافضل ، وبيد جمـاعة من امراء الـدولة بلاد وحصـون :منهم سابق الديـن عثمان بن الدايـة ، بيده شيـزر وأبوقبيس، ونـاصر الـدين منكـورس بن خمـارتكين بيده صهيـون وحصن برزية،وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر،وعز الدين سامـه بيده كوكب وعجلون ، وعزالدين ابـراهيم ابن شمس الدين ابن المقدم بيده بعرين وكفر طاب وأفامية.

والملـك الافضل هــو الأكبـر مـن أولاد السلطـان . والعهــود إليـه بالسلطنة ، واستوزر الملك الأفضل ضياء الـدين نصر الله بن محمد ابن الاثير، مصنف المثل السـائر ، وهو أخو عز الدين ابـن الأثير مؤلف التـاريخ المسمى بـالكامل ، فحسـن للملك الأفضل طـرد أمراء أبيـه ، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر.

ولما اجتمعت الأمراء بمصـر حسنوا للملك العزيز الانفـراد بالسلطنة ووقعـوا في أخيـه الأفضل ، فمـال إلى ذلـك ، وحصلت الـوحشـة بين الأخويـن الأفضل والعزيـز ، وكان اليمن بمعـاقله ومخـاليفه فـي قبضة السلطان ظهير الدين سيف الاسـلام طغتكين بن أيوب ، أخي السلطان صـلاح الـديـن ، ثم بعـد ذلـك شـرعت الأمـور تضطـرب وتختلـف ، وتفـاقمت الأحوال حتـى آل الأمر إلى مـاإليـه آل ، واستقرت الممـالك واجتمعت المحـافل علـى أخي السلطان صـلاح الـدين ، وهـو الملك العادل ، وصارت الممـالك في أولاده الا ماجد الأفاضل كمـا سنوضحه ان شاء الله تعالى.

السابع عشر : في مراثي السلطان صلاح الدين .

وقد عمل فيه الشعراء المراثي الكثيرة ، من أحسنها ماعمل فيه العماد الكاتب في آخر كتاب البرق الشامي ، وهي مائتان وثلاثون بيتاً وقد سردها الشيخ شهاب الدين في الروضتين...

الثامن عشر : في مدائحه

وقد مدحه جماعة من الشعراء منهم : ابن قلاقس ، وابن الذروي ، وابن المنجم ، وابن سناء الملك ، وابن الشاتاني ، والبحراني الإربلي ، وابن دهن الخصا الموصلي ، ومحمد بن اسماعيل بن حمدان وغيرهم ، ومدحه العماد الكاتب في غالب أحواله من غزواته وفتوحاته وغير ذلك ، ومدحه في فتح القدس بقصيدة هائية ذكرناها في موضعها ومدحه القاضي رشيد الدين بن النابلسي بقصيدة انشده اياها بمرج عكا....

التاسع عشر : في قضاته ووزرائه وكتابه .

وأما قضاته: كمال الدين بن الشهرزوري ، وشرف الدين بن أبي عصرون ، وولده أبو حامد ، ومحيي الدين بن زين الدين ، وهؤلاء كانوا في الشام وحلب ، وأما قضائه في مصر ، فكان القاضي جلال الدين ابو قاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم الصوري وكان قدم من الشرق ، فولاه السلطان صلاح الدين ، وكان عنده بمكانة، وصرف بعد وفاة صلاح الدين ، وولي مكانه القاضي زين الدين علي بن سعيد الدمشقي في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة.

وأما وزيره فكان صفي الدين بن القابض.

وأما كاتبه فكان القاضي الفاضل ، العماد الكاتب ، وكان الفاضل

حاكماً على الجميع وهو المشار إليه بالسيف والقلم ، لايصدر السلطان إلا عن رأيه ، ولايمضي في الأمور بمر إلا بمراجعته

قال ابن خلكان : كان القاضي الفاضل تعلق بالخدم في ثغر الاسكندرية ، واقام به مدة ، ثم آل أمره إلى أن وزر للسلطان صلاح الدين ، وترقى في منزلته عنده على مانذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى.

العشرون :في ذكر من كان في البلاد ولاة الأمور في سنة وفاته

كان في دمشق الملك الأفضل ، وكان في حلب الملك الظاهر ، وكان في مصر الملك العزيز ، كل هؤلاء أولاد السلطان صلاح الدين رحمه الله ، وكان في القدس عز الدين جرديك النوري ، ولما بلغ العزيز وفاة والده صلاح الدين أرسل عشرة آلاف دينار إلى القدس الشريف لتنفق في العسكر المقيم به، فخطب له عز الدين جرديك بالقدس ، وخشي من نقض الهدنة بينه وبين الأفرنج فأرسل إلى القدس عسكراً احترازاً من الأفرنج ، وكان في الروم ركن الدين سليمان ابن عز الدين قليج رسلان السلجوقي ،وكان في الموصل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر ، وكان في أخلاط وماوالاها بكتمر ، وكان في مرو وغيرها سلطان شاه، وكان في همذان وغيرها السلطان طغرل شاه السلجوقي ، وكان في غزنة وماوالاها شهاب الدين الغوري، وكان في بلاد سمرقند وغيرها خوارزم شاه، وكان في اليمن سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ، وكان في مكة الأميرداود، وكان في بلاد المغرب يعقوب بن عبد المؤمن رحمهم الله، وهذا آخر ماانتهينا من ترجمة السلطان صلاح الدين رحمه الله.

الحواشي

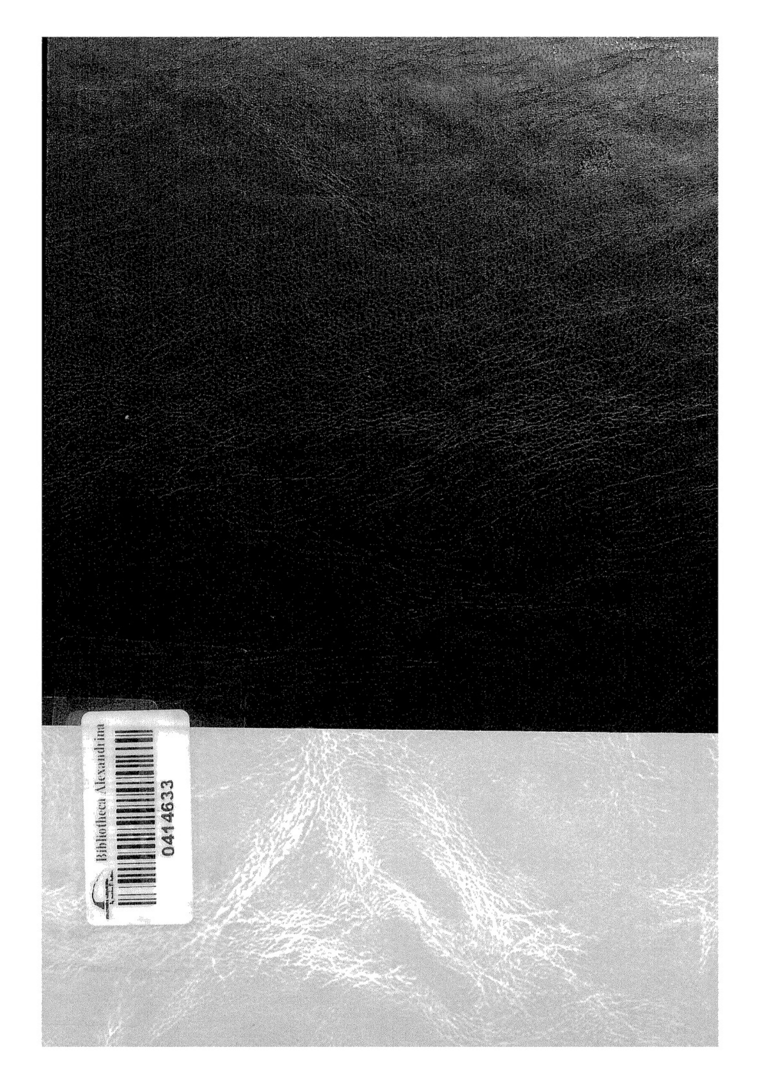
١- الحديث هنا عن سقوط طرابلس الغرب لاطرابلس الشام التي احتلها الفرنجة سنة ٥٠٢ هـ/
٢- سلف الحديث في الجزء الاول من المدخل حول قيام الاسرة المنقذية ، وأنهم ملكوا شيزر في أواخر عصر المرداسيين.
٣- ابو الفداء صاحب حماه ومصنف كتاب المختصر في أخبار البشر ويبدو أنه قد فاته أن بلدة شيزر سقطت مع انطاكية وجزء كبير من ساحل الشام للبيزنطيين منذ أيام سيف الدولة الحمداني .
٤ يبدو أن مصدر العمري هنا كتاب المفيد في أخبار صنعاء وزبيد للشاعر عمارة اليمني ، انظر ص ٢٢٩ - ٢٣٧ ط. اليمن ١٩٧٩.
٥- الشاذياخ مدينة نيسابور نفسها . معجم البلدان، ولمزيد من التفاصيل حول حوادث نيسابور انظر الكامل لابن الاثير ط. القاهرة- مطبعة الاستقامة ج٩ ص ٥٩ - ٦٠.
٦- كذا ولا أدري من أين جاء بالنسب الصنهاجي الى أئمة الاسماعيلية في ألموت؟
٧- سورة البقرة -الآية . ٢١٦.
٨- سورة النساء -الآية: ١٢
٩- ديوان العرقلة ص ٥٢
١٠- سورة الانعام - الآية : ٤٤
١١- الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٤٢
١٢- الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٩٢- ١٩٥
١٣- الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٢١٨
١٤- في المصادر الأخرى المتقدمة: سمى نفسه السلطان الناصر

١٥- مصدر العمري هنا الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٢٣١
١٦- نسبت هذه الجماعة الى محمد بن كرام السجزي [ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م] وكان يقول إن الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهر الاعلام للزركلي.
١٧ سورة آل عمران - الآية :٥٣
١٨- الكامل لابن الأثير ج٩ ص ٢٤٩.

١٩- سورة الحجرات - الآية : ٢٠
٢٠- سورة الفرقان - الآية : ٦٣
٢١- سورة البقرة الآية : ٢٧٥
٢٢- أي قليل الماء.
٢٣- هذا وهم فالفرنجة لم يستطيعوا قط قهر مدينة حلب .
٢٤- سورة الزلزلة - الآتيان: ٧-٨
٢٥- سورة يوسف - الآية :٢٣٩٢--سو رة التوبة - الآية : ١١١
٢٣- ديوان عرقلة الكلبي ص ٨٧
٢٤- عفيف بن المبارك بن الحسين - انظر مرآة الزمان ج١ ص ٢٣٥
٢٥- سورة الرعد - الآية : ١١
٢٦- سورة البقرة - الآية : ٢١٦
٢٧- سورة النساء - الآية : ١٢

٢٨- سورة النحل - الآية : ٩١
٢٩- سورة القصص -الآية :٨٣
٣٠- سورة يوسف الآية : ٧٧
٣١- زيد ما بين الحاصرتين من الروضتين.
٣٢- البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٣
٣٣- انظر البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٢
٣٤- زيد مابين الحاصرتين من الروضتين
٣٥- زيد ما بين الحاصرتين من الروضتين
٣٦- سورة التوبة - الآية : ٣٢
٣٧- هما الآن: ازرع والشيخ مسكين ، في حوران سورية ، الشيخ مسكين على الطريق الدولي من دمشق الى درعا، وازرع الى الشرق منها على مسافة قصيرة.
٣٨- سورة المدثر - الآيتان : ٥٠-٥١
٣٩- سورة التوبة - الآية : ٣٢

المحتوى


Bibliotheca Alexandrina
0414633